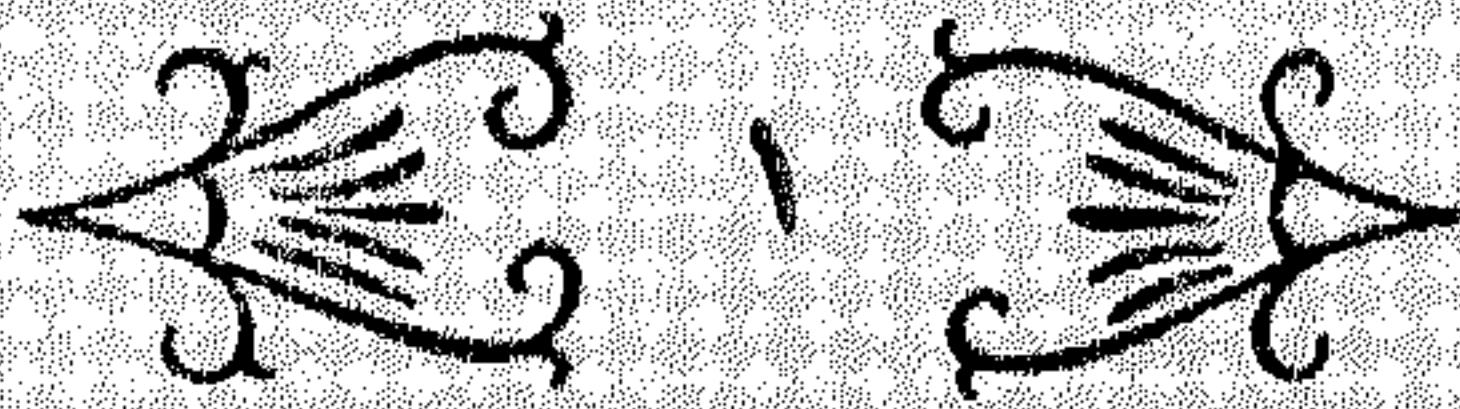


مجمع بيت المنعم خفاجي

عَسَى الْقُرْآنُ كَرِيمٌ

رابطة إرهاب الحديث



النجاح



مكتبة

AL-NAJAH

BOOKSHOP

Al-Najaf al-Ashraf - Irak - C.A. - Kashmiry

مطبعة النجاشي - العراق - كربلاء - المكتبة

0197945



Bibliotheca Alexandrina

محمد عبد المنعم خفاجي

فقه القرآن الكريم

أحدث التفاسير، وأجمعها للفكرة الإسلامية،
ولفهم العصر الحاضر لكتاب الله

(١)

الطبعة الأولى

حقوق الطبع محفوظة

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - تيلون : ٥٠٨٥٢

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
أَلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ○ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ○
مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ○ إِيَّاكَ تَعَبَّدُ وَإِيَّاكَ
نَسْتَعِينُ ○ إِهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ○
صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ
عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ○

مقدمة

(١)

يحاول لكثير من المؤلفين أن يشغلوا وقت الناس بالتأفة من القول ،
والمعاد المكرور من الأحاديث ، وخاصة إذا تناولوا كتاب الله العزيز
بالشرح والتفسير .

فلا زالت هناك طائفة تتعمق في عرض الوجوه العديدة لإعراب الآيات ،
وأخرى تتعرض لمشكلات المجاز والاستعارة والكناية في القرآن الكريم ،
وثالثة تعرض اصطلاحات العلوم كلها من خلال التفسير ، فإذا جاءت مشكلة
نحوية أفاضت في مسائل النحو وأصوله ، وإذا ظهرت مشكلة بلاغية أطنبت
في شرح قواعد البلاغة ومسائلهما ، وإذا رأت أن الآية تفهم قياساً أو حداً
أو قضية استعرضت مسائل المنطق ، وهكذا عندما تلوح مسائل الكلام والفلسفة
وآراء الفرق وأحكام التشريع وسائر مشكلات الفنون والعلوم ، كأن تفسير
القرآن عند هذه الطائفة لا بد أن يكون معرضاً لسائر المعارف العقلية واللغوية .
ويتناسى هؤلاء وهؤلاء مشكلات المجتمع البشري وقضايا التطور الإنساني ،
واصطراع المذاهب والأفكار والآراء قديمها وحديثها جميعاً ، فلا يتعرضون
لشيء من ذلك إذا فسروا كتاب الله الحكيم ، وتناولوه بالشرح والتحليل .

إنهم ينظرون إلى القرآن نظرة القدماء له ، أما أن ينظروا إليه نظرة
جديدة ، على أنه دستور كامل للحياة الإنسانية في عهد الحضارة الكونية
المعاصرة فلا ، إنهم لا يطبقون آيات القرآن الكريم على ما جد في عصرنا
من مشكلات الاجتماع والسياسة والاقتصاد والفكر ، ولا يحاولون أن
يربطوا بين القرآن الكريم والعقل البشري المتطور مع ثقافات القرن العشرين .
كأن القرآن في رأيهم لا يعدو أن يكون كتاباً إلهياً أمرنا بالتعبد بتلاوته
فحسب ، أما أن يكون كتاب الإنسانية ودستور العالم في عصر العلم ، ومرجع

المفكرين إذا ما حزبهم الأمر وأشكل عليهم الصواب ، فلا .. إنهم يعدون القرآن عن الحياة ، ويطبقونه على مسائل العلوم القديمة وحدها ، لا على مسائل الحياة المتجددة المتطورة المسيرة لركب التقدم العلمى الجبار الذى شاهدناه فى عصر الذرة .

إن عظمة القرآن وإعجازه وجلاله ، تبدو واضحة كل الوضوح فى سبقه إلى الكثير من المعارف الانسانية التى لم يصل العلم إليها إلا بعد قرون وأجيال من نزول القرآن الكريم ، وفى أنه وضع أصول التفكير الصحيح ، ونشر الوعى العلمى ، وبث روح الحضارة فى عقول المؤمنين به والموقنين برسالة نبي الإسلام محمد عليه الصلاة والسلام ، وتظهر كذلك فى أنه مهد لعصر المدنية تمهيداً قوياً جباراً ، بما اشتمل عليه من تشريعات تعدد قمة سامقة فى التشريع المسير لروح التقدم والحضارة والمدنية المهدبة الخالية من بذور الحقد والكراهية والتعصب والجمود والرجعية .

إن القرآن الكريم ليروعنا بإعجازه العقلى أكثر مما يروعنا بإعجازه البيانى ، ونحن عندما نتأمل فى آيات كتاب الله تأملاً عميقاً نعجب أشد العجب لهذه العظمة الكاملة التى وصل إليها القرآن ، بما اشتمل عليه من تصوير دقيق لخطرات النفوس ، ونوازع الأفتدة ، ولنفسيات الطبقات والطوائف والجماعات والأفراد ، وبما تضمنه من روائع الأصول لحضارة إنسانية مثالية كريمة على نفسها وعلى الناس ، وبما احتواه من تفصيل لماضى الحياة وحاضرها ومستقبلها . فالإنسان ليس وحده على ظهر الأرض ، بل معه عون الله ورعايته ، ومعها ماضٍ طويل من الكفاح والجهاد من أجل مستقبل البشر وخيرهم وسعادتهم ، ومعها الطموح الإنسانى لبلوغ مستقبل عظيم ترنو إليه نفوس الأختيار الأبرار الأحرار فى هذه الحياة وبعد هذه الحياة .

إن القرآن الكريم سجل حافل لتطور الأمم فى مدارج المدنية ، ولمصائر الأمم والشعوب ونتائج سياستها وسلوكها ، وللعقل وتطور تفكيره منذ خلق الله آدم على ظهر الأرض حتى اليوم . إنه كتاب الله الخالد العظيم الذى

لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تدريل من الله الرحمن الرحيم .
فأجدر بنا ونحن نتناول كتاب الله العزيز بالتفسير أن نتعرض لكل ما فيه
من شئون الاجتماع والمدنية والثقافة والتطور ، بما يلائم حياتنا الحاضرة ،
وتفكيرنا المعاصر ، لناخذ مما احتوى عليه أصولا لقواعد سلوكنا ، ومناهج
تفكيرنا ، ولنسترشد به في بناء الأمة وطريق الوصول بها إلى جادة الخير
والسداد والسلام ، وكيف نبني منها أمة عزيزة قوية مرهوبة الجانب .
وإن القرآن الكريم - مع ذلك كله - ليمدنا في كل وقت بالقوة الروحية
والمعنوية التي تنفخنا دائماً بالعزم والتصميم وحب الكفاح من أجل التقدم
والفوز برضاء الله ومحبه .

ومن ثم فقد لاحظت كل هذه الاعتبارات وأنا أكتب هذا التفسير ،
وجعلته مبرأ من مشكلات النحو والبلاغة والكلام والمنطق والفلسفة ، بل
وقفا على شرح كتاب الله وما تضمنه من أصول وقواعد ، في اتباعها الفوز
والفلاح في الدنيا والآخرة ، وفي البعد عنها الهلاك والبوار والعذاب الدائم
والخزي المقيم .

(٢)

وهذا هو الجزء الأول من هذا التفسير الكبير ، الذي سيقع بإذن الله
ومشيئته في ثلاثين جزءا ، سوف تصدر تباعا بحول الله وقوته وفضله وتوفيقه .
ولم أقصد من كتابة هذا التفسير إضافة كتاب جديد إلى كتب التفسير ،
إنما أردت أن يكون تفسيري هذا وافيا بحاجات العصر ، ومطالب الفكر ،
وقريبا إلى عقول الناس وأفهامهم ، وسهلا في مطالعته وفهمه ، ومقربا لما خفي
على الناس من كتاب الله ، ولما غاب عن المفسرين تناوله من شئون الدين
والدنيا والآخرة والأولى ، وإني لأحمد الله على فضله ، وأدعوه مخلصا أن
ينفع به ، وأن يجعله خالصا لوجهه الكريم ، إنه أجل مأمول وأكرم مسئول ،
وما توفيقنا إلا بالله ؟

المؤلف

تقديم

بقلم فضيلة الأستاذ الكبير الشيخ محمود النواوى

الأستاذ بكلية التربية الإسلامية بالأزهر الشريف

بسم الله الرحمن الرحيم : لقد كانت مفاجأة سارة لي إلى أقصى درجات السرور ، وموقفة إلى أبعد مدى ، حين عرض على صديق العلامة الأديب صاحب المؤلفات الذائعة ، والشهرة المطبقة ، الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي ، حين عرض على فكرته في تفسير القرآن الكريم ، ثم صوراً مما كتب في ذلك التفسير ، بما أوتي من ثقافة وحكمة وتقدير لهداية الكتاب الكريم ، وكيف ينتفع به المسلمون في آفاق الأرض ، بل العالمون جميعاً في كل بقعة ومكان ، كما يقول الله عز اسمه في وصفه : « تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً » .

وإذا كان الإمام محمد عبده قد أرضى الله والناس بما تناول في تفسيره للقرآن الكريم من تطبيقه على أحوال العصر ومشكلاته ، فإن الأستاذ خفاجي يرضينا كل الرضى في تفسيره هذا الذي يبين فيه غزير علمه وفضله وبصره بالمجتمع وحاجته إلى هداية السماء .. إلى ما أوتي من قوة فهم لأسلوب الكتاب الحكيم ، ومن بصر عميق بمرامييه ، ومن ثقافة واسعة بمعارف الإسلام وتاريخه ، مما يظهر جلياً في هذا التفسير الجديد الجيد الموفق في عرض كتاب الله الكريم ..

وإن له نظراً بعيداً ، وإدراكاً عميقاً ، لإعجاز القرآن العلي والبياني والفكري والروحي ، مما يتجلى في هذا التفسير واضحاً دون خفاء أو غموض . وقد بلغ الخفاجي فيه الذروة في روعة العرض ودقة الفهم وعمق الشرح والبيان ، وفي الالتفات القوي لخصائص بلاغة القرآن الكريم وأسلوبه ولمراميه في تشريعاته وأحكامه ومقاصده .

وإنني إذ أهنيء المؤلف بجهاده الصادق في سبيل الإسلام والمسلمين ،
وبهذا العمل الجبار المضني والمثمر الموفق في تفسير كتاب الله ، أدعو الله
عز وجل بأن يؤيد خطاه ، وأن يمنحه توفيقه ورضاه في سبيل خدمة كتابه
الحكيم ، وأضرع إلى الله أن يعينه على إخراج هذا التفسير الضخم بأجزائه
الثلاثين ، خدمة لدستور الإسلام الخالد ، وللثقافة الإسلامية الرفيعة ،
وأرجو أن يكون في ذلك خير وهدى وصلاح للمسلمين ، وإعزاز لجهود
الأئمة الداعين إلى الله والحق وإلى طريق مستقيم ، هو طريق الإسلام
وشريعته الحكيمة . والسلام على من اتبع الهدى ؟

محمود النواوي

تفسير

(١)

بسم الله نحمده ونستعينه ، ونصلي ونسلم على رسوله ، محمد صلوات الله وسلامه عليه ، وعلى آله وأصحابه ومن آمن برسالته ، وجاهد في سبيل حماية دعوته ، إلى يوم الدين .

وبعد فإن أجل ما يمكن أن نتطلع إليه الهمم ، ويستشرف للنهوض به أولو العزم من العلماء والمفكرين ، هو تجلية معاني كتاب الله الحكيم ، وتفسير آياته الجليلة ، وشرح ما تضمنه أسلوبه من مثل رفيعة ، وأحكام نافعة ، وآداب فاضلة ، وسنن اجتماعية دقيقة ، ونذر قدمت بين يدي الأمم عظة وتبصرة وذكرى ، حتى تشير على الطريق السوى ، وتتجنب مصارع الدول التي سبقتها في مضمار الحياة والحضارة والإنسانية .

إن القرآن الكريم دستور إلهي خالد ، نزل من السماء على خاتم الأنبياء ، محمد بن عبد الله صلوات الله وسلامه عليه ، وقد تضمن من نواميس الاجتماع ، وشرائع الحياة ، وأصول العقائد ، وأركان الحضارة ، ما لم يتضمنه كتاب آخر ، وفيه تفسير لكثير مما غمض علينا فهمه من أسرار الكون والوجود ، ومن الدعائم التي تحفظ للأمم قوتها ومجدها إذا حافظت عليها ، وعملت بها ، ومن كل ما يعود على الإنسان والإنسانية بالخير العميم ، والتوفيق الشامل .

إنه كتاب الإنسانية عامة ، قبل أن يكون كتاب المسلمين وحدهم ، وهو جدير بالتأمل والاعتبار والفهم والتدبر ، وأحكامه وآدابه وعظاته ما هي إلا سور منيع يحمي الفرد والمجتمع والشعوب من الانهيار ، ومن الضلال في مهامه العيش وبيداء الحياة ، وتيه الخيرة ، وجحيم الذل والهوان .

وإننا نتأدى بأن لا أمل في أن يسود السلام العالم ، وأن تطمئن الشعوب إلى مصائرنا وحياتها ، إلا بالعمل بالقرآن الكريم ، وبما تضمنه من كل عظيم من التشريع ، وبلغ من القول .

جاء القرآن ومهمته أن يبلغ العقل البشري رشده ، وأن ينتفع به الناس في دينهم ودنياهم ، ويهتدوا به إلى سواء السبيل في شئون حياتهم ، وقد اتخذ هذا نهجا له في إصلاح العقائد ، وتهذيب الأخلاق ، وترسيخ قواعد التنظيم الاجتماعي ، والعمل على إخراج الناس من الظلمات إلى النور ، وهدايتهم إلى الطريق الأمثل ، وتبشيرهم بالحياة الطيبة إن هم تمسكوا به وبمبادئه المثلى .

وقد جاء القرآن بعضه مجملا ، وبعضه مفصلا ، فالمفصل هو الأصول التي جاء بها ، والمجمل هو عامة الأحكام التي تتفرع عن هذه الأصول .

أيها المسلمون ، عندما تلفكم الخيرة من جميع الجهات بأغظيتها ، وعندما يضللكم ويجور بكم المشرفون على مصائرهم ، وعندما تظلم الحياة أمامكم وتستحيل إلى ليل دامس بهميم ؛ وعندما تهزكم مصارع الدول والعروش هزا عميقا ، وتعصركم الأحداث والخطوب عصراً لا هوادة فيه ، ارجعوا إلى القرآن الكريم ، إلى كتاب الله الحكيم ، إلى هذا الكنز الثمين ، الذي اشتمل على كل شيء ، واحتوى على جميع مقومات التقدم والنهضة ، فلن يذل من عمل به ، ولن يهون من اهتدى بشريعته .

(٢)

وهذا تفسير جديد للقرآن الكريم ، يحتوى على تحليل جميع العناصر التي اشتمل عليها هذا الكتاب المعجز العظيم ، وشتى الأصول الفكرية والروحية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، التي يقوم عليها بناء الدول ، وهو تفسير جديد النزعة والاتجاه ، وقد جرى المفسرون المعاصرون على التفاهة فيما يقدمون من شرح وتحليل ، وعلى تنقص جهود علمائنا الأقدمين في تفسير كتاب الله ، هذه الجهود الرائعة التي هي ثمرة كساح طويل وتعب متصل ، ونصب ما بعده من نصب . . ونحن هنا نقبس من شعاعهم ، ونستنير بضوئهم ، ولكننا نتجه بعد ذلك اتجاها جديداً هو تحليل القرآن الكريم معجزة الله الخالدة تحليلاً كاملاً يتضمن شرح توجيهه الرفيع للكون والحياة والإنسانية عامة ، وللمسلمين خاصة ، مع عنايتنا بعرض الآراء في آيات القرآن ، وبيان

أسباب النزول ، والابتعاد عن التعقيد والإغراب والتكلف وعن الخوض في ذكر مصطلحات العلوم من نحو وصرف وبلاغة وما إليها ، معتمدين على أسلوب العصر الحاضر في فهم كتاب الله الكريم .

وحسبنا هنا أننا نتمم جهودنا قدمها علماء المسلمين في كل عصر ، في سبيل القرآن وشرحه وتفسيره ، سواء منهم من عاش في عهد الصحابة من مثل علي ابن أبي طالب وزيد بن ثابت المتوفى عام ٥٤٥ هـ وابن عباس المتوفى عام ٥٦٨ هـ ، وابن مسعود المتوفى عام ٤٤ هـ ، أو عاش في عصر التابعين : كجاهد المتوفى عام ١٠٣ هـ ، وعكرمة المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وطاوس المتوفى عام ١٠٦ هـ ، وعطاء بن أبي رباح المتوفى عام ١١٤ هـ ، وسعيد بن جبير المتوفى عام ٩٤ هـ ، وسعيد بن المسيب ، وسواهم ، ويؤثر عن سفیان الثوري قوله : خنوا التفسير عن أربعة : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة والضحاك : كما يؤثر عن قتادة قوله : كان أعلم التابعين أربعة : كان عطاء بن أبي رباح أعلمهم بالمناسك ، وكان سعيد بن جبير أعلمهم بالتفسير ، وكان عكرمة أعلمهم بالسير ، وكان الحسن البصرى أعلمهم بالحلل والحرام ، ومن التابعين كذلك طبقة تلمذت في الكوفة على ابن مسعود ، من أمثال الشعبي المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وإبراهيم النخعي المتوفى عام ٩٥ هـ ، أما الطبقة السابقة فهم تلامذة عبد الله بن عباس ، وهناك طبقة ثالثة من التابعين ، ومنهم مالك بن أنس المتوفى عام ١٥٠ هـ ، والحسن البصرى المتوفى عام ١١٠ هـ ، وقتادة المتوفى عام ١١٧ هـ . وسواء منهم كذلك من عاش بعد عصر التابعين مباشرة ، أو بعده بأمد كبير . ومن أجل المفسرين لكتاب الله ، أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ ، والقرطبي ، والزمخشري المتوفى عام ٥٣٨ هـ ، والرازي المتوفى عام ٦٠٦ هـ ، والخازن علاء الدين بن محمد البغدادي المتوفى عام ٧٤١ هـ ، والبيضاوي المتوفى عام ٦٩٢ هـ ، والجلالين : المحلى والسيوطي ، والجملي ، وابن كثير .
الدمشقي الحافظ المتوفى عام ٧٧٤ هـ ، والنيسابوري المتوفى عام ٤٦٨ هـ ، وأبو حيان الأندلسي المتوفى عام ٧٤٥ هـ ، والخطيب الشريفي المتوفى نحو

عام ١٩٨٠ هـ ، والشهاب الحفاجي المتوفى عام ١٠٦٩ هـ ، ومحمد رشيد رضا في تفسير المنار ، والطنطاوي جوهرى في تفسيره الجواهر ، ومحمد فريد وجدى في تفسيره الموجز ، والشيخ أحمد مصطفى المراغى في تفسيره المسمى تفسير المراغى ، والشيخ محمد حجازى في تفسيره المشهور بتفسير حجازى ، وسواهم ، فضلا عما كتب في تفسير سورة أو أكثر من سور القرآن الكريم ، كتفسير جزء « عم » للإمام محمد عبده ؛ وتفسير جزء تبارك للشيخ عبدالقادر المغربي ، وكتاب الذكر الحكيم تأليف محمد عبد المنعم خفاجى وهو تفسير سور ثلاث من سور القرآن وهى : الحج ، لقمان ، ق ، وتفسير سورة النور للشيخ إبراهيم الجبالى ، وتفسير سورة يوسف ، وتفسير سورة لقمان والحديد والحجرات للشيخ محمد مصطفى المراغى شيخ الأزهر الأسبق .

وبعد فهذا هو تفسيرنا نقدمه للقارىء المسلم دون أن نبالغ في الحديث عنه وعن الجودة فيه ، وحسبنا أن نقول : إنه نهج مستقل في تفسير كتاب الله لم نسبق إلى مثله ، إذ توخينا فيه عرض أصول القرآن العامة وشرحها ، وخاصة ما يتصل بحياة الأمم ونهضتها وأسباب قوتها وازدهارها ، وتوخيينا فيه كذلك عرض نظريات القرآن الكريم بأسلوب البحث العلمى فى القرن العشرين . وما توفيقنا إلا بالله عليه توكل وإليه نئيب .

كتاب البشرية

القرآن كتاب الله المعجز ، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .
آيات وسور اشتملت على أمور الدين والدنيا ، وانتظمت سعادة الأولى والآخرة ، ونزلت هدى ونورا للبشر كافة ، وقضت على الأوهام الباطلة ، والأساطير الكاذبة ، والعبادات الضالة ، والأديان المنحرفة ، وأحالت الظلام ضياء والشقاء سعادة واليأس أملا ، والضلال هدى ، والهمجية مدنية ، والجهل علما ومعرفة وفنا وأدبا وثقافة ، نبع من معينها الزاخر كل من رغب فى الخير وطمح إلى السلام والنور ، وقلقت الإنسانية من عصر تسوده الفوضى وتذيع فيه مبادئ الطغيان والعبودية وسفك الدماء ونهب الأموال والأعراض ، إلى حياة فيها رضى وأمن ، وطمأنينة وسلام وحرية وعدل وإخاء ، ومعرفة وعمران وحضارة ، وحدود محدودة وضعت لسعادة الناس والجماعات والشعوب والإنسانية قاطبة .

قبس من الهدى والنور ، نزل به جبريل من السماء إلى الأرض ، على سيد الخلق ، وأكرم الرسل ، وأشرف من فى الوجود ، محمد صلوات الله عليه . فبلغه الناس ، وبشر بدعوته العرب والبشر كافة ، وأذاع مبادئه فى كل مكان ، فحملت إلى العالم السلام والعدل والحرية ، وفتحت صفحة جديدة فى تاريخ الإنسانية ، وأقنعت الناس من ضلال الجاهلية الأولى ، فبارك الله رب العالمين .
والفاظ إذا اشتدت فأمواج البحار الزاخرة ، وإذ هي لانت فأنفاس الحياة الآخرة ؛ ومعان بينها هي عنوية ترويك من البيان ، ورقة تستروح منها نسيم الجنان ، إذا هي بعد ذلك إطباق السحاب ، توهموا السحر ما توهموه ، فلما أنزل الله كتابه قالوا هو السحر المبين ،^(١) وتصوروا الشعر ما تصوروه ، فلما سمعوا آياته البينة ، وبلاغته المتدفقة ، ورأوا هدايته النادرة ، وفصاحته

(١) إجماع القرآن للرافعى ط ١٩٢٨ .

الباهرة ، وما فيه من روعة التصوير ودقة التعبير وشدة التأثير ، قالوا : إى والله إنه لشعر شاعر ، وسحر ساحر ، إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر ، كلا والقمر ، والليل إذا أدير ، والصبح إذا أسفر ، إنها لإحدى الكبر ، وما هو بقول بشر ، إن هو إلا وحى يوحى ، ومعجزة تتحدى ، وبلاغة تتلى وتروى ، أشرقت بنوره السماء والأرض واهتدت بهديه الملائكة والبشر أجمعون .

نزل القرآن

بينما كان الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلوات الله عليه يتعبد في غار حراء ، في يوم الاثنين لسبع عشرة خلت من رمضان للسنة الحادية والأربعين من ميلاده الكريم ، وسنه أربعون سنة وستة أشهر وثمانية أيام ، أى فى السادس من شهر أغسطس عام ٦١٠ م^(١) ، نزل عليه جبريل بالرسالة الألهية العظمى التى اصطفاه الله من بين الخلق لأدائها للبشر كافة : هدى ونورا وشفاء لما فى الصدور .

قال جبريل : يا محمد اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : اقرأ

قال : ما أنا بقارىء

قال : « اقرأ باسم ربك الذى خلق خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك

الأكرم ، الذى علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم » .

فكانت أول سورة نزلت من القرآن الكريم^(٢) .

(١) سار على ذلك كثير من الباحثين ومنهم المرحوم الحضرى بك فى الجزء الأول من تاريخ الأمم الإسلامية ، وإن كان الرافعى يقول : إن ابتداء الوحي كان بمكة عام ٦١١ م (٣٤ إعجاز القرآن) .

(٢) يروى السيوطى آراء أخرى لبعض العلماء ، فبعض يزعم أن « ن » كانت أيضا أول ما نزل من القرآن ، وآخرون يقولون « المدثر » ، وآخرون يقولون انها القائمة الخ (راجع ٢٩ وما بعدها ج ١ من الإقنان ط ١٩٤١) .

وأول سورة أعلنها الرسول بمكة هي « والنجم إذا هوى » .
وأول سورة نزلت بالمدينة بعد الهجرة هي « ويل للطففين » .
استمر نزول القرآن بعد البعثة في مكة قبل هجرة الرسول صلوات الله
عليه ، ثم بعد الهجرة والرسول الأكرم بالمدينة ، حتى توفي إلى رحمة الله
عام ١١ هـ - ٦٣٢ م .

كان القرآن الكريم ينزل منجماً مفرقاً وفق الوقائع ، ومسيرة للحوادث ،
وتدرجاً في التكاليف ، وتنقلاً بالتشريع حسب الطباع ومدى استعداد النفوس ؛
وكانت آخر آية نزلت من القرآن الحكيم قوله تعالى : « اليوم أكملت لكم
دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً^(١) » ، حيث نزلت
في حجة الوداع ونزل قبلها بقليل سورة براءة .

وتم نزول القرآن الكريم قبل وفاة الرسول صلوات الله عليه في ثلاثة
وعشرين عاماً ، ما بين بعثته إلى وفاته ، كان في ثلاث عشرة سنة منها يقيم
بمكة ، وطنه الذي ولد وربى ونشأ فيه ، وفي عشر السنين الأخرى يقيم بالمدينة
بعد هجرته صلوات الله عليه من مكة حيث نشر الدعوة وحماها وأيدها .

وجموع سور القرآن الكريم أربع عشرة ومائة سورة ، منها الطويل
والقصير ، ومنها ما نزل في الموعدة والهداية ، وما نزل في التوحيد ومحاربة
الشرك والأهواء ، وما نزل في التشريع ونظم العبادات والمعاملات وقوانين
الأسرة والجماعة والحكومة الإسلامية ، وما نزل في أمور الآخرة والغيب
وشرح تطور الانسانية وقصص الأمم الماضية وبغيتها ومصيرها المحتوم ،
وتشتمل السور على كثير من هذه الأغراض .

(١) وفي الإنشقاق خلاف كثير حول آخر ما نزل من القرآن ، فقيل آخر آية نزلت :
« يستفتونك قل الله يفتيكم في الكلاله » ، وآخر سورة نزلت « سورة براءة » ، وقيل
آخر آية نزلت آية الربا ، وقيل : « واتقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » - وكان بين نزولها
وموت الرسول أحد وثمانون يوماً وقيل تسع ليال ، وقيل آخر براءة الخ (٤٤ : ١
الإنشقاق وما بعدها) .

والسور قسمان : مكى ومدنى

فالذى منها أرجح الآراء فيه أنه هو ما نزل قبل الهجرة ، والمدنى ما نزل بعدها^(١) والسور المدنية اثنتان وعشرون سورة تبلغ نحو ثلث القرآن الكريم وهى : البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنفال والتوبة والنور والأحزاب والقتال والفتح والحجرات والحديد والمجادلة والحشر والممتحنة والصف والجمعة والمنافقون والتغابن والطلاق والتحريم والعصر . وما عدا هذه السور وهى اثنتان وتسعون سورة فهو مكى .

سور القرآن مكية ومدنية

أما السور المكية فأظهر موضوعاتها هى :

- ١ - الدعوة إلى توحيد الله ومحاربة الشرك والأوثان .
- ٢ - تأييد رسالة محمد صلوات الله عليه وتحدى العرب بهذه المعجزة الخارقة ألا وهى القرآن الكريم .
- ٣ - إثبات البعث والحساب والنشور واليوم الآخر والرد على من ينكر ذلك فى إفاضة وقوة حجة وتأثير .
- ٤ - قص قصص الأمم القديمة وعنادها وحجاجها مع الرسل والأنبياء واصرارها على الضلال وما حل بها من المثلث تبصرة وذكرى لقوم يؤمنون .
- ٥ - محاربة التقليد ودعوة العقل البشرى إلى الاستقلال بالتفكير واتباع الحق من العقائد والطاعات ونبد الأوهام والأساطير والخرافات والتفكير فى نواميس الله فى الكون .

وأما أهم موضوعات السور المدنية فهى ما يلى :

- ١ - تشريع النظم والقوانين للفرد والأسرة والجماعة والأمة لتسير

(١) راجع ١:١٣ الإتيان للسيوطى ، وقيل المكى ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة ، والمدنى ما نزل بالمدينة . وقيل المكى ما كان خطابا لأهل مكة ، والمدنى ما كان خطابا لأهل المدينة (١٣ و ١٤ : ١ الإتيان) . هذا وتسمى السورة مكية إذا كان أغلبها مكيا وتسمى مدنية إذا كان أكثرها مدنيا .

الإنسانية إلى حياة كريمة مهذبة تليق بكرامة الإنسان خليفة الله في الأرض إلى الفضيلة والخير والعدل والحق والأمن والسلم وال عمران والحضارة .

٢ - الدعوة إلى الفضائل ومحاربة الرذائل بكل سلاح وكل وسيلة .

٣ - تقرير وحدة الإنسانية والأخوية البشرية العامة وتعزيز الصلات الاجتماعية بين الإنسان والإنسان ، وإلغاء الفروق بين الطبقات والجماعات والشعوب ، ورفع كرامة الإنسان الأدبية في الحياة ، وتعزيز شخصية الإنسان وإيضاح رسالته ورسم الأهداف الكريمة التي يجب أن يسير إليها ويعمل لها في الحياة .

٤ - وضع شرائع الحرب والسلام ، التي تسير مع الإنسانية العالية ، وتوافق مصالح البشر في الحياة الدنيا على اختلاف الزمان والمكان .

وعلى العموم فالسور المدنية احتوت على أكثر التشريع الإسلامي وأودعت أعظم الآداب الاجتماعية والسياسية ، التي تؤلف القلوب ، وتحوط الملك ، وتصون الشعوب .

وقصارى الكلام أن القرآن كتاب هداية ونور ودين ودنيا وخير عام ، وهو دستور الإنسانية المهذبة ، ووثيقة الحرية والمساواة والإخاء ، التي نالها الإنسان على طول الأيام والاحقاب .

جمع القرآن

(١)

كان بعض الصحابة يكتبون ما ينزل من القرآن - ابتداءً أو بأمر الرسول صلوات الله عليه - على ما يتفق لهم من العصب والألواح والرقاع واللخاف^(١)

(١) العصب : جمع عسيب وهو جريد النخل وكانوا يكشطون الخوص عنه ويكتبون في الطرف العريض . واللخاف جمع لخمفة فتحة فكون وهي صفاخ الجبارة .

(٢) يروى أن زيد بن ثابت تعلم الفارسية من رسول كسرى ، والرومية من حاجب النبي ، والحبشية من خادم النبي ، والقبطية من خادمه أيضا (ص ٦ ج ٣ المقد) . وكان كتاب الوحي حول رسول الله نحو الأربعين منهم جلة الصحابة رضوان الله عليهم .

وقطع الأديم وعظام الأكتاف والأضلاع وكل ما صلح للكتابة .
كان كل يكتب ما تيسر له كتابته ، وكان منهم بعض قليل كتبوا القرآن
كله والإجماع على : علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وعبدالله بن مسعود وزيد
ابن ثابت^(٢) ، وقبل وفاة الرسول عرض زيد القرآن عرضة على رسول الله
صلوات الله عليه ، ففي عهده صلوات الله عليه كان القران مرتب السور
والآيات ولكنه غير مجموع في كتاب واحد .

وكان يحفظ القران كله أو بعضه كثير من الصحابة في عهده عليه الصلاة
والسلام ، وتوفي الرسول والقران محفوظ في صدور الصحابة وفي الرقاع التي
كانو يكتبون آياته وسوزه فيها .

وتقلد أبو بكر خلافة المسلمين ، ونهض بعبء الدعوة النبوية ، وأخذ
يحارب أهل الردة في معارك كثيرة ، كان منها غزوة أهل اليمامة التي مات فيها
كثير من الصحابة والقراء رضوان الله عليهم ، ويقال إن عدد من قتل فيها
سبعون قارئاً من الصحابة ، وخيف أن يكثر موتهم في الغزوات والحروب .
ففزع أبو بكر وعمر عليهما رحمة الله من ذلك ، ورأى عمر جمع القرآن
من صدور الصحابة ومن الألواح والعصب والأكتاف ، ويروى أنه دخل على
أبي بكر فقال له : يا خليفة رسول الله إن أصحاب الرسول باليمامة يتهاقون
تهاقت الفراش في النار وإني أخشى أن لا يشهدوا موطننا إلا فعلوا ذلك حتى
يقتلوا ، وهم حملة القرآن ، فيضيع القرآن وينسى ، فلو جمعته وكتبته^(١) .

فكر أبو بكر في الأمر واستشار فيه الصحابة ، وكان يفزع من أن يضع
شيئاً لم يأمر به الرسول الأعظم صلوات الله عليه ، ولذلك قال أبو بكر لعمر :
أفعل ما لم يفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم !!

وأرسل أبو بكر إلى زيد بن يزيد يستشيريه في الأمر ، فكره ذلك ،
فقال عمر لها : وما عليك لو فعلتما ذلك حتى ألهمهما الله به ، فأمر أبو بكر زيد
ابن ثابت فجمع القران كله من الرقاع وصدور الرجال ، ونسخه في قطع الأديم

(١) راجع في ذلك الإتيان ٩٨ : ١ وما بعدها .

والأكتاف والعصب ، وسمى أبو بكر هذه الألواح المكتوبة التي جمع فيها جميع القرآن الكريم مصحفا ، وحفظت هذه الصحف عند أبي بكر حتى توفي ، ثم عند عمر طول حياته ، ثم حفصة بنت عمر صدرا من ولاية عثمان . وهذا هو الجمع الأول ، وقد حدث في عهد أبي بكر على يد زيد بن ثابت^(٢) ويشرف الخليفة وعمر وكبار الصحابة ، وكان الغرض منه جمع نص القرآن الكريم في مجموعة واحدة ، حتى لا يضيع شيء منه بموت الصحابة والقراء في الغزوات والحروب .

(٢)

وفي عهد عثمان تفرق الصحابة والقراء في الأمصار ، فكان ابن مسعود في الكوفة وأبو موسى الأشعري في البصرة والمقداد بن الأسود في دمشق ، وأخذ عنهم أهل تلك البلاد وجوه القراءة والترتيل ، مما أدى إلى تعدد القراءات واختلاف المسلمين في قراءة القرآن اختلافا كثيرا ، حتى كان الواحد منهم يقول للآخر : قراءتي خير من قراءتك ، والآخر يقول : بل قراءتي ، واستمر الأمر على ذلك إلى أن شهد حذيفة ابن اليمان وهو صحابي جليل غزوة أذريجان وغزوة ارمينية وشاهد هذا الاختلاف الويل وحذر من سوء المصير إذا استمر هذا الاختلاف .

فأرسل عثمان إلى حفصة يستأذنها في أخذ الصحف التي جمع فيها أبو بكر القرآن فأذنت له . فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وعبد الرحمن بن الحارث بن هشام وسعيد بن العاص بأن ينسخوها في المصاحف ، وأمرهم بأن يرجعوا فيما اختلفوا فيه إلى زيد بن ثابت ، وما اختلفوا فيه جميعا أن يكتبوه بلسان قريش ، فإن القرآن نزل بلسانهم ، فكتبوا مصحفا عرضوه على صحف حفصة ، فلم يختلف في شيء ، فرد عثمان صحف حفصة إليها ، وفرح بما عمل فرحا شديدا ، وهذا هو الثاني للقرآن الكريم .

(١) وكان يهاونه بعض كتاب الوحي وفيهم سالم . ولى أبي حذيفة كما يروى .

حروف القرآن

الأحرف السبعة التي نزل بها القرآن كانت مفرقة فيه ، فبعضه نزل بلغة قريش ، وهو معظمه ، وما نزل بهذه اللغة كتب بها أيضا ، وبعضه نزل بلغة هذيل ، وبعضه نزل بلغة اليمن فكتب بلغتها ، وهكذا . ولا يخفى أن القبائل التي نزل بعضه بلغتها يجوز لها أن تقرأ جميعه بهذه اللغة لأن في نزول بعضه بلغتها ترخيصا لها في قراءته جميعه بهذه اللغة ، فالذي حصل في زمن أبي بكر رضى الله عنه هو أنه جمع الآيات المتفرقة سورا فجعل كل آية بجوار صاحبها طبقا للمحفوظ عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بدون زيادة ولا نقص ، فجعل كل سورة على حدة ولم يرتبه اكتفاء بترتيبه في صدور الحفاظ ، على أنه لم يغير شيئا من المكتوب بل أبقاه على حاله ، وأما عثمان رضى الله عنه فقد كتب مصحفا بلغة قريش خاصة ورتبه طبق المحفوظ .

فالأحرف السبعة كان بعض القرآن مكتوبا بها في عهد النبي صلى الله عليه وسلم كما أنها كانت محفوظة يتداولها الحفاظ في القبائل ، ولم يوجد منها شيء في مصحف عثمان ، لأنه كان مقصورا على لغة قريش .

أما السبب في اختلاف القراءات السبع بعد أن جمع عثمان الناس على قراءة واحدة ، فقد أجاب عنه بعضهم بأن القرآن قد تواتر عن النبي صلى الله عليه وسلم بلغات العرب على الوجه الذي تقدم ، ونقله القراء من الصحابة إلى الجهات المختلفة على هذه الحالة ، فتواتر نقله بلغات متعددة ، فلما كتب المصحف العثماني وبعث به إلى تلك الجهات التي كان بها بعض القراء من الصحابة ، عملوا بما يمكنهم العمل به من ذلك المصحف ، فكل ما تلقوه متواترا عن الصحابة بما لا تدل عليه كتابة المصحف ثبتوا عليه وتركوا ما يخالف المصحف . قال الحافظ ابن حجر في هذا البحث : إن السبب في اختلاف القراءات السبع وغيرها أن الجهات التي وجهت إليها المصاحف كان بها من الصحابة من حمل عنه أهل تلك الجهة ، وكانت المصاحف خالية من النقط والشكل ، قال : ثبتت أهل كل ناحية على ما كانوا تلقوه سماعا من الصحابة بشرط موافقة الخط ،

وتركوا ما يخالف الخط امثالاً لأمر عثمان الذي وافقه عليه الصحابة ، لما رأوا .
في ذلك من الاحتياطات للقرآن ، فمن نشأ الاختلاف بين قراء الأمصار .
وقد يكون عثمان رضى الله عنه لم يحرم قراءة القرآن باللغات التي تواترت
عن رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لما عساه أن يترتب على ذلك من فرقة
بين المسلمين ، فكتب مصحفه ليكون مرجعاً يرجع إليه الناس عند الاختلاف ،
فإذا قرأت قبيلة بلغتها المتواترة وأنكرت عليها الأخرى أمكنهم الرجوع
إلى الأصل . وظاهر أن غرض عثمان ومن وافقه حفظ أصل القرآن وصون
عباراته من التبديل والتحريف ، وذلك يحصل حتماً بالاجماع على التمسك
بنص ما كتب في مصحفه ، أما غيره من المد والتسهيل والإدغام والإظهار
ونحو ذلك مما لا يترتب عليه تغيير في نص القرآن فذلك ما لا ضرر فيه البتة ،
وإلى ذلك يشير قوله صلى الله عليه وسلم لعمر : « يا عمر : القرآن كله صواب
مالم يجعل رحمة عذاباً أو عذاباً رحمة » .

ويروى أن عمر سمع هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان فإذا هو على
حروف لم يتلقها عمر من رسول الله قال : فسكدت أساوره في الصلاة وتصبرت
حتى سلم فلببته بردائه ، وانطلقت به أقوده إلى رسول الله ، فسمع مني وسمع
منه ، وقال لكل منا : كذلك أنزلت ، إن هذا القرآن أنزل على سبعة
أحرف فاقرأوا ما تيسر منه .

وبعد فقبايل العرب التي نزل القرآن بلهجاتها هي :

قريش — سعد — ثقيف — خزاعة — هذيل — كنانة — أسد —
ضبة — قيس وأحلافها . ثم ارتفعت هذه اللغات وبقيت لغة قريش ، وأصبح
القرآن يقرأ بلغة قريش .

والقراء السبع الذين رووا القراءات السبع هم :

نافع بن أبي نعيم م ١٦٩ هـ عبد الله بن كثير م ١٢٠ هـ
أبو عمرو بن العلاء م ١٥٤ هـ عبد الله بن عامر اليحصبي م ١١٨ هـ

عاصم بن بهدلة الأسدي م ١٢٨ هـ حمزة بن حبيب الزيات م ١٥٦ هـ
علي بن حمزة الكسائي م ١٨٩ هـ
وهناك سبع روايات تم عليها الإجماع ، وثلاث قوية السند ولم تصل
إلى الإجماع ، وأربع أخرى بين القوة والضعف ، فجملة ذلك كله أربع
عشرة قراءة .

آثار القرآن في اللغة والأدب

القرآن كتاب العربية وناموس شريعة محمد صلوات الله عليه . . تعبد به
المسلمون منذ بدأ الإسلام حتى اليوم ، وحفظوه ورددوه وقرأوه بلغات
قريش التي نزل بها . وكان له أثر عظيم في اللغة العربية وآدابها بما يمكن
تصويره فيما يلي . .

أما أثره في اللغة فظاهر فيما يلي :

١ - وحدة اللغة واللهجات العربية في لغة قريش ، وهي أفصح لهجات
العرب لفظاً وأبلغها أسلوباً وأعذبها نظماً . وكان ذلك من أسباب وحدة
الملمسين كافة ، إذ اتخذوا هذه اللغة القرشية لغتهم ، فزادتهم وحدة في اللغة
فوق وحدتهم في الدين .

٢ - حفظ القرآن الكريم العربية من العفاء والافتراض ، كما انقرضت
من قبل لغات كثيرة أصبحت في عداد اللغات الأثرية ، فأصبحت العربية لغة
القرآن الذي كفل الله بقاءه إلى يوم الدين .

٣ - والقرآن أول عامل في ذبوع اللغة العربية وانتشارها في شتى البلاد
والأصقاع وأصبحت هي لغة الدين والسياسة والأدب والثقافة والقراءة
والكتابة في شتى بلاد العالم الإسلامي الواسعة ، وكثير من البلاد التي فتحها
المسلمون هجر أهلها لغتهم الأصلية وتعلموا العربية واتخذوها لهم لساناً ليفهموا
بها القرآن قانون الدين الخالد وليتفاهموا بها مع الحاكمين ، ومن يعاشرونهم
ويخالطونهم من العرب .

٤ — بتأثير القرآن عكف الأدباء والرواة على جمع اللغة وآدابها وأشعارها وحكمها وبلاغتها وأمثالها ووصاياها وخطبها بما كان مادة للثقافة العربية على مر الأيام .

٥ — وقد ساعد القرآن على تهذيب ألفاظ اللغة وأساليبها ، فهجر المسلمون الكثير من الحوشى والغريب والمتنافر ، واختاروا العذوبة والسلاسة والسهولة والركة من اللفظ والنظم .

٦ — وسع القرآن الكريم نطاق اللغة باستحداث الألفاظ الإسلامية التي نقلت من معانيها إلى معان جديدة أتى بها القرآن الكريم ، كلفظ المؤمن والمنافق والإسلام والصلاة والصوم الخ .

٧ — والقرآن هو الذى دفع المسلمين إلى العناية بشتى العلوم الدينية والعربية ووضعها ، بما كانت هى أساس صرح المدينة الإسلامية الباهرة .

وللقرآن أثر كبير فى الأدب العربى :

١ — فقد تأثر به المسلمون فى بلاغته وفصاحته وعذوبته ، فلانت أساليبهم وعذبت ألفاظهم وورقت طباعهم ، واقتبسوا منه فى شعرهم ونثرهم ، والحق أنه هو الذى خرج أعلام البلاغة وفحول البيان والأدب من قديم .

٢ — أحيا القرآن الكريم فنونا أدبية جديدة ، كالقصص وأدب الزهد وأدب التاريخ ، وأبطل سجع الكهان والهجاء الكاذب والفخر بغير العمل الصالح والخلق الكريم ، إلى غير ذلك من شتى الفنون الأدبية المرذولة .

٣ — رفع القرآن من شأن النثر بعد أن كان المقام الأول للشعر وحده من بين سائر فنون الأدب .

٤ — وبسببه وضعت علوم النقد والبلاغة لمعرفة وجه إعجاز الذكر الحكيم ، وكيف تحدى به العرب والناس كافة ، فلكمهم الاعياء والعجز والقصور .

ولا غرو فالقرآن الكريم أول كتاب كتب باللغة العربية وهو مصدر آداب العرب جميعها .

رأى جديد في فواتح سور القرآن

الآراء في معاني ابتداءات سور القرآن الكريم كثيرة ؛ والاختلافات حولها متعددة ؛ أهي أسماء الله تعالى ، أم هي أسماء للسور نفسها ، أم هي حروف لا أسماء ، وما معناها حيثئذ ؟ ، أم أن الله تعالى هو الذى ينفرد بعلم ذلك ، وعقل الإنسان يعجز عن فهم أسرار الله تعالى فيها ، أم هي رموز لمعان دينية أو صوفية . . الخ

اختلاف كثير لاحصر له ولقد رجح من قبل الإمام جبار الله الزمخشري أن هذه الفواتح عدة حروف هجائية صدر الله بها الكثير من سور قرآنه ليقول للعرب : « إن هذا القرآن المنزل على محمد من جنس كلامكم ، مكون من مثل هذه الحروف الميسورة لكم ، نستفتح بها الحديث معكم ، فإن كنتم فى ريب من إلهية هذا الكتاب وقديسته فدوونكم مجال التحدى والأعجاز ، فأتوا بمثله إن استطعتم ، ، وسبقه إلى ذلك الباقلاني .

ولقد عرض لى رأى جديد فى هذا الموضوع ، وخلاصته هي : اقتتح الله سبحانه وتعالى تسعا وعشرين سورة من سور القرآن بهذه الابتداءات : ألم - المر - المص - كهيعص - طسم - طس - يس - حمسق - حم - ص - ق - ن - طه - ألر : وهي كلمات مكونة من بعض حروف الهجاء وتقرأ هذه الكلمات بقراءة الحروف الهجائية المركبة منها مع إسكان هذه الحروف ، فمثل ، « ألم ، تقرأ هكذا ، ألف لام ميم ، ، والحروف التي كررت فى هذه الفواتح هي أربعة عشر حرفا من حروف الهجاء البالغة تسعة وعشرين ، وبمجموع عدد الحروف المكررة ثمانية وسبعون حرفا .

فما معنى بدء بعض سور القرآن بهذه الحروف المفردة أو المركبة ، يريد الله عز وجل بذلك التنويه بالعربية التي هذه بعض حروفها ، والإشادة بالقرآن الكريم - كتاب العربية الخالد - الذى تلك بعض آياته .

وكان الله عز وجل يقول للناس : هذه هي اللغة العربية لغة البيان والفصاحة وهذا هو القرآن كتاب الله المعجز ، وكتاب العربية المبين الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

والصلة بين العربية والقرآن الكريم صلة معروفة لا يجهلها إنسان ، فقد نزل القرآن الكريم باللغة العربية ، وجاء في أعلى درجاتها بلاغة وبيانا وفصاحة نزل على محمد النبي العربي العظيم ، فكان معجزته الباقية الخالدة ، وعلى الأمة العربية التي اختارها الله لتكون جنود الله والحق ومحمد في نشر الهدى والنور والتوحيد والعلم والثقافة في العالم كافة ، وكان للقرآن الكريم أثره الخالد في وحدة العربية وحفظها ونشرها وذيوعها في جميع الأرجاء ، وفي تهذيب أساليبها وألفاظها ، ورفق معانيها وخيالاتها وأفكارها ، وفي السمو بأغراض الكلام فيها ، إلى ما سوى ذلك من آثاره الباقية على العرب كافة فكان الله عز وجل يشير بذلك إلى أن هذا القرآن الكريم أنزله من عنده مجداً للعربية وآدابها ، وتكريماً للعرب وسموا بمنزلتهم في قيادة الحياة الإنسانية ، فالقائد الأعظم الذي اختير لنشر هداية السماء في الأرض هو محمد صلوات الله عليه وهو عربي ، وذلك الناموس الكريم والدستور الخالد الذي بين الله فيه رسالة محمد ودعا فيه إلى الخير والحق والعدل والتوحيد والطهر والإحسان هو القرآن وهو كتاب عربي مبين . وكأنه يوحى إلى هذه الأمة العربية : أن آمنوا بمحمد ودعوته وبكتابه ورسالته ، فهما نخر لكم على مر الأيام ، ومجد سيظوق أعناقكم طول الأجيال والأحقاب ،

وخلاصة رأي هذا أن هذه الابتداءات تشير إلى الصلة الوثيقة بين القرآن والعربية ، وإلى أن هذه الرسالة السماوية وهي آخر الرسالات نزل بها القرآن العربي المبين ، واختير لنشرها محمد أكرم العرب والمخلوق أجمعين ، وإلى أنها ستكون مجداً للعرب والعربية طول العصور :

مناهج المعرفة في القرآن الكريم

يقول الله تعالى : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ، ويتبع كل شيطان مريد^(١) » ، ويقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ، وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا ، أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير؟^(٢) » . ويقول : « ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير ثاني عطفه ، ليضل عن سبيل الله ، له في الدنيا خزي ، ونذيقه يوم القيامة عذاب الحريق ، ذلك بما قدمت يداك ، وأن الله ليس بظلام للعبيد^(٣) » .

في هذه الآيات الكريمة تحديد واضح لمناهج المعرفة ، ومذاهب التفكير والفهم عند البشر . وقد عني القرآن الكريم في هذه الآيات ، وفي سواها بما لم نذكره ، أن يوضح للبشر دون لبس منابع الحقيقة واضحة بينة ، حتى لا يضلوا في بيداء الحياة ، أو يتشعب بهم الظن في مجال البحث واليقين ، وحتى يبنوا عقائدهم وأراءهم على أساس سليم مستقيم .

والقرآن الكريم يذكر في الآية الأولى صنع بعض المشركين المتمردين على عقيدة التوحيد ، الدائنين على الحجاج والجدل في الله ، دون أن يرتكز جدلهم على دعامة من العلم والبرهان والمنطق ، ودون أن يخضع نقاشهم لحكم العقل والإنصاف ، وإنما يخبطون خبط عشواء ، ويسيروا في صحراء ظلماء ، لا يفرقون بين حق وباطل ، ولا يحاولون الرجوع إلى الحق أو التزامه أو الدفاع عنه .. فهم ينازعون في ذات الله وفيما يجوز عليه وما لا يجوز من صفات وأفعال ، ويقولون من الأباطيل ما يقولون ، ملابسين للجهل ، ويتبعون في أقوالهم وأعمالهم وعقائدهم كل شيطان عات ضال مضل عن سبيل الله . وذلك من أشباه : أبي جهل ، والأخنس بن شريق والنضر بن الحارث وسواهم ، وكان النضر يقول : الملائكة بنات الله والقرآن أساطير الأولين ، ويقول :

(١) أي متعبد متجرد للفساد والإضلال — آية ٣ سورة الحج .

(٢) آية ٢٠ و ٢١ سورة لقمان . (٣) الآيات ٨ و ٩ و ١٠ سورة الحج .

« إن ما يأتيكم به محمد هو ما كنت أحدثكم به عن القرون الماضية ، ، ويقول :
« الله غير قادر على إحياء من بلى وصار ترابا ، ، وكان يذهب إلى فارس
فيشتري كتب الفرس وأساطيرهم فيحدث بها قريشا ، ويقول : « إن كان
محمد يحدثكم بحديث عاد وثمود فأنا أحدثكم بحديث رستم وبهرام والأكاسرة
وملوك الحيرة ، . والآية عامة في كل من أمعن في الجدل دون علم أو برهان ،
ومن يضل ويضل بذلك عن سبيل الله ودينه وشريعته .

وكذلك الآيتان الأخريان من سورة لقمان تؤكدان هذه المعاني ، وأن
من الناس من يدأب على الجدل في ذات الله وصفاته ، أو في دينه وشرائعه ، دون
علم واستبصار ويقين مأخوذ من دليل عقلي ، ودون هدى وإرشاد مستفاد من هاد
ومرشد من الرسل والأنبياء ، ودون كتاب منير واضح جلي هاد لا خفاء في هديه ،
منزل من الله عز وجل إلى رسول من رسله المكرمين ، فهو لا يؤمن بالدين ، وإنما
يؤمن بالآوهام والتقاليد والعادات الموروثة والأساطير الكاذبة ، يتخذها
منهاجا له في التفكير والبحث ، ويهمل عقله إهمالا ، ويفسد فطرة الله في
نفسه إنسانا شديدا ، وهل هناك ما هو أضر على الإنسانية من ذلك التقليد
الاعمى ، والاتباع المرذول ، وهل حارب القرآن الكريم شيئا كما حارب
التقليد وصنيع المقلدين ؟ ولذلك ذهب الأئمة إلى أن التقليد في أصول العقائد
غير جائز ، حتى قال الرازي : « وأكثر العلماء على أن التقليد لا يكفي في أصول
العقائد ، ويؤكد القرآن أن مثل هؤلاء إنما يتبعون سبيل الشيطان وأن الشيطان
يدعوهم إلى عذاب السعير .

أما الآيات الثلاثة الأخيرة وهي من سورة الحج ، فهي كذلك تؤكد هذه
المعاني الشريفة وتقريرها ، وتوضح لصنيع هؤلاء الناس ، الذين يتخذون الجدل
بالباطل وسيلة للضلال والاضلال عن سبيل الله ، ولا يرجعون في جدلهم في الله إلى
العلم أو الهدى أو الكتاب المنير ، وهنا يفسر المفسرون العلم بالعلم الضروري ، والهدى
بالاستدلال والنظر الذي يهدي إلى المعرفة ، والكتاب المنير بالوحي ، وإن كنا
لأنزى مانعا من تفسيرها بما فسرناها به آنفا ، أو بما فسرنا به المفسرون هنا ،

أو بتفسير آخر فذهب إليه ونزجه ، وهو أن المراد بالعلم الحقائق التي تستقر في النفس ، ويرشد إليها التفكير والبحث والدليل والتجربة ، والهدى المراد به الإلهام النفسى الذى تمده فطرة الله في النفس الإنسانية التي فطرها الله على التدين والإيمان . والكتاب المنير هو المنزل من السماء على رسول من الرسل يدعو إلى مبادئه ، ويبشر بشريعته ، وتكون أقواله وأفعاله تفسيراً لما تضمنته من أحكام وآداب ، وشرائع وشعائر وعقدتدومثل . . ويؤكد الله عز وجل هنا أن الإعراض والاستكبار عن السماع من الرسل ، هما ديدن هؤلاء الناس الذين حاربوا الرسالات الإلهية ، وضلوا وأضلوا عن سبيل الله ، وأن لهم خزياً وهو أن في الدنيا ، وعذاباً أليماً في الآخرة . بما اجتزحوا من سيئات وما اقترفوا من آثام في حق الله والعقل والإنسانية والشعوب والجماعات . والله عادل في عقابه لا يظلم أحداً ، ولا شك في أن مثل هؤلاء يستحقون هذا العذاب ، فقد صدوا عن الله ودينه وتوحيده . وجادلوا في الله مجادلة عن جهل وعناد واستكبار ، دون أن يخضعوا في جدلهم وحباجهم لأصول العقل ، أو برهان العلم ، أو هداية السماء ، فإذا ما حاولت إقناعهم وإرشادهم وهدايتهم أصروا واستكبروا استكباراً ، وجادلوا بالباطل وقالوا زوراً وبهتاناً ، وأخذوا يثرثرون بما لا يعقله العقل ، ويهرفون بما يزينون من الشرك والضلال والإضلال .

وهنا نجد القرآن الكريم يبنى صرح الحياة الإنسانية المثلى ، ويقدم دعائم المدنية والحضارة ، على أساس رائع عظيم ، من الفطرة والعقل وهداية السماء . فهذه الآيات ، وإن تضمنت في عمومها بيان جزاء الصادقين عن دين الله ، الذين يضلون ويضلون ويلوون رؤسهم عناداً واستكباراً ، في الدنيا والآخرة ، كما تضمنت التحذير من الجدل والمناظرة في العقيدة بالهوى والقياس لأن في ذلك الضلال والابتداع والتحذير من التقليد الأعمى المرذول ، وتعطيل حكم العقل بالسير على منهج الآباء والأجداد في كل شيء ، حتى فيما يؤدي إلى الضلال والبهتان والشرك ، ومع أنها تضمنت كذلك نفي الظلم عن الله ببيان أن

الإنسان هو الذى يجنى على نفسه بعناده واستكباره ومشايعته للباطل ..
فهي كذلك تقرر أصول المعرفة الثلاثة : العلم الفطرى المركز فى طباع الناس
كافة الذى يرشد إلى الخير والفضائل والتوحيد والإيمان ، والعلم النظرى المستفاد
من الحججة والاستدلال والبرهان والبحث والتجربة ، والعلم الإلهى المستفاد
من الوحي والكتب السماوية المنزلة على الرسل صلوات الله وسلامه عليهم .
وتبين الآيات أن المعرفة لا يمكن اقتباسها من غير هذه المناهج الثلاثة ، وأن
جميع طرق المعرفة توصل إلى الإيمان والتوحيد ومعرفة الله .

فليس اتباع الوهم والخيال والأساطير ونزعات الهوى والشيطان ، مما
يرشد إلى معرفة ، أو حق .. وليس كذلك التقليد ومحاكاة الناس واتباع
مناهج الآباء والأجداد دون تحكيم للمنطق والعقل والتفكير مما يوصل إلى
نتيجة يطمئن إليها العقل والقلب جميعا .. وليس هناك شيء ما يقود إلى حظيرة
الحقيقة المقدسة سوى المناهج الثلاثة ، التى تؤدى إلى الخير والهدى والفلاح
والفوز فى الدنيا والآخرة .

والفطرة الانسانية فى البشر تدعو دائما إلى الإيمان ، وإلى الاعتقاد بالله
وبالرسالات ، وهى شاهد صدق على ضلال الماديين والدهريين والالحاديين
وغيرهم من فرق الضلال .

والعقل السليم يؤدى دائما إلى الاعتقاد بأن مسخر السموات والأرض
وما فيهما إنما هو إله عظيم قادر على كل شيء يستحق وحده دون سواه العبادة ،
ولا شريك له فى الكون .. وهو يرشد بمعوثة الوحي إلى ما غمض فهمه من
أمور الغيب والآخرة .

ويطول بنا الحديث لو حاولنا أن نشرح هذه الحقائق الأزلية الخالدة التى
دعا إليها القرآن الكريم ، واثرها على الحياة والانسانية والحضارة ، فلنقف
عند هذا الحد ، تاركين للعقل المجال ليحكم ويفهم ويبحث .

إعجاز القرآن في حكم الذوق الأدبي

ونحن لن تناول الإعجاز من شتى جوانبه ونواحيه ، وإنما نوجز لك القول إيجازاً ، وتترك لذوقك ونفسك ، حتى تعرف أسرار الإعجاز ، وتقف على خصائصه .

ولعلك قد قرأت تحليل عبد القاهر وعلماة البلاغة للآية الكريمة : « رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيباً ، أو شرحهم للآية الحكيمة : وقال اركبوا فيها باسم الله مجريها ومرساها إن ربي لغفور رحيم ، وهي تجري بهم في موج كالجبال ، ونادى نوح ابنه وكان في معزل : يا بني اركب معنا ولا تكن مع الكافرين ، قال سأوى إلى جبل يعصمني من الماء ، قال لا عاصم اليوم من أمر الله إلا من رحم ، وحال بينهما الموج فكان من المغرقين ، وقيل يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي ، وغيض الماء وقضى الأمر ، واستوت على الجودي ، وقيل بعدا للقوم الظالمين » .

ولعلك على ذكر من هذه الوجوه البلاغية التي يذكرونها في الموازنة بين قوله تعالى : « ولكم في القصاص حياة ، وقول أكرم بن صيفي : القتل أنفى للقتل ، ولعلك قرأت ما كتبه الزمخشري في بلاغة كثير من الآيات القرآنية الحكيمة أو ما كتبه في قوله تعالى : وما قدروا الله حق قدره والأرض جميعا قبضته يوم القيامة والسموات مطويات يمينه ؛ سبحانه وتعالى عما يشركون ، إلى قوله تعالى : « وأشرق الأرض بنور ربها ووضع الكتاب وجيء بالنبيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، أو ما دونه علماء البلاغة في بلاغة الآية الكريمة : « خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ، فكل ذلك لا يضيرك على أي حال في فهم أسرار بلاغة القرآن وإعجازه ، وهو من جهة أخرى وسيلة لتربية ذوقك وملبكتك في النقد والبيان .

ولكننا نعود بك إلى فطرتك الأدبية وحدها ، فنطالبها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز ، وأنت تعلم أن الأمة العربية أمة تحب البلاغة وتعشقها ،

وتجيدها ويهزها البيان الجيد والفصاحة الرائعة ، وفيها مقاول البلاغة ومصارع الخطباء وأعلام الشعراء ، لانزى لأحد عليها فخرا ، ولا تحسب روعة البيان وسحر الكلام إلا لها ، وكانت كما يقول الجاحظ . أكثر ما كانت شاعرا وخطيبا وأحكم ما كانت لغة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى توحيد الله وتصديق رسالته ، وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ويدعوهم صباح مساء إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا بسورة واحدة أو بآيات يسيرة ، فكلما ازداد تحديا لهم بها وتقريبا لعجزهم عنها تكشف عن نقصهم ما كان مستورا ، وظهر منه ما كان خفيا ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا له : أنت تعرف من من أخبار الأمم مالا نعرف فلذلك يمكنك مالا يمكننا ، قال : فها توها مفتريات ، فلم يرم ذلك خطيب ولا طمع فيه شاعر ولا طمع فيه أحد يتكلفه ، ولو تكلفه لظهر ذلك ، ولو ظهر لوجد من يستجيده ويحامي عليه ويكابر فيه ويزعم أنه قد عارض وقابل وناقض ، فدل ذلك على عجز القوم مع كثرة كلامهم وسهولة ذلك عليهم وكثرة شعرائهم وكثرة من هجاه منهم وعارض شعراءه وأصحابه وخطباء أمته ، والعرب لهم القصيد العجيب والرجز الفاخر والخطب الطوال البليغة والقصار الموجزة ، ولهم الأسجاع والمزدوج واللفظ المتثور ، ثم يتحدى به أقصاهم بعد أن أظهر عجز أدناهم ، وهم أشد الخلق أنفة وأكثرهم مفاخرة والكلام سيد عملهم وقد احتاجوا إليه والحاجة تبعث على الحيلة في الأمر الغامض ، فكيف بالظاهر الجليل المنفعة ؟

* * *

وبعد فأى أثر أدبي أعجبك : « كقفانك من ذكرى حبيب ومنزل » لامرىء

القيس ، وكرثية ابن الرومي لولده :

بكاؤكما يشقى وإن كان لا يجدى فجودا فقد أودى نظير كما عندى

وكوصف البحترى لإيوان كسرى :

صنت نفسي عما يدنس نفسي وترفعت عن جدا كل جيس (١)

(١) الجدا : العطاء . الجيس : الجبان اللثيم

كثيرة المعرى للفقير الخنفي :

غير مجسد في ملتي واعتقادي نوح باك ولا ترنم شاد
وكقصيدة ابن زيدون :

أضحى التناهي بديلا من تدانينا وناب عن طيب لقيانا تجافينا
وكقصيدة المتنبى في سيف الدولة :

أتوك يجرون الحديد كأنما سروا بجياد ما هن قوائم
وقفت وما في الموت شك لواقف كأنك في جنن الردى وهو نائم
تمر بك الأبطال كلهم هزيمة ووجهك وضاح وثغرك باسم
أو قصيدته في كافور :

عيد بأية حال عدت يا عيد بما مضى أم لأمر فيك تجديد؟
أو قصيدة أبي تمام في المعتصم وفتح عمورية :

السيف أصدق أنباء من الكتب في حده الحد بين الجد واللعب

أليس مر هذا الإعجاب هو خصائص هذه الآثار البيانية والأدبية . وأليس
مرجعه إلى صدق الشعور وحرارة العاطفة وروعة التصوير وجمال النظم
وإحكام البيان ؟

فإذا ما وقفت أمام نهج البلاغة للإمام على بن أبي طالب ، أو كلية ودمنة
لابن المقفع . أو أمام البؤساء ترجمة حافظ إبراهيم ، أو حيال « ماجدولين »
للبنفلوطي ، أو « مجنون ليلي » لشوقي ، أو « الأيام » لطلح حسين ، أو « على
هامش السيرة » له ، أو « عبقرية عمر » للعقاد . فأعجبك وراعتك ، وسحرك ،
ما تجد في هذه الآثار الأدبية الكاملة من حذق وبراعة ولطف حيلة وبلاغة
تصوير ، أفليس مرجع ذلك كله إلى خصائص هذه الآثار الأدبية وشخصية
مؤلفه الأديب أو الشاعر أو الخطيب أو الكاتب ، واكتمال فنه الأدبي ، في
أثره المعجب ؟ وألست تجد من ذلك الكثير من الآثار والنصوص ؟ .

فإذا ما ترقى بك ذوقك في الحكم الأدبي ، فقلت : أنا لا أستجيد من

الآثار الأدبية إلا الآثار الخالدة على مر الأيام ، والتي تقرؤها وتعيد قراءتها فتجد نفسك كما بدأت متلهفة معجبة مأخوذة بجلال هذا البيان وعظمته وعبقريته صاحبه ، وتجد هذا الأثر الأدبي أمام ذوقك وطبعك غضا فاضرا باهرا كأنما كتبه صاحبه لساعتك التي أنت فيها ، وتجد ما فيه من حديث عن النفس الإنسانية ، وعن الحياة وعبرها وعظايتها وأحداثها ، وعن البشر وأخلاقهم ومطامحهم وألوان تفكيرهم في الحياة ، وعن الأهداف المثلى للإنسانية كافة والمبادئ الشريفة التي يجب أن تكون دستور الأمم والجماعات والأفراد . تجد ما فيه من ذلك كله جديداً كأنه كتب لهذا العصر ، إذ يصف الحياة التي يحياها الناس ويحياها أنت معهم . . فقل لي بربك : هل تجد أثرا ترفعه في نفسك إلى هذه المنزلة ، وتراه مستوفيا لهذه الخصائص ، وتطمئن نفسك حين تقول : هذا هو ضالتي المنشودة وطلبتي المأمولة وبغيتي المرجاة ، وهل تجد أثرا سله ذلك كله وسلم من القصور والعيب والمؤاخذة وسقطات الطبع والأسلوب والنظم والفكرة ، وهل تجد له ذلك كله مع طوله وإحكامه وروعته وجدته ونبيل دعوته وأهدافه وجلال غايته ورسالته ؛ وبعد مرماه وعمق منزعه ؛ وأنه يتناول الإنسانية كافة والعصور قاطبة ، ويصلح لكل مكان وزمان ، ولا يبلى مهما توالى الأيام والعصور .

إي وربى إن هذا هو الغاية البعيدة والأمل المحال ، والسر الدفين في ضمير الأيام ، والكنز المخبوء في جوف صحراء عرضها الأرض والسماء . ولن تجده مهما حاولت أن تجده إلا في كتاب واحد وأثر أدبي خالد ، وفي هذا البيان ذى المجد الطريف والتأد ، إي وربى إنك لن تجده إلا في القرآن الكريم والذكر الحكيم والكتاب المعجز والأثر الخالد ، وفي هذا البيان الكامل والبلاغة الساحرة والفصاحة النادرة والآيات البينات الباهرة . إي وربى ، وهل تجد أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ؟ أو هل ترى نظماً أحسن تأليفاً وأشد تشاكلاً وروعة من نظمه العجيب وأسلوبه الغريب المخالف لأساليب كلام العرب في نظمها وثرها ؟ أو هل تجد هذه

الروعة التي تجدها له في قلوب السامعين وأسماعهم سواء المصدق منهم والجاحد ،
وتلك الجدة التي تراها له على مر الأيام وتوالي العصور ؟ .

وإذا لم تصعد إلى هذه المرتبة البعيدة إلا بكتاب واحد هو القرآن الكريم .
ثم حاولت الموازنة بينه كله أو بعضه أو القليل الأقل منه وبين ما سواه من
الآثار الأدبية فلم نجد مجالاً للموازنة ولا موضعاً للمشابهة لبعده ما بين الأثرين
كبعده ما بين السماء والأرض . فهل ذلك إلا لأنه كتاب معجز وأنه آية الآيات
والناطق بصدق إعجازه وعظمة بلاغته .

وقد يقول معاند أو مكابر : أين أنت وآداب اللغات؟ وأين أنت وما فيها
من آثار أدبية خالدة؟ فلشكسبير وجوته وهو جو وغيرهم من أفذاذ الغرب
الكثير من الآثار الخالدات . بل أين أنت من الكتب السماوية المقدسة؟
وأين أنت من « مزمار داود » ، وحده؟ أفلا يشبه أثر من هذه الآثار كلها
القرآن الكريم في مكانته وبلاغته وإعجازه . وأنا أقول لك أيها القارئ
الكريم : لعلك قد قرأت بعض الآثار الأدبية لهؤلاء الأعلام الخالدين في
الأدب . ألسنت تجد شكسبير مثلاً في أية قصة من قصصه وفي جميع آثاره
مترجماً عن عواطف النفس الإنسانية معبراً عن آمالها وآلامها مجيداً الحديث
عنها؟ ولكن هل تجد له هذا السمو والرفعة ونبل الدعوة وجلال الغاية ،
وعظمة الهدف والرسالة ، ودقة التحليل للعواطف والمشاعر والنفوس
الإنسانية كافة؟ وهل تجد له هذا التوجيه الجديد للبشرية جميعاً ، وهذا الدعم
القوى لمبادئ العدالة والحق والحرية والإخاء والمساواة في الحياة . كلا وربك ،
وان تجد لأعظم من شكسبير شيئاً من ذلك قليلاً أو كثيراً . . فضلاً عن
خصائص الفن الأدبي الرائع الكامل التي لن تجد ما يشبهها في غير
القرآن الكريم .

وهاك أروع ما في الكتب السماوية المقدسة يانا ، وهو مزامير داود .
خذ أية قطعة منها وليكن « المزمور الأول » ، وهو بنصه كما في الكتاب
المقدس :

« طوبى للرجل الذى لم يسلك فى مشورة الأشرار ، وفى طريق الخطاة لم يقف ، وفى مجلس المستهزئين لم يجلس ، ولكن فى ناموس الرب مشورته ، وفى ناموسه يلهج نهاراً وليلاً ، فىكون كشجرة مغروسة عند مجارى المياه ، التى تعطى ثمرها فى أوانه ، وورقها لا يذبل ، وكل ما يصنعه ينجح . . .
ليس كذلك الأشرار ، لكنهم كالعصاة التى تذبذبها^(١) الريح ، لذلك لا يقوم الأشرار فى الدين ، ولا الخطاة فى جماعة الأبرار ، لأن الرب يعلم طريق الأبرار ، أما طريق الأشرار فتهلك . . .

ونحن مع تقديرنا لهذا النص الدينى ، ومع علمنا بأنه مترجم ، نعود بك إلى ناحية أخرى فى الموازنة ، وهى أنه شتان ما بين هذه الروح والقرآن الكريم ، ومن المحال الموازنة بين ذلك وبين مثل قوله تعالى : « قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين . لا شريك له ، وبذلك أمرت ، وأنا أول المسلمين » ، أو مثل قوله تعالى : « ولا تمش فى الأرض مرحاً إنك لن تحرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولاً » ، أو مثل قوله تعالى : « قد أفلح المؤمنون الذين هم فى صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون ، والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون . . . إلى غير ذلك من روائع بلاغات القرآن الكريم .

وبعد فإن القرآن كله معجز . وهو نمط فريد رائع ، ومستوى رفيع شريف ، من البلاغة والفصاحة والبيان والروعة والسحر ، والاختصاص بمجامع القلوب ومشاعر النفوس ، فكله منهج واحد فى النظم ، ودرجة واحدة فى الفصاحة ، « قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً^(٢) » .

وأخيراً نقول لك : إنك أيها الناقد الحصيف حين تحلل أثراً أدبياً ما ، فكشفت عن كل ما يتصل بهذا الأثر من عوامل البيئة والعصر ومن شخصية

(١) هذا خطأ والصواب : تذبذبها .

(٢) وذهب بعض علماء البلاغة إلى أن بلاغة القرآن تتفاوت مع الإعجاز ، راجع تفصيل ذلك

فى كتب البلاغة وفى الإتيان للسيوطى ص ٢١٠ ج ٢

صاحبه ، وتوازن بينه وبين ما يشبهه من الآثار ، وتبين خصائص فنه الأدبي وما يرجه إليه من أهداف ، وما يدعو إليه من آراء وأفكار ، ثم تضعه بعد ذلك في منزلته الصحيحة من البيان والأدب والتفكير الإنساني ولبحث قضية الإعجاز يكون عليك :

- ١ — أن تبحث عن البيئة الأدبية التي نزل فيها القرآن الكريم ، وأن تدحض أنه كلام بشر ، وأن تثبت ذلك بالحجج الدامغة .
 - ٢ — ثم عليك أن تحلل خصائصه الأدبية والفنية تحليلا كاملا ، وتوازن بينه وبين شتى الآثار الأدبية الخالدة .
- وبعد هذه الدراسة تفهم أسرار إعجازه .

آراء في الإعجاز

(١)

نعني العلماء من قديم بالتأليف في إعجاز القرآن الكريم ، ومن أشهر هذه المؤلفات :

- ١ — إعجاز القرآن لأبي عبيدة المتوفى عام ٢٠٧ هـ ، ولعل الذي دعاه إلى تأليفه هو الرد على بعض المعتزلة الذين ذهبوا إلى أن فصاحة القرآن الكريم غير معجزة بنفسها .
- ٢ — نظم القرآن لإمام العربية الجاحظ المتوفى عام ٢٥٥ هـ . وقد كشف فيه الجاحظ عن أسرار إعجاز القرآن الكريم بأسلوبه البليغ ، وبيانه الفصيح المأثور .
- ٣ — إعجاز القرآن في نظمه وتأليفه لأبي عبد الله محمد بن يزيد الواسطي المتوفى عام ٣٠٦ هـ ، وقد شرحه عبد القاهر الجرجاني شرحا كبيرا سماه المعتضد ، وشرحا آخر أصغر منه .
- ٤ — نظم القرآن لابن الإخشيد ، وكذلك لابن أبي داود م ٣١٦ هـ .

- ٥ = كتاب إعجاز القرآن للرماني ٣٨٣ هـ ، وكذلك للإمام الخطابي
م ٣٨٨ هـ ، وكذلك للإمام القاضي أبي بكر محمد بن الطيب الباقلائي م ٤٠٣ هـ .
٦ - دلائل الإعجاز لعبد القاهر الجرجاني م ٤٧١ هـ .
٧ - كما ألف في الإعجاز فخر الدين الرازي م ٦٠٦ هـ ، وابن أبي
الإصبع م ٦٥٣ هـ ، والزملكاني م ٧٢٧ هـ . والرافعي المتوفى عام ١٩٢٧ .

(٢)

ولقد كان الجعد بن درهم في عصر بني أمية يقول : إن فصاحة القرآن
الكريم غير معجزة^(١) ، وجاء بعده أبو اسحاق ابراهيم النظام المعتزلي
المشهور ، فذهب إلى أن سبب الإعجاز هو الصرفة ، ومعنى هذا أن القرآن
لا يرتفع من الناحية البيانية عن طاقة البشر وقدرتهم ، لولا صرف الله لهم
أن يأتوا بمثله ، ويروى عنه رأى آخر ، وهو أن الإعجاز إنما كان من حيث
إخبار القرآن الكريم بأنباء الغيب الماضية والمستقبلية .
ولكن الجاحظ يثبت الاعجاز للقرآن الكريم ، ويرجعه إلى بلاغته
الساحرة ، وخصائصه البيانية الرائعة ، ونظمه العجيب وفصاحته الباهرة ،
فالقرآن في الذروة من البلاغة ، وفي القمة من الإعجاز ، وقد تحدوا به فلم
يقدروا ، وسجل عليهم العجز عن معارضته ، واعترف أساطين البلاغة منهم
ببلاغته ، حتى قال الوليد ابن المغيرة بعد أن سمع القرآن من الرسول : والله
ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، والله
ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة ،
وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه مخدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه .
وعلى نهج الجاحظ سار عبد القاهر الجرجاني صاحب دلائل الإعجاز ،
الذي دافع عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه إلى خصائص النظم العربي
ودقائقه ، وما « تجدد »^(٢) بالقرآن من عظيم المزية ، وباهر الفضل العجيب

(١) سنعود إن شاء الله في موضع آخر إلى هذا الرأي بالبحث والنقد

(٢) ص ٦ المدخل إلى دلائل الاعجاز من الطبعة الثانية .

من الوصف ، حتى أعجز الخلق قاطبة ، وحتى لم يحمر لسان ، ولم بين بيان ، ولم يساعد إمكان ، وكما يقول عبد القاهر أيضا : « أعجزتهم »^(١) مزايا ظهرت لهم في نظمه ، وخصائص صادفوها في سياق لفظه ، وبدائع راعتهم من مبادئ آية ومقاطعها ، ومجاري ألفاظه ومواقعها ، وفي مضرب كل مثل ومساق كل خبر ، وبهرهم أنهم تأملوه سورة سورة ، وعشراً عشراً ، وآية آية . فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو مكانها ، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول ، وأعجز الجمهور .

أما القاضي الباقلاني فقد أحصى جملة وجوه إعجاز القرآن في ثلاثة : ما في القرآن من الإخبار عن الغيب ، مما لا يقدر عليه البشر ، ولا سبيل لهم إليه . وما فيه من أخبار الأمم القديمة . مع أمية الرسول الكريم وعجيب تأليفه . وتناهيه في البلاغة إلى الحد الذي يعلم عجز الخلق عنه . . . وقد شرح الباقلاني وجوه الإعجاز في نظم القرآن الكريم ، وتحدث عن التحدى والإعجاز وكل ما يتصل بهذا الباب ، في كتابه المشهور « إعجاز القرآن الكريم » ، الذي قال فيه ابن العربي : إنه لم يصنف كتاب مثله .

وتحدث القاضي عياض في كتابه « الشفاء » عن إعجاز القرآن الكريم ، ورجعه إلى وجود أربعة : أولها : حسن تأليفه والتسام كلبه ، وفصاحته ووجوه إيجازه وبلاغته الخارقة ؛ وثانيها : صورة نظمه العجيب والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ومناهج نظمها ونثرها . وثالثها : ما انطوى عليه من الإخبار بالمغيبات ، ورابعها : ما أنبأ به من أخبار القرون السالفة ، والأمم البائدة ، والشرائع الدائرة^(٢) .

ومن العلماء من يذكر من وجوه الإعجاز : جدة القرآن على التلاوة ، وجمعه لعلوم ومعارف لم يحط بها أحد من علماء الأمم ، وما حواه من أخبار الأولى والآخرة ، ومشاكله بعض أجزاءه بعضاً ، وحسن اتلاف أنواعها

(١) ص ٢٢ دلائل الإعجاز .

(٢) ص ٢١٧ الشفاء طعة ١٣١٢ .

والتأم أقسامها ، وحسن التخلص من قصة إلى أخرى ، والخروج من باب إلى غيره .. ومنهم من يرجع الإعجاز إلى خلو القرآن الكريم من التناقض واشتماله على المعاني الدقيقة ، ومنهم من يقول : إن وجه الإعجاز ماتضمنه القرآن من المزايا الظاهرة ، والبدائع الرائقة في الفواتح والمقاصد والخواتيم : في كل سورة ، وفي مبادئ الآيات وفواصلها .

وقد عرض السيوطي في كتابه « الإتيقان » ، لإعجاز القرآن الكريم ، وذكر بعضا من آراء العلماء فيه ^(١) . ورجع الإمام الرازي الإعجاز إلى : الفصاحة ، وغرابة الأسلوب ، والسلامة من جميع العيوب . ورجعه الإمام الزملي إلى تأليفه الخاص به . وقال ابن حازم في « منهاج البلغاء » : « وجه الإعجاز في القرآن من حيث استمرت الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحاءها في جميعه استمرارا لا يوجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وقال الإمام الخطابي : ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز في القرآن من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق ، ثم قال : حتى لا ترى شيئا من الألفاظ أفصح ولا أجزل ولا أعذب من ألفاظه ، ولا ترى نظما أحسن تأليفا وأشد تلاؤما وتشاكلا من نظمه ، وأما معانيه فكل ذي لب يشهدله بالتقدم في أبوابه ، والترقى إلى أعلى درجاته . إلى ما سوى ذلك من الآراء في إعجاز القرآن الكريم ، والتي تشعبت كلها ثم تلاقت في موجه ، في بحر لجي زاخر ، هو دون القرآن الكريم في روعته وجلاله ، ودون إعجازه العظيم في سره وسحره وعظمته . ولقد مضى القدماء في بحثهم عن الإعجاز ، ثم لم يستطيعوا الوصول إلى غايات الإعجاز ، وأعاد المحدثون الكلام فيه . وإن كانوا لم يرجعوا بباطل : فبعض جعل وجوه الإعجاز في ما يشتمل عليه القرآن من قوة روحية خارقة ومن أحداث التاريخ المجهولة ، ومن الأسلوب المنطقي والأسلوب العلي . وآخرون يرددون الآراء القديمة : شارحين أو ناقدين .

(١) ص ١١٨ ج ٢ الإتيقان طبعة القاهرة ١٩٣٥ ، وما بعدها .

(٣)

وهذا كله على أي حال صور من ثقافات العلماء ، وعقلياتهم ، وملسكاتهم ، ونزعاتهم في فهم أسرار بلاغة القرآن الكريم وإعجازه . ونحن نعود بالقارىء إلى فطرته الأدبية وحدها . فنطالبها بالفهم والنقد والحكم في قضية الإعجاز : . فقد نزل على محمد صلوات الله عليه كتاب من عند الله ، هو أعظم دستور عرف في شرائع الانسانية ، وأروع كتاب أثر في تاريخ البلاغة الأدبية ، ودعى العرب إلى الإيمان برسالته . وهو في ذلك محتج عليهم بالقرآن ، صباح مساء ، إلى أن يعارضوه إن كان كاذبا ، بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة . وكلما ازداد تحديا لهم ازدادوا عجزا وخزيا ، مع طول باعهم في فن البيان ، ومع هذا كانوا أكثر ما يكون خطيبا وشاعرا وبليغا . ثم مضت الأجيال ، والعلماء والأدباء والبلاغاء والنقاد والمؤلفون في كل عصر يعترفون بإعجازه ، ويقرون بقصورهم عن بلوغ منزلته في البلاغة والفصاحة والبيان ، ولا تزال الفطر الأدبية الخالصة تهتز اهتزاز الإعجاب والاكبار ، كلما سمعت آية من آياته ، أو سورة من سورته . ولا تزال الموازنة بينه وبين ما سواه ، من الآثار ، الأدبية والدينية والعقلية مستحيلة ممتنعة ، لبعدهما بينه وبين سواه من الآثار ، كبعد ما بين السماء والأرض ، فهل ذلك إلا لأنه كتاب الله الحكيم ، ومعجزة محمد الباهرة ، والآية الناطقة على صدق رسالته ؟ وهل ذلك إلا مظهر لبلاغة القرآن الباهرة ، ودليل على إعجازه وأنه من عند الله .

وبعد فإتنا قبل أن نختم هذا البحث نقول : إن أظهر أسرار إعجاز القرآن الكريم يتجلى فيما يلي :

١ - بلاغة القرآن النادرة ، التي لا يحيط بها وصف ، ولا يستطيع أن يكشف خصائصها باحث ، ويكشفك أن علوم البلاغة والنقد والإعجاز قد وضعت للكشف عن مظاهر هذه البلاغة وأسرارها ، ثم هي للآن ، وبعد مضي أكثر من عشرة قرون من الزمان ، لا تزال في أول الغاية ، على أن بلاغة القرآن أوسع مدى من البحث عن استعاراته وكنائياته وتشبيهاته وأمثاله ،

وحكمته وإيجازه ومجازه ، فهي تشمل كل خصائص الفن الأدبي والبيان في القرآن الكريم .

٢ — روعة القرآن وجدته ، وأخذه بالافتدة والأسماع والمشاعر والعواطف والنفوس .

٣ — عظمة تصويره للحياة الانسانية في ماضيها وحاضرها ومستقبلها ، وللنفس البشرية في سلمها وحربها ، ولهوها وجدها وأملها وألمها . وكفرها وإيمانها ، وللثقل العليا في الحياة المهذبة الكريمة التي يعمل لها الانسان ، وتسير لشايتها الأمين الانسانية .

٤ — سمو الروح في القرآن الكريم ، فهو ليس كتاب قصص أو تسلية ، أو أدب أو حكمة أو فلسفة ، أو تاريخ أو اجتماع ، وإنما هو خلاصة لكل ما في الحياة من ثقافة وحقائق . ويزيد على ذلك بأنه منهج كامل للحياة الروحية والاجتماعية والبشرية الكاملة الصحيحة السليمة ، وما أجدرنا أن نقول : إنه كتاب الانسانية كافة .

٥ — جلال أثره الأدبي في لغة العرب وأدبهم ، وفي حياتهم ؛ وفي حياة المسلمين والعالم .

٦ — خلوده على مر الأيام والأمكنة والعصور ، وعجز الناس عن معارضته ، مع أنه تحدى ولا يزال يتحدى الناس كافة ، ومع ما يشتمل عليه تاريخ العالم من أفذاذ المفكرين والأدباء والبلغاء .

٧ — بساطة أسلوب القرآن الكريم ووضوحه وجماله وقوته وجزالته وعذوبته .

٨ — شرف معانيه ، وسمو حكمه ، وجلال دعوته ، وصدق حجته ، وعمق منزعه ، وعلو تصويره .

٩ — والدليل الأخير على الإعجاز هو عظمة أغراضه ومقاصده ، ورفعة مراميه ومناحيه ، وعبقريته غاياته ورسالاته ، وتوجيهه البشرية كافة إلى حياة جديدة فيها الأمل والسعادة ، والأمن والسلام ، والخير المطلق ، والإخاء (٤ — تفسير القرآن لتفاجي)

والحق والعدالة والحرية والمساواة بين الناس ، وصدق الله العظيم حين يقول :
« تبارك الذي نزل الفرقان على عبده ، ليكون للعالمين نذيراً » .

بلاغة القرآن

إن خصائص القرآن البيانية ، وما اشتمل عليه من روائع الحكم والأمثال ،
وبليغ المجاز ، ودقيق التشبيه ، وجيد الاستعارة والكناية ، وساحر الطباق
والجناس ، ومحكم الإيجاز والإطناب المفيد ، كل ذلك كثير جداً ، إلى حد
يصعب بيانه إلا في مؤلفات ضخمة .

أما أغراضه ومقاصده فحسبك أنه قد جال في كل غرض : في الاجتماع
والسياسة والحكمة والقصص والزهد والأدب والتعليم والإرشاد والوعد
والوعيد ، وفي الدين والتشريع والتوجيه ، وهو في كل ذلك كتاب الله الحكيم
المعجز الصادق .

وأما معانيه فحسبك ما تشتمل عليه من صدق وحق ووضوح وجلال ،
وهي من غير معين العرب الذي ينهلون منه ، لاطمئنان النفوس إليها ، وارتياح
القلوب لها ، ولما تشتمل عليه من الحججة الباهرة ، والأدلة الساطعة والأحكام
الصائبة ، وبحق أنه معجزة البيان ، وآية السماء .

وأما ألفاظه فحسبك جزئها وقوتها ، مع السلاسة والعدوابة ، ومع البعد
عن الوحشى والغريب النافر والسوقى المتبذل والبعيد المعقد ، فوق ما تتحلى به
من سحر وجمال ، وما تنطوى عليه من أسرار الفصاحة ، وخصائص البيان
والإعجاز .

وأما بلاغة القرآن فهي حديث الدنيا ، والقضية التي سلم بها أساطين البيان ،
وخلق البلاغة ، رأيت هذا التحدى مع العجز الواضح ، ومع الخزي الأليم ،
وهل سمعت قصة الوليد بن المغيرة ، وقد تردد على محمد خفية وخيفة ، وسمع
منه ثم قال لقومه : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ولا برجزه ولا بقصيده ،
ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا ، والله إن لقوله

الذى يقول حلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، إنه لثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . ثم رأيت هذا الأعرابي وقد سمع قوله تعالى : فاصدع بما تؤمر ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته ؟

ولعلك تعلم أن العرب أمة تحب البلاغة ، وتعشقها ، وتبجدها ، ويهزها البيان الجيد ، وفيها مصاقع الخطابة ، ومقاول الفصاحة ، وأعلام الشعر ، لا تحسب سحر البيان إلا لها ، ، وبلاغة الكلام إلا وقفاً عليها ، وكانت كما يقول الجاحظ : أكثر ما كانت شاعراً وخطيباً ، وقد دعاهم فعجزوا ، ثم تحدى به أقصاهم فشدهوا ، ثم حاروا في وصف بيا نهو إعجازه ، وخروا لحكمته ساجدين . أفليس ذلك كله مع قدمناه لك أدلة الإعجاز وشواهد حجته وبرهانه ؟ أأنت إذا حاولت أن تبحث عن أثر أدبي خالد على مر الأيام والعصور ، تجد فيه الإنسانية هداها ، والفضيلة مبتغاها ، والنفس البشرية رشدتها وسعادتها ، لا تجد أمامك إلا القرآن الكريم والذكر الحكيم ؟ .

أيها القلم قف ، فبلاغة القرآن وإعجازه في غنى عن الدليل ، ومتى تحتاج الشمس في وجودها إلى برهان ؟ إن سر بلاغته وإعجازه يستعصى على الفهم ، ويعلو على العقول ، لأنه آية الله ، والمعجزة الخارقة التي اختص بها رسوله الأعظم محمد صلوات الله عليه . وإن أسلوب القرآن نمط فريد من البلاغة والروعة وجلالة الروح وإشراق البيان وجمال الديباجة وقوة المنطق وعبقريته التصوير والتعبير ؛ أسلوب جمع بين الجزالة والسلاسة والقوة والعدوثة وحرارة الإيمان وتدفق البلاغة ، فهو السحر الساحر ، والنور الباهر ، والحق الساطع ، والصدق المبين .

نزل الذكر الحكيم في أسلوب لاهو شعر ولاهو سجع ، ولاهو مزاجية ولاهو نثر مرسل ولاخطابة ، إنما هو نظم رائع وألفاظ عذبة ومعان سامية حصيفة ، وجلال وروعة ، جمع بلاغة جميع أساليب البيان وفصاحة شتى خصائص النظم ، واستوفى كل عناصر الإعجاز . تحدى الله به العرب فعجزوا ، فتحدهم بسورة منه فبهروا ، فتحدهم بأقصر سورة ، ثم بعدة آيات نخرسوا ،

ولما سمعه فصحاؤهم وأرباب البيان فيهم سجدوا له خاشعين ، وما إيمان عمر حين سمع « طه » ، وما فزع عتبة بن ربيعة وقوله : « والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر » ، حين سمع « فصلت » ، وما تردد بلغاء العرب على الأماكن التي يتعبد فيها محمد ليلا ليسمعوا هذه البلاغة الباهرة خفية ، وما عجزهم بعد التحدى ؛ ما كل ذلك إلا دليل الإعجاز ، وعظمة البيان وجلال الأسلوب .. يقول أبو بكر الباقلاني في فصاحة الذكر الحكيم : « إن نظم القرآن على تصرف وجوهه واختلاف مذاهبه خارج عن المعهود من نظام كلام العرب ومباين للمألوف من ترتيب خطابهم ، وليس للعرب كلام مشتمل على هذه الفصاحة والغرابة والتصرف البديع والمعاني اللطيفة ، والفوائد الغزيرة ، والحكم الكثيرة ، والتناسب في البلاغة والتشابه في البراعة على هذا الطول وعلى هذا القدر ، وإنما تنسب إلى حكيمهم كلمات معدودة ، وألفاظ قليلة ، وإلى شاعرهم قصائد محصورة يقع فيها أحيانا الاختلال والاختلاف والعمل والتكاف والتجوز والتعسف . وقد جاء القرآن على كثرته وطوله ، متناسبا في الفصاحة على ما وصفه الله تعالى به فقال : « الله نزل أحسن الحديث ، كتابا متشابها ، مثاني ؛ تقشع منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله » . . . « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا » .

وبعد فإنك تجد في كتاب الله الحكمة وفصيل الخطاب مجلوة عليك في منظر بهيج ومعرض رشيق ، ونظم أنيق ، غير متعاص على الأسماع ، ولا ملتو على الأفهام ، ولا مستكره في اللفظ ، يمر كما يمر السهم ، وبضوء كما بضوء الفجر ، ويزخر البحر ، طموح العباب ، جموع على الطارق المنتاب ، كالروح في البدن ، والنور المسيطر في الأفق ، والغيث الشامل ، والضياء الباهر ، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد .

التحدى بالقرآن

(١)

كانت العرب أمة مفطورة على البلاغة والأدب والشعر ، تحبها وتعشقها وتبجدها ، وترفع منزلة الشاعر المفلق والخطيب البليغ ، وتنوه بهما ؛ وكانت أكثر ما يكون خطيباً وشاعراً وأديباً ، فإذا نبغ في القبيلة شاعر ، أو ظهر فيها فصيح استبشرت واقتخرت ، وأقامت الموائد واحتفلت بذلك الشيء العظيم ، وأنت القبائل الأخرى فهنأتها ، وباركت شاعرها أو خطيبها .
كان ذلك فطرتها ، لحياة التأمل والاستغراق والخيال في الصحراء ، ولل فراغ الكثير الذي كانوا فيه ، ولحياة البادية التي تثير العاطفة وتستفز المشاعر ، وتلهم الشاعرية ، وتوقظ الخيال والبلاغة ، وكانت حياتهم القبلية مدعاة للتفاخر والتخاصم والحروب المستعرة ، فكانت حاجتها إلى البيان والشعر والشعراء على أشد ما تكون ..

ومن ثم فقد رأينا شعراء يلقى إليهم العرب القياد ، يصغون لقولهم ، ويسرون وفق رأيهم ، ويمضون ما يحكمون به بينهم يضعون الشريف النابه ، ويرفعون الخامل الوضيع ، فكان امرؤ القيس لشعره الساحر زعيماً ، وكان النابغة سفيراً للعرب في قصور المناذرة والغساسنة ، وحكماً بين الشعراء في سوق عكاظ ، وكان الأعشى يغير شعره مكانة الناس الاجتماعية بين العرب ، ويفد على كسرى وملوك الحيرة وبنى غسان ويسافر إلى الحبشة ، وكان قس ابن ساعدة الإيادي الخطيب يفد على قيصر والغسانيين .. إلى ما سوى ذلك من مظاهر تقدير العرب للبلاغة والبلغاء ، والشعر والشعراء ؛ وبحسبك أن الشاعر كان يعلن الحرب .. ويضع الهدنة . فإذا شاء أعلن السلام ودعا إليه .

(٢)

فلما بعث محمد الرسول الأعظم صلوات الله عليه برسالاته إلى الناس كافة ، نزل عليه كتاب مطهر من السماء . هدى ونور وبشرى ، فيه دعوة إلى التوحيد

والطهر والخير والحق . وفيه ما شاء الله أن يبلغه للبشر ، من شئون الحياة وأخبار الأمم ، وقصص دعاة التوحيد : من المرسلين والأنبياء ، وفيه كل ما يسعد الناس في دينهم ودنياهم وآخرتهم : من تشريع وعبادات وأخلاق وفضائل وآداب وتوجيه كامل إلى المثل العليا .

نزل هذا الكتاب الكريم ، والنور الخالد ، والوحي الصادق ، والدستور العظيم ، فكان في أعلى درجات البلاغة ، ومنازل الفصاحة ، لا يدانيه بيان ، ولا يشابهه أو يقاربه ما كان عند العرب من : شعر ، وخطب ومحاورات ، ومفاخرات ومناقرات ووصايا ومثل وحكمة وكهانة .

سمعه فصحاؤهم وبلغاؤهم نغروا ساجدين لفصاحته ، مدعنين لبلاغته ، مقرين بأنه نسيج وحده ، وعلم مفرد في طباقته في البيان . بهر الشعراء منهم ، فخرست ألسنتهم ، وسكنت شاعريتهم ، وضاع إلهامهم ، كما يضيع السراب في الصحراء ، وعجبت الخطباء فيهم ، فخرست مقاولهم ، وصمتت ملكاتهم . وفقدوا مواهب البلاغة والقول ، وذهبت كل بلاغة في تياره ، وضلت الفطر الأدبية العالية ، وفرت أمام أضواء نهاره .

ولكن زعماء الشرك أبوا الإذعان للدين ، والإيمان برسالة سيد المرسلين فأخذوا يحاربون الحق بالأوهام ، ويؤلبون قوى الشرك على دعوة الإسلام ، فقالوا في القرآن : هو شعر ، هو سحر ، وهي أساطير الأولين ، ولو نشاء لقلنا مثل هذا ، وإن هذا إلا اختلاق ، ورموا محمدا بالجنون .

فتحدهم الله عز وجل ، ورسوله محمد صلوات الله عليه ، بهذه المعجزة الظاهرة الخالدة ، بالقرآن الكريم ، والكتاب العربي المبين . قال الله تعالى : « وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ، ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين^(١) » ، وقال تعالى : « أم يقولون :

(١) البقرة : آية ٢٣ و ٢٤ - وهي مدنية

افتراه ، قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله ، وأن لا إله إلا هو ، فهل أنتم مسلمون ؟ ،^(١) وقال تعالى : « أم يقولون : تقوله ، بل لا يؤمنون . فليأتوا بحديث مثله ، إن كانوا صادقين ، »^(٢) ، وقال تعالى : قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ؛ ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ،^(٣) ، فسجل عجز البشر كافة وبين أنه لا يستطيع الإنس والجن - ولو تظاهروا - الوقوف أمام هذا التحدى ، ولا يقدرّون على مثل هذه البلاغة ، التي هي فوق طاقتهم . لأنها بلاغة خالق البشر ، ومصور الإنس والجن ، الملك القادر والمدبر الحكيم : الله جل جلاله ، وعلت قدرته وعظمت حكمته . . ونفى الله عز وجل عنه الشعر والسحر ، وبرأ رسوله من أن يكون شاعراً وساحراً ، ومن الافتراء والجنة ، ومن الكذب والخيال ، « والنجم إذا هوى ، ماضل صاحبكم وما غوى ، وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحى يوحى » . وقال تعالى : إنه لقول رسول كريم ، وما هو بقول شاعر ، قليلاً ما تؤمنون ، ولا بقول كاهن ، قليلاً ما تذكرون ، تنزيل من رب العالمين ، ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ، وإنه لتذكرة للمتقين ، وإنا لنعلم أن منكم مكذبين ، وإنه لحسرة على الكافرين ، وإنه لحق اليقين .

وهكذا رد الله عز وجل عليهم ، وبين كذبهم وافتراءهم ، ونفى ، عن القرآن الكريم ما وصفوه به ، وبين أنه منزل من السماء ، وأنه معجزة محمد ابن عبد الله الخالدة ، وتحداهم - إن كانوا كافرين وكاذبين ومضللين - إلى الإتيان بمثله ، أو بعشر سور مفتريات من مثله ، أو بسورة واحدة . فعجزوا أمام التحدى ، وباءوا بالخزي والهوان والذلة ، وصغرت نفوسهم وأقذارهم

(١) هود : آية ١٣ و ١٤ - وهي مكية

(٢) الطور : « ٣٣ و ٣٤ - وهي مكية

(٣) الاسراء : ٨٨ - وهي مكية

فلم ينطقوا بقول ، ولم يجاروا بلاغة القرآن في آية أو آيات أو سورة أو سور . واستمر عجزهم طيلة ثلاث وعشرين سنة ، لا فرق بين خطيبهم وبلغهم وشاعرهم ، ولا فرق بين كبير وصغير فيهم .

(٣)

ثم امتدت الأجيال ، وتوالى العصور ، والقرآن يتردد صدهاء في المشارق والمغرب ، فلم تر رجلاً وقف يتحدى بلاغة القرآن ، أو يدعى قدرته على مثل هذا البيان ، ولم تر مفكراً يؤلف كتاباً أو شاعراً ينظم قصيدة ، أو خطيباً يلقي خطبة أو كتاباً يحبر رسائل ومقالات ، ويزعم أحد منهم أن ما جاء به صنوه هذه الفصاحة ، أو شبيه ذلك السحر ، وفي تاريخ العربية فحول وفحول : كابن المقفع والجاحظ وابن العميد والبديع وكجير والفرزدق وبشار وأبي نواس وأبي تمام والمتنبى والمعري ولكن أين بلاغتهم من هذه البلاغة ؟ وأين منازلهم من هذه المنزلة .

وهل منهم إلا من أذعن وبهر ، وخشع وسحر ، وخضع وأخذ ، وأيقن أنه وحى السماء . . . وفيها كتب ومؤلفات في أعلى ذروة البلاغة : كنهج البلاغة ورسائل الجاحظ ، وكليلة ودمنة ، ومقامات البديع الخ .

ولكن ما هذه وغيرها من المؤلفات ؟ وما مكائنها وما قيمتها ؟ وما أثرها وما خطرهما في البلاغة الأدبية ، أمام كتاب الله المعجز ، وكلامه الحكيم . . بل أمامك الحديث النبوي الشريف ، وهو في الدرجة العليا من الفصاحة . ولكن أين يقع نظمه من نظم القرآن ، وكيف يوزن حسنه بحسن قدسى البيان ؟ .

واقراً إن شئت بلاغات البلغاء ، وفصاحة الفصحاء ، ثم انظر - بسكون طائر ، وخفض جناح ، وتفريغ لب ، وجمع عقل - في ذلك ، فسيتبع لك الفضل بين كلام الناس وبين كلام رب العالمين ، وتعلم أن القرآن

يخالف نظم كلام الأدميين^(١)، وأراد مسيلة الكذاب - فيما يروى - أن يقول كلاما، فخرى وعجز، وبان عليه العى والحصر، وباء بالخسران وسوء المنقلب، وأين يقع قوله «والليل الدامس، والذئب الهامس، ماقطعت «أسيد» من رطب ولا يابس، وقوله: والمبيدات زرعاً والحاصدات حصدا والذارت قمحاً، والطاحنات طحناً، والخابزات خبزاً، والثارذات ثرداً، واللاقيات لقماً، إهالة وسمناً، وما سبقكم أهل المدر»، وغير ذلك من كلامه، من ذلك السحر والنظم القرآنى العجيب المعجز، الذى لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد^(٢)؟

(٤)

وفى الأمم الكبيرة فلاسفة ومفكرون ومشرعون، وأدباء وكتاب وشعراء وخطباء، ولكل منهم كتب وآثار أدبية. ولكن هل هناك من هذه الآثار، ما يعادل فى أثره وخطره ومنزلته القرآن الكريم، بما اشتمل عليه من توجيه صالح كامل للحياة، وتحديد واضح للنهل الإنسانية العليا، ورسم لأهداف الأفراد والجماعات والشعوب ودعوة إلى الحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة والمدنية والعلم والعرفان؟ وهل من بينها كتاب يتعبد به الملايين من البشر ويقدمونه، ويعدونهم دستورهم فى الحياة، يقتبس الأدباء والبلغاء والعلماء منه ثروتهم الأدبية والعلمية؟ وهل من بينها أثر قام به دين، ونشأت عليه دولة، وحضارة استظل العالم برايتها أجيالا طوالا مثل القرآن الكريم، والكتاب الحكيم؟ وهل للقرآن - بربك - شبيه من الكتب، وحد لغة وحفظها وأذاعها فى العالم، ورفع شأنها وهذب ألفاظها وأساليبها، وأحيا فنونا جديدة من الأدب، وتأثر الناس ببلاغته وعذوبته وسحره، ووضعت بسببه شتى علوم الدين واللغة والأدب والبلاغة. . كالقرآن الكريم، وما أحدثه من آثار أدبية

وبيانية وفكرية في لغة العرب ، فوق آثاره في حياتهم السياسية والاجتماعية والدينية ، وفي حياة العالم والإنسانية كافة ؟ .

(٥)

ولا يزال البلغاء والنقاد ورجال الأدب والبيان حتى اليوم ، يؤمنون إيماناً صادقاً ، بأن لا سبيل إلى الوقوف في تيار بلاغة القرآن وفصاحته وإعجازه ، وأنه شيء انفرد به وحده ، وأنه كلام الله وكتابه ، وأن نبوة محمد صلوات الله وسلامه عليه إنما بنيت على هذه المعجزة ، وذلك الكتاب الحكيم المبين ، الذي عجز الإنس والجن عن أن يأتوا بمثله ، وستمضى وتتوالى الأجيال ، وهو يضيء كما يضيء الفجر ويזخر كما يزخر البحر ويفتن الألباب والعقول بسحره وجلاله وعظمته وحكمته وروعته ، وصدق الله العظيم حيث يقول : « الله نزل أحسن الحديث ، كتاباً متشابهاً ، مثاني ، تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ، ثم تلين جلودهم وقلوبهم إلى ذكر الله ، ذلك هدى الله يهدي به من يشاء ، ومن يضلل الله فما له من هاد ، .

العرب في عهد النبوة ورأيهم في إعجاز القرآن الكريم

(١)

في هذا البحث نذكر آراء العرب الذين عاصروا عهد الرسول : في القرآن الكريم وإعجازه ، ونحيط بموقفهم منه ، وإقرارهم بالعجز حيال تحديه ، ليعرف القارئ ما يتصل بالقرآن الحكيم وقضية الإعجاز .
روى أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبي ، فقرأ عليه القرآن ؛ فكأنه ررق له . فبلغ ذلك أبا جهل ؛ فأتاه فقال : يا عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا يعطوكه . لئلا تأتي محمداً . لتعرض لما قاله ، قال : قد علمت قريش أني من أكثرها مالا . قال : فقل فيه قولاً يبلغ أنك كاره له . قال : وماذا أقول ؟ فوالله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا بجزه ولا بتقصيده ، ولا بأشعار

الجن . والله ما يشبه الذى نقول شيئاً من هذا . والله إن لقوله الذى يقول حلاوة . وإن عليه لطلاوة . وإنه لمثمر أعلاه . مخدق أسفله . وإنه ليعلو ولا يعلى عليه . وإنه ليجطم ما تحته . قال : لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر ، ثم قال : هـذا سحر يؤثر ، بأثره عن غيره ، (١) .

وروى أن الوليد بن المغيرة لما سمع من النبي : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان . الآية » قال : والله إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمخدق ، وإن أعلاه لمثمر ، ما يقول هذا بشر (٢)

وجاء فى رواية أخرى (٣) أن الوليد قال لى مخزوم : والله لقد سمعت من محمد آتفا كلاماً ، ماهو من كلام الإنس ، ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أسفله لمخدق ، وإنه يعلو ولا يعلى عليه ، فقالت قريش : صبا والله الوليد ، والله لتصبأن قريش كلهم . فقال أبو جهل : أنا أكفيكموه ، فقعد حزينا ، وكلبه بما أحماه ، فقال فاتاهم فقال : تزعمون أن محمداً مجنون ، فهل رأيتموه يخفق ؟ وتقولون : إنه كاهن ، فهل رأيتموه قط يتكهن ؟ وتزعمون أنه شاعر ، فهل رأيتموه يتعاطى شعرا قط ؟ وتزعمون أنه كذاب ، فهل جربتم عليه شيئاً من الكذب ، فقالوا فى كل ذلك : اللهم لا . ثم قالوا : فما هو ؟ ففكر ، فقال : ماهو إلا ساحر ، أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه ، وما الذى يقوله إلا سحر يأثره عن مسيلة وعن أهل بابل ، فارتج النادى فرحاً ، وتفرقوا معجبين بقوله .

ويروى أنه لما اجتمعت قريش عند حضور الموسم ، قال لهم الوليد : إن وفود العرب ترد . فأجمعوا فيه - يعنى النبي - رأياً لا يكذب بعضكم بعضاً ، فقالوا : نقول كاهن . قال : والله ماهو بكاهن ولا هو يزمرته ولا سجعه .

(١) ص ٢٢٣ ج ١ الشفاء للقاضى عياض ، ١١٧ ج ٢ الإقنان للسيوطى ، ٣٥٧ إعجاز القرآن للزناضى

(٢) ص ٣٢٠ ج ١ الشفاء طبعة ١٣١٢ هـ

(٣) ص ١٥٨ ج ٤ للزمخشري .

قالوا : مجنون . قال : ما هو بمجنون ولا بمتخفه ولا وسوسته قالوا : فنقول شاعر ، قال : ما هو بشاعر ، قد عرفنا الشعر كله ، رجزه وهزجه وقريضه ومبسوطه ومقبوضه ، ما هو بشعر ، قالوا : فنقول ساحر ، قال : ما هو بساحر ولا نفثه ولا عقده ، قالوا : فما نقول ؟ قال : ما أتم بقائلين من هذا شيئاً إلا وأنا أعرف أنه لا يصدق ، وإن أقرب القول أنه ساحر ، وأنه سحر يفرق به بين المرء وابنه ، والمرء وأخيه ، والمرء وزوجته ، والمرء وعشيرته : فتفرقوا وجلسوا على السبل يحذرون الناس^(١) : فأنزل الله تعالى فيه . « ذرني ومن خلقت وحيداً ، الآيات (٢) .

وقال صاحب الطراز : قال الوليد بن المغيرة في القرآن ما قال ، حين جاء إلى الرسول ، وقال له : أتلى علي يا محمد ما أنزل إليك ، فأسرع الرسول إلى ذلك طمعا في الاتقياد ، فقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته ، إلى آخر السورة ، فقال : أن أعلاه لمورق ، وإن أسفله لمغدق ، وإن له لحلاوة (٣) .

ويروى أن أبا جهل قال في ملا من قريش : قد التبس علينا أمر محمد ، فلو التستم لنا رجلا عالما بالشعر والكهانة والسحر ، فكلمة ثم أتانا ببيان عن أمره . فقال عتبة : والله لقد سمعت الشعر والكهانة والسحر ، وعلمت من ذلك علما ، وما يخفى علي ، فأتاه فأسمعه رسول الله أوائل سورة فصلت فلما بلغ قوله . « صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » ، أمسك عتبة علي فيه ، وناشده الرحم ، ورجع إلى أهله ولم يخرج إلى قريش ، فلما احتبس عنهم قالوا : ما نرى عتبة إلا وقد صبا ، فانطلقوا إليه ، وقالوا : يا عتبة ما حبسك عنا إلا أنك قد صبات ؟ فغضب وأقسم لا يكلم محمدا أبدا ، ثم قال : والله لقد كلمته فأجابني بشيء ، والله ما هو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، ولما بلغ « صاعقة مثل صاعقة

(١) ٢٣٣ ج ١ الشفاء ؛ ٣٥٧ و ٣٥٨ إيجاز القرآن للرافعي

(٢) آية ١١ - ٢٥ سورة المدثر .

(٣) ٢١٨ الطراز

عاد وثمود ، ، أمسكت بفيه ، وناشدته بالرحم . وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخفت أن ينزل بكم العذاب (١) .
وقال عتبة حين سمع القرآن : يا قوم قد علمتم أني لم أترك شيئاً إلا وقد علمته وقرأته وقلته ، والله لقد سمعت قولاً ، والله ما سمعت مثله قط ، ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة (٢) . . . ويروى ذلك عن النضر بن الحارث .
ويروى أن أبا بكر سأل أقواماً قدموا عليه من بني حنيفة عن كلام مسيلة وما كان يدعيه قرآناً ، فقصوا عليه بعض كلامه ، فقال أبو بكر : سبحان الله ، ويحكم ، إن هذا الكلام لم يخرج عن آل - أي عن روية - فأين كان يذهب بكم (٣) .

ويقول السيوطي في الإتيان : وكانوا مرةً بجهلهم يقولون : أساطير الأولين اكتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، مع علمهم أن صاحبهم أمي ، وليس بحضرة من يملى أو يكتب في نحو ذلك من الأمور التي أوجبها العناد والجهل والعجز (٤) .

ويقول حسان بن ثابت في شعره فيما قال عن القرآن الكريم :

الله أكرمنا بنصر نبيه وبنا أقام دعائم الاسلام
وبنا أعز نبيه وكتابه وأعزنا بالضرب والاسلام
يتنابنا جبريل في آياتنا بفرائض الاسلام والأحكام
يتلو علينا النور فيها محمداً قسماً لعمرك ليس كالأقسام
فتكون أول مستحل حلاله ومحرم لله كل حرام (٥)

ويروى أن القصائد الجاهلية كانت معلقة على الكعبة ، فأنزلتها العرب لفصاحة القرآن إلا معلقة امرئ القيس ، فان أخته أبت ذلك عنادا ، فلما نزلت آية : وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، قامت إلى الكعبة فأنزلت معلقة

(١) ٣٨٧ ج ٣ الكشاف - ٢٣١ و ٢٣٢ ج ١ الشفاء (٢) ٢٢٣ ج ١ الشفاء

(٣) البلاغاني وهامش ٢٦٩ و ٢٧٠ الرافعي وكلام مسيلة تجده في إعجاز القرآن للباقلائي

ويقول حين يتحدث عنه صاحب الطراز : خرافات مسيلة ١٧٣ ج ٣

(٤) ١٢١ ج ٢ الإتيان طبعة ١٩٣٥ . (٥) ٣١٨ الديوان

أخيها (١) ، وإن كانت هذه الرواية مما لم يسلمها العلماء لأنها غير صحيحة .
وفي حديث إسلام أبي ذر وصف أخاه أنيساً فقال : والله ما سمعت بأشعر
من أخي أنيس . لقد ناقض اثني عشر شاعراً في الجاهلية أنا أحدهم ، وإنه
انطلق إلى مكة وجاءني بخبر النبي ، قلت : فما يقول الناس ، قال : يقولون .
شاعر ، ساحر ، كاهن ، لقد سمعت قول الكهنة فاهو بقولهم . ولقد وضعته
على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شاعر ، وإنه لصادق .
وإنهم لكاذبون (٢) .

وأخرج ابن هشام عن ابن شهاب الزهري أن أبا سفيان بن حرب وأبا
جهل ابن هشام والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله
وهو يصلي من الليل في بيته ، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه وكل لا يعلم
بمكان صاحبه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم
الطريق ، فتلاهموا . وقال بعضهم لبعض : لا تعودوا فلو رأكم بعض سفهاءكم
لا وقعت في نفسه شيئاً ... ثم انصرفوا حتى إذا كانت الليلة الثانية عاد كل رجل
منهم إلى مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع الفجر تفرقوا ، فجمعهم
الطريق ؛ فقال بعضهم لبعض مثل ما قالوا أول مرة ، ثم انصرفوا حتى إذا
كانت الليلة الثالثة أخذ كل رجل منهم مجلسه ، فباتوا يستمعون له حتى إذا طلع
الفجر تفرقوا ، فجمعهم الطريق ، فقال بعضهم لبعض : لا تبرح حتى نتعاهد
الآنعود ، فتعاهدوا على ذلك ؛ ثم تفرقوا ، فلما أصبح الأخنس بن شريق
أخذ عصاه ثم خرج حتى أتى أبا سفيان في بيته ، فقال : أخبرني يا أبا حنظلة عن
رأبك فيما سمعت من محمد ، فقال : يا أبا ثعلبة والله لقد سمعت أشياء أعرفها وأعرف
ما يراد بها ؛ وسمعت أشياء ما عرفت معناها ولا ما يراد بها ، قال الأخنس وأنا والذي
حلفت ، قال : ثم خرج من عنده حتى أتى أبا جهل فدخل عليه بيته ، قال :
يا أبا الحكم ما رأيت فيما سمعت من محمد ؟ فقال : ماذا سمعت ؟ تنازعنا نحن

(١) هامش ٢٣٧ ، ٢٣٨ الرافعي

(٢) ٢١٤ ج ١ الشفاء

وبنو عبد مناف الشرف : أطعموا فأطعمنا ، وحملوا فحملنا ، وأعطوا فأعطينا حتى إذا تماذينا على الركب وكنا كفرسى رهان قالوا : منا نبي يأتيه الوحي من السماء ، فمتى ندرك مثل هذه ؟ والله لا تؤمن به أبدا ولا نصدقه ، قال : فقام عنه الأحنس وتركه .

ويقول السيوطي في الإتيان : وقد أسلم جماعة عند سماع آية من القرآن ، كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي يقرأ في المغرب بالطور . قال : فلما بلغ هذه الآية : « أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون » ، إلى قوله « المصيطرون »^(١) كاد قلبي أن يطير ، قال : وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي^(٢) وروى أن أعرابيا سمع رجلا يقرأ : « فاصدع بما تؤمر » ، فسجد ، وقال : سجدت لفصاحته^(٣) ، وما يتصل بهذا ما يروى أن أعرابيا سمع آخر يقرأ : « فلما استياسوا منه خلصوا نجيا » ، فقال : أشهد أن مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام .

وروى أن عمر كان نائما في المسجد ، فجاءه رجل من بطارقة الروم يحسن العربية فأسلم وقال . سمعت رجلا من أسرى المسلمين يقرأ آية من القرآن فتأملتها فإذا هي قد جمع فيها ما أنزل الله على عيسى من أحوال الدنيا والآخرة : « ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه » الآية^(٤) .

وروى عن نصراني أنه مر بقارىء ، فوقف يبكي ، فقيل له : مم بكيت ؟ قال : للشجاء والنظم^(٥) . وعن كعب : وهو من أهل الكتاب الذين أسلموا : عليكم بالقرآن فإنه فهم العقول ونور الحكمة^(٦) .

وروى عن الأصمعي أنه سمع كلاما جارية ، فقال لها : قاتلك الله ما أفصحك ، فقالت : أو بعد هذا فصاحة ، بعد قول الله تعالى : « وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه » الآية ، فجمع في آية واحدة بين أمرين ونهيين وخبرين وبشارتين^(٧)

(١) آية ٣٥ - ٣٧ سورة الطور . (٢) ١٢٣ ج ٢ - الإتيان وراجعته في ٢٣١ ج ١ الشفاء

(٣) ٢١٠ ج ١ الشفاء (٤) ٢٢١ ج ١ الشفاء (٥) ٢٣١ ج ١ المرجع :

(٦) ٢٣٥ ج ١ المرجع . (٧) ٢٢١ ج ١ المرجع .

ولقد كان مسيلة يعارض القرآن الكريم بخرافات وأقوال سخيفة ، ذكر طرفاً منها الباقلاقي في كتابه ، . . « إعجاز القرآن » . وهي معارضات لا يمكن أن توزن بالقرآن في سموه وجلال إعجازه بأية حال ، وقد أصيب مسيلة بالحزى والذل والهوان أمام نفسه وعند الناس .

ويقول صاحب الشفاء : روى أن ابن المقفع طلب معارضة القرآن ، ورامه وشرع فيه : فمر بصبي يقرأ : وقيل يا أرض ابلعي ماءك ، فرجع فحى ماعمل ، وقال : أشهد أن هذا لا يعارض ، وما هو من كلام البشر ، وكان من أفصح أهل وقته . وكان يحيى بن حكم الغزال بليغ الاندلس في زمنه ، فحكى أنه رام شيئاً من هذا ، فنظر في سورة الإخلاص ليحذو على مثالها وينسج بزعمه على منوالها . قال : فاعترتني منه خشية ورقة حملتني على التوبة والإجابة (١) .
ويتهمون المتنبي والمعري وغيرهما بمعارضة القرآن الكريم ، وهذا لم يصح عن أحد منهم .

وما روي من آثار معارضة القرآن لا يوافق ذوق علي وضعه في كفة واحدة مع القرآن الكريم ، ويقول الدكتور طه حسين : نستطيع أن نطمئن إلى أن القرآن لم يجد له مقلداً ؛ ولم يجد له تلميذاً . هو واحد في بابه ، لم يسبق ولم يلحق بما يشبهه (٢) .

ويقولون إن أمية قد وقعت منه في شعره عدة معارضات للقرآن الكريم . وحاش لله أن يوزن شعر أمية الديني الذي نظمه بعد بعثة الرسول ببلاغة القرآن الكريم ، ولقد نظم أمية قصصاً دينية كثيرة ، كقصة مريم ، وقصة إبراهيم ونوح وغيرهم : ولكن أين هذه القصائد من هذا الإعجاز وذلك السحر القرآني العظيم ، والكونيات في شعر أمية والأساطير وقصص خلق العالم ، وقصص الأنبياء ، كل ذلك لا يقبل ذوق أن يعده معارضة للقرآن ، وأين الثريا من الثرى كما يقولون ؟

(١) ص ٢٣٢ ج ١ الشفاء للقاضي عياض طبعة ١٣١٢ هـ

(٢) ص ٣٢ من حديث الشعر والنثر للدكتور طه حسين

وفي شعرا مية يبدو تأثيره الواضح أحيانا يبلغة القرآن ومعانيه وأساليبه ،
كما تجده في هذه الآيات :

عند ذى العرش يعرضون عليه يعلم الجهر والكلام الخفيا
يوم تأتيه وهو رب رحيم إنه كان وعده مأتيا
يوم تأتيه مثل ما قال فردا لم ينر فيه راشدا وغويا
أسعيد سعادة أنا أرجو أم مهان بما كسبت شقيا
رب كلا حتمته وارد لنا ر كتابا حتمته مقضيا
وقد كان الشعراء في أول عهد النبوة طوائف ثلاثا :

فطائفة كانت تعارض رسالة محمد وتحاربها أشد حرب ، ومنهم : عبد الله
ابن الزبيرى ، وأبو سفيان بن الحارث ، وعمرو بن العاص ، وضرار بن
الخطاب ، وهؤلاء جميعا أسلموا بعد حين ، بعد أن بهرتهم بلاغة القرآن .
وطائفة أخرى كانت مع الرسول وأصحابه ، تدافع عن الدعوة والرسالة :
كحسان ، وكعب بن مالك ، وعبد الله بن رواحة ، وهؤلاء إعجابهم ببلاغة
القرآن وتأثرهم به معروف .

وطائفة ثالثة كانت تعيش في نجد بعيدا عن مكة والمدينة ومواطن نزول
الوحي ، ومن هؤلاء : الحطيئة ، وكعب بن زهير ، وغيرهما . وقد ظل شعرهم
جاهليا حتى أسلموا وسمعوا القرآن وتأثروا بفصاحته وبيانه .
وأنتم تعلمون قوة شعر حسان في الجاهلية ولينه في الإسلام ، انهارا
بجلال القرآن وروعته . وتعلمون شموخ شعر أمية بن أبي الصلت في الجاهلية
واستخذه في الإسلام ؛ عجزا أمام هذا السحر الساحر ، والبلاغة المتدفقة ،
والإعجاز العجيب .

ويروون أن لييدا لم يقل شعرا في الإسلام إلا بيتا واحدا :

ما عاتب المرء الكريم كنفسه والمرء يصلحه المجلس الصالح
وقيل قوله :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى اكتسيت من الإسلام سربالا
وقال له عمر : أنشدني من شعرك ، فقرأ سورة البقرة ، وقال : ما كنت

(٥ - تفسير القرآن لتفاجي)

لأقول شعرا بعد إذ علمني الله سورة البقرة ، فزاد عمر في عطائه (١) .
ويروى أن عمر كتب إلى عامله : أن سل لييدا والأغلب ما أحدثا من
الشعر في الإسلام ، فقال الأغلب :

أرجزا سألت أم قصيدا؟ فقد سألت هينا موجودا
وقال لييد: قد أبدلني الله بالشعر سورة البقرة وآل عمران، فزاد عمر في عطائه (٢) .
وكما تأثر الشعراء بالقرآن وبلاغته ، فكذلك تأثر الخطباء والكتاب
والبغاء في عصر الرسول وبعده ، يقول ابن خلدون في مقدمته في بيان السبب
في أن كلام الإسلاميين من العرب أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام
الجاهلية ، ومثورهم ومنظومهم : السبب في ذلك أن هؤلاء الذين أدركوا
الإسلام سمعوا الطبقة العالية من الكلام في القرآن والحديث . الذين عجز
البشر عن الإتيان بمثلهما ، لكونها ولجت في قلوبهم ، ونشأت على أساليبها
فحوسسهم ، فهضت طباعهم وارتقت ملكاتهم في البلاغة عن ملكات من قبلهم
أهل الجاهلية ؛ ممن لم يسمع هذه الطبقة ، ولا نشأ عليها ، فكان كلامهم في نظمهم
وثرهم ، أحسن دياجة ، وأصنى رونقا ، من أولئك ؛ وأرصف مبنى ،
وأعدل تثقيفا . بما استفادوه من الكلام العالي الطبقة (٣) .

وقد ظل تأثر الأدب العربي واللغة بالقرآن الكريم واضحا جليا في كل
عصر من عهد النبوة حتى اليوم : فهل بعد ذلك كله نحتاج إلى دليل على الإعجاز
وإقرار العرب بعجزهم أمام تحدى القرآن ، واعترافيهم بقصور ملكاتهم
ومواهبهم عن معارضته ؟ اللهم لا : وما أصدق ما يقول رسول الله صلوات
الله وسلامه عليه : « إن الله أنزل هذا القرآن أمرا وذاجرا ، وسنة خالية ،
ومثلامضروبا : فيه نبؤكم ، وخبر ما كان قبلكم ونبا ما بعدكم وحيكم ما بينكم ، ولا
يخلفه طول الرد ، ولا تنقضي عجائبه ، هو الحق ليس بالهزل ، هو الذكر
الحكيم ، والنور المبين ، والصراط المستقيم . وحبل الله المتين . » وفي الحديث :
قال الله تعالى لمحمد : « إني منزل عليك توراة حديثة : تفتح بها أعينا عميا وأذانا
صما وقلوبا غلفا . فيها ينابيع العلم ، وفهم الحكمة ، وريع القلوب . »

(١) ص ٨٩ الشعر والشعراء لابن قتيبة .

(٢) طبقات الشعراء لابن سلام . (٣) ص ٨٠ مقدمة ابن خلدون .

(١)

سورة الفاتحة

وتسمى فاتحة الكتاب

تمهيد

السورة في القرآن الكريم طائفة من آياته مؤلفة من ثلاث فأكثر ، لها اسم تعرف به عن طريق الرواية المتواترة .

والسورة الأولى في القرآن الكريم هي سورة الفاتحة ، وتسمى أم الكتاب ، وأم القرآن : لأنها اشتملت على أهم الأصول التي نزل القرآن الكريم بها (١) ، وتسمى كذلك السبع المثاني لأنها تشتمل على سبع آيات تثنى في الصلاة ، والفاتحة لأنها أول سورة في المصحف الشريف ترتيباً ، أو نزولاً ، كما تسمى الأساس لأنها أساس لكل ما دعا إليه القرآن الكريم من عقيدة التوحيد ، أو لأنها تشتمل على ما فيه من الثناء عليه والتعبد بأمره ونهيه وبيان وعده ووعيده ، أو تشتمل على جملة معانيه من الأحكام العملية والحكم النظرية ، التي هي سلوك الطريق المستقيم ، والاطلاع على مراتب السعداء ومنازل الأشقياء ، كما تسمى سورة الكنز لاشتمالها على كل ثمين من الكلام . إن الفاتحة تتردد على السنة المسلمين في كل مكان ، وخاصة في الصلاة ، ومن ثم فهي جديرة بالفهم الحق ، وتقدر معانيها تدبراً كاملاً .

وقد أخرج البيهقي في الدلائل في نزولها عن أبي ميسرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لخديجة : إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء فقد والله خشيت أن يكون هذا أمراً ، فقالت : معاذ الله ما كان الله ليفعل بك ، فوالله إنك لتؤدى الأمانة وتصل الرحم وتصدق ، ثم إنه صلى الله عليه وسلم أخبر ورقة بذلك ، وإن ورقة أشار عليه أن يثبت ويسمع النداء ، وأنه صلى الله عليه وسلم لما خلا ناداه الملك : يا محمد قل : « بسم الله الرحمن الرحيم ، الحمد لله الخ . »

(١) الأم في الأصل : الراية ينصبها العسكر ، وهذه السورة مفزع أهل الإيمان إليها كما أن مفزع العسكر إلى الراية .

وقد ذكر في نزولها ثلاثة أقول : الأول أنها مكية ، وبدل عليه أن سورة الحجر مكية بالاتفاق وفيها قوله تعالى : « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، والسبع المثاني هي الفاتحة ، والثاني أنها مدنية نزلت بالمدينة ، والثالث أنها نزلت بمكة مرة وبالمدينة مرة (١) . ولهذا سماها الله بالمثاني لأنه ثنى انزالها مبالغة في تعظيمها . وقال البيضاوي المرجح أنها مكية . وآياتها سبع بالاتفاق ، إلا أن من عد البسمة آية منها جعل الآية السابعة « صراط الذين أنعمت عليهم الخ » ، ومن لم يعدها آية منها جعل الآية السابعة « غير المغضوب عليهم الخ » .

هذا ويقول الإمام محمد عبده في « المنار » : إن القرآن نزل لأمر اشتمل عليها ، وهي : التوحيد ، والوعد والوعيد ، والعبادة ، وبيان سبيل السعادة ، وقصص الطائعين والعاصين . وسورة الفاتحة كذلك مشتملة عليها إجمالا بغير ما شك ، فالتوحيد في .. الحمد لله رب العالمين ، والوعد مطوى في البسمة ، والوعد والوعيد في « مالك يوم الدين » أيضا ، والعبادة في « إياك نعبد الخ » ، والأخبار والقصص في « صراط الذين الخ » .

وأقول : إنه يؤيد ذلك ماورد من الخبر : « قسمت الصلاة بيني وبين عبدي نصفين ، فنصفها لي ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل ، يقول العبد « الحمد لله رب العالمين فيقول الله : حمدني عبدي ، ويقول العبد : الرحمن الرحيم ، فيقول الله : أثنى علي عبدي ، ويقول العبد : مالك يوم الدين ، فيقول الله : مجدني عبدي ، ويقول العبد : إياك نعبد وإياك نستعين ، فيقول الله : هذه الآية بيني وبين عبدي ولعبدي ما سأل ، ويقول العبد : اهدنا إلى آخر السورة ؛ فيقول الله : لعبدي ما سأل .

(١) الكي ما نزل قبل الهجرة ، والمدني ما نزل بعدها . وقيل الكي ما نزل في شأن أهل مكة وإن كان نزوله في المدينة ، والمدني غيره ، وقيل الكي ما نزل بمكة ولو بعد الهجرة والمدني غيره .

شرح السورة

- ١ - بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
- ٢ - الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ
- ٣ - الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ
- ٤ - مَلِكِ يَوْمِ الدِّينِ
- ٥ - إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ
- ٦ - أَهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ
- ٧ - صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ

سبع آيات رائعة الأسلوب ، بليغة الأداء ، عذبة اللفظ ، قوية التركيب ، ولكنها مع ذلك كله رفيعة المعنى ، جليلة المغزى ، قوية الإفهام ، رائعة التأثير . هي بدء باسم الله الأعظم ؛ وحمد لله مالك الملك ، ورب الكون ، وإله العالمين ، ووصف وتمجيد لله بأنه الرحمن الرحيم ، وتخصيص له بالعبادة والتوكل والاستعانة ، وإقبال على دعائه بأن يهدي المسلمين إلى السبل السوية ، سبيل المؤمنين الذين رضى الله عنهم ، لاسبيل المغضوب عليهم أو الضالين عن سبيل الخير والرحمة والمجد والكرامة والعزة والهدى .

سبع آيات تضمنت أروع ما يمكن أن يناجى به العبد ربه وخاصة في صلواته وطاعته ، وتضمنت رسماً دقيقاً لعقيدة المسلم الكامل الإسلام ، وهل يكون كامل الإسلام إلا من تذكّر اسم الله واستفتح به دائماً وإلا من أقر الله جل جلاله بالتوحيد ووضفه بأرفع الصفات . وعرف أنه مالك الملك ورب الكون ، وخصه بالطاعة والعبادة ، وطلب منه الهدى والنور ؟

هذه هي سورة الفاتحة ، سورة التوحيد ، سورة الإسلام ، سورة العبودية الكاملة من الإنسان لخالقه رب الأكران .

أما الآية الأولى وهي « بسم الله الرحمن الرحيم » ، فعناها استحضر الله في كل وقت ، وذكر اسمه في كل عمل ، والاستفتاح باسمه عند مفتاح كل شيء .
باسم الملك الأعظم ، والإله المهيمن السلام ، الله الرحمن الذي عم بنعمته جميع خلقه ، أدناهم وأقصاهم ، الرحيم الذي خص من بينهم المؤمنين الطائعين بالرضا والقبول ؛ يبتدىء كل مسلم أكله وشربه ونومه ويقظته ، وطاعته وعمله ، وكل فكرة يفكر فيها ، وكل شيء يريد أن يعمله ، وكل ما يستقبل أو يستدبر من شئونه . وأنت إذا علمت كيف تفتح القوانين باسم الملوك ، وكيف يذكر اسمهم في كل عمل رسمي ، تعلم هنا كيف يؤدب الله الناس ويربيهم ، على أن يذكروا اسمه ، ويبتدئوا به ، في مطلع كل عمل ، ومفتاح كل أمر من أمور حياتهم .

هنا أول سورة من سور القرآن ، بل هنا مفتاح القرآن وبدؤه ، فما أجدر افتتاح القرآن كتاب الإنسانية الخالد باسم من أنزل منه القرآن ، باسم الله رب الحياة والوجود .

يقول الطبري في تفسير البسملة : « أدب الله نبيه محمداً صلى الله عليه وسلم ، بتعليمه تقديم ذكر أسمائه الحسنى أمام جميع أفعاله وتقدم إليه في وصفه بها قبل جميع مهياته ؛ فحقول إذاً أن قول القائل إذا قال : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم افتتح تالياً سورة ، أن يتبعه بسم الله الرحمن الرحيم تلاوة السورة ينبي عن معنى قوله بسم الله الرحمن الرحيم ، ومفهوم به أنه يريد بذلك : أقرأ بسم الله الرحمن الرحيم .

« وكذلك قوله بسم الله عند نهوضه للقيام أو عند قعوده وسائر أفعاله ينبيء عن معنى مراده بقوله « بسم الله » ، وأنه أراد بقلبه « بسم الله » : أقوم بسم الله وأقعد باسم الله ، وكذلك سائر الأفعال . وتأويل قول القائل « بسم الله » ، أن معناه عند ابتدائه في فعل أو قول : أبدأ بتسمية الله قبل فعل أو قبل قول . وكذلك معنى قول القائل عند ابتدائه بتلاوة القرآن : « بسم

الله الرحمن الرحيم ، إنما معناه : أقرأ مبتدئاً بتسمية الله أو أبتدىء قراءتي بتسمية الله . فجعل الاسم مكان التسمية كما جعل الكلام مكان التكليم ، والعطاء مكان الإعطاء . والعرب تخرج مصادر الأفعال على غير بناء أفعالها كثيراً . وكلام الزمخشري في الكشف لا يخرج عن معنى كلام الطبري ، إلا أنه لا يرى أن الاسم بمعنى التسمية ويقدر متعلق الجار والمجرور في « بسم الله ، متأخراً ، وهو يقول : « ومتعلق الباء محذوف تقديره أقرأ ، أو أتلو ، وكل فاعل يبدأ في فعله بيسم الله كان مضمراً ما جعل التسمية مبدأ له ويقدر المحذوف متأخراً ، لأن الأهم من الفعل والمتعلق به هو المتعلق به ، لأنهم كانوا يبدأون بأسماء آلهتهم فيقولون : باسم اللات ! باسم العزى ! فوجب أن يقصد الموحد معنى اختصاص اسم الله عز وجل بالابتداء ، وذلك بتقديمه وتأخير الفعل كما فعل في قوله : « إياك نعبد ، حيث صرح بتقديم الاسم إرادة للاختصاص والدليل عليه قوله : « بسم الله مجريها ومرساها » . ثم ذكر أن الباء في بسم الله للاستعانة أو للبصاحبة ، واختار الوجه الأخير .

ويقول محمد عبده : « افتتاح القرآن بهذه الكلمة إرشاد لنا بأن نفتح أعمالنا بها ، فما معنى هذا ؟ ليس معناه أن نفتح أعمالنا باسم من أسماء الله تعالى بأن نذكره على سبيل التبرك أو الاستعانة به ، بل أن نقول هذه العبارة : بسم الله الرحمن الرحيم ، فإنها مطلوبة لذاتها .

« ومثل هذا التعبير مألوف عند جميع الأمم . وحاصل المعنى : أنني أعمل عملي متبرئاً من أن يكون باسمي بل هو باسمه تعالى ، لأنني أستمد القوة والعناية منه وأرجو إحسانه عليه ، فلولا لم أقدر عليه ولم أعمله ، بل إما كنت عاملاً له على تقدير القدرة عليه لولا أمره ورجاء فضله . . . فلفظ الاسم معناه مراد ، ومعنى لفظ الجلالة مراد أيضاً . . . وهذا الاستعمال معروف مألوف في كل اللغات . . . ومعنى البسملة في الفاتحة أن جميع ما يقرر في القرآن من الأحكام والآيات هو لله ومنه وليس لأحد غير الله فيه شيء » .

والله : اسم غير صفة ، مختص بالباريء ، لم يطلق على غيره . وقال

الفخر الرازي : « المختار عندنا أن هذا اللفظ اسم علم لله تعالى ، وأنه ليس
بمشتق البتة ، وهو قول الخليل وسيبويه وقول أكثر الأصوليين والفقهاء . .
وقد كان العرب في الجاهلية يبدأون باسم اللات والعزى ؛ حتى كتب أمية
ابن أبي الصلت : باسمك اللهم .

والبسمة اية من الفاتحة ، وقيل ليست منها ، ويؤيد الأول أن رسول
الله عد الفاتحة سبع آيات ، وعد « بسم الله الخ » آية منها كما روى البخاري
والبسمة آية من كل سورة كذلك على ما ترجح إلا سورة براءة بإجماع الصحابة
على إثباتها في المصحف أوائل السور سوى براءة مع المبالغة في تجريد القرآن
عما ليس منه من مثل التعوذ ، ومثل « آمين » ، فلو لم تكن قرآنا لما أجازوا
إثباتها ، وأيضا هي آية من القرآن في سورة النمل .

أما ما أثبت في المصحف من أسماء السور والأعشار فشيء ابتدأ الحجاج
المتوفى عام ٩٣ هـ بمدينة واسط .

والبسمة وما بعدها إلى آخر السورة مقولة على السنة الناس ليعلموا كيف
يتبرك باسمه ، ويحمد على نعمه ، ويسأل من فضله . ولفظ الجلالة مذكور في
القرآن في نحو ألفين وستائة موضع . وهو علم على ذات الله الأعظم ، والرحمن
الرحيم صفتان مشبهتان بنيتا للمبالغة من الفعل « رحم » ، والرحمن أبلغ من
الرحيم . وتخصيص التسمية بهذه الكلمات الثلاثة : الله - الرحمن - الرحيم ، ليعلم
الناس أن المستحق لأن يستعان به في جميع الأمور هو المعبود الحقيقي الذي
هو مولى النعم كلها عاجلها وآجلها جليلها وصغيرها فيتوجه الإنسان بجملته
إلى الله حرصا ومحبة ، ويتمسك بحبل التوفيق ، ويشغل قلبه بذكره .

فالرحمن الرحيم مشتقان من الرحمة ، وهي معنى يلم بالقلب فيبعث صاحبه
ويحمله على الإحسان إلى غيره ، والمراد بها في جانب الله عز وجل شدة عطفه
على خلقه ، وحنانه بهم وإحسانه إليهم ؛ ويذهب بعض المفسرين إلى أن معناهما
واحد والثاني توكيد للأول معنى ، والجمهور على أن الرحمن هو المنعم بجلائل
النعم ، والرحيم معناه المنعم بدقائق النعم ، والبعض يقول : إن الرحمن هو المنعم

بنعم عامة تشمل المؤمنين والكافرين، والرحيم هو المنعم بالنعم الخاصة بالمؤمنين، ويقول المنار: إن معنى الرحمن كثير الإحسان، قال الإمام محمد عبده: « لفظ الرحمن يدل على من تصدر عنه آثار الرحمة بالفعل وهي إفاضة النعم والإحسان، ولفظ الرحيم يدل على منشأ هذه الرحمة والإحسان، وعلى أنها من الصفات الثابتة الواجبة لله تعالى، فالله عز وجل رحمان لأنه رحيم، أي منعم بنعم لأنه موصوف بصفة الرحمة. فمغنى الآية الأولى قد وضع بما ذكرناه.

أما الآية الثانية وهي « الحمد لله رب العالمين، فمعناها إقرار بالعبودية لله وتوحيده كذلك، فالحمد والثناء والعبادة لله، الذي هو رب العالمين والخلق أجمعين.

والحمد والمدح أخوان؛ وهو الثناء والنداء على الجميل من نعمة وغيرها، تقول حمدت الرجل على إنعامه، وحمدته على جسبه وشجاعته، هكذا يسوى الزمخشري في تفسيره بين الحمد والمدح. ويرى غيره فرقا بينهما. قال النيسابوري في تفسيره: « المدح للحي ولغير الحي كاللؤلؤة والياقوتة الثمينة، والحمد للحي فقط. والمدح قد يكون قبل الإحسان، وقد يكون بعده، والحمد إنما يكون بعد الإحسان. والمدح قد يكون منبياً عنه، قال صلى الله عليه وسلم: « احشوا في وجوه المداحين التراب، والحمد مأمور به مطلقاً، قال، صلى الله عليه وسلم: « من لم يحمد الناس لم يحمد الله. والمدح عبارة عن القول الدال على أنه مختص بنوع من أنواع الفضائل باختياره وبغير اختياره، والحمد قول دال على أنه مختص بفضيلة اختيارية معينة، وهي فضيلة الإنعام إليك وإلى غيرك. وكلام النيسابوري هذا هو عين كلام الرازي في تفسيره.

والحمد لله: قال الطبري: « تأويله: جميع المحامد لله بألوهيته وإنعامه على خلقه بما أنعم به عليهم من النعم التي لا كفاء لها في الدين والدنيا والعاجل والآجل... وذلك كله كلام الله جل ثناؤه، ولكنه، جل ذكره، حمد نفسه وأثنى عليها بما هو له أهل، ثم علم ذلك عباده وفرض عليهم تلاوته اختياراً

منه لهم وابتلاء فقال لهم : قولوا : الحمد لله رب العالمين ، وقولوا : إياك نعبد وإياك نستعين ... والعرب قد يقولون للسافر إذا ودعوه : « مصاحباً معافى ، ! يحذفون : سر ، وأخرج ، إذ كان معلوماً معناه ، وإن أسقط ذكره . فكذلك ما حذف من قول الله تعالى ذكره « الحمد لله رب العالمين » لما علم بقوله جل وعز « إياك نعبد » ما أراد بقوله « الحمد لله رب العالمين » من معنى أمره عباده ، أغنت دلالة ما ظهر عليه من القول عن إبداء ما حذف . . ا ه .

والرب في كلام العرب يطلق على معان ثلاثة هي أصول يرجع إليها كل ما عداها من المعاني : السيد المطاع فيهم يدعى ربا ، والرجل المصلح للشيء يدعى ربا ، والمالك للشيء يدعى رب هذا الشيء ، فالله ربنا ، لأنه السيد المطاع والمصلح لأموال الخلق عامة ، والمالك لكل ما في السموات والأرض .

والحمد هنا أبلغ من الشكر لأنه شكر معه ثناء ومدح ، ويقول البيضاوي : إن فيه إشعاراً بأنه حي قادر مريد عالم إذ الحمد لا يستحقه إلا من كان هذا شأنه . والمراد بالعالمين هنا خصوص الناس من بين خلق الله ، فالعالم عام في العقلاء وغيرهم والعالمون مختص بالعقلاء ، وهذا إشعار بأنه إله أعلى أصناف المخلوقات وهم العقلاء من بين هذه المخلوقات : من ملائكة وأناس وجن . فما بالك بغيرهم ممن لا يعقلون من جماد وحيوان ، فالمراد إذن بالعالمين أهل العلم والإدراك من الملائكة والإنس والجن .

أما الآية الثالثة وهي « الرحمن الرحيم » فقد سبق شرحها ضمن الآية الأولى ، وتكرير « الرحمن الرحيم » توكيد أمر رحمته وإحسانه . ونفي الظن أن يكون الله عز وجل ليس متصفاً بالرحمة والإحسان .

قال الأستاذ الامام الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفاتحة : « الرحمن الرحيم » تقدم معناهما وبقى الكلام في إعادتهما ، والنسبة فيها ظاهرة ، وهي أن تربيته تعالى للعالمين ليست لحاجة به إليهم كجلب منفعة أو دفع مضرة ؛ وإنما هي لعموم رحمته وشمول إحسانه . وثم نكتة أخرى ، وهي أن البعض

يفهم من معنى الرب : الجبروت والقهر ، فأراد الله تعالى أن يذكرهم برحمته وإحسانه ليجمعوا بين اعتقاد الجلال والجمال ، فذكر « الرحمن ، وهو المفيض للنعم بسعة وتجدد لامتهدى لهما ، و « الرحيم ، الثابت له وصف الرحمة لا يزاله أبدا ، فكان الله تعالى أراد أن يتجنب إلى عباده فعرّفهم أن ربوبيته ربوية رحمة وإحسان ، ليعلموا أن هذه الصفة هي التي ربما يرجع إليها معنى الصفات وليتعلقوا به ويقبلوا على اكتساب مرضاته منسرحة صدورهم مطمئنة قلوبهم .

هذا وإن في تكرير وصف الله ، جل ثناؤه ، لنفسه بالرحمن الرحيم في فاتحة الكتاب تأكيداً لمعنى أن الدين الذي القرآن كتابه تقوم فضائله ونظمه على الرحمة والحب والإحسان ، لا على البغى والشقاق والطغيان .

أما الآية الرابعة ، وهي قوله تعالى « مالك يوم الدين » ، فمعناها أن الله الملك والحكم يوم الدين خالصاً دون جميع خلقه الذين كانوا في الدنيا ملوكاً جبابرة ، والدين هنا معناه الجزاء ويوم الدين هو يوم القيامة لأن كل إنسان يجازى فيه بعمله إن خيراً وإن شراً ، وورد أن الله تعالى يقول لعبده : خلقتك أولاً فأنا الله ، ثم رببتك بوجوه النعمة فأنا رب ، ثم عصيت فسترت عليك فأنا رحمن ، ثم تبت عليك فأنا رحيم ، ثم لا بد من إيصال الجزاء إليك فأنا مالك يوم الدين .

وهذه الآية تدل على أن الملك لله في الآخرة ، وأنه لا يكون فيها ملوك يحتّم بهم ويلاذ بظلمهم ، فلا مهرب للناس منه تعالى ، أي أن الله ترك الناس في الدنيا يعملون وبعث رسله إليهم مرشدين ، وأقام الحكام منظمين لشئون الناس فمنهم عادلون ومنهم قاسطون ، ثم بعد ذلك يجمع الناس إليه ، ويحاسبهم في يوم لا ملك فيه إلا الله الواحد القهار ، « لمن الملك اليوم ؟ الله الواحد القهار » . وقد جاء « مالك يوم الدين » بعد الرحمن الرحيم « ليكون كالترهيب بعد الترغيب ، فمع رحمته وإحسانه هو حاكم عادل يوم لا حكم إلا لله .

والآية الكريمة وهي « إياك نعبد وإياك نستعين » ، معناها

نعبدك ولا نعبد غيرك ، ونستعين بك لا بسواك ، فهي لتخصيص الله جل جلاله بالعبادة والاستعانة ، فليس هناك عبادة تصدر من المخلوقين إلا وحقها أن تكون لله ، وليس هناك استعانة يصح أن تعلق بأحد إلا بالله ، وهنا ينبثق نور التوحيد مشرقاً ، وتقف الوثنية حائرة ، ويتلفت الشرك مذعوراً ، إن الخضوع إلا لله ، وإنما العبادة له جل جلاله ، فمن الشرك عبادة أحد مع الله . ومن الشرك عبادة المال والتكالب عليه والاعتقاد أنه هو الذي يقدم ويؤخر وينفع ويضر . والعبادة والاستعانة هنا لاتنافى الإيمان بكرامة الرسل والأولياء والصالحين ، هذا والعبادة . هي الطاعة مع غاية الخضوع ، أو هي خضوع ينشأ عن استشعار القلب بعظمة المعبود اعتقاداً بأن له سلطاناً لا يدرك العقل حقيقته ، لأنه أعلى من أن يحيط به فكره ، أو يرقى إليه إدراكه ، وللعبادة نظم تختلف باختلاف الديانات والشرائع ، والاستعانة هي طلب المعونة ، والمعونة هي سد العجز ، والمساعدة على إتمام العمل الذي يعجز عنه المستعين بنفسه .

ترشدنا هذه الجملة أو الآية الوجيهة إلى أصلين عظيمين من أصول الإسلام هما دعامة السعادة في الدنيا والآخرة : أحدهما أن لا تعبد أحداً سوى الله لأنه المنفرد بالسلطان والالوهية ، وثانيهما الاستعانة إلا به ، ولا تطلب المعونة الموصلة إلى الثمرة المرجوة ، والمتمة للأعمال التي تقوم بها إلا من الله بعد تقديم الأسباب التي يمكننا كسبها وتحصيلها ، وفي الجملة « إياك نستعين » إشارة إلى أن نحصر على عمل الأعمال النافعة ، ونجتهد في إتقانها ما استطعنا ، لأن طلب المعونة لا يكون إلا على عمل بذل فيه المرء طاقته ، فلم يوفه حقه ، أو يخشى ألا ينجح فيه فطلب المعونة على إتمامه وكاله ، والاستعانة بالله ترادف التوكل على الله ، التوكل الصحيح ، الذي يأتي بعد تقديم الأسباب ، وبذل الجهد ، وهي من كمال التوحيد والعبادة الخالصة ، وبها يكون المرء مع الله عبداً خاضعاً مخبتاً ، ومع الناس حراً كريماً لا سلطان لأحد عليه ، وفي هذا إطلاق لكرامة الإنسان ، وتحرير له من إفسار الطغاة ، والزعماء المضللين . وفك للإرادة من أسر الدجالين والكذابين .

أما قوله تعالى في آخر هذه السورة : « اهدنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم ، غير المغضوب عليهم ، ولا الضالين ، ، فعلى معنى : اللهم إياك نعبد وحنك لاشريك لك ، مخلصين لك العبادة دون ماسواك من الآلهة والأوثان ، فأعنا على عبادتك ، ووقفنا لما وفقت له من أنعمت عليهم من أنبيائك وأهل طاعتك ، من السبيل السوى ، والصراط المستقيم ، الذى هو الطريق الحق ، طريق الإسلام ، وطريق القرآن ، الطريق الموصل إلى رضائك وجنتك ، فالصراط المستقيم هو الدين أو الحق ، أو كل ما يوصلنا إلى سعادة الدنيا والآخرة من عقائد وآداب وأحكام وتعاليم . والهداية هى الدلالة بلطف ، والمراد بها الإلهام والتوفيق والبعث على عمل الخير ، وتحريك القوى الإنسانية نحو الحق . والهداية أنواع : هداية الوجدان الإنسانى فى الناس ، وهداية الحواس والمشاعر ، وهداية العقل ، وهداية الشرائع المنزلة من السماء ، وقوله تعالى « صراط الذين أنعمت عليهم ، ، معناه طريق الذين رضى الله عنهم ، وأنعم عليهم بنعمة التوفيق من الأنبياء والمرسلين والأولياء والصالحين ، وقوله تعالى « المغضوب عليهم هنا ، هم الذين خرجوا عن الحق ، وحادوا عن طريق الرشاد مع عليهم بالحق والرشاد والهدى ، فانصرفوا عن الدليل ، وعكفوا على ما ورثوه عن آباؤهم وأجدادهم ، إيثارا للتقليد ووقوفا عند شرائع الآباء ، أما الضالون فهم الذين لم يعرفوا الحق البتة ، وليس لهم تفكير صائب يرشدهم إليه .

المغضوب عليهم هم الزعماء الذين يضلون الجماهير وينحرفون بهم عن طريق الهداية والدين الحق ، والضالون هم العامة والجماهير التى لاتفكر ولا تتدبر وإنما تتبع أول ناعق ، وتسير مع كل ركب ، وتستصوب الحق آنا ، والباطل أحيانا ، فكان المراد : اهدنا يا الله إلى طريق الحق ، طريق أنبيائك ورسلك الملهمين ، وباعد بيننا وبين طريق الشر ، طريق القادة المضللين ، وطريق الجماهير والعامة المضللين .

قال الطبرى : « إبانة عن الصراط المستقيم : أى الصراط هو ، إذ كان

كل طريق من طرق الحق صراطا مستقيما ، فقيل لمحمد ، صلى الله عليه وسلم :
قل يا محمد : اهدنا يا ربنا الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم
بطاعتك وعبادتك ، من ملائكتك وأنبيائك ، والصديقين والشهداء
والصالحين .

وتدل هذه الآية كما في تفسير الرازي على أن المكلفين ثلاث فرق :
أهل الطاعة ، وإليهم الإشارة بقوله « أنعمت عليهم » ، وأهل المعصية ،
وإليهم الإشارة بقوله « غير المغضوب عليهم » ، وأهل الجهل في دين الله
والكفر ، وإليهم الإشارة بقوله « ولا الضالين » .
أما « آمين » فهي ، كما يقول الزمخشري ، صوت سمي به الفعل الذي
هو : استجب .

وعن النبي ، صلى الله عليه وسلم : « لقنني جبريل عليه السلام آمين عند
فراغ من قراءة فاتحة الكتاب ، وقال إنه كالتحم على الكتاب » ، وليس
آمين من القرآن بدليل أنه لم يثبت في المصاحف . ، وفي تفسير البيضاوي :
وليس آمين من القرآن وفاقاً .

فكان معنى « آمين » : استجب يا الله دعاءنا^(١) .

* * *

هذه هي سورة الفاتحة ، التي تضمنت أروع الأصول العامة في الإسلام
وأهم ما فيها من أصول : التوحيد ، وقصر العبادة على الله وحده ، والثناء
البلوغ على الله لأنه أجل من يستحق بالآله الثناء ، والاستعانة به في الشدائد
وعند عجز القوى الإنسانية في الإنسان ، وطلب الهداية منه ، والامتنشاف
إلى اتباع سبيل محمد صلوات الله عليه ، وهي السبيل الحق ، سبيل المعرفة ،
والهدى والخير والحق والرحمة والعدل والمدنية والحضارة ، والسعاه بأن يبعد

(١) يرى بعض علماء الآثار المصرية أن آمين في اللغة المصرية القديمة معناها الله ، وهذا
لا يتفق أنها عربية أو على الأقل عربية ، وأن معناها في اللسان العربي الذي نزل به
القرآن : استجب .

الله الإنسان عن سبيل الشر والشيطان والضلال والإغلال ، وأن يجنبه الخطأ والانحراف عن الصواب .

هذه هي سورة الفاتحة بما تشتمل عليها من تعلق القلب بذكر الله . ومن تخصيص الحمد بالله ، ومن قصر العبادة والثناء والتوكل عليه ، ومن معرفة بعظمته ونعمته وقوته وأنه الرحيم الرحمن ، ملك الملك ، ورب الكون ، والحاكم العادل وحده يوم القيامة ، ومن دعاء الله بأن يمنح المسلم الهداية والتوفيق ، ويجنبه الشرور والآثام وطريق الشيطان التي هي جماع الضلال والإضلال .

سورة كريمة رفيعة ، جديرة بالتلاوة صباح مساء ، وعند أداء الصلوات ، وفي كل وقت ومكان .

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال : « بينما نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ أتاه ملك ، فقال : أبشر بنورين لم يؤتهما نبي قبلك : فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ حرفا منهما إلا أعطيته . »
ولعظمة هذه السورة واشتمالها على أصول كثيرة من أصول الإسلام ، وجب قراءتها في الصلاة ، وسورة الفاتحة هي المذكورة في القرآن الكريم في سورة الحجر « ولقد آتيناك سبعا من المثاني والقرآن العظيم ، » وفي الحديث عن أبي سعيد الملقب أن النبي صلى الله عليه وسلم قال له وهو في المسجد : « لأعلمنك سورة هي أعظم سورة في القرآن ، الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني ، والقرآن العظيم الذي أوتيته . »

(٢)

سورة البقرة

تمهيد

هذه السورة مدنية ، وهي مائتان وست أو سبع وثمانون آية ، فهي أطول سورة في القرآن الكريم ، ومنها آية نزلت على ما يقال في حجة الوداع ، وروى أنها آخر القرآن نزولا ، وهي : « واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ^(١) » . ومعظم هذه السورة نزل في أول الهجرة .

وتتضمن أصولا جليلة ، منها الدعوة إلى التوحيد ، وبيان صدق الوحي والرسالة والكتاب المنزل على محمد صلوات الله عليه ، ثم ذكرت تمرد الأمم القديمة على الرسالات السماوية ومنهم بنو إسرائيل ، وذكرت أبا الأنبياء إبراهيم وبناءه الكعبة ، وثبتت بذكر موضوع القبلة والجهة التي يولي المسلمون فيها وجوههم شطرها ، ثم أمر الله المسلمين بالاستعانة بالصبر والصلاة على النهوض بتليغ الرسالة ، وذكر كثيرا من شرائع الحج والعمرة ، وبين ما يؤكل وما لا يصح أكله ، وحرم الخمر والميسر وحث على الإيمان ، ثم أفاض في ذكر أحكام كثير من الشئون ، فذكر أحكام القصاص ، وأحكام الصيام ، وأحكام الجهاد في سبيل الله ، ثم انتهى إلى تأكيد دعوة التوحيد ، ودعا إلى تحريم الربا ، وإلى الإقفاق والإحسان والصدقات ، إلى آخر ما اشتملت عليه السورة مما سنفصل الكلام فيه في آخر السورة .

وقد سميت هذه السورة باسم غريب عجيب ، هو البقرة ، والبقرة لا تعرفها العرب ، وليس في بلادها منها شيء ، وقد ذكر الله قصة بقرة بنى إسرائيل فسميت السورة كلها باسمها ، بعثا للنفوس على التعجب والاستغراب ، وتوشية للموضوع بالطرافة والجدة ، وحفزا للقارى والسامع على الإقبال على الفهم ، وكان الله عز وجل يقول للعرب : لا تغتروا بعلمهم ، فهناك أشياء لم تحيطوا بعلمها ، وسأقص عليكم بعضها .

(١) الآية ٢٨١ - البقرة .

إن أسماء السور كما يذهب إليه الكثيرون نزلت من الله ، وعلى ما يذهب إليه القليلون من إلهام الله لنبه محمد صلوات الله عليه .

شرح السورة

نعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ .
البسمة سبق شرحها ، أما الاستعاذة فلا بأس من الكلام عليها ، لأن فيها فائدة جليلة .

الاستعاذة أو عبارة ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، ليست جزءاً من الفاتحة ، بل هي ليست من القرآن ، وليست مدونة في المصحف الشريف الجامع للقرآن المنزل على محمد ، عليه الصلاة والسلام ، وإنما يؤتى بها عند تلاوة الكتاب اتباعاً لقول الله سبحانه : « فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، سورة النحل آية ٩٨ .

والتعوذ مستحب لكل قراءة عند الجمهور ، سواء كانت القراءة في الصلاة أو في غيرها . وقال عطاء : الاستعاذة واجبة لكل قراءة . وعن ابن سيرين : إذا تعوذ الرجل مرة واحدة في عمره فقد كفي في إسقاط الوجوب .

واتفق الأكثرون على أن قراءة الاستعاذة قبل قراءة الفاتحة . ويرى بعضهم أنه إذا قرأ القارئ سورة الفاتحة وقال « آمين » ، فبعد ذلك يقول : أعوذ بالله : وهناك قول ثالث ، وهو أن يقرأ الاستعاذة قبل القراءة وبعدها جمعاً بين الأدلة المختلفة .

وتفسيره أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، كما في الطبري : « أستجير بالله دون غيره من سائر خلقه من الشيطان أن يضرنى في ديني أو يصدني عن حق يلزمني لربي » . اهـ

والشيطان في كلام العرب : كل متمرد من الجن والإنس والدواب وكل شيء . وفي كتاب المفردات في غريب القرآن للراغب الأصفهاني : « وسمى كل

خلق ذميمة للإنسان شيطانا ، فقال عليه السلام : « الحسد شيطان ، والغضب شيطان » .

والشيطان الرجيم : المطرود عن الخيرات وعن منازل الملائكة الأعلی . وعلى هذا فمعنى العبارة : ألتجىء إلى الله وأستنصر به على كل شيء من خلقه صاد عن الخير من جواهر الكون وأعراضه .

قال نجر الدين الرازى : « إن سر الاستعاذة هو الالتجاء إلى قادر يدفع الآفات عنك ، ثم إن أجل الأمور التي يلقى الشيطان وسوسته فيها قراءة القرآن ، لأن من قرأ القرآن ونوى به عبادة الرحمن وتفكر في وعده ووعيده ، وآياته وبياناته ، ازدادت رغبته في الطاعات ، ورهبته عن المحرمات ، فلم هذا السبب صارت قراءة القرآن من أعظم الطاعات ، فلا جرم كان سعى الشيطان في الصدعنه أبلغ ، وكان احتياج العبد إلى من يصونه عن شر الشيطان أشد ، فلهذه الحكمة اختصت قراءة القرآن بالاستعاذة .

١ - ألم

هذه هي الآية الأولى من سورة البقرة إذا سرنا على أن « البسطة » لاتعد آية من آية سورة من سور القرآن الكريم .

وقد سبق الإفاضة في المقدمة في فوائح سور القرآن الكريم ومعناها .
وخلاصة ذلك أن هذه الكلمة عبارة عن : ألف - لام ، ميم ، وهكذا تقرأ ساكنة الأواخر ، ومعنى ذلك لفت الذهن إلى حروف العربية ، وإلى أن القرآن كتاب عربي مبین ، وإلى أنه مؤلف من جنس ما يتكلم به العرب ، فلم يختص بهذه البلاغة ، وبهذا الإعجاز ؟ ليس ذلك إلا لأنه كلام رب البشر ، لا كلام أحد من الخلق ، وإذا ثبت نزوله من الله ثبت صدق رسالة محمد ووجوب الإيمان بدعوته على الناس كافة (١)

(١) يذهب بعض المفسرين إلى أن مثل « ألم » من المتشابهة التي استأثر الله بعلمه ، ويقول البعض وهو مروى عن ابن عباس : معنى « ألم » ، أنا الله أعلم ، ومعنى « آلر » أنا الله أرى ، ومعنى « آلر » . أنا الله أعلم وأرى . وقيل إن مثل ذلك أسماء للسور ، أول القرآن .

واقترحات السور من المكتوم الذي استأثر الله به في رأي السلف . فيرد عليه إلى الله عز وجل فنقرؤها كما جاءت ، وتؤمن بها ولا نتكلم فيها . وبه قال سفيان الثوري والربيع بن خيثم واختاره ابن حبان . وقال قوم : اختص الله بعلمها نبيه صلى الله عليه وسلم . وفي تفسير الإمام محي السنة البغوي المتوفى سنة ستة عشر وخمسمائة عن داود ابن أبي هند قال : كنت أسأل الشعبي عن فواتح السور فقال : يا داود إن لكل كتاب سرا وإن سر القرآن فواتح السور فدعها ، وسل عما سوى ذلك .

وقال جمهور الخلف بوجوب التماس فهمها ورجحه ابن عطية : قال : فعلينا أن نفسر هذه الحروف ونلتمس الفوائد التي تحتها والمعاني التي تتخرج عليها . وإنما ذهبوا إلى ذلك حيث لا إجماع على التفويض ولا على استنباط معانيها ولا على وجه معين من تلك المعاني ، ومن المقطوع به أن الله تعالى لم ينزلها عبثاً ولا سدى ، وقد قال عز شأنه في القرآن « تبياناً لكل شيء » ، ولا يكون تبياناً وهو غير معلوم ، والمكلف لا يخاطب بما لا يفهم كما لا يخاطب العربي بالأعجمية إلا إذا أمكن ترجمتها ولا يصح التحدى إلا بما يمكن فهمه . وتسليم الراسخين في المتشابه لا يمنع اطلاعهم على شيء منه وهم لا يزالون معترفين بأن علمهم بالنسبة لما لم يعلموه قليل . والمعارف أمر نسبي والتفاوت فيها حاصل . وقال قتادة : وزيد بن أسلم : هي أسماء للسور ونقل ذلك عن سيويه وأيده الزمخشري . وقد سمى العرب بالحرف كما سموا بلام والد حارثة بن لام الطائي ، وقال الزجاج : أذهب إلى أن كل حرف منها يؤدي معنى وقد تكلمت العرب بالحروف المقطعة نظماً لها ووضعاً بدل الكلمات التي الحروف منها كقوله : فقلت لها قفي فقالت قاف أي وقفت ، وكقوله عليه السلام « كفي بالسيف شاً ، أي شافياً ، والتعريف الإلهي في هذه الحروف كاف عن السياق الذي يدل على الكلمات التي هي منها ، وروى أبو الضحى عن ابن عباس في قوله « الم ، أنا الله أعلم و « الر ، أنا الله أرى . و « المص ، أنا الله أفصل . و « عنه أيضاً الألف من الله واللام من جبريل والميم من محمد صلى الله عليه

وسلم ، وقال الكلبي : هي أقسام أقسم الله بها لشرفها وفضلها وهي من أسماء الله تعالى ، ومثله عن ابن عباس رضى الله عنهما وعلى هذا الوجه فوضع القسم « لا ريب فيه » ، ومن قال : والله هذا الكتاب لا ريب فيه كان كلامه صحيحا .

وعن أبي صالح عن ابن عباس وعن مرة الهمداني عن ابن مسعود وعن ناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم قال : أما « الم » فهي حروف استفتحت من هجاء أسماء الله تعالى . وقال أبو العالية : ليس منها حرف إلا وهو مفتاح اسم من أسماء الله تعالى . فالألف مفتاح اسم الله : واللام مفتاح اسمه « لطيف » والميم مفتاح اسمه « مجيد » ، وكذلك قال سالم بن عبد الله والسدي وروى ابن جرير عن شعبة قال : سألت السدي عن « حم ، وطسم ، والم » فقال ، قال ابن عباس : هي اسم الله الأعظم : وأخرج بسند صحيح عن ابن مسعود قال : هو اسم الله الأعظم ومثله عن سيدنا علي كرم الله وجهه ، وأخرج ابن ماجه في تفسيره من طريق نافع عن أبي نعيم القاري عن فاطمة بنت علي بن أبي طالب رضى الله عنه أنها سمعته يقول : « يا كهيعص » اغفر لي ؛ وجاء عنه أنه كان يقول : « يا كهيعص ، يا حم عسق » .

وقال سعيد بن جبير هي أبعاض من أسماء الله تعالى فإن « الر . حم . ن » مجموعها اسمه تعالى « الرحمن » ولكنها تحتاج لعلم خاص لمعرفة تركيبها . ونقل العلامة أبو حيان في تفسيره عن الإمام محمد بن الحنفية أنه سئل عن « كهيعص » فقال للسائل : لو أخبرت بتفسيرها لمشيت على الماء لا يوارى قدميك ، ومعنى كلامه عليه السلام - والله أعلم - أن من تحقق بأنوار ما دلت عليه من الأسرار حصل له الصفاء الروحي فألحق الله عز وجل مادته الجمادية إلى حال الأرواح فسما بفضل الله عن القيود الكثيفة فتخرق له العادة ياذن ربه التقدير سبحانه وتعالى وقال بعض أهل العربية هي حروف من حروف المعجم استغنى بذكر ما ذكر منها في أوائل السور عن ذكر بواقها كما يقول القائل : انى يكتب ألف ، باء ، تاء .

هذا ومجموع الحروف المذكورة في أوائل السور أربعة عشر حرفا .

وإنما ذكرت بيانا لإعجاز القرآن وأن الخلق عاجزون عن معارضته بمثله مع أنه مركب من الحروف التي يتخاطبون بها ، خاصتهم وعامتهم .

وحكى القرطبي هذا الوجه عن الفراء وقطرب ، والرازي عن المبرد وجمع من المحققين . وهو رأى ظاهر يشهد أننا إذا نظرنا في الحروف المذكورة وجدناها تشتمل على أنصاف أجناس الحروف كما قال الزمخشري من المهموسة نصفها ومن المجهورة نصفها ، ومن الشديدة نصفها ، ومن الرخوة نصفها ، ومن المطبقة نصفها ، ومن المنفتحة نصفها ، ومن المستعلية نصفها ، ومن المنخفضة نصفها ، ومن حروف القلقلة نصفها ، ويدل هذا على أنه تعالى عدد للعرب الألفاظ التي منها تراكيب كلامهم تبيكتا لهم وإظهارا لعجزهم ولولا أنه كلام خالق القدر لم يعجز البشر عن الإتيان بمثله أقصر سورة منه كالكوثر . قاله المبرد وغيره ، وأخرج الحاكم في المستدرک عن ابن عباس بسند صحيح أن معنى « طه » ، يا محمد بلسان الحبش - ولا يضر أن يكون بأى لسان . وكذلك ذكر الحافظ ابن كثير عند قوله تعالى (سلام على آل ياسين) قال: وهي قراءة ابن مسعود رضى الله عنه ، وقرأ آخرون (سلام على آل ياسين) يعنى آل محمد صلى الله عليه وسلم .

ومن المتيسر الجمع بين هذا الوجه وبين ما رواه الحاكم في المستدرک ، عن ابن عباس رضى الله عنهما في معنى كهيعص قال : ك من كريم ، وها من - هاد ، ويا من حكيم ، وعين من عليم ، و ص من صادق ، وسنده صحيح وعنه أيضا قال : كاف هاد أمين عزيز صادق وسنده صحيح - على شرط مسلم .

وقد سمي الله تبارك وتعالى المصطفى صلى الله عليه وسلم (رؤفا رحيا) فهو تشریف له صلى الله عليه وسلم بأنه مجلى أنوار الرأفة والرحمة الربانية، قال تعالى (وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين) وقال صلى الله عليه وسلم إنما أنا رحمة مهداة ، رواه الحاكم بسند صحيح ، فهو كريم صلى الله عليه وسلم ، وهاد صلى الله عليه وسلم ، وهو حكيم صلى الله عليه وسلم ، وأمين صلى الله عليه وسلم ، وعليم صلى

الله عليه وسلم، وعزيز صلى الله عليه وسلم، وصادق صلى الله عليه وسلم، على الوجه الذى يليق بمرتبة الخلق واسمه تعالى الأول والآخر سرى نورهما إليه صلى الله عليه وسلم فكان أولاً وآخرأ بنسبة المرتبة المخلوقة الشريفة صلى الله عليه وسلم، وعنه صلى الله عليه وسلم : كنت أول النبيين فى الخلق وآخرهم فى البعث ومن السلف الصالح من احتج بالمرسل، ومثله مقبول فى المناقب والأصول تشهد له، وقال صلى الله عليه وسلم (أنا أول شافع وأول مشفع - أنا أول من يميز أمته على الصراط، أنا أول من يأخذ بحلق الجنة)، وكان الحق تبارك وتعالى يقول : يا عبدى الخاص الذى شرفته فخلعت عليه خلع الكمال فكان مظهراً للكمال الإلهى فى مرتبة الإمكان، وأبدت فيه آثار صفاتى وأسمائى فكان أعلى مرتبة وأجمع مرتبة لظهور جمالى وجلالى وكمالى فهو أكمل الخلق وسيد المرسلين لأنه أكمل عبد الله قياماً بحقوق العبودية، وحملها وتحقيقاً وظهوراً بكالات الربوبية . مع عموم رسالته وصلاحها لكل زمان؛ والمؤمن البصير بدينه لا يحتاج لتنيه إلى أن كل هذا لاصلة له بالعقائد الوثنية الباطلة من حلول واتحاد وتجسد ونحو ذلك، لأنها غير الحقيقة . وإنما هو من سبيل « فجعلناه سميعاً بصيراً »، إلا أن ذلك بوجه أخص من البصر العام والسمع العام . قال صلى الله عليه وسلم « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق . » وقد تقدم عن بعض الصحابة رضوان الله عليهم أن أوائل السور هى الاسم الأعظم وقد ورد فى بعض الروايات فى الاسم : يا حنان يا منان . وورد : الأحد الصمد، وورد : يا حى يا قيوم . وعلى هذا يصح أن يكون هذا الاسم مركباً من أسماء عدة، فإذا كان كل حرف من أوائل السور يدل على اسم من الأسماء التى مجموعها هو اسم الله الأعظم، ولم يتحقق مخلوق فى الوجود بأنوار الأسماء الإلهية كما تحقق بها صلى الله عليه وسلم، أو كما أشرقت أنوارها فى روحه الشريفة وذاته الكريمة، كان هو الفرد الذى حمل أنوار الاسم الأعظم وظهر بها وظهرت فيه .^(١)

(١) طريق الحق — للاستاذ الكبير السيد الحافظ التيجانى .

- ٢ - ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ
٣ - الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ
٤ - وَالَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ
وَبِالْآخِرَةِ هُمْ يُوقِنُونَ
٥ - أُولَئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ

أربع آيات كريمة تنوه بشأن القرآن وصدقه وجلال أثره ، وأنه هدى للمتقين ، ثم هي تحدد هؤلاء المتقين ، بمن يؤمنون بالدين كله وخاصة بالأمور الغيبية فيه ، بما لا تدركه الحواس ، من مثل وجود الله واليوم الآخر وغير ذلك ، ويقومون الصلاة ، وينفقون من أموالهم في سبيل الخير والإحسان إلى الفقير ، ومن آمنوا برسالة محمد وما أنزل إليه من القرآن والدين ، وما أنزل على الرسل قبله كإبراهيم وموسى وعيسى ، وأيقنوا بالآخرة إيقاناً لا سبيل للشك معه ، ثم بين رضاه الله على هؤلاء المتقين وتوفيقه لهم ، وهدايته إياهم بهدى إلهي يلمهم ويرشدهم ، وأنهم دائماً في فلاح في الدين والدنيا والآخرة وفوز مبين .

وتتضمن هذه الآيات الأربع تلخيصاً عاماً لدعوة الإسلام ، ما هي هذه الدعوة ؟ إن هي إلا إيمان بالقرآن وبأنه لا سبيل للشك في أنه منزل من الله وهاد للإنسانية ، وإن هي إلا حرص على التقوى ، التقوى التي من أهم دعائها : الإيمان بالله ، وأداء للصلاة ، وحب للبذل والإنفاق على الفقراء والمساكين ، وإيمان كامل بكل ما نزل من السماء من كتب سماوية مقدسة وفي أولها القرآن الكريم ، الإيمان بالقرآن ، والإيمان بما صحح من التوراة والإنجيل وسواهما ، لأن أصول شريعة الله في جميع الأديان واحدة ، والقرآن يجمعها كلها ويزيد عليها ما شاء الله ، وإنما نقول ما صحح من التوراة والإنجيل لأننا نؤمن أنهما حرف تحريفاً كثيراً عما أنزل الله ، وأنهما أصبحتا اليوم من كلام الحواريين لا من كلام رب العالمين ، ثم إيمان بالآخرة وبالجزء فيها ؛ فمن آمن بذلك كله

وعمل بهذه الأعمال الطيبة الكريمة فهو في رضا الله وهدايته ، وهو في فلاح وفوز دائم في الدنيا والآخرة .

فقوله تعالى « ذلك الكتاب ، إشارة إلى الكتاب الذي يقرؤه محمد علي الناس وهو القرآن ، وهذه الإشارة فيها من التعظيم ما فيها ، إلى ما في « الكتاب » وإيها من التعظيم ما فيه ، أي الكتاب الكامل الذي لا يستحق أن يسمى كتابا سواه ، والمعنى على أن هذا الكتاب الذي شهر محمد بنزوله عليه ، والذي يقرؤه على الناس ، والذي بشر به الأنبياء قبل محمد ، لا ريب فيه ، لا ريب في أنه من الله ، ولا ريب في صدقه ، ولا ريب في هدايته للإنسانية لأنه كتاب البشرية عامة وتاموس العالم كله .

فلا ينبغي لأحد أن يرتاب فيه ، فضلا عن أن يكون المرتاب مسلما ، والريب والريبة : قلق النفس واضطرابها وحيرتها وسمى الشك ريبا لأنه يقلق ويزيل الطمأنينة ، فالشك ريبة .

لا ينبغي لإنسان أن يزعم أن القرآن لا يصلح لحكم العالم وقيادته وحسن توجيهه ، لأن هذا الزعم مناف للحق ، ولأن مبادئ القرآن قد جربت في الأمم ؛ حيث أحدثت أعظم الانقلابات في تاريخ البشرية ، وأحدثت من النهضة والتقدم والحضارة ما لم يحدثه أي كتاب آخر ، ومن العجب أن يزعم بعض المسلمين الذين تأثروا بالاستعمار الأوربي الفكري أن الإسلام شريعة الرجعية القديمة ، وأنه لا يصلح تطبيقه في العصر الحديث . أليس مثل هذا الزعم الباطل ريب في الإسلام . وبالتالي هو ريب في مصدر دعوة الإسلام وهو القرآن الكريم .

ومن المؤسف كذلك أن لا يعمل المسلمون اليوم بالقرآن . فتركهم العمل به هو في معنى الريب الذي نفاه الله عز وجل عن القرآن بقوة وبلاغة لا مثيل لها . وقوله تعالى هدى للمتقين ، خبر بعد خبر . هو لا ريب فيه . وهو هدى للمتقين ، أي هو مصدر الهدى ، والبلاغة واضحة في هذا التعبير ، وهو ولا شك أشد بلاغة ، من ، هاد للمتقين ، والمتقون هم الذين يتجنبون العقاب .

إلهي الذي أنذر الله به العاصين من عباده في الدنيا والآخرة ، وهم الذين نافون الله ويحذرون عذابه ، وللتقوى ثلاث مراتب : الأولى اجتناب الخلد ، النار بالإيمان برسالة محمد عليه السلام ، والثانية اجتناب الإثم ما صغر منه ما كبر ، وفي ذلك يقول عمر بن عبد العزيز : التقوى ترك ما حرم الله ، وأداء ما افترض الله ، والثالثة أن يتنزه عما يشغل سره عن الحق بأن يعلق دائماً قلبه بجوارحه بالله ويتذكره دائماً في سره وعلنه ، وهذه التقوى هي المطلوبة من كل مسلم ، وهي التي أمرنا الله تعالى بها في قوله : « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته » ، وقال ابن عمر : التقوى أن لا ترى نفسك خيراً من أحد ، إن مخالفة دين الله وشرعه ومخالفة سننه في نظام خلقه ، تناقض التقوى تمام المناقضة ، فلا تتفق التقوى مثلاً مع هذه الإباحية ومع هذا السفور ، ومع ذلك الاستهتار الذي تلاحظه في الشباب الإسلامي اليوم ، وهي لا تتفق مع ظلم الناس وظلم الرعية ، ولا مع الإصرار على الإثم والمفاخرة بفعله والجهر بدعوة السوء ، والدعاية للفجور ، فهذه الأمور كلها مخالفة صريحة للإسلام ، ولا يقبل منا معها أن نسمى أنفسنا مسلمين ، دون أن تكون لنا شخصية المسلمين وصفاتهم وأعمالهم .

وقوله تعالى « الذين يؤمنون بالغيب » معناه يصدقون بما غاب عنهم من وجود الله والوحي والبعث والجزاء والجنة والنار ، بما أخبر به القرآن الكريم ، والإيمان هو التصديق بما علم بالضرورة أنه من دين محمد صلى الله عليه وسلم كالتوحيد والنبوة والبعث والجزاء ، ومن الإيمان بالغيب الإيمان بالدين نفسه ، فإن الإيمان بالدين جزء متمم لفطرة الإنسان ، فالدين أو الإسلام هو فطرة الله التي فطر الناس عليها ، ولا يستقيم هذا مع الميل إلى الشيوعية التي توضع في صدر مبادئها : « الدين خرافة ومخدر للشعوب » ، ونحن ننادي كل مسلم إلى أن يعتقد أن الدين أو الإيمان بالله معناه النجاح في الحياة ومعناه التقدم والنهضة والرقى والفوز ، فليس الدين أو الإسلام خاصة أو هاماً وخزعبلات وجوداً وتعويقاً عن النهضة ، إنما هو في حقيقته أعظم نظام عالمي ، وأحدث دستور إنساني ، يؤمن بالنهضة ويدفع إليها ويستحثها . والمسلم يجب عليه أن يفهم أصول الإسلام عامة قبل أن يندفع في الطريق التي يوجه نحوها

الاستعمار وأوروبا المسيحية المتعصبة التي تؤمن بأن لابقاء لها إلا بمحو الاسلام وإبادة المسلمين .

والصلاة وأداؤها أصل من أصول الاسلام ، ومعناها الذي ترمز إليه مناجاة الانسان لربه في كل وقت ليستمد منه القوة ، وليدفع عنه وساوس الشيطان ، وليملاً روحه بالقوة وبمثل الحياة الكريمة ، وليزداد إيماناً برسالة الاسلام وحباً للتضحية في سبيله ، وهذه المناجاة نظمها الاسلام في الأفعال والأقوال المخصوصة التي يؤدي بها كل مسلم شريعة الصلاة ، وإقامة الصلاة معناها كذلك المداومة عليها ، والمواظبة على فعلها ، فهي فريضة إسلامية جليلة ، ولقد مر أحد المسيحيين الأوربيين بيورسعيد فسمع الأذان ، فأخذ يفكر فيما يدعو إليه ، وفي الصلاة التي ينادى إليها هذا الأذان ، وفي الاسلام الذي من إحدى شرائعه هذه الصلاة التي ينادى إليها ، وهداه الله بسبب ذلك إلى الاسلام .

وقوله تعالى « وما رزقناهم ينفقون » يشمل الصدقة والاحسان وأداء الزكاة ، والاتفاق هنا إتفاق في سبيل الخير ، ومن سبيل الخير المعاونة المالية في أعمال البر وفي الدفاع عن الوطن ، وفي مساعدة المشروعات الدينية والاجتماعية ذات النزعة الجليلة ، وفي كل ما يعود على المجتمع بالخير ، وعلى الأمة بالتقدم ، والزكاة التي تشير إليها هذه الآية هي إحدى فرائض الاسلام التي يكرر الله الدعوة إليها في كل آية من آيات القرآن الكريم ، وقوله تعالى « وما رزقناهم » إشارة إلى أن الاتفاق إنما هو من مال الذي رزق العبد إياه ، وإلى أن المال إنما هو مال الله ، فلا يصح البخل به في شيء أمر الله تعالى به ، وإلى أن الذي ينفقه الانسان في سبيل المعروف والخير فالله جل جلاله قادر على أن يتخلفه .

وقوله تعالى « والذين يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك » ، المراد به أنهم يجمعون بين الايمان برسالة محمد ورسالة الأنبياء من قبله ، أما الايمان بالغيب فيما سبق فتحناه الايمان بالدين جملة وبما غاب عن الحس من أموره ، وهنا ينص القرآن الكريم على أنه لا بد فيمن تتوافر فيه صفة التقوى أن

يؤمن بشيئين هما : ما أنزل على محمد وهو القرآن ؛ وما أنزل قبل محمد من الكتب السماوية التي لم يدخلها تحريف وهي كتب موسى وعيسى وسواهما من الأنبياء ويقول ابن عباس : المراد بالمؤمن هنا من يؤمن بالنبي والقرآن من أهل الكتاب ، وبالمؤمنين فيما قبلها من يؤمن من مشركي العرب ، وعن مجاهد وقتادة أن المؤمنين في الآيتين قسم واحد ، وهو كل مؤمن ، وإن تعدد ما يؤمنون به . ويقال إن عدد الكتب المنزلة من الله مائة وأربعة كتاب .

وقوله تعالى « وبالآخرة هم يوقنون » أي يؤمنون بها إيقاناً جازماً ، أي يعلمون أنها كائنة لأن اليقين هو العلم بالشيء بعد أن كان صاحبه شاكاً فيه . وقوله تعالى « أولئك على هدى من ربهم وأولئك هم المفلحون » إثبات للهدى والفلاح لهؤلاء المتقين ، والمراد أنهم على هدى ورشد من الله وأنهم هم المفلحون في الدنيا والآخرة ، لأحد سواهم .

والإشارة بأولئك فيها من التعظيم ما لا يخفى . أي هؤلاء المتقون المتصفون بهذه الصفات الجليلة هم على هداية من الله موصولة ، وهم الفائزون في الحياة وبعد الحياة .

وخلاصة هذه الآيات أنها ترشد إلى المسلم الحق وصفاته الجليلة التي هو عليها ، والتي يجب أن لا يتركها ، والتي تساعد على التقدم في الحياة ، وعلى الفوز في الدنيا والآخرة ، وما أجملها من صفات ، وما أجدر المسلمين بالتحلي بها في كل وقت ، والسير عليها في كل لحظة .

٦ - إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ ءَأَنذَرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ

٧ - خَتَمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ

هاتان الآيتان عامتان في الكافرين ، وقد بدأ الله عز وجل بذكر قصة الكافرين فيهما ، أما الآيات السابقة ففي ذكر المؤمنين ؛ وبعد هاتين الآيتين

سيد كر الله تعالى قصة المنافقين ، وقيل إن هاتين الآيتين في أقوام حقت عليهم
كلمة الشقاء في سابق علم الله تعالى كأبي جهل ، وأبي لهب وغيرهما ، حيث ذكر
الله تعالى لرسوله الكريم أنه لا يعلق نفسه على الطمع في إيمانهم .

والكفر نقيض الإيمان ، والذين كفروا هم الذين أحدثوا الكفر
وابتدعوه ، بتركهم الإيمان برسالة محمد صلى الله عليه وسلم ، أى أن الإيمان
متاح لهم ولكنهم أعرضوا عنه واستمروا على الكفر ، فهؤلاء ومن في
حكمهم - من نبذ الدين وطرحه وارثد كافرين - لا يجدى فيهم إنذار
وهداية ، ولا ينفع فيهم إرشاد وموعظة ، ولا يتوقع منهم ميل إلى الدين
وإيمان برسالة خاتم النبيين ، إنهم لا يريدون الإيمان ولا يحبونه ، فهم على
الكفر مقيمون ، لا يؤمنون ولا يتركون عنادهم وضلالهم وإضلالهم أبداً ،
إن الكفر قد تجسم في قلوبهم عقيدة آمنوا بها ، فهم لا يتركون كفرهم ،
ولا يستمعون لدعوة سالحة ، لأن قلوبهم قد طمس الشرك عليهما ، وأسماعهم
لا تعى كلمة سالحة ، وأعينهم عليها غشاوة فلا ترى شيئاً ، وسوف يلاقون
جزاءهم كاملاً ، وهو العذاب العظيم .

هؤلاء هم الذين كفروا بالله ووجدانته وصفاته وكتبه ورسله ، والمراد
بهم من رسخ الكفر في قلوبهم حتى أصبحوا غير مستعدين للإيمان ،
بجودهم بالنبي صلوات الله عليه ، وبما جاء به بعد أن بلغت رسالته ،
وعرضت أمام قلوبهم وأسماعهم وأعينهم براهين الرسالة المؤيدة لها ، الداعية
إلى الإيمان بها ، فأبوا وأصروا واستكبروا وأعرضوا عناداً ؛ هؤلاء الكفرة
الفجرة بلغ من أمرهم في الضلال أن لا يجدى فيهم إرشاد وإنذار ، ولا تؤثر
فيهم عظة وتبصرة ، فهم عن السبيل ناكبون ، وعن الحق معرضون ، قد
اسودت قلوبهم فليس فيها موضع للاهتمام بدعوة الخير أو العمل بها . وصمت
آذانهم فلا تسمع رسالة الله ولا تؤمن بها ، وعلى عيونهم غشاوة فهم
لا يبصرون النور الذى جاء به محمد ولا يرونه ، فبينهم وبين هذا النور عداوة ،
لأن الجهل قد أفسد وجدانهم ، والكفر قد حول فطرتهم فصاروا لا يميزون

بين النور والظلام ، ولا بين الكفر والإيمان . . فهؤلاء مثلهم كمثل الذين ختم الله على قلوبهم وطبع عليها ، فلا يدخلها إيمان ولا خير ، وختم كذلك على مواضع سمعهم وهي الآذان ، فلا ينتفعون بما يسمعون من الحق ، وكانت على أبصارهم غشاوة وغطاء من عند الله فلا يبصرون الحق ولا يرون نوره وظهوره ، إنهم في حكم الأعمى الأصم الأبكم الذي لا يرى ولا يسمع ولا ينطق فكيف يؤمن ؟ ، فهم مثل ذلك لا يؤمنون ، وليس لهم عند الله من جزاء سوى العذاب العظيم الشديد الدائم في الدنيا والآخرة .

والمراد بالقلب هنا العقل والمعرفة ، والمراد بالتحتم لف الشيء وستره والاستيثاق منه بضرب الخاتم عليه ، لأنه ستر وكتمان له ، وهؤلاء جماعة من الكفار في عهد الرسول ونظائرهم موجودون في كل عصر - كأبي لُب ، وأبي جهل ، والوليد بن المغيرة ، ممن أصروا على عناد الحق بعد معرفته ، أو ممن أعرضوا عن معرفة الحق واستكبروا عن النظر فيه .

وقد عرف الشافعية الكفر بأنه إنكار ما علم بحجىء الرسول به مما اشتهر حتى عرفه الخواص والعوام ، ورأى الحنفية أنه إنكار المقطوع بثبوتة من أصول الإسلام ، ويرى بعض العلماء أن الكفر هو عدم تصديق الرسول في بعض ما علم بحجىء الرسول به بالضرورة .

والمراد بالسمع الأسماع وبالأبصار العيون ، وبالنشأ الغطاء .

والمعنى على تمثيل هؤلاء الكافرين في عدم الطمع في إيمانهم ، بمن له عقل ولكن ختم الله عليه فلا يعقل ، وله سمع ولكن طبع عليه فلا يسمع ، وله عين ولكن عليها غشاوة فلا تبصر ، وصاروا في حكم الجاهل الأصم الأعمى الذى لا يتوقع منه إيمان ، فسواء عليهم أخوتهم غضب الله وعذابه أم لم تخوفهم وتحذرهم وتندرهم ، فهم لا يستحقون إلا العذاب ، والعذاب حق لهم يأخذونه ويأتى إليهم يسر وسهولة لأنهم اقترفوا ما يستوجب العذاب ، وما يدعهم مخلدين أبدا في النار ، وعليهم غضب من الله وسخط دائم مقيم .

هذه هي قصة الكافرين وحالهم ، وذلك هو جزاؤهم ومصيرهم ، وهي تناقض قصة المؤمنين وما كتب لهم من الفوز والفلاح والهدى تمام المناقضة ،

وكما كان للمؤمنين الهدى من الله ، فللكافرين من الله العذاب والغضب الشديد .
وإسناد الحتم إلى الله دليل على ثبوته ودوامه وعدم زواله أى أنهم يعيشون
هكذا دائما أبدا لا يؤمنون برسالة محمد ولا يقبلونها .

٨ - وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُمْ بِمُؤْمِنِينَ

٩ - يُخَدِّعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يُخَدِّعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ

١٠ - فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا

يَكْذِبُونَ

١١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ

١٢ - إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ الْمُفْسِدُونَ وَلَكِن لَّا يَشْعُرُونَ

١٣ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا كَمَا ءَامَنَ النَّاسُ قَالُوا أَنُؤْمِنُ كَمَا ءَامَنَ

السُّفَهَاءُ إِلَّا إِنَّهُمْ هُمُ السُّفَهَاءُ وَلَكِن لَّا يَعْلَمُونَ

١٤ - وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا إِلَىٰ شَيْطَانِهِمْ قَالُوا

إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ

١٥ - اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ

١٦ - أُولَٰئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالََةَ بِالْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تُّجَرَتُهُمْ

وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ

١٧ - مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ

اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظُلُمَاتٍ لَا يُبْصِرُونَ

١٨ - صُمُّ بِكُمْ عَمَىٰ فَمَهْمٌ لَا يَرْجِعُونَ

١٩- أَوْ كَصَيْبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ
أَصْبَحَهُمْ فِي آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوْعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ
بِالْكَافِرِينَ

٢٠- يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ
وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ
وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

ثلاث عشرة آية في صفات المنافقين بعد ذكر صفات المؤمنين
والكافرين ، تكشف أحوالهم ، وتهتك أستارهم ، وتظهر أسرارهم ،
وما أخطر النفاق في جميع صوره وأشكاله ، وما أفظعه في جميع ألوانه
وأحواله ، ولا سيما إذا كان نفاقا في الدين ، ورياء في المبادئ والمذاهب ،
حينئذ تكون أضراره أفدح ، وتكون أخطاره أعقد ، تظن هذا المنافق
معك وهو عليك ، وتعتصم به في الشدة فتجده مع عدوك يحاربك ، وتأتي
إلى جانبك ليقوى به ظهرك ، ويشد به أزرك ، فإذا هو لك من الخاذلين ،
وإذا هو لعدوك عليك من الناصرين .

وما أروع ما صور به القرآن الكريم صفات المنافقين وأحوالهم ،
وما أدق ما نفذ إلى نفوسهم ودخائلهم وطوايا جوانحهم المعقدة البغيضة .
ففي الآية الأولى بدأ القرآن فصور حالهم كما هي عليه دون مبالغة ودون
تهويل ، فقال عز وجل : « ومن الناس الخ » .

أجمع المفسرون على أن ذلك وصف للمنافقين ، قالوا : صنف الله الأصناف
الثلاثة من المؤمنين والكافرين والمنافقين ، فبدأ بذكر المؤمنين الذين أخلصوا
دينهم لله ، وواطأت فيه قلوبهم ألسنتهم ، وثنى بأضدادهم الذين محضوا الكفر
ظاهرا وباطنا ، وثالث بالصنف الثالث وهم المذبذبون بين القسمين ، وهم
الذين آمنوا بأفواههم ولم تؤمن قلوبهم تكميلا للتقسيم ، وهذا الصنف أخبث
(٧- تفسير القرآن لحنطحي)

Digitized by Google

الكفرة وأبغضهم إلى الله تعالى . لأنهم مع مشاركتهم للكفار الأصليين في أنهم جاهلون بالقلب كاذبون باللسان ، زادوا عليهم بأمور منكرة : منها أنهم قصدوا التلبيس ورضوا لأنفسهم بسمة الكذب ولبسوا الكفر على المسلمين فخلطوا به خداعا واستهزاء ، ولذلك أطال الله في بيان خبيثهم وجهلهم واستهزائهم ، وتهكم بأفعالهم وسجل عليهم غيهم وطغيانهم وضرب لهم الأمثال ، وأنزل فيهم « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار » ، والمعنى : ومن الناس أناس يقولون أو المراد بالناس الذين كفروا والمراد بمن ابن أبي وأصحابه ونظراؤه ، فإنهم من حيث إنهم صمموا على النفاق دخلوا في عداد الكفار المختوم على قلوبهم . واختصاصهم بزيادة زادوها على الكفر لا يأتى دخولهم تحت هذا الجنس ، وتخصيص الإيمان بالله وباليوم الآخر بالذکر تخصيص لما هو المقصود الأعظم من الإيمان ، وادعاء بأنهم اختاروا الإيمان من المبدأ والمعاد ، وإيدان بأنهم مناققون فيما يظنون أنهم يخلصون فيه ، وكان ابن أبي وجماعته من اليهود ، وكانوا يؤمنون بالله واليوم الآخر إيمانا كليا إيمان ، لاعتقادهم التشبيه والولد وأن الجنة لا يدخلها غيرهم وأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودة وغير ذلك ، ويرون المسلمين أنهم آمنوا مثل إيمانهم ... وفي تكرير الباء إدعاء الإيمان بكل واحد على الاصلة والاستحكام ، والمراد باليوم الآخر من وقت الحشر إلى ما لا ينتهى ، أو إلى أن يدخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار لأنه آخر الأوقات المحدودة بطرفين .. « وما هم بمؤمنين » لإبطانهم الكفر وهذا إنكار لما ادعوا إثباته ، وهنا نجد أن الضمير فى « يقول » قد أتى به مفردا نظرا للواحد وإلى لفظة من لأنها صالحة للتثنية والجمع والواحد ، ثم قال عز وجل : « وما هم بمؤمنين » على الجمع نظرا إلى معناها ، فان قيل كيف طابق قوله « وما هم بمؤمنين » قولهم آمنا بالله ، فان الأول فى ذكر شأن الفعل لا الفاعل والثانى فى ذكر شأن الفاعل لا الفعل فكان المطابق له : « وما آمنوا ؟ أجيب : بأنه إنما عدل إلى ذلك لرد كلامهم بأبلغ وجهه وآكده لأن إخراج ذواتهم عن عداد المؤمنين أبلغ من نفي الإيمان عنهم فى ماضى الزمان ، ولذلك أكد النفي بالباء ، ونظيره قوله

تعالى: « يريدون أن يخرجوا من النار وما هم بخارجين منها ، وهو أبلغ من قولك «وما يخرجون منها»، وأطلق الإيمان على معنى أنهم ليسوا من الإيمان في شيء ، ويحتمل أن يكون المعنى : وما هم بمؤمنين بالله وباليوم الآخر ، لأن «وما هم بمؤمنين» جوابه ، والآية تدل على أن من ادعى الإيمان وخالف قلبه لسانه بالاعتقاد لم يكن مؤمنا .

والآية الثانية وهي قوله تعالى : « يخادعون الله والذين آمنوا ، المراد بها السخرية من هؤلاء المنافقين ومن أعمالهم ، لأنهم يخادعون الله والمؤمنين بإظهار خلاف ما أبطنوه من الكفر ليدفعوا عنهم أحكامه الدنيوية ويحفظوا دماءهم ويحفظوا أموالهم ، واصل الخدع في اللغة الإخفاء ومنه الخدع للبيت الذي يخفى فيه المتاع ، فالخدع أظهر خلاف ما يضر ، والخدعة تكون بين اثنين في الأصل ، وخداعهم مع الله لأهمية له لأنه تعالى لا يخفى عليه خافية ، وقد يكونون لم يقصدوا خديعته ، ويكون المراد إما خدعة رسوله أو أوليائه ، لأنهم لم يعتقدوا أن الله بعث الرسول إليهم فيكون قصدهم في نفاقهم ليس بخدعة الله ، وخداعهم مع الله ليس عليه ظاهره ، أو على أن معاملة الرسول معاملة الله تعالى من حيث إنه خليفته كما قال تعالى : من يطع الرسول فقد أطاع الله ، إن الذين يباعدونك إنما يباعدون الله ، والتعبير بالخدعة لأن صورة صنيعهم مع الله من إظهار الآيات واستبطان الكفر وصنيع الله معهم من إجراء أحكام المسلمين عليهم - وهم عنده أخبث من الكفار وأهل الدرك الأسفل من النار - استدراجا لهم ، وامتنال الرسول والمؤمنين أمر الله في إخفاء حالهم وإجراء حكم الإسلام ، مجازاة لهم بمثل صنيعهم ؛ صورة صنيع المتخادعين ، ويحتمل أن يراد بيخدعون يخدعون لأنه بيان ليقول ، أو استئناف بذكر ما هو الغرض منه ، فالخدعة هنا من واحد وذكر الله فيها تحسين ... «وما يخادعون إلا أنفسهم» لأن وبال خداعهم راجع عليهم فيفتضحون في الدنيا باطلاع الرسول على ما أبطنوه ، ويعاقبون في الآخرة ، والنفس ذات الشيء وحقيقته .

وقوله تعالى «وما يشعرون» أي لا يحسبون ولا يعلمون أن خداعهم إنما هو

خداع لأنفسهم ، أو أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، أو وما يشعرون
إطلاع الله نبيه على خداعهم ، أو هلاك أنفسهم ، أو المراد لا يشعرون بشيء ،
أو وما يخدعون إلا أنفسهم غير شاعرين بذلك ولو شعروا لما خادعوا .

والشعور الإدراك بالحواس الخمس الظاهرة ، ويكون بمعنى العلم . وقال
الراغب : « شعرت كذا يستعمل بوجهين : بأن يؤخذ من مس الشعر ويعبر به
عن اللبس ومنه استعملت المشاعر للحواس فاذا قيل : فلان لا يشعر فذلك أبلغ
في الذم من أنه لا يسمع ولا يبصر لأن حس اللبس أعم من حس السمع
والبصر ، وتارة يقال شعرت كذا أى أدركت شيئاً دقيقاً من قولهم شعرت به أى
أصبت شعره نحو أذنته ورأسه ، ومن ذلك أخذ لفظ الشاعر لإدراكه دقائق
المعاني . . فالآية تحتل نفي الشعور بمعنى العلم فمعنى لا يشعرون لا يعلمون ،
وكثيراً ما ورد بهذا المعنى ، وتحتل نفي الشعور بمعنى الإدراك بالحواس
فيجعل متعلق الفعل كالمحسوس الذى لا يخفى إلا على فاقده الحواس ، ونفي ذلك
نهاية الذم ، لأن من لا يشعر بالبدهى المحسوس مرتبته أدنى من مرتبة البهائم ،
وهذا أولى لما فيه من التهمم بهم مع الدلالة على نفي العلم بالطريق الأولى ،
وهو أيضاً أنسب بقوله تعالى : ختم الله على قلوبهم .

والآية الثالثة وهى قوله تعالى : « فى قلوبهم مرض ، أى شك ونفاق
لأن ذلك يضعفها ، والمرض حقيقة فيما يعرض للبدن فيخرجه عن الاعتدال
الخاص به ، ويوجب الخلل فى أفعاله ، ويجاز فى الاعراض النفسانية التى تخل
بكمال أفعالها ، كالجمل وسوء العقيدة والحسد والبغض وحب المعاصى ، لأنها مانعة
من نيل الفضائل ومؤدية إلى زوال الحياة الحقيقية الأبدية . . وهذه الآية أروع
تحليل لنفسية المنافقين ودخيلة أعماقهم ، والقلوب هنا هى العقول ، وهو تعبير
معروف عند العرب ، كأنهم لاحظوا أن القلب يظهر فيه أثر الوجدان الذى
هو السائق إلى الأعمال ، من مثل اضطرابه عند الخوف أو اشتداد الفرح . .
وقد يكون معنى المرض ضعف العقيدة ، أو ضعف الإدراك لمبادئ الدين ،
أو تحجر العقول ووقوفها فى وجه رسالة محمد عليه السلام ، وقوله تعالى :

، فزادهم الله مرضا ، أى بما أنزل من القرآن لأنه كلما أنزل آية ككفروا بها ، فزادوا شكاً وفاقاً . وإسناد الزيادة إلى الله تعالى من حيث إنه خلقها وأوجدها ، وإلى السورة في قوله تعالى « فزادتهم رجساً ، ليكونها سيباً .. » ولهم عذاب أليم ، أى مؤلم بفتح اللام وصف به العذاب للمبالغة ، إذ الألم إنما هو للعذب حقيقة لا للعذاب فنسبة الألم إلى العذاب مجاز .. « بما كانوا يكذبون » : أى بتكذيبهم النبي صلى الله عليه وسلم أو بكذبهم في قولهم : « آمنا » ، لأن الإيمان التصديق بالقلب ، والكذب هو الخبر عن الشيء على خلاف ما هو به ، قال البيضاوى تبعاً للزحشرى : وهو حرام كله لأنه علل به استحقاق العذاب حيث رتب على الكذب ، وما روى أن إبراهيم عليه الصلاة والسلام كذب ثلاث كذبات - كما ورد في البخارى ومسلم في حديث الشفاعة ، والكذبات الثلاثة هى قوله فى الكوكب : « هذا ربي » ، وقوله « بل فعله كبير هم هذا » ، وقوله « إني سقيم » - فالمراد التعريض ، وهو اللفظ المشار به إلى جانب والغرض جانب آخر ، وقيل هو خلاف التصريح وهو تضمن الكلام دلالة ليس لها ذكر ؛ ومن الكذب ما هو مباح لأن الكلام وسيلة إلى المقصود فكل مقصود محمود إن أمكن التوصل إليه بالصدق فالكذب فيه حرام ، وإن لم يمكن إلا بالكذب فهو مباح إن كان المقصود مباحاً ، ومندوب إن كان المقصود مندوباً ، وواجب إن كان المقصود واجباً ، وفى حديث الطبرانى فى الكبير : كل الكذب يكتب على ابن آدم إلا ثلاثاً : الرجل يكذب فى الحرب فإن الحرب خدعة ، والرجل يكذب على المرأة فيرضيها ، والرجل يكذب بين الرجلين فيصلح بينهما ... وفى حديثه فى الوسيط : « الكذب كله إثم إلا ما نفع به مسلم أو دفع به عن دين » .

فى هذه الآية ذكر القرآن الكريم سر تصرفات المنافقين وأعمالهم العجيبة الغريبة ، وبين أن نفوسهم ملئت ضغينة وحقداً على فكرة التقدم ودعاتها ، وعلى النور والحق وحملة الرسالات ، فهم يحبسون الظلام ، ويعيشون فيه ويؤثرونه ، ويكرهون النور ويتعدون عنه ، لأن نفوسهم مريضة ، وأرواحهم

سقيمة ، وأبصارهم عليها غشاوة ، حتى لا ترى نورا ، ولا تبصر حقيقة ،
والله عز وجل يزيد قلوبهم مرضا ، ونفوسهم حيرة .
أما الآية الرابعة وهي قوله تعالى : « وإذا قيل لهم الخ ، فتصور مدى
انعكاس طباع هؤلاء المنافقين ، ومدى انقلاب الحقائق في عقولهم ؛ وتصور
جهلهم ، وتصميمهم على هذا الجهل ، يقول لهم الناصحون المشفقون :
لا تفسدوا في الأرض ، أى بالكفر والتعويق عن الإيمان ، والفساد : خروج
الشيء عن الاعتدال ، والصلاح ضده ، والفساد يعم كل ضار ، والصلاح يعم كل
نافع ، وكان من إفسادهم في الأرض إثارة الحروب والفتن بمخادعة المسلمين
ومعاونة الكفار المتمحض كفرهم على المسلمين ، وما ذكر يؤدي إلى فساد
الأرض وضلال الأمم ، ومنه إظهار المعاصي والاستهانة بالدين ، فإن الاخلال
بالشرائع والاعراض عنها بما يوجب القوضى ، ويخل بنظام العالم ، لأن ذلك
إفساد ، لأن الإفساد جعل الشيء فاسدا وصنيعهم لم يكن كذلك ، فقوله تعالى
لا تفسدوا : مجاز أى لا تفعلوا ما يؤدي إلى الفساد... إن المنافقين بوقوفهم حجر
عثرة في طريق الحق والهدى والنور والرسالة ليفسدون في الأرض إفسادا
كثيرا ، ومن العجب أن يردوا على الناصحين لهم بأنهم مصلحون ، ديدنهم
الإصلاح في كل وقت ، فقوله تعالى : « قالوا إنما نحن مصلحون ، جواب
لا إذا ، ورد للناصح على سبيل المبالغة ، والمعنى أنه لا يصح مخاطبتنا بذلك ، فإن
شأننا ليس إلا الإصلاح وحالنا متمحضة عن شوائب الفساد ، وإنما قالوا
ذلك لأنهم تصوروا الفساد بصورة الصلاح لما في قلوبهم من المرض كما قال
تعالى : « أفمن زين له سوء عمله فرآه حسنا ، .

وفي الآية الخامسة يرد الله عز وجل عليهم هذا الزعم الفاسد رداً بليغا
قويا رائعا ، فيقول : « ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون ، أى
لا يفتنون ولا يعلمون أنهم مفسدون بذلك ، لأنهم يظنون أن الذى هم عليه
من إبطان الكفر صلاح ، ولا يعلمون ما أعد الله لهم من العذاب .

وفي الآية السادسة يشرح الله عز وجل بعد هؤلاء المنافقين عن الناس

وانعزالهم عنهم ، وأنهم يأبون الدخول فيما دخل فيه المنصفون من الإيمان برسالة محمد : « وإذا قيل لهم آمنوا ، هذا من تمام النصح والإرشاد فإن كمال الإيمان بمجموع أمرين : الاعراض عما لا ينبغي وهو المقصود بقوله : « لا تقصدوا ، والإتيان بما ينبغي وهو المطلوب بقوله تعالى « آمنوا كما آمن الناس ، أى كإيمان الناس الكاملين فى الانسانية الموافق باطنهم فيه لظاهرهم ، العاملين بما يوجبه العقل . . . قالوا أتؤمن كما آمن السفهاء ، أى الجهال وأتباع محمد عليه السلام ، وإنما سفهوهم لاعتقادهم فساد رأيهم ولتحقير شأنهم فإن أكثر المؤمنين كانوا فقراء ، وفيهم كثير من الموالى كبلال وصهيب وعمار وسواهم . هذا هو منطق المناققين وياله من منطق ، وذلك عقلهم وما أقبحه من عقل ، إنهم فى ضلال وعمى وجمل ، هم على الباطل ويقولون إنهم على الحق ، وهم سفهاء ويظنون أنفسهم حكماء ، وهم جاهلون ويفهمون أنهم مؤمنون منصفون ، قال الله تعالى فى أمرهم : « ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ، أنهم سفهاء بما فعلوه من إبطان غير ما أظروه ، ووجه الأبلغية فى تجهيلهم أن الجاهل بجمله الجازم على خلاف ما هو الواقع أعظم ضلالا وأتم جهالة من المتوقف المعترف بجمله فإنه ربما تنفعه الآيات والنذر ، وهذا القول كانوا يقولونه فيما بينهم لا عند المؤمنين فأخبر الله سبحانه وتعالى نبيه صلى الله عليه وسلم والمؤمنين بذلك ، والسفه : خفة وسخافة رأى سببها نقصان العقل والعلم يقابله ، وعبر فى هذه الآية بلا يعلمون وفى التى قبلها بلا يشعرون لأن التعبير بلا يعلمون أكثر مطابقة لذكر السفه ، لأن السفه جهل فطابقه نفي العلم ، ولأن أمر الإيمان يحتاج إلى دقة نظر ، فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يعلمون . وأمر البغى والفساد دنيوى فهو كالمحسوس لا يحتاج إلى دقة نظر فعبر فى الآية التى اشتملت عليه بلا يشعرون . ويشعر مضارع شعر يقال شعرت كذا أى أحسست به أو أدركت وفطنت له ، وقد استعمل بالمعنى الأول فى قوله « وما يشعرون » ، وفى الثانى بقوله « لا يشعرون » كما يعلم بما قدرته فى الآيتين . أما الآية السابعة ففيها تصوير لمدى حيرتهم ونفاقهم وتذبذبهم بين هؤلاء

وهؤلاء ، يقول فيهم الله تعالى « وإذا لقو الذين آمنوا قالوا آمنا ، أى كإيمانهم
« وإذا خلوا ، منهم ورجعوا « إلى شياطينهم ، أى الذين ماثلوا الشياطين فى
تمردهم « قالوا إنا معكم ، : أى فى الدين والاعتقاد، يريدون بآمننا دعوى إحداث
الإيمان، ويقولهم إنا معكم تحقيق ثباتهم على ما كانوا عليه.. « إنما نحن مستهزئون ،
أى بأصحاب محمد أى نسخر بهم باظهارنا الاسلام لأن المستهزىء بالشىء
المستخف بهم مصر على خلافه ، فهذا تأكيد لما قبله لأن من حقر الاسلام فقد
عظم الكفر ، وقد بين سبحانه وتعالى بهذه الآية معاملة المنافقين مع المؤمنين
والكفار .. روى الواحدى وغيره أن ابن أبى وأصحابه استقبلهم نفر من
الصحابة فقال لقومه : انظروا كيف أرد هؤلاء السفهاء فأخذ بيد أبى بكر رضى
الله تعالى عنه وقال : مرحبا بالصديق سيد بن تميم ، شيخ الإسلام ، وثانى رسول
الله فى الغار ، الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد
عمر رضى الله تعالى عنه وقال : مرحبا بسيد بنى عدى ، الفاروق القورى فى دينه ،
الباذل نفسه وماله لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم أخذ بيد على رضى الله
تعالى عنه فقال : مرحبا بابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وختنه (١) ،
سيد بنى هاشم ماعدا رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فنزلت .. وما صدرت به الآية
من قوله تعالى « ومن الناس من يقول آمنا بالله ، مسوق لبيان مذهبهم وتمهيد
نفاقهم فليس بتكريم... » « الله يستهزىء بهم » : أى يجازيهم على استهزائهم فسمى
جزاء الاستهزاء باسمه ، كما سمي جزاء السيئة سيئة فى قوله تعالى : « وجزاء سيئة سيئة
مثلها ، ، أو المعنى ينزل به العقارة والهوان الذى هو لازم الاستهزاء والغرض
منه ، ويرجع وبال الاستهزاء عليهم ، فيكون كالمستهزىء بهم ، أو يعاملهم معاملة
المستهزىء : أما فى الدنيا فيأجره أحكام الإسلام واستدراجهم بالإمهال والزيادة
فى النعمة مع التبادى فى الطغيان ، وأما فى الآخرة فبأن يفتح لهم وهم فى النار بابا
إلى الجنة فيسرعون نحوه فإذا صاروا إليه سد عليهم الباب ، وذلك قوله تعالى
« فالיום الذين آمنوا من الكفار يضحكون ، .. أى « ويمدحهم فى طغيانهم ، ضلالهم ،

(١) الخن : زوج البنت ، أو كل من كانت قبل المرأة .

«يعمّهون» يترددون متحيرين، والطغيان: تجاوز الحد في العصيان والغلو في الكفر، وأصله تجاوز الشيء عن مكانه، فقال تعالى «إنا لما طغى الماء حملناكم»، قال الفيضاني: والعمه في البصيرة كالعمى في البصر وهو التحير في الأمر، يقال رجل عامه وعمه وأرض عمها لامنار لها فالعمه مختص بالبصيرة والعمى مختص بالبصر فينبهما تباين، وقيل العمه في البصيرة والعمى عام فيها وفي البصر فينبهما عموم مطلق، وهذه الآية بيان لدأب المنافقين وأنهم إذا استقبلوا المؤمنين دفعوهم عن أنفسهم بقولهم «آمننا» استهزاء فلا يتوهم أنه مكرور مع أول القصة، لأنه إبداء لخبثهم ومكرهم وادعاء أنهم مثل المؤمنين في الإيمان الحقيقي.

والمراد بشياطينهم من كانوا يأمرونهم بالتكذيب من اليهود أو كهنتهم، وسموا بذلك لتمردهم وقلوبهم لحقائق الأمور، أو لأن الشياطين قرناء لهم إن فسروا بالكهنة، وكان على عهده صلوات الله عليه كثير منهم ككعب بن الأشرف.

والاستهزاء: الاستخفاف والسخرية واستعمل بمعنى فعل، وقال الغزالي: الاستهزاء الاستحقار والاستهانة والتنبية على العيوب والنقائص على وجه يضحك منه، وأصل هذه المادة الخفة ومنها ناقته تهزأ به أي تسرع وتخف. «والله يستهزئ بهم»، رد على هؤلاء المنافقين على أبلغ وجه وآكده، وبيان لجزائهم عند الله عز وجل، وهم أولى بذلك لنفاقهم وعداوتهم لله ولرسوله وللدین الحق: دين الإسلام، ودين السلام.

والآية الكريمة «أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى» بيان لاستحقاق هؤلاء المنافقين لهذا الجزاء العادل والعقاب الشديد، ولاستهزاء الله بهم، لأنهم اختاروا الضلالة على الهدى، واستبدلوها به، وأصل الشراء: بذل الثمن لتحصيل الشيء الذي يطلبه المشتري، ثم توسع في هذا المعنى فاستعمل للرغبة في الشيء طمعا في تحصيله، والمعنى أنهم تركوا الهدى والدين الحق الذي هو دين الفطرة التي فطر الله الناس عليها، محصلين الضلالة التي ذهبوا إليها،

مختارين لها ، يؤثرونها على الهدى والخير والحق والرشاد ، ومعنى « فما ربحت تجارتهم » ما ربحوا فيها ، والتجارة التصرف بالبيع والشراء ، والربح الفضل على المال ، واسناده إلى التجارة وهو لأربابها على الاتساع لتلبسها بالفاعل أو لمشايتها إياه من حيث إنها سبب الربح والخسران .. « وما كانوا مهتدين » لطرق التجارة ، فإن المقصود منها سلامة رأس المال والربح ، وهؤلاء قد أضاعوا الأمرين ، لأن رأس مالهم كان هو الفطرة السليمة والعقل الصرف ، فلما اعتقدوا هذه الضلالات بطل استعدادهم واختل عقولهم ولم يبق لهم رأس مال يتوصلون به إلى إدراك الحق ونيل الكمال ، فصاروا خاسرين آيسين من الربح فاقدين للأصل .

وقد أتبع الله تفصيل أحوال المنافقين ، وبيان نفسياتهم المريضة ، بضرب الأمثال في شأنهم ، فمثلهم في هذه الآية الكريمة « مثلهم كمثل الذي استوقد » الخ بحال طالب النار للدفء والضوء ومن هو في شدة الحاجة إليها ، ثم يطفئها الله ويتركهم في ظلمات وحيرة . ومعنى « مثلهم » أي شبههم و صفتهم في مقامهم « كمثل الذي » بمعنى الذين بدليل سياق الآية ونظيره : والذي جاء بالصدق وصدق به أولئك هم المتقون ، وقوله تعالى : « وخضتم كالذي خاضوا » وقصد به جنس المستوقد أو الفوج الذي « استوقده » أي أوقد ناراً في ظلمة . ذكر القرآن حقيقة حالهم وعقبهم بضرب المثل وهو بيان تصوير تلك الحقيقة وإبرازها في معرض المشاهد المحسوس زيادة في التوضيح والتقرير فإنه أوقع في القلب وأقنع للخصم ، قال البيضاوي : والاستيقاد طلب الوقود والسعي في تحصيله وهو سطوع النار وارتفاع هبها ، والأكثر على أن استوقد هنا بمعنى أوقد لا بمعنى طلب الوقود . . . فلما أضاءت ، أي أنارت النار ، وأنار لازم ومتعد ، يقال : أضاء الشيء بنفسه فأضاه غيره . . « ما حوله » أي المستوقد فأبصر واستدفاً وآمن ما يخافه . . « ذهب الله بنورهم » أطفأه وهذا جواب لما ، وإسناده الإذهاب إلى الله تعالى ، إما لأن الكل بفعله أو لأن الإطفاء حصل بسبب خفي أو أمر سماوي كريح أو مطر ، أو للبالغة ، ولذلك عدى الفعل

بالباء دون الهمزة لما فيها من معنى الاستصحاب والاستمسك ، يقال ذهب السلطان بماله إذا أخذه وأمسكه وما أخذه الله تعالى وأمسكه فلا مرسل له ، ولذلك عدل عن الضوء الذي هو مقتضى اللفظ إلى النور، فإنه لو قيل ذهب الله بضوتهم احتتمل ذهابه بما في الضوء من الزيادة وبقاء ما يسمى نورا، والغرض إزالة النور عنهم رأسا، ألا ترى كيف قرر ذلك وأكده.. «وتركهم في ظلمات لا يبصرون» ما حولهم متحيرين عن الطريق خائفين، فذكر الظلمة لأنها هي عدم النور وانطماسه بالسكينة؛ وظلماتهم ظلمة الكفر وظلمة النفاق وظلمة الضلال وظلمة سخط الله وظلمة العقاب السرمدي؛ أو ظلمة شديدة كأنها ظلمات متراكمة .

وهذا المثل ضربه الله لإيمان المنافقين من حيث إن تفاقمهم يعود عليهم بحقن الدماء وسلامة الأموال والأولاد ومشاركة المسلمين في المغنم والأحكام ، ولذهاب أثره وانطماس نوره باهلاكهم ، وإفشاء حالهم بإطفاء الله تعالى إياها وإذهاب نورها ، هذا وقيل : هو مثل ضربه الله لمن أتاه ضربا من الهدى فأضاعه ولم يتوصل به إلى النعيم الأبدى ، فبقى متحيراً متحسراً .

هذا والمثل كالمثل والمثيل في الأصل النظير وأطلق على الكلام السائر المشبه مضربه بمورده ، ثم استعير لكل حالة أو قصة أو صفة لها غرابة . والمعنى : حالهم العجيبة الشأن كحالة من استوقد ، وهكذا نهج القرآن الكريم نهج العرب في أساليبها ، فضرب الأمثال التي تجلي المعاني أتم جلاء وتحدث في النفوس من الأثر ما لا يقدر قدره ولا يسبر غوره ، لما فيها من إبراز المعقولات الخفية في معرض المحسوسات الجلية ، وإظهار ما ينكر في لباس ما يعرف ويشهر ، وعلى هذا السبيل ضرب الله مثل المنافقين ، فصور حالهم - حينما أسلموا أولا ودخل نور الإيمان في قلوبهم ، ثم داخلهم الشك فيه فكفروا به إذ لم يدركوا فضائله ولم يفقهوا محاسنه ، وصاروا لا يبصرون مسلكا من مسالك الهداية ، ولا يدركون وسيلة من وسائل النجاة ، وقد أضاء ذلك النور قلوب من حولهم من المؤمنين المخلصين - بحال جماعة أوقدوا نارا لينتفعوا بها في

جلب خير أو دفع ضر ، فلما أضاعت ماحولهم من الأشياء والأماكن ،
جاءها عارض خفي أو أمر سماوي كقطر شديد أو ريح عاصف ، فجرفها وبددها
فأصبحوا في ظلام دامس لا يتسنى لهم الإبصار بحال .

والآية الجليلة « صم بكم عمى فهم لا يرجعون » معناها أنهم سادرون في
غيهم ، لا يرجعون عنه ، لأن فطرتهم الانسانية ممسوخة ، وعقلهم المختل
لا يبتنى عن الضلال ، ولا يترك النفاق والإلحاد في الدين ، ومعنى « صم » ،
أى هم صم عن الحق فلا يسمعون سماع قبول ، وأصل الصمم صلابة من اجتماع
الأجزاء ، ومنه قيل حجر أصم وقناة صماء وصمام القارورة . سمي به فقدان حاسة
السمع ، ومعنى « بكم » خرس عن الخير فلا يقولونه والخرس في الأصل عدم
القدرة على النطق ، ومعنى عمى أى عن طريق الهدى فلا يرونه . . . والمعنى في
الأصل عدم البصر عما من شأنه أن يبصر وقد يقال لعدم البصيرة . ومعنى
« فهم لا يرجعون » : أى لا يعودون إلى الهدى الذى باعوه وضيعوه ، أو عن
الضلالة التى اشتروها . . . وهذا المثل البليغ أروع تصوير لحقيقة المناق ونهايته
وضلاله وانعدام الأمل فى عودته إلى الحق ، وكان المعنى أنهم فقدوا نور
العقل الهادى وهم أشد الناس حاجة إليه كما يفقد المستوقد ضوء النار وهو فى
مسيس الحاجة إليها ، فيبقى فى الظلام متجبرا متحسرا ، وكذلك شأن المناق
لأنه أصم أبكم وأعمى فهو قد فقد العقل ولن يرجع إلى حكمه . ثم استأنف
الله ضرب مثل جديد للمناققين فقال : أو كصيب ، أى كمثل أصحاب صيب وأو
فى الأصل للتساوى فى الشك ثم اتسع فيها فأطلق للتساوى من غير شك مثل : صادق
محمد أو عليا ، وقوله تعالى : « ولا تطع منهم آثما أو كفورا » ، فانه يفيد التساوى
فى حسن المصادقة فى المثال الأول ، ووجوب العصيان فى الثانى ، ومن ذلك
قوله « أو كصيب من السماء » ومعناه أن قصة المناققين مشبهة بهاتين القصتين وأنهما
سواء فى صحة التشبيه بهما وأنت مخير فى التمثيل بهما أى بأيتهما شئت ، وإن
كان الثانى أبلغ كما قاله الزمخشري ، قال : لانه أدل على فرط الحيرة وشدة
الأمر وفضاعته ، والصيب أصله من صاب يصوب وهو النزول ، يقال للمطر

والسحاب ، والآية تحتلها ، أى ينزل « من السماء » ذلك ، فإن فسرت الصيب بالمطر فالمراد بالسماء السحاب أو ، السماء بعينها . وإن فسرت بالسحاب فالمراد السماء بعينها ، والسماء كل ما علاك وأظلك ، وهى مجموع ما نراه فى الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم ، وهى مرتبة بعضها فوق بعض ، تطوف دائرة فى الفضاء ، كل شىء منها فى مكانه المقدر له بالناموس الالهى ونظام الجاذبية .. « فيه » : أى فى الصيب وقيل فى السماء .. « ظلمات » جمع ظلمة ، فإن أريد بالصيب المطر فظلماته ظلمة تكاثفه بتتابع القطر وظلمة غمامه مع ظلمة الليل ، وإن أريد به السحاب فظلماته سواده وتكاثفه مع ظلمة الليل .. « ورعد » هو صوت يسمع مع السحاب ، قال البيضاوى : والمشهور أن سببه اضطراب أجرام السحاب واصطكاكها إذا ساققتها الريح من الارتعاد .. « وبرق » هو ما يلمع من السحاب ، من برق الشىء بريقا .. « يجعلون » أى يجعل أصحاب الصيب « أصابعهم » أى أناملها وإنما أطلق الاصابع موضع الانامل للمبالغة لما فى ذلك من الإشعار بدخول أصابعهم فوق المعتاد فرارا من شدة الصوت فى آذانهم .. « من الصواعق » أى من أجلها يجعلون ، وهو جمع صاعقة وهى الضجة التى يموت من يسمعها أو يغشى عليه ، ويقال لكل عذاب مهلك صاعقة ، وقيل الصاعقة قطعة عذاب ينزلها الله على من يشاء ، روى عن سالم بن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهم : أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا سمع الرعد والصواعق قال اللهم لا تقتلنا بغضبك ، ولا تهلكنا بعذابك وعافنا قبل ذلك ، حذر الموت : حذر منصوب على أنه مفعول لأجله . ومثل ذلك قول الشاعر :

وأغفر عوراء الكريم ادخاره وأعرض من شتم اللثيم تكرما

قال البيضاوى : والموت زوال الحياة عما من شأنه الحياة أو عدم الحياة عما اتصف بها بالفعل والموت مفارقة الروح الجسد .. « والله محيط بالكافرين » علما وقدره لا يخلصهم الخداع والحيل ، وقيل مهلكهم بدليل قوله تعالى « إلا أن يحاط بكم ، أى تهلكوا . ومعنى « يكاد البرق » أى يقرب أن يخطف أبصارهم أى

يختلسها والخطف الأخذ بسرعة ، « كلما أضاء لهم مشوا فيه ، أى فى ضوءه ، وإذا
أظلم عليهم قاموا ، أى وقفوا متحيرين ، فإله تعالى شبههم فى كفرهم ونفاقهم
يقوم كأنو فى مفازة فى لية مظلمة فأصابهم مطر فيه ظلمات لا يمكن المشى فيها ،
ورعد يضع السامعون أصابعهم فى آذانهم من هول ، وبرق يقرب من أن
يخطف أبصارهم ويعميها من شدة توقده .

فقد ضرب الله مثلا آخر يشرح به حال المناقين وبين فظاعة أعمالهم
وسوء أفعالهم زيادة فى التنكيل بهم وهتك لأستارهم ، إذ كانوا افتنة للبشر ومرضا
فى الأمم ، فجعل حالهم وقد أتتهم تلك الإرادات الإلهية النارية من السماء
فأصابهم القلق والاضطراب واعترضتهم ظلمات الشبه والتقاليد والخوف من
ذم الجماهير عند العمل بما يخالف آراءهم ، ثم استبان لهم أثناء ذلك قبس من
النور يلمع فى أنفسهم حين يدعوهم الداعى ، وتلوح لهم الآيات البينة والحجج
القيمة ، فيعزمون على اتباع الحق وتسير أفسكارهم فى نوره بعض الخطوات
ولكن لا يلبثون أن تعود به الحيرة ، كحال قوم فى إحدى الفلوات نزل
بهم بعد ظلام الليل صيب من السماء فيه رعود قاصفة وبروق لامعة وصواعق
متساقطة ، فتولاهم الدهش والرعب ، فهروا بأصبعهم إلى آذانهم كلما قصف
هزيم الرعد ليسدوا منافذ السمع لما يحذرونه من الموت الزؤام ويخافونه
من نزول الحمام ، وقيل إن هذا مثل ضربه الله تعالى للقرآن وصنع الكافرين
والمناققين معه ، فالمطر القرآن لأنه حياة القلوب كما أن المطر حياة الأبدان ،
والظلمات ما فى القرآن من ذكر الكفر والشرك ، والرعد ما خوفوا به من
الوعيد وذكر النار ، والبرق ما فيه من الهدى والبيان والوعد وذكر الجنة .
والكافرون والمناققون يسدون آذانهم عند قراءة القرآن مخافة ميل القلب إليه
ولازعاج ما فى القرآن من الحجج قلوبهم ، وإنما قال الله تعالى مع الإضاءة
كلما ومع الاظلام إذا لأنهم حراس على المشى كلما صادفوا منه فرصة مما
يجبون اتهمزوها ولا كذلك التوقف فيما يكرهون ومعنى قاموا وقفوا ، ومنه
قامت السوق إذا ركبت أى سكنت ، ويقال قامت السوق بمعنى تفقت فهو

ن الاضداد .. « ولو شاء الله لذهب بسمعهم ، بمعنى أسماعهم ، وأبصارهم ،
ى الظاهرة كما ذهب بالباطنة ، أى ولو شاء أن يذهب بسمعهم بشدة صوت
رعد وأبصارهم بلبعان البرق لذهب بهما .. « إن الله على كل شيء ، يشاؤه
« قدير ، هذا كالتصريح بما ذكره والتقرير له ، والقدرة التمكن من إيجاد الشيء ،
أوصفة تقتضى من إيجاده ، أو هى عبارة عن نفي العجز عنه ، والقادر هو الذى
إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل ، والقدير الفعال لما يشاء على ما يشاء .
وإلى هنا تنتهى قصة المنافقين ، التى ذكرها الله عز وجل فى ثلاث عشرة
آية من كتابه الحكيم ؛ كشف فيها عن نفوسهم المريضة ، وقلوبهم العليلة ،
وأبان ما هم فيه من غي وضلال وجهل وانطاس للفطرة الإلهية وبعد عن الدين
الحق ، وأوضح خداعهم لله ولرسوله وجزءا مهم على هذا الخداع ، وادعاءهم
للإصلاح وهم المفسدون ، وللإيمان وهم المرتابون الشاكون ، وللجد وهم
المستهزئون ، إن فى قلوبهم مرضا ، والله يستهزى بهم ويمدهم فى طغيانهم
يتحiron ، إنهم قد آثروا الضلالة ، وفضلوها على الهدى ، وهم الآخسرون
عملا ، ولن ترج تجارتهم ، بل إنها تجارة كاسدة خاسرة ، وضرب الله لهم مثلا
رائعين ، مثلهم بالذى يستوقد النار فتضىء ما حوله ويفرح بها ، ويستترشد مستدلا
بها على الطريق ، ورجاء يطفئها الله ويتركهم فى الظلمات لا يبصرون ولا يرون شيئا ،
ومثلهم كذلك بالسائرين فى مطر شديد فيه ظلمات ورعد وبرق ، فلا يملكون للنجاة
سيلا ، ولا يملكون الهرب من الرعد إلا بسد آذانهم ، ويكاد البرق يخطف
أبصارهم ، فكلما أضاء لهم ساروا فى نوره ، وكلما أظلم عليهم وقفوا ، ولو أراد
الله لذهب بسمعهم وأبصارهم من شدة الرعد والبرق ، فإله على كل شيء قدير .
إن هؤلاء المنافقين قد طمست فطرتهم الإنسانية ، ووقفوا للدين والله
والرسول يناصبونهم العدا ، وهم لا يعقلون ولا يفهمون ولا يثوبون إلى رشد
ولا إلى هدى ، وكانهم فى ضمير وبكم وعمى ، فهم لا يرجعون إلى الحق ، ولا
إلى الرشاد ، ولا إلى أصل فطرتهم الحقيقية المطبوعة على الإيمان بالله ورسوله
وكتابه الحكيم .

٢١ - يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ

قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

٢٢ - الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْخَرَجَ بِهِ مِنَ الْأَشْجَارِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا

تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

٢٣ - وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ

مِثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِمَّنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

٢٤ - فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا

النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ

هذه الآيات الكريمة الأربع جاءت عقب حديث الله عز وجل عن طبقات الناس : المؤمنين والكافرين والمنافقين ، وهي خطاب عام لجميع أصناف البشر ، ودعوة إلهية جليلة لهم إلى الإيمان والطاعة وعبادة الله جل وعز ، وإلى الاسلام واعتقاد أن القرآن كتاب منزل من عند الله يحمل آخر الشرائع والرسالات ، ويحمل دعوة رفيعة للإنسانية ، لتبدأ عصرا جديدا ونحياة جديدة في ظلال الحرية والكرامة والسلام والرفاهية والائمان والمساواة والعدالة والمثل الانسانية الرفيعة ، ويصح أن يكون الخطاب مع عمومهم موجها كذلك على صفة الخصوص إلى مشركي مكة الذين نزلت في بيئتهم الرسالة ، والذين حاربوا الله ورسوله ، وصدوا عن سبيل الله ، ووقفوا للرسول وللمسلمين بالمرصاد ، واضطهدوا كل من قبل دعوة الله والدين الحق والقرآن الذي جاء هدى ونورا ورحمة للناس .

لما عدد الله سبحانه وتعالى فرق المكلفين وذكر صفاتهم وأحوالهم أقبل

تعالى عليهم بالخطاب على سبيل الالتفات بقوله تعالى « يا أيها الناس اعبدوا ربكم ، تحريكا للسامع وتنشيطا له واهتماما بأمر العبادة ، وتفخيا لشأنها ، وجبرا لمشقة العبادة بلذة المخاطبة ، وديا، حرف وضع لنداء البعيد وقد ينادى به القريب تنزيلا له منزلة البعيد إما لعظمته كقول الداعي « يا رب ، ، يا الله ، وهو أقرب إليه من جبل الوريد ، أو للاعتناء بالمدعوه وزيادة الحث عليه ، أو لغير ذلك ؛ ولفظ الناس يعم الموجودين ومن سيوجد بعد زمن الرسالة لما تواتر من أحكام الاسلام أن مقتضى خطابه وأحكامه شامل للفريقين ، ثابت إلى قيام الساعة إلا ما خصه الدليل ، وقال الإمام الرازي : الأقرب أنه لا يتناول إلا الموجودين ، لأن « يا أيها الناس ، خطاب مشافهة وخطاب المشافهة مع المعدوم لا يجوز ، وتناوله له لدليل منفصل ، وهو ما تواتر من دينه عليه الصلاة والسلام أن أحكامه ثابتة في حق من سيوجد إلى قيام الساعة ، وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه أن كل شيء نزل فيه « يا أيها الناس ، فمكى ، « ويا أيها الذين آمنوا ، فمدنى ، ومعنى ذلك أن الخطاب لأهل مكة ، مع أن السورة نزلت بالمدينة ، ويجاب عن ذلك بأن المراد بأن السورة مكية أو مدنية أن غالبها كذلك ، أو أن ذلك أكثرى لا كلى ، وسورة البقرة والنساء والحجرات مدنيات باتفاق ، وقد قال تعالى في كل منها « يا أيها الناس ، وسورة الحج مكية سوى ما استثنى وفيها « يا أيها الذين آمنوا اركعوا ، ، ولا يختص ذلك الخطاب بالكفار ولا بأمرهم بالعبادة ، وكما يجب على الكافر رفع الكفر والاشتغال بالعبادة يجب على المؤمنين ازديادهم منها وثباتهم عليها وقول الله تعالى « ربكم ، للتنبيه على أن هذه العبادة ليست إلا شرفا للمتعبدين لأنها موجهة إلى الله عز وجل خالق الخلق ، ورب الكون. وقوله تعالى « الذى خلقكم ، أى أنشأكم ولم تكونوا شيئا وهى صفة للتعظيم والتعليل ، والخلق إيجاد الشيء على التقدير والاستواء ، وأصله التقدير ، يقال « خلق النعل ، إذا قدرها وسواها بالقياس .. والذين من قبلكم: أى وخلق الأمم من قبلكم وهذا متناول لكل ما يتقدم الإنسان بالذات والزمان، وجملة « لعلمكم تتقون ، معناها

اعبدوا ربكم راجين أن تدخلوا في سلك الفائزين بالهدى والفلاح ، المستوجبين لجوار الله تعالى ، ونبه الله عز وجل بذلك على أن التقوى منتهى درجات السالكين ، وهي التبرؤ من كل شيء سوى الله تعالى إلى الله ، وأن العابد ينبغي أن لا يغتر بعبادته ويكون ذا خوف ورجاء كما قال تعالى « يدعون ربهم خوفا وطمعا ، ، يرجون رحمته ويخافون عذابه ، ، ومعنى هذه الآية أن الله عز وجل يأمر عباده بالإيمان والتزام حدود الرسالة ، وبالإخلاص له وطاعته وعبادته حق العبادة ، لأنه الإله الخالق المعبود ، الذي خلق الأمم والأجيال والشعوب ، ومنحها القدرة على الحياة .

فالآية أصل عظيم من أصول الإنسانية الرفيعة ، ومعناها أن البشر ملزمون بالإيمان بعقيدة محمد ورسالته ، واتباع الدين الحق الذي يتلاءم مع الفطرة الإنسانية الرفيعة وهو الإسلام ، وعبادة الله وطاعته ، فالدين ضرورة من ضرورات الحياة الإنسانية ، والإيمان بالدين يستلزم اتساع أفق الإنسان في التفكير والحياة ، ويستتبع الإيمان بالدين اعتقاد الإنسان أنه لا يعيش في الحياة وحده ، بل إن معه قدرة خارقة تسنده في الحياة ، وتدفعه إلى السكال ، وتطالبه بعمل الخير ، وتجازيه على ما يعمل : خيرا بخير ، وشرأ بشر ، ويستتبع الإيمان بالدين كذلك ثقة المؤمن بنفسه وبقدرته على مواجهة الحياة ، وإيمانه بأن الله مع الأخيار ، يعينهم ويهديهم سواء السبيل .

ثم أرشد الله عز وجل في الآية الثانية إلى أن الإيمان بالله ليس ذلا للمؤمن ، ولا قيذا يطوق به عنقه ، وليس مهانة للسلم ، بل هو شرف عظيم ، ومنزلة رفيعة ، يناها الإنسان ، لأنه لا يعبد حجرا ولا تمثالا ، ولا كوكبا ، ولا إنسانا ، وإنما يعبد الله عز وجل ، الذي تعالت في الحياة إرادته ، وعظمت في الوجود قدرته ، وظهرت في الكون حكمته .

يعبد الله القادر على كل شيء ، الذي أعان الإنسان المخلوق على الحياة ، وذلك كل شيء له :

١ - فالأرض التي يسكنها الإنسان ، والتي مهدها الله له ، وجعلها صالحة

لحياته ، وجعلها بساطا يمشى عليه ، وفراشا يضع عليه قدميه ، الله هو الذى خلقها وسواها ، وجعلها كذلك .

٢ - والسماء المرفوعة ، بما فيها من كواكب ونجوم وشمس وقمر ، وسحب ، وبما يشرق فيها من أضواء تنير الكون للإنسان ، الله عز وجل هو بانها ورافعها وخالقها للإنسان .

٣ - والأمطار المتساقطة من السحب التى تحي الأرض ، وتنمو بها الثمرات ، وتخرج عليها النباتات ، ويعيش عليها الحيوان والإنسان ، الله عز وجل هو منزلها ومجريها .

وهل هناك نعم أجل من هذه النعم الثلاث ، فلولا الأرض ، ولولا السماء ، ولولا الماء ، لما كانت حياة ولا أحياء ، ولما عمرت الأرض وصلحت للعيش فيها .

والمراد بالسماء فى قوله تعالى « وأنزل من السماء ماء ، السحاب ، ومعنى « فأخرج به من الثمرات رزقا لكم ، أى من أنواع الثمرات رزقا تأكلون وتعلقون منه دوابكم ، وخروجها بقدره الله تعالى ومشيبته ولكن جعل الماء الممزوج بالتراب سببا فى إخراجها ومادة لها كالتنطفة للحيوان ؛ ومعنى « فلا تجعلوا لله اندادا ، أى شركاء فى العبادة ، ولما تركوا عبادته إلى عبادتها وسموها آلهة شابهت حالهم حال من يعتقدانها ذوات واجبة بالذات قادرة على أن تدفع عنهم بأس الله وتمنحهم ما لم يرد الله بهم من خير فتبهكم الله تعالى بهم وشنع عليهم بأن أطلق عليها الله تعالى اسم الأنداد ، وجعلها أندادا لمن يمتنع أن يكون له ند ، ولذلك قال زيد بن عمرو بن نفيل حين فارق دين قومه :

أربا واحداً أم ألف رب أدين إذا تقسمت الأمور
تركت اللات والعزى جميعاً كذلك يفعل الرجل البصير

ومعنى قوله تعالى « وأتم تعلمون ، أى : وحالكم أنكم من أهل العلم والنظر وإصابة الرأى ، فلو تأملتم أدنى تأمل لعرفتم أن الله موجود ، وأنه هو المعبود ،

وأنه هو رب الانسان والكون والوجود ، أو المعنى : وأتم تعلمون أن الأنداد لاتماثله ولا تقدر على مثل ما يفعله .

وجمل معنى الآيتين كما يقول بعض المفسرين هو أن الله عز وجل بعد أن ذكر أصناف الخلق ، وبين أن منهم المهتدين ، والكافرين الذين فقدوا الاستعداد للهداية ، والمنافقين المذبذبين بين ذلك ؛ دعا الناس إلى دين التوحيد الحق ، وهو عبادة الله وحده عبادة خشوع وإخلاص ، حتى كأنهم ينظرون إليه ويرونه ، فإن لم يكونوا يرونه فإنه يراهم ، فإن فعلوا ذلك أعدوا أنفسهم للتقوى وبلغوا الغاية القصوى . ثم عدد بعض نعمه المتظاهرة عليهم الموجبة للعبادة والشكر ، فجعل منها خلقهم أحياء قادرين على العمل والكسب ، ثم خلق الأرض مستقرا ومهادا لينتفعوا بخيراتها ويستخرجوا معادنها ونباتها ، ثم بقى لهم السماء التي زينها بالكواكب وجعل فيها مصابيح يهتدى بها السارى في الليل المظلم ، وأنزل منها الماء فأخرج به ثمرات مختلفا ألوانها وأشكالها . أفليس في كل هذا ما يطوح بالنظر ويهدى الفكر إلى أن خالق هذا الكون البديع المثال لاند له ولا نظير ، وأن ما جعلوه أندادا له لا يقدر على إيجاد شيء خلق ، وأنهم يعلمون ذلك حق العلم ، فكيف يستغيثون بغير الله ، ويدعون غير الله ، مع أنه لاخالق ولا رازق سواه . ومضمون الآيتين كما ذهب إليه البيضاوى هو الأمر بالعبادة والنهي عن الاشراك به ، والاشارة إلى ما هو سبب الأمر بالعبادة والنهي عن الاشراك ، وبيانه أنه تعالى رتب الأمر بالعبادة على صفة الربوبية إشعاراً بأنها العلة لوجوبها ، ثم بين ربوبيته بأنه خالقهم وخالق أصولهم وما يحتاجون إليه في معاشهم من الأرض والسماء والطعوم والملابس ، ثم لما كانت هذه أمور لا يقدر عليها غيره شاهدة على وحدانيته رتب عليها النهي عن الإشراك به ولما قرر سبحانه وتعالى وحدانيته وبين الطريق الموصل إلى العلم بها ، ذكر عقبه ما هو الحججة على نبوة محمد صلى الله عليه وسلم وهو القرآن المعجز بفصاحته التي غلبت فصاحة كل بليغ مع كثرتهم وإفراطهم في المضادة وتهاكهم على المغالبة ، بقوله تعالى « وإن كنتم في ريب »

أى شك ، « بما نزلنا على عبدنا ، أى محمد من القرآن أنه من عند الله . » فأتوا بسورة ، وإنما قال تعالى بما نزلنا لأن نزوله نجما فنجما بحسب الوقائع كما حكى الله تعالى عنهم بقوله تعالى « وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، ، فكان الجواب تحديهم على هذا الوجه إزالة للشبهة والزاما للحجة ، فان أهل الشعر والخطابة يأتون بأشعارهم وخطبهم على قدرة الحاجة شيئا فشيئا . ولما كان القرآن منزلا كذلك طعنوا فيه بأنه مثل كلامهم ، فقبل لهم : إن ارتبتم في نزوله منجما فأتوا بنجم منه ، لأنهم عجزوا عن نجم منه فعجزهم عن كله أولى . وأضاف العبد إلى نفسه تنويها بذكره وتنبها على أنه مختص به منقاد لحكمه ، والسورة من القرآن الطائفة منه المترجمة التي لها أول وآخر أقلها ثلاث آيات . والحكمة في تقطيع القرآن سورا هو أفراد الأنواع وتلاحق الأشكال وتجاوب النظم وتنشيط القارىء وتسهيل الحفظ والترغيب فيه ، فإن القارىء إذا ختم سورة فرج ذلك عنه بعض كربه كالمسافر إذا علم أنه قطع ميلا أو طوى بريدا ، والحافظ إذا حفظ سورة اعتقد أنه أخذ من القرآن حظا تاما وفاز بطائفة محدودة مستقلة بنفسها فعظم ذلك عنده ، وقوله تعالى « من مثله » صفة سورة أى سورة كائنة من مثل ما نزلناه أى بسورة مماثلة للقرآن في البلاغة وحسن النظم . أو المعنى بسورة كائنة بمن هو على حاله أى على حال محمد من كونه بشرا أميا لم يقرأ الكتب ولم يتعلم العلوم والمعنى الأول هو المطابق لقوله تعالى في سورة يونس فأتوا بسورة مثله ولسائر آيات التحدى ، والمعنى : وإن ارتبتم في أن القرآن منزل من عند الله فأتوا بقرآن من مثله ومخاطبة الجم الغفير بأن يأتوا بمثل ما أتى به واحد من أبناء جنسهم أبلغ في التحدى من أن يقال لهم ليأت بنحو ما أتى به عبدنا آخر مثله . وقوله تعالى « وادعوا شهداءكم من دون الله ، أى ليستعينوا بكل من ينصرهم ويعينهم سواء كانوا مثله أم لا ، والشهداء جمع شهيد بمعنى الحاضر أو القائم بالشهادة ، ومنه قيل للقتول في سبيل الله شهيد لأنه حضر ما كان يرجوه ، أولان الملائكة حضروه ، والمعنى فادعوا للمعارضين من حضركم أوردوتم معونته

من إنسكم وكنكم ، وادعوا آلهتكم التي تعبدونها غير الله وتزعمون أنها تشهد لكم يوم القيامة، أو استعينوا بهم في الإتيان بما ذكر؛ « إن كنتم صادقين، أى فى أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقوله من تلقاء نفسه وأن آلهتكم تشهد لكم بذلك . والآية: « فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها (١) الناس والحجارة ، أى التي تنحتونها وتتخذونها أربابا من دون الله طمعا فى شفاعتها والانتفاع بها ويدل لذلك قوله تعالى « إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم ، أو المراد بالحجارة حجارة الكبريت لأنها أشد وأكثر التهايا وتزيد على غيرها من الحجارة ، بسرعة الإيقاد وتن الريح وكثرة الدخان وشدة الالتصاق بالأبدان: . « أعدت، أى هيئت للكافرين وجعلت عدة لعذابهم وفى ذلك دليل على أن النار مخلوقة معدة لهم الآن . ومعنى هذه الآية : نفي لقدرتهم على مجازاة القرآن الكريم فى إعجازه وبلاغته ، وذلك دليل على أنه من عند الله ، نزل معجزة لرسول الله ، فيلزمنا الإيمان به ، وبرسالة محمد ، اتقاء للنار والعذاب الشديد يوم القيامة .

قال البيضاوى : وفى الآيتين - أى آية « إن كنتم فى ريب ، وآية « فإن لم تفعلوا ، - ما يدل على النبوة من وجوه :

الأول : ما فيهما من التحدى والتحريض على الجدل وبذل الوسع فى المعارضة بالتقريع والتهديد وتعليق الوعيد على عدم الإتيان بما يعارض أقصر سورة من سور القرآن . ثم إنهم مع كثرتهم واشتبارهم بالفصاحة وتهالكهم على حرب محمد ورسالته، لم يتصدوا لمعارضته .

والثانى : ما فيهما من الاخبار عن الغيب على ما هو به فإنهم لو عارضوه بشيء لامتنع خفاؤه عادة لاسيما والطاعنون فيه أكثر من المدافعين عنه فى كل عصر .

والثالث : أنه عليه الصلاة والسلام لو شك فى أمر نفسه لما دعاهم إلى المعارضة بهذه المبالغة مخافة أن يعارض فتذهب حجته .

(١) الوقود : ما يتقد به .

۲۵ - وَبَشِّرِ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي
مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ ثَمَرَةٍ رُزِقُوا قَالُوا
هَذَا الَّذِي رُزِقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا
أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

بدأت السورة بقصة القرآن والمؤمنين ، ثم بقصة الكافرين ، ثم تلا
ذلك قصة المنافقين المرتابين الذين يدعون الإيمان بألسنتهم دون قلوبهم ، ثم
دعا الله عز وجل الناس عامة ، والأمم جميعا ، إلى الإيمان بدعوة محمد ورسالته ،
وإلى الإيمان بالله وربوبيته ، لأنه هو خالقهم ، وخالق الأمم التي بادت من
قبلهم ، وهو خالق الأرض والسماء ، ومنزل الأمطار ، ومخرج الثمرات من
الأرض ؛ وحذر الناس ونهاهم عن عبادة غير الله ، ودعاهم إلى الإقلاع عن
عبادة الأحجار والأصنام والأوثان ، وأعلن صدق محمد في رسالته ، وأنها
رسالة إلهية ، وأن المعجزة الخالدة الباقية الدالة على صدق محمد فيما يبلغه عن الله
هو هذا القرآن العظيم والكتاب الحكيم ، الذي لا يستطيع أحد ولا جماعة
ولا جيل الإتيان بمثله في فصاحته وبلاغته وروعته ، فهو كتاب الله الخالد ،
ودستور الإنسانية العظيم ، وهو النور والهدى والضياء ، وهو الأمل والخير
والرجاء ، وهو السنى والسناء ، لمن آمن به وعمل بما فيه ، ثم تحدى الله عز وجل
الناس كافة بهذه المعجزة الإلهية ، فدعاهم إن كانوا شاكين أن يأتوهم وآلهم
وأعوانهم بمثل هذا الكتاب الكريم ، ثم سجل عليهم العجز ، وأكد أنه
فوق طاقتهم ومقدرتهم ، وأنه أعلى من أن يستطيعوا الإتيان بكتاب مثله
أو بسور تناظر بعض سورة ، أو بسورة في مثل فصاحته ، وعاد يدعوهم إلى
الإيمان والطاعة وحظيرة التوحيد ، وإلى الإيمان برسالة محمد فإنها هي التي
تنجيهم من عذاب الدنيا والآخرة ، والإيمان بها يعصمهم من العذاب الشديد
والنار المحرقة التي أعدت للكافرين في الآخرة .

وبعد أن قرر الله عز وجل ذلك كله ، انتقل إلى شيء جديد ، هو مطالبة

الرسول الأكرم أن يبشر المؤمنين برضاء الله ومثوبته وجناته فقال : « وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات ، أى الطاعات » أن لهم جنات ، أى حدائق ذات شجر ومساكن ، وإنما أمر الله سبحانه وتعالى الرسول صلى الله عليه وسلم أو عالم كل عصر أو كل أحد يقدر على البشارة أن يبشر الذين آمنوا ، ولم يخاطبهم بالبشارة كما خاطب الكفرة ، تفخيما لشأنهم وإيدانا بأنهم أحق بأن يبشروا ويهنأوا بما أعد لهم ، والبشارة الخبر الصدق السار أولا ، فإنه يظهر أثر السرور فى البشرة لأن النفس إذا سرت انتشر الدم انتشار الماء فى الشجرة وقوله تعالى « فبشرهم بعذاب أليم » ورد على سبيل التهكم كقوله تعالى « ذق أنك أنت العزيز الكريم » ، وعطف سبحانه وتعالى العمل على الإيمان مرتبا للحكم عليهما إشعارا بأن السبب فى استحقاق هذه البشارة هو مجموع الأمرين ، والجمع بين الوصفين ، فإن الإيمان الذى هو عبارة عن التيقن والتصديق أس والعمل الصالح كالبناء عليه ؛ وفى عطف العمل على الإيمان دليل على أن الصالحات خارجة عن مسمى الإيمان إذا الأصل أن الشيء لا يعطف على نفسه ولا على ما هو داخل فيه ، وجمع سبحانه وتعالى الجنة لأن الجنان على ما ذكره ابن عباس سبع : جنة الفردوس ، وجنة عدن ، وجنة النعيم ، ودار الخلد ، وجنة المأوى ، ودار السلام ، وعليون ، وفى كل واحدة من هذه السبع مراتب ودرجات متفاوتة على حسب تفاوت الأعمال والعمال ؛ واللام فى « لهم » تدل على استحقاقهم إياها لأجل مراتبهم عليه من الإيمان والعمل الصالح لالذاته .. ومعنى « تجري من تحتها » أى من تحت أشجارها ومساكنها « الأنهار » ، كما تراها جارية تحت الأشجار النابتة على شواطئها ، والنهر بالفتح والسكون : المجرى الواسع فوق الجدول ودون البحر كالنيل والفرات ، والمراد بالأنهار ماؤها وقوله تعالى « كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا ، أى أطمعوا من تلك الجنان ثمرة » قالوا هذا الذى رزقنا ، أى أطمعنا « من قبل » أى من قبل هذا فى الدنيا ، جعل الله تعالى ثمر الجنة من جنس ثمر الدنيا لتميل النفس إليه أول ما يرى فإن الطبائع مائلة إلى المألوف مستقرة عن غيره ، أى هذا من نوعه لتشابه ما يؤتون به فى الصورة كما قال

تعالى « وأتوا به متشابها ، أى فى اللون والصورة ، مختلفا فى الطعم ، وذلك أبلغ فى باب الإعجاز ، والداعى لهم إلى ذلك فرط استغرابهم واقتنارهم بما وجدوا من التفاوت العظيم فى اللذة والتشابه البليغ فى الصورة . فالتشابه بينهما حاصل فى الصورة التى هى مناط الاسم دون المقدار والطعم وهو كاف فى إطلاق التشابه ، وللآية كما قال اليعاقبة محمل آخر وهو أن مستلذات أهل الجنة فى مقابلة ما رزقوا فى الدنيا من المعارف والطاعات متفاوتة فى اللذة بحسب تفاوتها . فيحتمل أن يكون المراد من هذا الذى رزقنا أنه ثوابه ومن تشابههما تماثلهما فى الشرف والرتبة وعلو الطبقة فيكون هذا فى الوعد نظير قوله تعالى « ذوقوا ما كنتم تعلمون ، فى الوعيد « ولهم فيها ، أى فى الجنات « أزواج ، من الحور العين والآدميات « مطهرة ، أى بما يستقندر من النساء ويذم من أحوالهن كالحيض والوسخ ودفن الطبع وسوء الخلق فإن التطهير يستعمل فى الأجسام والأخلاق والأفعال ومعنى تطهيرهن مما ذكر أنها منزهة عن ذلك مبرأة عنه « وهم فيها خالدون ، أى دائمون أحياء لا يموتون ولا يخرجون ، والأصل فى الخلود الثبات المديد ، دام أو لم يدم فإن قيل إن الأبدان مركبة من أجزاء متضادة الكيفية معرضة للاستحالات المؤدية إلى الانفكاك والانحلال فكيف يعقل خلودها فى الجنات فالجواب أنه تعالى يعيدها بحيث لا يعتريها الاستحالة بأن يجعل أجزاءها مثلا متفاوتة فى الكيفية متساوية فى القوة لا يقوى شيء منها على إحالة الآخر متعاقبة متلازمة لا ينفك بعضها عن بعض كما يشاهد فى بعض المعادن ، ولما كان معظم اللذات الحسية مقصورا على المساكن والمطاعم والمناكح كما دل عليه الاستقراء وكان مآل ذلك كله الثبات والدوام فإن كل نعم جليلة إذا قارنها خوف الزوال كانت منغصة غير صافية من شوائب الألم . فالمعنى : بشر المؤمنين بالمساكن الجميلة والمطاعم والمناكح فبشر بالآل بقره تعالى « جنات تجري من تحتها الأنهار ، ، وبالثانى بقره تعالى « كما رزقوا منها من ثمرة رزقا الآية ، وبالثالث بقره تعالى ولهم فيها أزواج مطهرة ، ومثل ما أعد لهم فى الآخرة بأحسن ما يستلذ منها وأزال عنهم خوف الفوات بوعد الخلود ليبدل

على كالم في التنعيم والسرور ، ومعنى الآية كلها تبشير المؤمنين برضاء الله ونعيمه وجناته وبالحياة الطيبة السعيدة الخالدة في الآخرة .

وإلى هنا انتهى الربع الأول من القرآن الكريم الذي تتضمن تحديداً لأنصار الإسلام وخصومه من الكافرين والشاكرين والمنافقين ، ودعوة صريحة للإنسانية كلها إلى الإيمان بالله وبرسالة محمد صلوات الله عليه ، هذه الرسالة التي كان القرآن معجزتها الخالدة ، هذا الكتاب الكريم الذي يعد في أعلى قمة الإعجاز ، ولن يستطيع أن يصل إلى مداه على مر العصور أئمة البلاغة والبيان ، ثم تتضمن كذلك إعلان البشارة للمؤمنين برضاء الله وثوابه وجنته ورحمته .

٢٦ - إِنَّ اللَّهَ لَا يَسْتَحْيِي أَنْ يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا

فَأَمَّا الَّذِينَ ءَامَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ ، وَأَمَّا الَّذِينَ

كَفَرُوا فَيَقُولُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا يُضِلُّ بِهِ كَثِيرًا

وَيَهْدِي بِهِ كَثِيرًا وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ

٢٧ - الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا

أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ

الْخَاسِرُونَ

وهنا يبدأ الربع الثاني من القرآن ، بقوله تعالى « إن الله لا يستحي » الخ .

قال المفسرون هنا : إن الله عز وجل قد ضرب المثل في كتابه الحكيم

بالذباب والعنكبوت : « وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه » ، وكذلك

العنكبوت ، فقالت اليهود : ضرب الله المثل بذلك بما يستحي منه لقلته وحطته ،

فليس القرآن منزلاً من عند الله . هكذا قالت اليهود ، فنزلت هاتان الآيتان

للرد عليهم أبلغ رد .

ومعنى « لا يستحي » أي لا يترك ، « أن يضرب مثلاً ما بعوضة » ، هي

صغار البق ، ذكرها الله عز وجل هنا في معرض التمثيل بها لحقارتها ، وما

للتعميم أو للتأكيد ، فهي إما إبهامية تزيد النكرة قلبها إبهاما ، وإما مزيدة لتأكيد معنى مضمون الجملة قلبها ، والحياء : انقباض النفس عن القبيح مخافة الدم ، وقد ورد كذلك في الحديث : « إن الله يستحي من ذى الشيبة المسلم أن يعذبه بالنار » ، « إن الله حي كريم يستحي إذا رفع العبد يديه أن يردهما صفرا^(١) حتى يضع فيهما خيرا » ، والمراد به في جانب الله عز وجل الترك ، ويصح في الآية الكريمة أن يكون مجيء الحياء فيها للشاكلة وهو ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته ولو تقديرا كما هنا ، وهو قول الكفار : أما يستحي محمد أن يضرب مثلا بالذباب والعنكبوت ، ولما كان التمثيل يصار إليه لكشف المعنى الممثل له ورفع الحجاب عنه وإبرازه في صورة المشاهد المحسوس ليشهد فيه الوهم العقل ويصالحه عليه ، فإن المعنى الصرف إنما يدركه العقل مع منازعة من الوهم ، شاعت الأمثال في الكتب الإلهية وفشت في عبارات البلغاء ، وإشارات الحكماء ، فيمثل الحقير بالحقير ، كما يمثل العظيم بالعظيم وإن كان الممثل أعظم من كل عظيم ، كما مثل الله سبحانه وتعالى في الإنجيل غل الصدر بالنخالة ، والقلوب القاسية بالحصاة ، ومخالطة السفهاء بإثارة الزناير ، ونصه على ما حكاه الإمام الرازي في الأول : « لا تكونوا كمنخل يخرج منه الدقيق الطيب ويمسك النخالة كذلك أتم تخرجون الحكمة من أفواهكم وتبقون الغل في صدوركم » ، وفي الثاني : « قلوبكم كالحصاة التي لا تطبخها النار ولا يلينها الماء ، ولا تنسفها الرياح » ، وفي الثالث : « لا تثيروا الزناير فتلدغكم فكذلك لا تخالطوا السفهاء فيشتموكم » ، فما فوقها ، أي ما زاد على البعوضة في الجثة كالذباب والعنكبوت ، والمعنى أنه لا يستحي من ضرب المثل بالبعوضة فضلا عما هو أكبر منه ، أو المعنى الذي جعلت فيه مثلا وهو الصغر والحقارة كجناحها فإنه عليه الصلاة والسلام ضرب جناحها مثلا للدنيا بقوله في خبر الترمذي : « لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء » ، ونظيره في ذلك ما روى عن عائشة رضي الله تعالى عنها : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : « ما من

(١) صفراً : فارغين .

مسلم يشاك شوكة فما فوقها إلا كتب الله له بها درجة ومحا بها عنه خطيئة ، فإنه
يحتمل ما يجاوز الشوكة في الألم وما زاد عليها في القلة .. « فأما الذين آمنوا
فيعلمون أنه ، أي ضرب المثل بذلك « الحق ، أي الواقع موقعه « من ربهم ،
لأن الحق هو الثابت الذي لا يسوغ إنكاره وهو يعم الأعيان الثابتة والأفعال
الصائبة والأقوال الصادقة ، من قولهم حق إذا ثبت ، ومنه ثوب محقق أي محكم
النسج ؛ وأما حرف تفصيل يفصل ما أجمل ويولد ما به صدر ويتضمن معنى
الشرط ولذلك يجاب بالفاء ، قال سيبويه : « أما زيد فذاهب » معناه مهما يكن من
شيء فزيد ذاهب أي هو ذاهب لا محالة وأنه منه عزيمة ، « وأما الذين كفروا
فيقولون : « ماذا ، أي ما الذي أو أي شيء . « أراد الله بهذا ، أي بهذا الذي
ذكره في كتابه الكريم . وقوله تعالى « مثلا ، منصوب على الحال من اسم
الإشارة والمعنى أي فائدة في ذلك ؟ فقال تعالى « يضل به كثيرا ، بأن يكذبوا به
« ويهدى به كثيرا ، بأن يصدقوا به وكثرة كل واحد من القبيلين بالنظر إلى
أنفسهم لا بالقياس - أي لا بالنظر - إلى مقابلتهم ، فإن المهتدين قليلون بالإضافة
إلى أهل الضلال كما قال تعالى « وقليل من عبادي الشكور .. » ويحتمل أن تكون
كثرة الضالين من حيث العدد وكثرة المهتدين باعتبار الفضل والشرف كما
قال المتنبي :

سأطلب حق بالقنا ومشايخ كأنهم من طول ما التسموا مرد
ثقال إذا لا قوا خفاف إذا دعوا قليل إذا عدوا كثير إذا شدوا

« وما يضل به إلا الفاسقين ، أي الخارجين عن حد الإيمان بالكفر
كقوله تعالى : « إن المنافقين هم الفاسقون ، » وتخصيص الإضلال بهم مرتبا على
صفة الفسق يدل على أن الذي أعدهم للإضلال وأدى بهم إلى الضلال بالمثل
وسبب ضلالهم به أن كفرهم وعدوهم عن الحق وإصرارهم على الباطل صرفت
وجوه إنكارهم عن حكمة المثل إلى حقارة الممثل به حتى رسخت به جهالتهم
وازدادت به ضلالتهم فأنكروا المثل واستهزأوا به ، وأما الفاسق في الشرع

فهو الخارج عن أمر الله بارتكاب كبيرة أو إصرار على صغيرة ولم تغلب طاعته على معاصيه ولا يخرج ذلك عن الإيمان إلا إذا اعتقد حل المعصية سواء أكانت كبيرة أم صغيرة ، قال تعالى : وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا . والمعزلة جعلوا الفاسق قسماً ثالثاً نازلاً بين منزاتي المؤمن والكافر لمشاركته كل واحد منهما في بعض الأحكام ، وقد وصف الله المنافقين بصفات ثلاث : نقض العهد ، وقطع ما يجب أن يوصل ، والإفساد في الأرض . وسجل عليهم بذلك الخسران المبين ، فقال : « الذين ينقضون عهد الله ، وهو إما المأخوذ بالعقل وهو الحجّة القائمة على عبادته الدالة على توحّده ووجوب وجوده وصدق رسوله ، وعليه يدل قوله تعالى « وأشهدهم على أنفسهم ، وإما المأخوذ بالرسول على الأمم بأنهم إذا بعث إليهم رسول مصدق بالمعجزات صدقوه واتبعوه ولم يكتموا أمره ولم يخالفوا حكمه وعليه يدل قوله تعالى « وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ، الآية ، وقيل عهد الله ثلاثة : عهد أخذه بواسطة العقل على جميع ذرية آدم بأن يقرؤا بربوبيته ، وعهد أخذه بواسطة الملك على النبيين بأن يقيموا الدين ولا يتفرقوا فيه ، وعهد أخذه بواسطة الرسل على العلماء بأن يبينوا الحق ولا يكتموه ، وقوله تعالى « من بعد ميثاقه ، أي توكيده ، والضمير للعهد أو لله . » ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، وهو الرحم لأنهم قطعوا رحم النبي صلى الله عليه وسلم بالمعاداة معه ، ويحتمل كل قطيعة لا يرضاها الله تعالى كقطع الرحم والإعراض عن موالاة المؤمنين وترك الجماعات وسائر ما فيه بغض خير أو تعاطي شر ، فإنه يقطع الوصلة بين الله وبين العبد المقصودة بالذات من كل وصل وفصل ، « ويفسدون في الأرض ، أي بالمعاصي وتعويق الناس عن الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم والاستهزاء بالحق وقطع الصلوات التي بها نظام العالم وصلاحه .. « أولئك هم الخاسرون ، بفوات التوبة والمصير إلى العقوبة ، بإهمال العقل عن النظر واقتناص ما يفيدهم الحياة الأبدية

واستبدال الإنكار والظن في الآيات بالإيمان بها والنظر في حقائقها ،
والاقتباس من أنوارها ، واشتراء النقض بالوفاء والفساد بالصلاح والعقاب
بالثواب .

روى عن ابن عباس أن هذه الآيات جاءت لتزيه القرآن الكريم
من ريب خاص اعتري اليهود الذين أنكروا ضرب الأمثال بالمحقرات
كالذباب والعنكبوت لما نزل قوله تعالى « يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا
له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم
الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب » وقوله « مثل الذين
اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وإن أوهن البيوت
لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون » إثر تزيهه من مطلق الريب بما تحداهم به
في الآيات السابقة ، إذ طلب إليهم أن يأتوا بسورة مثله ، وبه أبان لهم أن
ذلك ليس بمطعن في القرآن ، بل هو أنصع برهان على أنه من عند خالق
القوى والقدر ، فإن سنة البلغاء جرت بوجوب التماثل بين المثل وما مثل له ،
فالعظيم يمثل له بالعظيم ، والحقير يمثل له بالحقير ، ألا ترى إلى الإنجيل وقد
مثل غل الصدر بالنخالة ومعارضة السفهاء بإثارة الزناير ، وجاء في عباراتهم
« أجمع من ذرة ، وأجرأ من الذباب ، وأضعف من بعوضة » ، وما الأمثال
إلا إبراز للعاني المقصودة في قالب الأشياء المحسوسة لتانس بها النفس
وتستزل الوهم عن معارضة العقل ، والحكيم علام الغيوب يعلم حكمة هذا ،
فلا يترك ضرب المثل بالبعوضة وما دونها حين تدعو المصلحة إلى ذلك
والناس إزاء هذا فريقان : مؤمنون يقولون إن الله خالق الأشياء حقيرها
وعظيمها فالكل لديه سواء ، وكافرون يستهزئون بالأمثال احتقاراً لها ،
فحقت عليهم كلمة ربهم ، فأصبحوا من الخاسرين الضالين المطرودين من
رحمة الله .

٢٨ - كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنْتُمْ أَمُوتًا فَأَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمَيِّتُكُمْ
ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ

٢٩ - هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ أَسْتَوَى
إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

هاتان الآيتان توبيخ للكافرين بالله ، ما بعده من توبيخ ، وتذكير لهم
بنعمة الله عز وجل عليهم ، وبدلائل قدرته القادرة ، والخطاب هنا على
طريق التوبيخ والتعجب من صفة كفرهم ، بذكر البراهين الداعية إلى الإيمان ،
الصادة عن الكفر ، وهي النعم المتظاهرة الدالة على قدرته تعالى ، من مبدأ
الخلق إلى منتهاه ، من إحيائهم بعد الإماتة وتركيب صورهم من الذرات المتناثرة
والنطف الحقيرة المهينة ، وخلق لهم ما في الأرض جميعاً ليتمتعوا بجميع
ما في ظاهرها وباطنها على فنون شتى وطرق مختلفة ، وخلق سبع سموات
مزيّنة بمصاييح ليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر . أفبعد هذا كله يكفر
الكافرون بالله وينكرون عليه أن يبعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياته ،
ويضرب لهم الأمثال ليهتدوا بها في إيضاح ما أشكل عليهم عما فيه أمر سعادتهم
في دينهم ودنياهم ، وآخرتهم وأولاهم ، ومعادهم ومعاشهم .

كيف يبيع الإنسان لنفسه أن يكفر بالله وهو الذي أحياه من عدم ،
وأوجده من فناء ، وهو الذي يميتة بعد إحياءه ، وهو الذي يعيد إحياءه وبعثه
في اليوم الآخر .

وكيف يكفر الإنسان بالله ، وهو الذي خلق للناس كل ما تحتوي عليه
الأرض من كنوز وخيرات وثمرات وأنهار ومعادن وزراعات وأشجار
ووديان وجبال وسواها ، وهو الذي جعل السماء سبع سموات ، وجعل فيها
الكواكب والنجوم والشمس والقمر ، وأنزل منها السحاب والمطر رحمة
بالناس ، وهو العليم بكل شيء ، المحيط بكل شيء ، سبحانه وتعالى عما يصف
الكافرون .

لقد دعا الله عز وجل فيما سبق الناس إلى الإيمان به وبالدين الحق . وبين بعض مظاهر قدرته ، وهنا يعيد الدعوة إلى الإيمان والدين ، عن طريق تحقير شأن الكفر والكافرين ، وتوبيخ الجاحدين على أن أهملوا عقولهم ، وقلدوا في الدين ، وتركوا عبادة الله العلي الأعلى خالق الأرض والسموات .

قوله تعالى « كيف تكفرون بالله ، أي أخبروني على أي حال تكفرون ، وكنتم أمواتا ، أي نطفة في أصلاب آبائكم لا إحساس لكم ، فأحياكم في الأرحام ثم في الدنيا بخلق الأرواح ونفخها فيكم ، ثم خلقكم في أحسن تقويم ، وفضلكم على غيركم بنعمة العقل والإدراك والفهم وتسخير جميع القوى الكونية والأرضية لكم ولمصلحتكم .

« ثم يميتكم ، أي بعد انقضاء آجالكم بقبض الأرواح التي بها نظام حياتكم ، وحيثئذ تنحل أبدانكم وتعود سيرتها الأولى وتنبث في طبقات الأرض ، وينعدم هذا الوجود الخاص الذي لها .

« ثم يحييكم ، أي حياة أخرى أرقى من هذه الحياة وأكمل لمن زكى نفسه وعمل صالحا ، ودونها لمن أفسد فطرته وأهمل التدبير في سنن الكون ، وأنكر الإله والرسول وفسق عن أمر ربه .

« ثم إليه ترجعون ، أي للحساب والجزاء على ما قدمتم من عمل إن خيرا نخير وإن شرا فشر . والخطاب هنا في هاتين الآيتين للكفار ، ويصح أن يكون الخطاب للناس عامة مؤمنهم وكافرهم على السواء .

فإنه سبحانه وتعالى لما بين للناس دلائل التوحيد والنبوة ووعدهم على الإيمان وأرعد على الكفر ، أكد ذلك بأن عدد عليهم النعمة العامة والخاصة واستبعد صدور الكفر منهم مع تلك النعم الجليلة فإن عظم النعم يوجب عظم معصية المنعم .

ويصح أن يكون الخطاب مع المؤمنين خاصة لتقرير المنة عليهم ، وتبديد الكفر عنهم على معنى كيف يتصور منكم الكفر وكنتم أمواتا أي جهالا فأحياكم بما أفادكم من العلم والإيمان ، ثم يميتكم الموت المعروف ، ثم يحييكم الحياة

الحقيقية . « ثم إليه ترجعون ، فينبئكم بما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .. » هو الذى خلق لكم ما فى الأرض ، أى خلق لأجلكم وانتفاعكم فى دنياكم باستنفاعكم بها فى مصالح أبدانكم بواسطة كالأدوية المركبة أو غير واسطة كالثمره والأدوية المفردة ، وفى دينكم بالاستدلال على موجدكم ، فى ذلك نعمة على عباده سبحانه وتعالى ، و« ما » تعم كل ما فى الأرض ، ثم أكد ذلك بقوله تعالى « جميعا » .. وقوله تعالى « ثم استوى إلى السماء » أى قصد إلى خلقها بإرادته ، وأصل الاستواء طلب السوى وإطلاقه على الاعتدال لما فيه من تسوية وضع الأجزاء ، ولا يمكن حمله على الله لأنه من خواص الأجسام وقيل : استوى : استولى . والمراد بالسماء هذه الاجرام العلوية أو جهات العلوليطابق قوله تعالى « فسواهن سبع سموات » ، و« ثم هنا للدلالة على تفاوت ما بين الخلقين فى المنزلة ، وليست للتراخي فى الوقت لأنه يخالف ظاهر قوله تعالى « والأرض بعد ذلك دحاها » ، فانه يدل على تأخر خلق الأرض ، وقيل : إنه ليس على ما ينبغى ، لأن « ثم » تدل على تأخر خلق السماء عن خلق ما فى الأرض من عجائب الصنع حتى أسباب اللذات والآلام وأنواع الحيوانات حتى الهوام لا عن مجرد خلق جرم الأرض ، وقيل إن خلق جرم الأرض مقدم على خلق جرم السماء وخلق وصفها أعنى وجودها مقدم على وصف السماء أعنى تسويتها سبعا ، فرجع الإشارة فى قوله تعالى « بعد ذلك » جرم السماء لا وصفها .. وقوله تعالى : « وهو بكل شئ عليم » أى مجملا ومفصلا ، فيه تعليل كأنه قال ولسكونه عالما بكيفية الأشياء كلها خلق ما خلق على هذا النمط الأكل والوجه الأنفع ، وفيه استدلال بأن من كان فعله على هذا النسق العجيب والترتيب الأنيق كان عليما فإن إتقان الأفعال وإحكامها وتخصيصها بالوجه الأحسن الأنفع لا يتصور إلا من عالم حكيم رحيم « أفلا تعتبرون » أن القادر على خلق ذلك ابتداء وهو أعظم منكم قادر على إعادتكم .

فى هاتين الآيتين ينبه الله عز وجل الناس إلى مظاهر قدرته العظيمة التى لا تماثل ، والتى تدعو إلى الإذعان لقدرته ، والإيمان بألوهيته ، وإلى نبذ الأوثان

والأصنام وما إليها ، وإلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فهو واهب الحياة
وخالقها ومدبرها ، فكيف لا يقر أحد له بالربوبية والألوهية ؟

٣٠ - وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَأِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا
أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ
وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ

٣١ - وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَأِكَةِ فَقَالَ
أَنْبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

٣٢ - قَالُوا سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ

٣٣ - قَالَ يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ قَالَ أَلَمْ
أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ الْغَيْبَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا
تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ

٣٤ - وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَأِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَى
وَأَسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ

٣٥ - وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا
حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ

٣٦ - فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا
بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ

٣٧ - فَتَلَقَى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

٣٨ - قُلْنَا أَهْبَطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ
هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ
٣٩ - وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ
فِيهَا خَالِدُونَ

في هذه الآيات العشر يقص الله عز وجل علينا قصة آدم أبي البشر ،
ويذكرنا بنعمته علينا في الخلق والإحياء ، فقد امن الله عز وجل على عباده
بنعمة الحياة ، وهنا يشرح الله عز وجل بدء الحياة ، وكيف خلق آدم أبا البشر
وكرم منزلته أمام الملائكة ، وأعلى من مكاتته في الحياة .
وفي هذه الآيات العشر يفصل الله عز وجل هذه النعمة السابعة التي أسداها
للشجر أجمعين بخلق آدم وإعزاز منزلته .

ففي الآية الأولى يذكر الله عز وجل حوارا بديعا جرى للملائكة مع
الذات الإلهية حين أراد الله تعالى بعث الحياة إلى الأرض ، وخلق البشر
فيها ، ونهية وسائل الحياة لهم على ظهرها ، بخلق آدم عليه السلام ، ويقول
الشيخ أحمد المراغي في تفسيره^(١) نقلا عن تفسير المنار متحدثا عن الآية الأولى
من هذه الآيات : إن هذه الآية كالتي قبلها تعداد للنعم الصارفة عن العصيان
والكفر، الداعية إلى الإيمان والطاعة، فإن خلق آدم على تلك الصورة وما أوتيته
من نعمة العلم وحسن التصرف في الكون وجعله خليفة الله في أرضه -
من أجل النعم التي يجب على ذريته أن يشكروه عليها بحسن طاعته والبعد
عن كفرانه ومعصيته . وفيها وفيما بعدها قصص لأخبار النشأة الإنسانية ، أبرز
فيه حكايا وأسرا را جاءت في صورة مناظرة وحوار - وهو من التشابه الذي
لا يمكن حمله على المعنى الظاهر منه ، لأنه إما استشارة من الله لعباده وذلك
بحال ، وإما إخبار منه للملائكة فهو اعتراض منهم وحاجة ، وذلك لا يليق بالله

(١) ص ٧٥ ج ١ .

ولا بملائكته على حسب ما جاء في وصفهم بقوله « لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون » ومن ثم كان للعلماء فيه وفي أمثاله رأيان :

١ - رأى المتقدمين منهم وهو تفويض الأمر إلى الله في بيان المراد من كلامه ، مع علمنا بأنه لا يخبرنا بشيء إلا لنستفيد به في أخلاقنا وأعمالنا ، بذكر ما يقرب المعاني إلى عقولنا . فهذا الحوار المصور بصورة القول والمراجعة والسؤال والجواب لا ندرك حقيقة المراد منه ، وإن كنا نجزم بأن هناك مقاصد أريد إفادتها بهذه العبارات ، وأن الله كان يعد لأدم الكون ، وأن لهذا المخلوق كرامة لديه بما أودعه فيه من فضائل ومزايا ، وفائدة ذكر ذلك لنا من نواح عدة :

منها بيان أن لامطمع للانسان في معرفة جميع أسرار الخليقة وحكمها . فالملائكة وهم أولى منا بعلمها عجزوا عن معرفتها .

ومنها بيان أن الله قد هدى الملائكة بعد حيرتهم ، وأجابهم عن سؤا لهم ؛ بأن أرشدهم إلى الخضوع والتسليم أولا بقوله « إني أعلم ما لا تعلمون » ، ثم بالدليل ثانيا بأن علم آدم الأسماء كلها ثم عرضهم على الملائكة .

ومنها أن الله جلت قدرته رضى لخلقه أن يسأله عما خفي عليهم من أسرارهِ في الخليقة ، والسؤال كما يكون بالمقال يكون بالحال بالتوجه إلى الله أن يفيض عليهم العلم بمعرفة ما أشكل عليهم .

ومنها تسلية النبي صلى الله عليه وسلم عن تكذيب المشركين له ومحاجتهم بلا برهان يستندون إليه - بأنه لا بدع في ذلك ، فالملائكة طلبوا الدليل والبرهان من ربهم فيما لا يعلمون ، فالأنبياء يجدر بهم أن يصبروا على المكذبين ويعاملوهم كما عامل الله الملائكة المقربين ، ويأتوهم بالبراهين الساطعة ، والحجج الدامغة .

٢ - رأى المتأخرين منهم - وهو تأويل ما اشتبه علينا من قواعد الدين ، لأنها إنما وضعت على أساس العقل . فإذا ورد في النقل شيء يخالف حكم العقل ، حمل النقل على غير الظاهر منه بتأويله حتى يتفق مع حكم العقل . وعلى هذا -

فالقصة وردت مورد التمثيل لتقريبها من أذهان الخلق ، يفهامهم حال النشأة
الآدمية وما لها من ميزة خاصة ، بأن أخبر الله ملائكته بأنه جاعل في
الأرض خليفة ، فعجبوا وسألوا الله تعالى بلسان المقال إن كانوا ينطقون ،
أو بلسان الحال بالتوجه إليه تعالى أن يفيض عليهم المعرفة : كيف تخلق
هذا النوع ذا الإرادة المطلقة والاختيار الذي لاحد له ، وربما اتجه بإرادته
إلى خلاف المصلحة والحكمة ، وذلك هو الفساد ، فألقى عليهم بطريق الإلهام
وجوب الخضوع والتسليم لمن هو بكل شيء عليم ، فما يضيق عنه علم أحد يتسع
له علم من هو أعلم منه ، وهذا جواب ربما لا يذهب بالحيرة ، ومن ثم تفضل
على الملائكة وأبان لهم الحكمة في خلق هذا النوع ، فعلم آدم الأسماء كلها ، ثم
عرضهم على الملائكة ، فعلموا أن في فطرة هذا النوع استعداداً لعلم ما لم يعلموا ،
وأنه أهل للخلافة في الأرض ، وأن سفك الدماء لا يذهب بحكمة الاستخلاف
وفائدته .

وخلاصة هذا أن الملائكة تشوفوا لمعرفة الحكمة في استخلاف
ذلك المخلوق الذي من شأنه ما قالوا ، ومعرفة السر في تركهم وهم المجهولون على
تسيحجه وتقديسه ؛ فأعلمهم الله أنه أودع فيه من السر ما لم يودعه فيهم ،
هذا بحمل ماجلي به الأستاذ الإمام محمد عبده رحمه الله هذا البحث حين تفسيره
للآية ، ونقله عنه صاحب المنار في تفسيره .

والملائكة هم الرسل بين الله ورسله ، واختلف الباحثون في حقيقتهم بعد
اتفاقهم على أنهم ذوات موجودة قائمة بأنفسها ، فذهب أكثر المسلمين إلى
أنها أجسام لطيفة شفاقة ويعبرون عنها بنورانية ، واستدلوا على ذلك بأن الرسل
كانوا يرونهم أجساماً لطيفة متشكلة بأشكال مختلفة ، وزعم الفلاسفة أنها
جواهر مجردة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة ، وقالت طائفة من أهل
الكتاب : هي النفوس الفاضلة أي المتصفة بفضائل العلم والعمل بخلاف الشريرة
فإنها عندهم الشياطين البشرية... إن الله تعالى خلق السماء والأرض وخلق الملائكة
والجن فأسكن الملائكة في السماء وأسكن الجن في الأرض فمكثوا فيها دهرًا طويلاً

ثم ظهر فيهم الحسد والبغى؛ فأفسدوا فيها فبعث الله تعالى إليهم جندا من الملائكة رئيسهم إبليس ، فكان من أشدهم وأكثرهم علما ، فهبطوا إلى الأرض وطردهوا الجن إلى شعاب الجبال وبطون الأودية وجزائر البحار وسكنوا الأرض وخفف الله تعالى عنهم العبادة وأعطى الله إبليس ملك الأرض، فدخله العجب وقال : ما أعطاني الله تعالى هذا الملك إلا لأنى أكرم الملائكة عليه، فقال الله تعالى له ولجنده: « إني جاعل فى الأرض خليفة»، والخليفة من يخلف غيره وينوب عنه أى جاعله بدلا منكم ورافعكم إلى، والمراد به آدم صلى الله عليه وسلم لأنه كان خليفة الله فى أرضه وكذا كل نبي استخلفه فى عمارة الأرض وسياسة الناس وتكميل نفوسهم وتنفيذ أمره فيهم ، لا الحاجة به تعالى إلى من ينوب عنه بل لقصور المستخلف عليه من قبول فيضه وتلقى أمره بغير وسط ، ولذلك لم يستتبى ملكا كما قال تعالى : « ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا ، أى فى صورة رجل ، ومن كان من الأنبياء أعلى رتبة كلبه بلا واسطة .. وقيل إنه خليفة من سكن الأرض قبله ، وقيل المراد آدم وذريته لأنهم يخلفون من قبلهم أو يخلف بعضهم بعضا .. وفائدة قوله هذا للملائكة تعليم المشاورة وتعظيم شأن المبعول خليفة .

وهذا الاستخلاف يشمل استخلاف بعض أفراد الإنسان على بعض ؛ بأن يوحى بشرائعه على السنة أناس منهم يصطفيهم ليكونوا خلفاء عنه ؛ واستخلاف هذا النوع على غيره من المخلوقات بما ميزه به من قوة العقل ؛ وإن كنا لا نعرف سرها ولا ندرك كنهها ، وهو بهذه القوة غير محدود الاستعداد ولا محدود العلم ، يتصرف فى الكون تصرفا لاحد له ، فهو يبتدع ويفتن فى المعدن والنبات وفى البر والبحر والهواء ، ويغير شكل الأرض فيجعل الماحل خصبا ، والحزن سهلا ، ويولد بالتلقيح أزواجا من النبات لم تكن ، ويتصرف فى أنواع الحيوان كما شاء بضروب التوليد ، ويسخر كل ذلك لخدمته .

« قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها ، : بالمعاصى ، ويسفك الدماء ، أى يريقها بالقتل . . تعجبوا من أن يستخلف لعمارة الأرض واصلاحها من يفسد فيها وقصدتهم

استكشاف ما خفي عليهم من الحكمة التي بهرتهم وليس باعتراض على الله تعالى ولا طعن في بني آدم على وجه الغيبة ، فإنهم أعلى من أن يظن بهم ذلك لقوله تعالى « بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ، .. » ونحن نسيح بحمدك ، أي نقول : سبحان الله وبحمده ، وهذا صلاة ما عدا الآدميين ، وعليها يرزقون ، قال تعالى « وإن من شيء إلا يسبح بحمده ، » أي يقول سبحان الله وبحمده ، روى عن أبي ذر أن رسول الله صلى عليه وسلم سئل أي الكلام أفضل ؟ قال : ما اصطفى الله للملائكته أو لعباده : سبحان الله وبحمده .. وقيل : ونحن نصلي بأمرك : قال ابن عباس كل ما في القرآن من التسبيح فالمراد منه الصلاة . « وتقدس لك ، : تزهك عما لا يليق بك ، والمعنى : أتستخلف عصاة ونحن محصومون أحقاء بذلك ، والمقصود منه الاستفسار ، وقيل : تقدس لك : نظهر نفوسنا عن الذنوب لاجلك ، كأنهم قابلوا الفساد المفسر بالشرك عند قوم بالتسيح ، وسفك الدماء الذي هو أعظم الأفعال الذميمة بتطهير النفس عن الآثام .. » قال إني أعلم ما لا تعلمون ، أي من المصلحة في استخلاف آدم وأن ذريته فيهم المطيع والعاصي فيظهر العدل بينهم . وقيل إني أعلم أن فيكم من يعصيني وهو إبليس وجنوده . وقيل إني أعلم أنهم مذنبون وأنا اغفر لهم . والأوضح أن هذا الحوار كان قبل خلق البشر ، وأن الملائكة سبق خلقهم ، وظهرت طاعتهم لله عز وجل ، وكانوا هم جند الله ، فلما أراد الله عز وجل خلق آدم وتناسل ذريته منه ، وأن يجعل آدم وأبناءه خلفاء لله في أرضه ، قالت الملائكة بلسان الحال لا بلسان المقال : أتجعلنا في الأرض من يفسد فيها ، ويسفك الدماء ، ومن يكون خليفة لك في الأرض دوننا ، ولكن الله عز وجل رد عليهم بأن حكته وعلمه فوق حكمتهم وعلمهم ، وأنه يعلم ما لا يعلمون .

والآية الثانية وهي « وعلم آدم الأسماء كلها ، المراد بها الأسماء المسميات كلها ، الدالة على جميع الكائنات وما فيها من أسرار وحكم ، والعلم بالدليل يستلزم العلم بالمدلول بصفته وحقيقته وخواصه ، وقيل : علمه اسم ما كان وما يكون إلى

يوم القيامة ، وقيل عليه الله عز وجل جميع اللغات « ثم عرضهم على الملائكة ، أى عرض المسميات ، فعنى الأسماء المدلول عليها ضمنا فى قوله تعالى « وعلم آدم الاسماء ، المسميات كما مر تقديره . . . » فقال ، لهم سبحانه وتعالى تبكىنا لهم وتنبيها على عجزهم عن أمر الخلاقه « أنبئنى ، أى اخبرونى « بأسماء هؤلاء ، المسميات « إن كنتم صادقين ، أنى لا أخلق خلقا إلا كنتم افضل وأعلم منه ، وذلك أن الملائكة قالوا لما قال : إنى جاعل فى الأرض خليفة : ليخلق ربنا ما يشاء فلن يخلق خلقا أكرم عليه منا ، وإن كان فنحن أعلم منه لأننا خلقنا قبله ورأينا ما لم يره فأظهر الله تعالى فضله عليهم بالعلم .

والآية الثالثة « قالوا ، أى الملائكة اقرارا بالعجز وإشعارا بأن سؤلهم كان استفسارا ولم يكن اعتراضا وأنه قد بان لهم ما خفى عليهم من فضل الإنسان والحكمة فى خلقه . وإظهارا لشكر نعمته بما عرفهم وكشف لهم ما التبس عليهم . « سبحانك ، تنزيها عن الاعتراض عليك « لا علم لنا إلا ما علمتنا ، إياه ، وفى هذا مراعاة للأدب بتفويض العلم كله إليه سبحانه وتعالى وتصدير الكلام بسبحان اعتذارا عن الاستفسار والجهل بحقيقة الحال ، فإنه تعالى منزه عن أن يفعل ما يخرج عن الحكمة ، ولذلك جعل « سبحانك » مفتاح التوبة فقال موسى عليه السلام له : تبت إليك ، وقال يونس عليه الصلاة والسلام : سبحانك إنى كنت من الظالمين . . . « إنك أنت العليم » الذى لا يخفى عليه خافية « الحكيم » المحكم لمبدعاته الذى لا يفعل إلا ما فيه حكمة بالغة .

والآية الرابعة وهى قوله تعالى « يا آدم أنبئهم ، أى أخبر الملائكة « بأسمائهم » أى المسميات ، فسمى آدم كل شىء باسمه وذكر الحكمة التى لأجلها خلق « ألم أقل لكم إنى أعلم غيب السماوات والأرض ، أى ما غاب فيها « وأعلم ما تبدون ، أى تظهرون من قولكم أتجعل فيها ، « وما كنتم تكتمون ، أى تسرون من قولكم لن يخلق أكرم عليه منا ولا أعلم ، وقيل ما أظهروا من الطاعة وأسره إبليس من المعصية .

وهذه الآيات وهي آية « وعلم آدم ، وآية سبحانه ، وآية قال يا آدم ، تدل على شرف الإنسان ومزية العلم وفضله على العبادة ، وإلا لأظهر فضل آدم بها ، وأن العلم بما يستخلف فيه شرط في الخلافة بل العمدة فيها ، وأن التعليم يصح إسناده إلى الله تعالى وإن لم يصح إطلاق المعلم عليه لاختصاصه بمن يحترف به وأن اللغات توقيف من الله فإن الأسماء تدل على الألفاظ بخصوص أو عموم وتعليمها ظاهر في إلقيائها على المتعلم مينا له معانيها وذلك يستدعي سابقة وضع . والأصل ينبغي أن يكون ذلك الوضع ، من كان قبل آدم من الملائكة والجن فيكون من الله ، وأن علوم الملائكة وكالاتهم تقبل الزيادة ، وأن آدم أفضل من هؤلاء الملائكة لأنه أعلم منهم والأعلم أفضل لقوله تعالى « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » ، وأن الأنبياء أفضل من الملائكة وإن كانوا رسلا كما ذهب إليه أهل السنة ، وأنه تعالى يعلم الأشياء قبل حدوثها لأنه أخبر عن علمه تعالى بأسماء المسميات جميعها ولم تكن موجودة وقت الإخبار .

والآية الخامسة تظهر فضل آدم وتفضيل الله عز وجل له على جميع خلقه . . . « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم ، : لما أنبأهم بالأسماء وعلمهم ما لم يعلموا أمرهم بالسجود له ، اعترافا بفضله وأداء لحقه وإعدادا عما قالوا فيه . أو أمرهم به قبل أن يسوي خلقه لقوله تعالى فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين استحسانا لهم وإظهارا لفضله ، وقضية الأول تأخير الأمر به عن تسوية خلقه بدليل تأخيره عن إنبأهم وتعليمهم المستلزمين لتسوية خلقه . وعلى الثاني اقتصر بعض المفسرين وهو الظاهر .

والسجود لغة الخضوع والانقياد ، ومن أعظم مظاهره وضع الجبهة على التراب ، وكان تحية للبلوك عند بعض القدماء كما ورد من سجود يعقوب وأولاده ليوسف . والسجود لله قسمان : سجود العقلاء تعبداً على الوجه المعروف شرعا ، وسجود المخلوقات كلها بانقيادها وخضوعها لمقتضى إرادته كما قال : « والنجم والشجر يسجدان » وقال : « والله يسجد من في السموات والأرض طوعا وكرها » .

والملائكة من عالم الغيب لا نعرف حقيقتهم ، والكتاب الكريم يرشد إلى أنهم أصناف ، لكل صنف عمل ، وقد جاء في لسان الشرع إسناد إلهام الحق والخير إلى الملائكة كما يستفاد من خطابهم لمريم عليها السلام ، وإسناد الوسوسة إلى الشياطين وهو مشهور في الكتاب والسنة ، فقد روى الترمذى « إن للشيطان لمة بابن آدم ، وللملك لمة . فأما لمة الشيطان فيعاز بالخير وتكذيب بالشر وأما لمة الملك فيعاز بالخير وتصديق بالحق ، فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله ، فليحمد الله على ذلك ، ومن وجد الآخر فليتعوذ بالله من الشيطان ثم قرأ « الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء » ، واللغة الإلمام والإصابة فالملائكة والشياطين أرواح لها اتصال بأرواح الناس لا نعرف حقيقته ، بل تؤمن بما ورد فيه ولا تزيد عليه شيئا آخر . ويرى بعض المفسرين أن ما ورد من أن الملائكة مركبون بالأعمال من إنماء نبات وخلق حيوان وحفظ إنسان ، فمنه أن هذا النمو في النبات إنما هو بروح خاص نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة المخصوصة ، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان . . فكل شيء قائم بنظام خاص تمت به الحكمة الإلهية في إيجادها ، فإنما قوامه بروح إلهي سمي في لسان الشرع ملكا ، ومن لا يعترف بالغيب يسميه قوة طبيعية أو ناموسا طبيعيا ، فالؤمن بالغيب يرى للأرواح وجودا لا يدرك كنهه ، والذي لا يؤمن به يقول أعرف قوة لا أفهم حقيقتها ، وإذا فلا خلاف بين الناس في وجود شيء غير ما يرى ويحس ، لا يفهم حق الفهم ولا يصل العقل إلى إدراك كنهه .

وكلنا نشعر إذا هممنا بأمر فيه وجه للحق أو للخير ، ووجه للباطل أو للشر ، بأن في نفوسنا تنازعا ، وكان الأمر قد عرض على مجلس للشورى ، فواحد يقول افعل وآخر يقول لا تفعل حتى ينتصر أحد الطرفين على الآخر ، فهذا الذي أودع في نفوسنا ونسميه قوة وفكرا هو في الحقيقة معنى لا ندرك كنهه ، ولا يبعد أن نسميه أو نسمي سيده ملكا ، هذا هو رأى الإمام محمد عبده . ثم قال الإمام محمد عبده : فإذا جرينا على هذا التفسير فليس يبعد أن تكون في الآية

إشارة إلى أن الله لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ، وجعل كل صنف من القوى مخصوصا بنوع من المخلوقات لا يتعداه ، خلق الإنسان وأعطاه قوة بها يتصرف في جميع القوى ويسخرها في عمارة الأرض ، وهذا التسخير هو المعبر عنه بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع ، وبهذه القوة التي لا حد لها جعله الله خليفة في أرضه ، لأنه أكل الموجودات ، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة تميل بالكامل إلى النقص ، وتصده عن عمل الخير ، وتنازع الإنسان في صرف قواه إلى المنافع والمصالح التي تتم بها خلافته ، تلك القوة ضللت آثارها قوما فزعموا أن في العالم إلهما يسمى إله الشر ، وما هي ياله ولكنها محنة إله لا يعلم أسرار حكيمته إلا هو ، تلك القوة هي المعبر عنها بإبليس . ولو أن نفسا مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنحها من ذلك ، والعمدة على اطمئنان القلب وركون النفس إلى ما أبصرت من الحق .

وقوله تعالى « فسجدوا إلا إبليس ، أي سجد الملائكة جميعا إلا إبليس ، وللعلماء في إبليس رأيان : أحدهما أنه كان جنيا واحدا بين أظهر الألوف من الملائكة مغمورا بهم متصفا بصفاتهم ، ودليل ذلك قوله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه » ، ولأن الملائكة لا يستكبرون وهو قد استكبر ، وهو قد خلق بما خلق منه الجن كما يدل عليه قوله تعالى حكاية عنه « أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين » .

وثانيهما أنه كان من الملائكة ، لأن خطاب السجود كان مع الملائكة ولأن الظاهر من هذه الآية وأمثالها أنه منهم ، قاله البغوي وهو الأصح ، وقال في التيسير : إن وصف الملائكة بأنهم لا يعصون الله ما أمرهم دليل على تصور العصيان منهم ، ولو لا ذلك ما مدحوا به ، لكن طاعتهم طبع وعصيانهم تكلف ، وطاعة البشر تكلف ومتابعة الهوى منهم طبع ، ولا يستنكر من الملائكة تصور العصيان فقد ذكر عن هاروت وماروت ما ذكر ،

وليس هناك دليل على أن بين الملائكة والجن فروقا جوهرية بها يمتاز أحدهما من الآخر ، بل هي فروق في الأوصاف فقط ، والجميع من عالم الغيب ، لا نعلم حقائقها ولا نضيف إليها شيئا إلا إذا ورد به نص عن المعصوم .

والسجود في الأصل تدلل مع تطامن ، وفي الشرع وضع الجبهة على قصد العبادة .. والمأمور به : إما المعنى الشرعي فالسجود له بالحقيقة هو الله تعالى وجعل آدم قبله سجودهم تفخيا لشأنه أو سببا لوجوبه كما جعلت الكعبة قبله للصلاة والصلاة لله ، فمعنى اسجدوا له أي إليه وكأنه تعالى لما خلقه بحيث يكون أنموذجا أي مثالا للبتدعات كلها بل الموجودات بأسرها ومجمعا لما في العالم الروحاني والجسماني وذريعة للملائكة من استيفاء ما قدر لهم من الكالات ووصلة إلى ظهور ما تباينوا فيه من المراتب والدرجات ، أمرهم بالسجود تدللا لما رأوا فيه من عظيم قدرته وباهر آياته، وشكرا لما أنعم عليهم بواسطته.. وإما المعنى اللغوي وهو التواضع لآدم تحية وتعظيما له كسجود اخوة يوسف له في قوله تعالى « وخرّوا له سجداً ، ولم يكن فيه وضع الجبهة على الأرض إنما كان : بالانحناء ، فلما جاء الإسلام بطل ذلك بالسلام والكلام في أن المأمور بالسجود الملائكة كلهم أو طائفة منهم مثل ما مر ، ومعنى « فسجدوا لإبليس أبي واستكبر ، أي امتنع عما أمر به استكبارا من أن يتخذ وصلة في عبادة ربه أو يعظمه ويتلقاه بالتحية أو يخدمه ويسعى فيما فيه خيره وصلاحه ، وقال أنا خير ، والإباء : امتناع والتكبر أن يرى الرجل نفسه أكبر من غيره والاستكبار طلب ذلك وهو التزين بالكبر بما عنده ، يتكبر ويتزين بالباطل « وكان من الكافرين ، أي في علم الله أو صار منهم باستباحه أمر الله تعالى إياه بالسجود لآدم اعتقادا بأنه أفضل منه ، والأفضل لا يحسن أن يؤمر بالتواضع للفضول والتوسل به كما أشعر به قوله تعالى « أنا خير منه ، جوابا لقوله تعالى « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أستكبرت أم كنت من العالين ، لا بترك الواجب وهو السجود وحده.. والآية تدل على أن آدم أفضل من الملائكة المأمورين بالسجود له ، وأن إبليس كان من الملائكة وإلا لم يتناوله أمرهم ولم يصح استثناؤه منهم ولا يرد

على ذلك قوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن ، لجواز أن يقال كان من الجن فعلا ومن الملائكة نوعا .. فان قيل له ذرية والملائكة لا ذرية لهم ، فالجواب أن ابن عباس روى أن من الملائكة نوعا يتوالدون يقال لهم الجن ومنهم إبليس ، وقيل إن الله تعالى لما أخرجه من الملائكة جعل له ذرية وأن من الملائكة من ليس بمعصوم وان كان الغالب فيهم العصمة كما أن من الإنس معصومين وهم الأنبياء ، والغالب في الإنس عدم العصمة ، ولما زعم أنه لم يكن من الملائكة أن يقول : إنه كان جنانا نشأ بين أظهر الملائكة وكان مغمورا بالآلوف منهم فغلبوا عليه لقوله تعالى « إلا إبليس كان من الجن ففسق عن أمر ربه ، ، وهو أصل الجن كما أن آدم أصل الإنس ، ولأنه خلق من النار والملائكة خلقوا من النور ، وقال سعيد بن جبير : معنى « كان من الجن » أى من الذين يعملون في الجنة ، وقيل أيضا كانوا مأمورين مع الملائكة لكن استغنى بذكر الملائكة عن ذكرهم .

والآيتان السادسة والسابعة ، وهى « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، ، و « فأزلهما الشيطان عنها ، فهما ذكر لقصة آدم بعد استخلاص الله إياه ، ومعصيته لله عز وجل ، وأن الله تعالى أسكنه هو وزوجه الجنة يا كلان منها رغدا ، فعصيا الله ، وأطاعا الشيطان ، فأخرجهما بما كانا فيه ، وهبطا إلى الأرض يسعيان في مناكبها ، ومعنى الآيتين أن آدم وزوجه قد كفاهما الله أمر السعى للدنيا ، وأسكنهما الجنة يا كلان منها رغدا ، ثم جاءت معصيتهما لله تمهيدا لخروجهما من الجنة ، وحملهما أعباء مساويات الحياة ، وسعيهما في الأرض من أجل المعاش .

ومعنى الآية الأولى من الآيتين : أن اتخذ يادم الجنة مسكناً لك ولزوجك ، وقد اختلفت آراء العلماء في الجنة المرادة هنا ، فمن قائل : إنها دار الثواب التي أعدها الله للؤمنين يوم القيامة ، تسبق ذكرها في هذه السورة ، وفي ظواهر السنة ما يدل عليه ، فهى إذا فى السماء حيث شاء الله منها ، ومن قائل : إنها جنة أخرى خلقها الله تعالى امتحاناً لآدم عليه السلام ، وكانت بستاناً فى

الأرض بين فارس وكرمان ، وقيل بفلسطين ، وليست هي الجنة المعروفة ، وعلى هذا جرى أبو حنيفة وتبعه أبو منصور الماتريدي في تفسيره المسمى بالتأويلات ، قال : نحن نعتقد أن هذه الجنة بستان من البساتين ، أو غيضة من الغياض كان آدم وزوجه منعمن فيها ، وليس علينا تعيينها ولا البحث عن مكانها ، وهذا هو مذهب السلف ، ولادليل لمن خاض في تعيين مكانها من أهل السنة وغيرهم ، ويقول الألوسى في روح المعاني : إن ما يؤيد هذا الرأي أن الله خلق آدم في الأرض ليكون خليفة فيها هو وذريته ، فالخلاقة منهم مقصودة بالذات ، فلا يصح أن يكون وجودهم فيها عقوبة عارضة . وأنه تعالى لم يذكر أنه بعد خلق آدم في الأرض عرج به إلى السماء ، ولو حصل لذكر لأنه أمر عظيم . وأن الجنة الموعود بها لا يدخلها إلا المتقون المؤمنون ، فكيف يدخلها الشيطان الكافر للوسوسة . وأنها دار للنعم والراحة ، لا دار للتكليف ، وقد كلف آدم وزوجه ألا يأكلا من الشجرة . وأنه لا يمنع من فيها من التمتع بما يريد منها . وأنه لا يقع فيها العصيان والمخالفة لأنها دار طهر ، لا دار رجس .

« وقلنا يا آدم أسكن أنت وزوجك الجنة ، : أي اتخذ الجنة مسكنا لتستقر فيه لأنها استقرار ولبث « وكلا منها ، أكلا « رغدا ، أي واسعا لذينا لا حرج فيه « حيث ، أي أي مكان من الجنة « شتيا ، « ولا تقربا هذه الشجرة ، « بالأكل منها قيل هي العنب أو التين « فتكونا ، أي فتصيرا « من الظالمين ، أي العاصين وتعليق النهى بالقرب الذي هو من مقدمات تناول مبالغة في تحريمه ووجوب الاجتناب عنه ، وتنبه على أن القرب من الشيء يورث ميلا يأخذ بمجامع القلب ويليه عما هو مقتضى العقل والشرع كما روى أبو داود « حبك الشيء يعنى ويصم ، أي يحنى عليك معايبه ويصم أذنيك عن سماع مساوئه ، وقد جعل قربانها إلى الشجرة سببا لأن يكونا من الظالمين الذين ظلموا أنفسهم بارتكاب المعاصي .

والشجرة التي نهى آدم وزوجه عن الأكل منها اختلف فيها : هل هي

شجرة التفاح أو الخنطة أو سواها ، ويرى عبد الحميد الخطيب في تفسيره أن الشجرة كناية عن حواء ، والنهي عن القرب من الشجرة نهى عن الاستمتاع بها ، والاتصال الجنسي معها ، الذي هو سبب دوام النسل وعمارة العالم .

وقوله تعالى « فأزلهما الشيطان » أي إبليس سمي به لبعده عن الخير وعن الرحمة ، ومعنى « عنها » أي الجنة وإزالته قوله « هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى » وقوله « ما نها كما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين ، ومقاسمته إياهما بقوله إني لكما لمن الناصحين .. واختلف في أنه تمثيل لهما فقال لهما بذلك أو ألقاه إليهما على طريقة الوسوسة ، وكيف توصل إلى إزلالهما بعد ما قيل له اخرج منها فإنك رجيم ؟ فقيل إنه منع من الدخول بعد خروجه الأول على جهة التكرمة كما كان يدخل مع الملائكة ولم يمتنع أن يدخل لو سوسة ابتلاء لآدم وحواء فلما دخل وقف بين يدي آدم وحواء وهما لا يعلمان أنه إبليس فبكى فقالا له : ما يبكيك فقال أبكى عليكما ، ثم تان فتفارقان ما أتيا عليه من النعمة ، وكان آدم لما رأى ما في الجنة من النعيم قال : لو كان خالدا ، فاغتم الشيطان ذلك منه فأتاه الشيطان من قبل الخلد فوقع قوله في أنفسهما واعتما ومضى إبليس ثم أتاهما بعد ذلك وقال : يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد فأبى أن يقبل منه فقاسمهما بالله إنه لهما لمن الناصحين ، فاغترا وماظنا أن أحدا يحلف بالله كاذبا ، فبادرت حواء إلى أكل الشجرة ثم ناولت حواء آدم حتى أكلها . وكان سعيد بن المسيب يحلف بالله ما أكل آدم من الشجرة وهو يعقل ولكن حواء زينت ذلك له .. « فأخرجهما عما كانا فيه ، من الكرامة والنعيم ، قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال الله تعالى لآدم أليس فيما أبحتك من الجنة مندوحة عن الشجرة ، قال : بلى يارب وعزتك ولكن ماظننت أن أحدا يحلف بك كاذبا ، قال : فبعزتي لا هبطتك إلى الأرض ثم لاتنال العيش إلا كذا ، فاهبط من الجنة وكانا يأكلان فيهارغدا ، فلم من صنعة الحديد وأمر بالحرث ، فحرث وذرع ثم سقى حتى إذا بلغ حصد ثم ذراه ثم طحنه ثم عجنه ثم خبزه ثم أكله فلم يبلعه حتى بلغ منه ماشاء الله ، قال إبراهيم

ابن آدم . أورتنا تلك الأكلة حزنا طويلا ، وقال سعيد بن جبير عن ابن عباس
رضي الله تعالى عنهما : إن آدم لما أكل من الشجرة التي نهى عنها قال الله عز
وجل : يا آدم ما حملك على ما صنعت ؟ فقال : يا رب زينته لي حواء ، قال فإني أعاقبها
بأن لا تحمل إلا كرها ولا تضع إلا كرها . فلما أكل منها سقطت عنهما ثيابهما
وبدت سواتهما وأخرجا من الجنة ، فذلك قوله تعالى « وقلنا اهبطوا ، وهو خطاب
لآدم وحواء لقوله تعالى قال : اهبطا منها جميعا ؛ وقوله « بعضكم لبعض عدو ،
الخطاب فيه لذرية آدم وحواء فقط فالمراد ببعضكم بعض الذرية أي بعض
ذريتكم لبعض عدو من ظلم بعضهم بعضا « ولكم في الأرض مستقر ، أي موضع
قرار « ومتاع ، أي ما تتمتعون به من نباتها « إلى حين ، أي وقت انقضاء
آجالكم .. « فتلقى آدم من ربه كلمات ، أي استقبلها بالأخذ والقبول والعمل بها
حين علمها ، وهي ربنا ظلمنا أنفسنا الآية ، وقيل سبحانه اللهم وبمحمدك وتبارك
اسمك وتعالى جدك ولا إله إلا أنت ظلمت نفسي فاغفر لي إنه لا يغفر الذنوب
إلا أنت . وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : قال آدم يا رب ألم تخلقتني
بيدك؟ قال بلى ، قال : يا رب ألم تنفخ في الروح من روحك؟ قال بلى ، قال ألم تسكني
جنتك؟ قال بلى ، قال يا رب إن تبت وأصلحت أراجعي أنت إلى الجنة؟ قال نعم ،
رواه الحاكم وصححه .. « فتاب عليه ، أي قبل توبته وإنما رتب « تاب عليه ، على
تلقى الكلمات لتضمن تلقى الكلمات معنى التوبة وهو الاعتراف بالذنب
والندم عليه والعزم على أن لا يعود إليه ورد المظالم إن كانت ، واكتفى بذكر
آدم لأن حواء كانت تبعاله في الحكم ولذلك طوى ذكر النساء في أكثر
القرآن والسنن .. « إنه هو التواب ، الرجاع على عباده بالمغفرة أو الذي يكثر
إعاتهم على التوبة وإذا وصف بها الباري أريد بها الرجوع عن العقوبة إلى
المغفرة .. « الرحيم ، البالغ في الرحمة وفي الجمع بين التوبة والرحمة وعد للتائب
بالإحسان مع العفو .

وفي الحديث الشريف عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : أتى رسول الله
صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تعجبه فنهس منها نهسة ثم قال .

أنا سيد الناس يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك؟ يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعهم الداعي وينقذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من الغم والكرب ما لا يطيقون ولا يحتملون، فيقول الناس: ألا ترون ما قد بلغكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض: عليكم بآدم فيأتون آدم عليه السلام فيقولون له: أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر الملائكة فسجدوا لك، اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول آدم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فعصيته، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحاً فيقولون يا نوح إنك أنت أول الرسل إلى أهل الأرض وقد سماك الله عبداً شكوراً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول: إن ربي عز وجل قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى إبراهيم، فيأتون إبراهيم فيقولون يا إبراهيم أنت نبي الله وخليله من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول لهم: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد كنت كذبت ثلاث كذبات، نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى فيقولون: يا موسى أنت رسول الله فضلك الله برسالته وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله وإني قد قتلت نفساً لم أوامر بقتلها نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى عيسى فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى أنت رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه وكلمت الناس في المهد صيياً اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه فيقول عيسى: إن ربي قد غضب اليوم غضباً لم يغضب قبله مثله قط ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنباً نفسي نفسي نفسي اذهبوا إلى غيري اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون محمداً

صلى الله عليه وسلم فيقولون : يا محمد أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى إلى ما نحن فيه ، فأنت لقيت فأتى تحت العرش فاقع ساجداً لربي عز وجل ثم يفتح الله علي من محامده وحسن التناء عليه شيئاً لم يفتح به على أحد قبلي ثم يقال : يا محمد ارفع رأسك سل تعطه واشفع تشفع فأرفع رأسي فأقول : أمي يا رب أمي يا رب أمي يا رب . فيقال يا محمد أدخل من أمك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من الأبواب ثم قال : والذي نفسي بيده إن ما بين المصراعين من مصاريع الجنة كما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى .

والآية « قلنا اهبطوا منها ، أي من الجنة » جميعاً ، كرر للتأكيد أو لاختلاف المقصود ، فإن الأول دل على هبوطهم إلى هذه الدار الدنيا التي يتعادون فيها ولا يخلدون ، والثاني أشعر بأنهم اهبطوا للتكليف فمن اهتدى لهذا نجا ، ومن ضل هلك ، « فإما يأتينكم ، يا ذرية آدم » منى هدى ، أي رشد وبيان شريعة ، وقيل كتاب ورسول . . . « فمن اتبع هداي ، بأن آمن بي وعمل بطاعتي ، وكرر لفظ « الهدى » ولم يضمن إما لإظهار شأنه وشخامته خصوصاً مع إضافته إليه ، أو لأنه أراد بالثاني أعم من الأول وهو ما أتى به الرسل واقتضاه العقل ، « فلا خوف عليهم ، فضلاً من أن يحل بهم مكروه » ولا هم يحزنون ، بفوات محبوب عنهم ، ومنه النظر في وجهه تعالى ، فانه المقصود الأعظم ، فالخوف على الواقع نفي عنهم العقاب فأثبت لهم الثواب على أكد وجه وأبلغه ، وقيل لا خوف عليهم في الدنيا ولا هم يحزنون في الآخرة .

« والذين كفروا ، أي جحدوا » وكذبوا بآياتنا ، أي كتبنا ، « أولئك أصحاب النار ، يوم القيامة ، » هم فيها خالدون ، ما كثون فيها أبداً لا يخرجون منها ولا يموتون فيها ، والآية في الأصل هي العلامة الظاهرة ، ويقال للصنوعات من حيث إنها تدل على الصانع وقدرته وعلمه ، ولكل طائفة من كلمات القرآن المتميزة عن غيرها ؛ وفي هذه الآيات دلالة على أن الجنة مخلوقة وأنها في جهة عالية وأن التوبة مقبولة وأن متبع الهدى مأمون العاقبة ، وأن عذاب النار دائم ،

وأن الكافر مخلد فيه ، وأن غيره لا يخلد فيه ولم يكن آدم وقت معصيته نبيا ،
وقيل إن النهي للتنزيه وإنما سمي ظالما وخاسرا لأنه ظلم نفسه وخسر حظه بترك
الأولى ، وإنما أجرى الله عليه ما جرى معاتبته على ترك الأولى ووفاء بما قال
تعالى للملائكة قبل خلق آدم : « إني جاعل في الأرض خليفة ، ولا يكون خليفة
في الأرض إلا بالإهباط إليها وأمر بالتوبة تلافيا لما فانه ، وقيل بل فعل آدم
ذلك ناسيا لقوله تعالى « فنتى ولم نجد له عزما ، ولكنه عوتب بترك
التحفظ عن أسباب النسيان إذ رفع الإثم بالنسيان من خصائص هذه الأمة كما
ثبت في الأخبار الصحيحة كخبر الشيخين « رفع عن أمتي الخطأ والنسيان ، ،
وروى الترمذى وصححه أشد الناس بلاء الأنبياء الأمثل فالأهل ، ورواه
الحاكم : أشد الناس بلاء الأنبياء ثم العلماء ثم الصالحون ، وقيل إنه
عليه الصلاة والسلام أقدم عليه بسبب اجتهاده وأخطأ فيه فإنه ظن أن النهي
للتنزيه أو الإشارة إلى عين تلك الشجرة فتناول من غيرها من نوعها وكان المراد
بالإشارة الإشارة إلى النوع لا إلى شجرة معينة كما روى أبو داود وغيره أنه
صلى الله عليه وسلم أخذ حريرا وذهبها بيده وقال هذان حرام على ذكور أمتي
حل لإناثها ، فإن قيل المجتهد إن أخطأ لا يؤخذ ، فالجواب بأنه إنما عوتب على
ذلك تعظيما لشأن الخطيئة ليجتنبها أولاده وفي هذا المقام يقول الإمام محمد عبده
إن إخبار الله تعالى للملائكة بجعل الإنسان خليفة في الأرض هو عبارة عن
تهيئة الأرض وقوى هذا العالم وأرواحه التي بها قوامه ونظامه لوجود نوع من
المخلوقات يتصرف فيها ويكون به كمال الوجود في هذه الأرض ، وسؤال
الملائكة عن جعل خليفة يفسد في الأرض لأنه يعمل باختياره ويعطى استعدادا
في العلم والعمل لا حد لها ، تصريح لما في استعداد الإنسان لذلك ، وتمهيد لبيان
أنه لا ينافي خلاقته في الأرض ، وتعليم آدم الأسماء كلها بيان لاستعداد الإنسان
لعلم كل شيء في الأرض وانتفاعه به في استعمالها ، وعرض الأسماء على
الملائكة وسؤالهم عنها وتصلبهم في الجواب ، تصوير لكون الشعور الذي
يصاحب كل روح من الأرواح المدبرة للعوالم محدودا لا يتعدى وظيفته ،
وسجود الملائكة لآدم عبارة عن تسخير هذه الأرواح والقوى له يفتنح بها في

ترقية الكون بمعرفة سنن الله تعالى في ذلك ، وإبائه إبليس واستكباره عن
عن السجود تمثيل لعجز الانسان عن إخضاع روح الشر وإبطال داعية خواطر
السوء التي هي مثار التنازع والتخاصم والتعدى والافساد في الأرض ، ولولا
ذلك لجاء على الانسان زمن يكون أفراده فيه كالملائكة بل أعظم أو يخرجون
عن كونهم من هذا النوع البشرى ، ويراد بالجنة الراحة والنعيم . فإن من شأن
الانسان أن يجد في الجنة التي هي الحديقة ما يلذ له من ما كول ومشروب
ومشوموم ومسموع في ظل ظليل وهواء عليل وماء سلسيل ، ويراد بآدم نوع
الانسان كما يطلق اسم أبي القبيلة الأكبر على القبيلة فيقال كلب فعلت كذا ويراد
قبيلة كلب . ويراد بالشجرة معنى الشر والمخالفة كما عبر الله تعالى في مقام التمثيل
عن الكلمة الطيبة بالشجرة الطيبة ، وفسرت بكلمة التوحيد ، وعن الكلمة
الخبثة بالشجرة الخبيثة وفسرت بكلمة الكفر ، والمعنى على هذا - أن الله
تعالى كون النوع البشرى في أطوار ثلاثة :

طور الطفولة وهو طور لاهم فيه ولا كدر ، بل هو لهُو ولعب كأنه في
جنة ملتفة الأشجار يانعة الثمار .

وطور التمييز الناقص ، وفيه يكون الانسان عرضه لاتباع الهوى
بوسوسة الشيطان .

وطور الرشد وهو الذي يعتبر فيه المرء بنتائج الحوادث ، ويلتجىء
فيه حين الشدة إلى القوة الغيبية العليا التي منها كل شيء وإليها يرجع
الأمر كله .

والانسان في أفراده مثال للانسان في مجموعه ، فقد كان الانسان في ابتداء
حياته الاجتماعية ابتداء ساذجا سليم الفطرة مقتصر في طلب حاجاته على القصد
والعدل متعاوناً على دفع ماعساه يصيبه من مزعجات الكون ، وهذا هو العصر
الذي يذكره جميع طوائف البشر ويسمونه بالعصر الذهبي .

ولكن لم يكفه هذا النعيم العظيم ، فقد بعض أفراده أيديهم إلى تناول
ماليس لهم طاعة للشهوة وميلاً مع خيال اللذة ، وتنبه من ذلك ما كان نائماً في

قفوس سائرهم ، فثار النزاع وعظم الخلاف ، وهذا هو الطور الثاني المعروف في تاريخ الأمم .

ثم جاء الطور الثالث وهو طور العقل والتدبر ووزن الخير والشر بميزان النظر والفكر ، وتحديد حدود للأعمال تنتهي إليها نزعات الشهوات ويقف عندها سير الرغبات ، وهو طور التوبة إن شاء الله .

ويبقى طور آخر أعلى من هذه الأطوار ، وهو منتهى الكمال ، وهو طور الدين الالهي والوحي السماوي الذي به كمال الهداية الانسانية .

٤٠ - يٰٓبَنِي إِسْرَائِيلَ اذْكُرُوا نِعْمَتِيَ الَّتِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا بِعَهْدِي أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ

٤١ - وَآمَنُوا بِمَا أَنْزَلْتُ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوا أُولَٰ كَافِرِينَ بِهِ وَلَا تُشْتَرُوا بِثَائِتِي ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّايَ فَاتَّقُونِ

٤٢ - وَلَا تَلْبَسُوا الْحَقَّ بِالْبُطْلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ

٤٣ - وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَبُوا مَعَ الرَّاكِبِينَ

٤٤ - أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ

الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

٤٥ - وَأَسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ

٤٦ - الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَاجِعُونَ

في هذه الآيات السبع دعوة إلهية جليلة لليهود من بني إسرائيل إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، وبالقرآن ودعوته ، وبالاسلام وشريعته ، وهي ذات دلالة واضحة على أن رسالة محمد قد أمرت اليهود ومن في حكمهم من أهل الكتاب بالإيمان بها ، وأنها رسالة الانسانية عامة ، وخاتمة الرسالات كافة .

وقد بدأ الله عز وجل بدعوة اليهود إلى الاسلام لأنهم أقدم الشعوب الحاملة للكتب السماوية ، ولصلتهم القوية بالعرب ، فهم من أحفاد إبراهيم ، وكذلك شأن العرب ، فاليهود بنو إسرائيل ينسبون إلى إسرائيل ، وهو لقب ليعقوب بن إسحاق بن إبراهيم ، ومعناه صفي الله ، وبنوه ذريته وهم الأسباط الاثنا عشر ، والعرب هم من عدنان من ذرية إسماعيل بن إبراهيم عليه السلام .

ولليهود مع ذلك كله صلات واسعة بالعرب والجزيرة العربية ، ولهم فيها قبل الاسلام وبعده قرى وحصون ، وهم ظاهرون في المدينة مستقر الاسلام ومهاجر نبي الاسلام ، والعاصمة الروحية الثانية بعد مكة .

ومع كل هذا وذلك فلم يكن ، بل ليس هناك ، أشد حقا على الاسلام ، وموجدة على المسلمين ، من اليهود طوال عصور التاريخ منذ ظهور الاسلام حتى اليوم ، وقد غدر اليهود برسولنا الأعظم مرات ومرات ، وغدروا بخلائف الاسلام ، وكادوا للمسلمين ، وما يزالون يكيدون لهم حتى اليوم ، ولما قامت لهم دولة في إسرائيل بمساعدة الاستعمار ، ومساندة المستعمرين منذ أعوام ، لقي العرب والمسلمون منهم عنقا شديدا ، وهام سكان فلسطين على وجوههم في كل مكان ، وعاشوا لاجئين على تخوم هذه الدولة التي حان انهيارها ، فلم يؤمنوا مسلما على دينه ، أو عريبا على حياته ، ولا شك في سوء نيتهم وفساد قلوبهم نحو المسلمين عامة ومصر والعرب خاصة ، هذا كله مع الصلات التاريخية الأولى التي كانت تستوجب التفاهم ، وتستدعي الألفة ، ولكن هيهات هيهات .

وفي هذه الآيات السبعة يذكرهم الله عز وجل بنعمه العديدة ، ومنها نعمة النبوة وإنزال كتاب سماوى هو التوراة على رسول منهم هو موسى عليه السلام ، ونعمة النبوة هذه هي التي فضلهم الله من أجلها زمانا طويلا حتى كانوا يسمون شعب الله المختار ، ولسكنهم نسوا وأنساهم الشيطان ، وخسروا الدنيا والآخرة وضلوا ضلالا بعيدا ، ويدعوهم الله عز وجل إلى الوفاء بعهده ، وفي مقدمته الايمان .
بمحمد الذى دعاهم إليه فى كتابهم المقدس التوراة ، كما يدعوهم إلى الخوف

من عذاب الله ، وإلى الايمان بالقرآن ورسالة الاسلام ، فالقرآن إنما نزل مصداقا لما مع بنى إسرائيل من الكتاب المقدس (التوراة) ، ويحذرهم من الكفر به ، وهنا معجزة ظاهرة فالقرآن الكريم يخاطب اليهود ويقول لهم : لا تكون أول الكافرين بالقرآن ، لأنهم أقرب الناس رحما بالاسلام وبالعرب ، ومع هذا النهى الشديد ، فقد كفر اليهود بدعوة محمد ، بل كانوا أول الكافرين بها وبه ، ووقع ما أخبر به القرآن الكريم الصادق من تسابقهم في الكفر وأرليتهم فيه .

وبيناهم الله عز وجل عن أن يشتروا بآيات الله وكتابه ورضائه ثمنا قليلا من متاع الحياة الدنيا وزخرفها ، ويدعوهم إلى تقوى الله ، ومن تقواه الايمان بالقرآن وبنبي الاسلام ، محمد عليه الصلاة والسلام .

ويحذرهم من أن يلبسوا الحق بالباطل ، ويكتموا الحق المنزل على موسى من السماء ، ثم يدعوهم إلى شريعة الاسلام ويعرض عليهم العمل بالتكاليف التي كلف بها المسلمون عامة ، وفي مقدمتها الصلاة والزكاة ، ثم يحذرهم من أن يلبسوا مسوح الزهاد والمؤمنين وهم أول الكافرين ، ويكرر عليهم الدعوة للدخول في الإسلام والتمسك بأهداب الصبر والصلاة ، وهما من أهم ما يدعو إليه الاسلام وكتابه الحكيم .

ولكنهم عموا وأصموا عن هذه الدعوة الرفيعة السماوية ، وأعلنوا الحرب على محمد ورسالته ، وبش ما صنعوا وما كانوا يصنعون .

يقول الله عز وجل : « يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، هذا هو صدر الآية الأولى من تلك الآيات السبع ، وهنا يدعو الله عز وجل بنى إسرائيل إلى شكره على نعمه التي أنعم بها عليهم وعلى نبيهم موسى عليه السلام ، وإلى تذكر إحسان الله لهم طول عصور تاريخهم القديم ، والذي يكون بالقلب ويكرن باللسان ، والنعمة هنا عامة تشمل كل نعمة ، أو خاصة بما أنعم الله به على آباؤهم من فلق البحر ومن إنجائهم من فرعون ياغراقه ومن تظليل الغمام عليهم في

النيه وإنزال المن والسلوى وغير ذلك من النعم التي لا تحصى ، قال الله تعالى وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها .. « وأوفوا بعهدى ، أى بامثال أمرى ، ومنه ما عهده إليكم من الإيمان بمحمد صلى الله عليه وسلم « أوف بعهدكم ، أى الذى عهده إليكم من الثواب عليه بدخول الجنة ؛ هذا وللوفاء بالعهد درجات كثيرة فأول مراتبه منا هو الإتيان بكلمتى الشهادتين وآخرها منازل الاستغراق فى التوحيد ، وأما ما روى عن ابن عباس رضى الله تعالى عنهما من أن « أوفوا بعهدى ، أى فى اتباع محمد « أوف بعهدكم ، فى رفع الأثقال والأغلال عنكم وعن غير ابن عباس « أوفوا بأداء الفرائض وترك الكبائر « أوف ، بالمغفرة والثواب ، وأوفوا بالاستقامة على الطريق المستقيم أو بالكرامة والنعيم المقيم ؛ فبالنظر إلى الوسائط « وإياى فارهبون ، فيما تاتون وتذرون ، وخصوصا فى نقض العهد .. والرهبه خوف مع تحذير والآية متضمنة للوعد والوعيد دالة على وجوب الشكر والوفاء بالعهد وأن المؤمن ينبغى أن لا يخاف أحداً إلا الله « وآمنوا بما أنزلت ، من القرآن « مصدقا ، حال مؤكدة بما أنزلت .. « لما معكم ، أى من التوراة بموافقتة له ولغيره من الكتب الإلهية فى القصص ونعت النبي صلى الله عليه وسلم والمواعيد والدعاء إلى التوحيد والأمر بالعبادة والعدل بين الناس والنهى عن المعاصى والفواحش ، وفيما يخالفها من جزئيات الأحكام بسبب تفاوت العصور فى المصالح من حيث إن كل واحد منها حق بالإضافة مراعى فيها صلاح من خوطب بها حتى لو نزل المتقدم فى أيام المتأخر لنزل على وفقه ؛ ولذلك قال عليه الصلاة والسلام كما رواه الإمام أحمد وغيره : « لو كان موسى حيا لما وسعه إلا اتباعى ، ، وفى ذلك تنبيه على أن اتباع تلك الكتب الإلهية لا يناقئ الإيمان بالقرآن بل يوجهه ، ولذلك عرض بقوله : « ولا تكونوا أول كافر به ، أى بالقرآن بل يجب أن تكونوا أول مؤمن به ، لأنكم أهل نظر فى معجزاته والعلم بشأنه ، فإن قيل : كيف نهوا عن التقدم فى الكفر وقد سبقهم مشركو العرب ؟ فالجواب : بأن المراد ولا تكونوا أول

كافر من أهل الكتاب لأن خلقكم تبع لكم فإثمهم عليكم أو ممن كفر بما معه فإن من كفر بالقرآن فقد كفر بما يصدقه ، أو مثل من كفر من مشركي مكة : « ولا تشتروا ، أي لا تستبدلوا ، بآياتي ، أي التي في كتابكم من نعت محمد صلى الله عليه وسلم ، ثمنا قليلا ، أي عوضا يسيرا من الدنيا أي لا تكتموها خوف فوات ما تأخذونه من العامة والدهماء وذلك أن رؤساء اليهود وعلماءهم كانت لهم أموال يصيبونها من سفلتهم وجهالهم يأخذون منهم كل سنة شيئا معلوما من زروعهم وفروعهم وتقودهم ، تخافوا أن يبينوا صفة النبي صلى الله عليه وسلم فتفوتهم تلك الأرباح الطائلة فاختراروا الدنيا على الآخرة فنهوا عن ذلك فإن حظوظ الدنيا وإن جلت قليلة مسترذلة بالإضافة إلى ما يفوت من حظوظ الآخرة .. « وإياي فاتقون ، خافوني في ذلك دون غيري .. ، « ولا تلبسوا : أي تخاطبوا ، الحق ، الذي أنزلت عليكم من صفة محمد صلى الله عليه وسلم ، « بالباطل ، الذي تخرعون به وتكسبونه بأيديكم من نفيه صفته ، « ولا تكتموا الحق ، أي لا تكتموا نعت النبي صلى الله عليه وسلم ، « وأتمتعون ، أي أنكم لا لبسون الحق بالباطل كاتمون فإنه أقبح إذ الجاهل يعذر .. ، « وأقيموا الصلاة ، أي الصلوات الخمس بمواقيتها وحدودها ، « وآتوا الزكاة ، أي أدوا زكاة أموالكم المفروضة ، أمرهم بفروع الإسلام بعد ما أمرهم بأصوله ، وقيل إن هذا دليل على أن الكفار مخاطبون بها والزكاة مأخوذة من زكاة الزرع إذا نما وكثر أو من الزكاة بمعنى الطهارة ؛ وكلا المعنيين موجودة في الزكاة فإن إخراج الزكاة يستجلب بركة في المال ويشمر للنفس فضيلة الكرم . ويطهر المال من الخبث والنفس من البخل .. « واركعوا مع الراكعين ، أي صلوا مع المصلين محمد صلى الله عليه وسلم وأصحابه في جماعتهم فإن صلاة الجماعة تفضل صلاة الفرد - أي الفرد - بسبع وعشرين لما فيها من تفاوت النفوس ، وعبر عن الصلاة بالركوع احترازا عن صلاة اليهود لأن صلاتهم لم يكن فيها ركوع ، أي صلوا مع الذين في صلاتهم ركوع ، وقيل الركوع الخضوع والافتقار لما يلزمهم به الشارع .

وفي التوراة التحذير من أنبياء كذبة يعيشون فيهم وتكون لهم عجائب
وأفاعيل تدهش الألباب . وفيها أن الله يبعث فيهم نبيا من ولد إسماعيل يقيم
به أمة ، وأنه يكرن من ولد الجارية هاجر ، وبين علامات واضحة له
لا لبس فيها ولا اشتباه . وقد أخذ الأخبار والرهبان يلبسون على العامة الحق
بالباطل ويوهمونهم أن النبي صلى الله عليه وسلم من أولئك الأنبياء الذين
وصفوا في التوراة ، ويكتمون ما يعرفونه من أوصاف لا تنطبق إلا
عليه ، وما يعرفونه من نعوت الأنبياء الصادقين وسبل دعوتهم إلى الله ،
إلى أنهم كانوا يصدونهم عن السبل القويم وعن الإيمان بالنبي صلى الله
عليه وسلم بزيادات يستحدثونها وتقاليد يبتدعونها بضروب من التأويل
والاستنباط من كلام بعض سلفهم وأفعالهم ويحكمونها في الدين ويحتجون بأن
الأقدمين كانوا أعلم بكلام الأنبياء وأشد اتباعا لهم ، فعلى من بعدهم أن يأخذ
بكلامهم دون كلام الأنبياء الذي يصعب علينا فهمه بزعمهم . لكن هذه المعذرة
لم يقبلها الله منهم ، ونسب إليهم اللبس والسكران للحق الذي في التوراة إلى
يومنا هذا ، كما لم يقبل من بعدهم من العلماء في أي شريعة ودين أن يتركوا
كتابه ويتبعوا كلام العلماء بتلك الحججة عينها ، فكل ما يعلم من كتاب الله يجب
علينا أن نعمل به ، وما لا يعلم يسأل عنه أهل الذكر ، ومتى فهمناه وعلناه
عملنا به .

فهي تتناول من فعل فعلهم ، فمن أخذ رشوة على تغيير حق وإبطاله ،
أو امتنع من تعليم ما وجب عليه ، أو أداء ما عليه وقد تعين عليه أداءه
حتى يأخذ عليه أجرا ، فقد دخل في حكم الآية .

ولما دعا الله عز وجل بني إسرائيل إلى الإيمان ، أمرهم بصالح العمل على
الوجه المقبول عند الله ، فطلب إليهم إقامة الصلاة لتطهر نفوسهم ، كما طلب
إليهم إيتاء الزكاة التي هي مظهر شكر الله على نعمه ، والصلة العظيمة بين الناس ،
لما فيها من بذل المال لمواساة عيال الله وهم الفقراء ، ولما بين الناس من تكافل
عام في هذه الحياة ، فالغنى في حاجة إلى الفقير والفقير في حاجة إلى الغنى ، كما وود

في الحديث : « المؤمن المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، . وبعدئذ أمرهم بالركوع مع الراكعين ، أى أن يكونوا في جماعة المسلمين ويصلوا صلاتهم ، وقد حث على صلاة الجماعة لما فيها من تظاهر النفوس عند مناجاة الله ، وإيجاد الألفة بين المؤمنين ، ولأنهم عند اجتماعهم يتشاورون في دفع ما ينزل بهم من البأساء أو يجلب لهم السراء ، ومن ثم جاء في الخبر « صلاة الجماعة تفضل على صلاة الفرد بسبع وعشرين درجة ، .

وهنا ينتهى الربع الثانى من سورة البقرة ، لبدأ الربع الثالث ، وقد تضمن الربع الثانى الرد على اليهود فيما عابوا به القرآن الكريم من ضرب الأمثال بالتأفة الحقير من الأشياء ، كالأذباب والغسقيات وما إلى ذلك كله ؛ ثم دعوة الخلق إلى الإيمان بالله وتذكيرهم بنعم الله عليهم فى الكون والحياة ، ثم قصة آدم وما فيها من عبر وعظات ، ثم طرفا من قصة بنى إسرائيل ، ودعوة الله عز وجل لهم إلى الإيمان بمحمد ورسالته .

ويحتوى الربع الثالث على أطراف أخرى من قصة بنى إسرائيل ونعم الله عليهم ، ومقابلتهم هذه النعم بالكفر والجحود .

يقول الله عز وجل لليهود : « أذمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأتم تلون الكتاب أفلا تعقلون ، ، نزلت هذه الآية فى علماء اليهود ، كانوا يقولون لأقربائهم من المسلمين سرا : اثبتوا على الإسلام وعلى دين محمد عليه السلام ، فإنه حق ، ، ولا يتبعونه ، فنزلت ، والمراد بالبر هنا الإيمان بمحمد ﷺ ، وفى ذلك تقريب مع توبيخ وتعجيب ، والبر شرعا التوسع فى الخير من البر بالفتح وهو الفضاء الواسع ، وهو يتناول كل خير ، ولذلك قيل البر ثلاثة : بر فى عبادة الله ، وبر فى مقابلة الأقارب ، وبر فى معاملة الأجانب ، ومعنى « وتنسون أنفسكم ، أى تتركونها من البر كالمنسيات ، وقيل كانوا يأمرؤن بالصدقة ولا يصدقون ، وقوله تعالى « وأتم تلون الكتاب ، أى التوراة وفيها الوعيد على العناد وترك البر ومخالفة القول العمل : « أفلا تعقلون ، سوء فعالكم فيصدمكم عنه ، أو فلا عقل لكم يمنعكم عما

تعملون من عدم موافقة عاقبته لكم ، والآية تنهى على من يعظ غيره ولا يتعظ
بنفسه بسوء صنيعه وخبيث نفسه وأن فعله فعل الجاهلية ، إذ هو الأحمق
الخالي عن العقل فإن الجامع بين العلم والعقل يأبى كونه واعظا غير متعظ
نفسه ، والمراد حث الواعظ على تزكية النفس والإقبال عليها بالتكميل
لها ليقوم بنفسه ثم يقوم غيره ، لا منع الفسق عن الوعظ فإن الإخلال بأحد
الأمرين المأمور بهما لا يوجب الإخلال بالآخر ، ولكن روى عن أنس
ابن مالك رضى الله تعالى عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : رأيت
ليلة أسرى بنى رحالا تقرض شفاههم بمقاريض من نار فقلت من هؤلاء
يا جبريل ؟ قال : هؤلاء الخطباء من أمتك يأمرون الناس بالبر وينسون
أنفسهم وهم يتلون الكتاب ، وعن أسامة رضى الله تعالى عنه أنه قال : سمعت
رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : يجاء بالرجل يوم القيامة فيلقى في النار
فيجتمع عليه أهل النار فيقولون أى فلان ما شأنك أليس كنت تأمرنا
بالمعروف وتنهانا عن المنكر؟ قال : كنت آمركم بالمعروف ولا آتية وأنها كم عن
المنكر وآتية .. واستعينوا ، أى اطلبوا المعونة على أموركم .. بالصبر ، للنفس
على ما تكره .. «والصلاة» أفردا بالذكر تعظيما لشأنها فإنها جامعة لأنواع العبادات
النفسانية والبدنية من الطهارة وستر العورة وصرف المال فيهما والتوجه
إلى الكعبة والعكوف على العبادة وإظهار الخشوع بالجوارح وإخلاص النية
بالقلب ومجاهدة الشيطان ومناجاة الرحمن وقراءة القرآن والتكلم بالشهادتين
وكف النفس عن الأطيين وهما الأكل والجماع ، روى الإمام أحمد وغيره
أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة ، أى لجأ إليها
إذا أهمه أمر ونزل الخطاب لليهود فهو متصل بما قبله كأنهم لما أمروا بما يشق
عليهم لما فيه من التكلفة وترك الرياضة والإعراض عن المال أمروا بالصبر
وهو الصوم ومنه سمي شهر رمضان شهر الصبر لأنه يكسر الشهوة ويزهدهم
في الدنيا ، وبالصلاة لأنها تورث الخشوع وتتنفى الكبر وترغب في الآخرة ،
وقيل الواو بمعنى على ، أى واستعينوا بالصبر على الصلاة كما قال تعالى : وأمر

أهلك بالصلاة واصطبر عليها ، ويحتمل أن يراد بالصلاة الدعاء ، وإنها أى الصلاة ، ورجوع الضمير إليها لأن الصبر داخل فيها لاستجماعها ضرورياً من الصبر كما قال تعالى : والله ورسوله أحق أن يرضوه ، ولم يقل يرضوها ، لأن رضى الرسول داخل فى رضى الله عز وجل ، أو لأنها أعم كما فى قوله تعالى : والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله ، فالضمير راجع إلى الفضة لأنها أعم ، وقيل الضمير راجع إلى كل منهما وإلى كل خصلة منهما كما قال تعالى كلنا الجنة آتت أكلها أى كل واحدة منهما ، وقيل معناه : واستعينوا بالصبر وإنها لكبيرة والصلاة وإنها لكبيرة فحذف أحدهما اختصاراً ، قال الحسين بن الفضل مرجع الضمير إلى الاستعانة . « لكبيرة ، أى ثقيلة شاقة كقوله تعالى : كبر على المشركين ما تدعوهم إليه والإعلى الخاشعين ، أى الساكنين إلى الطاعة والخشوع السكون ، قال تعالى : وخشعت الأصوات للرحمن ، والخضوع اللين والالتقياد ، وكذا يقال الخشوع بالجوارح والخضوع بالقلب . والذين يظنون ، أى يستيقنون ، وأطلق الظن على العلم لتضمنه معنى التوقع .. » أنهم ملاقوا ربهم بالبعث وأنهم إليه راجعون فى الآخرة فيجازيهم بأعمالهم وإن لم تثقل عليهم ثقلها على غيرهم لأن نفوسهم مرتاضة بأمثالها متوقعة فى مقابلتها ما يستحضر لأجله مشاقها وتستلذ بسببه متاعها ، ومن ثم قال عليه الصلاة والسلام : وجعلت قرعة عيني فى الصلاة .

٤٧ - يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرُوا تَعْمَى الَّذِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنَّى
فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

٤٨ - وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَعَةٌ
وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

٤٩ - وَإِذْ نَجَّيْنَاكُمْ مِنَ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ

يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءَكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءَكُمْ وَفِي ذَٰلِكُمْ بَلَاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ

٥٠ - وَإِذْ فَرَقْنَا بِكُمْ الْبَحْرَ فَأَنْجَيْنَاكُمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

٥١ - وَإِذْ وَعَدْنَا مُوسَىٰ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ أَخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ

٥٢ - ثُمَّ عَمَرْنَا عَنْكُم مِّن بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

٥٣ - وَإِذْ آتَيْنَا مُوسَىٰ الْكِتَابَ وَالْفُرْقَانَ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ

٥٤ - وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ يُقَوْمِ إِنِّي كُنْتُ ظَالِمًا لِّنَفْسِي أَنفُسَكُمْ بِاتِّخَاذِكُمُ الْعِجْلَ فَتُوبُوا إِلَىٰ بَارِيكُمْ فَاقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِيكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ

٥٥ - وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَرَىٰ اللَّهُ جَهَنَّمَ فَاخَذْتُمُ الصُّعْقَةَ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ

٥٦ - ثُمَّ بَعَثْنَا لَكُمْ مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ أَمَّاكُمُ تَشْكُرُونَ

٥٧ - وَظَلَلْنَا عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ وَأَنْزَلْنَا عَلَيْكُمُ الْمَنَّاءَ وَالسَّلْوى كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ

٥٨ وَإِذْ قُلْنَا اذْخُلُوا هَذِهِ الْقَرْيَةَ فَكُلُوا مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ رَغَدًا
وَادْخُلُوا الْبَابَ سُجَّدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ نَنْفِرْ لَكُمْ خَطِيئَتِكُمْ
وَسَتَزِيدُ الْمُحْسِنِينَ

٥٩ - فَبَدَّلَ الَّذِينَ ظَلَمُوا قَوْلًا غَيْرَ الَّذِي قِيلَ لَهُمْ فَأَنْزَلْنَا عَلَى الَّذِينَ
ظَلَمُوا رِجْزًا مِّنَ السَّمَاءِ بِمَا كَانُوا يَفْسِقُونَ

ثلاث عشرة آية في بني إسرائيل أيضا ، بعد الآيات السبع الأولى التي
وردت في شأنهم .

وهذه الآيات الثلاث عشرة استئناف لحديث آخر مع اليهود ، ففي الآيات
السبع السابقة دعاهم الله عز وجل إلى الإيمان بمحمد ورسالته ، وبين لهم
حقيقة موقفهم من الدعوة المحمدية ، وألزمهم بالإسلام وشعائره إلزام المسلم
بهما . وفي هذه الآيات الثلاث عشرة يذكرهم بنعمه عليهم وعلى أجدادهم ،
هذه النعم المتظاهرة الكثيرة ، التي هي - لو عرفوها وفهموها وشكروا عليها -
موجبة لإيمانهم وانصرافهم عن عنادهم وعن حربهم لله ولرسوله ولدينه
ولكتابه الحكيم .

ففي الآية الأولى يكرر الله عز وجل تذكيرهم بنعم الله عز وجل عليهم ،
وبتفضيله لهم على كل العالمين في زمانهم .

يا بني إسرائيل اذكروا التي نعمتي التي أنعمت عليكم : بالشكر عليها بطاعتي ،
كرره للتوكيد وربطه بالوعيد الشديد تخويفا لمن غفل عنها وأخل بحقوقها
وعطف على نعمتي : وأني فضلتكم أي آباءكم الذين كانوا في عصر موسى صلى
الله عليه وسلم وبعده قبل أن يغيروا ما غيروا . على العالمين : أي عالمي زمانهم
بما منحهم الله من العلم والإيمان والعمل وجعلهم أنبياء وملوكا مقسطين ، وذلك
التفضيل وإن كان في حق الآباء ولكن يحصل به الشرف في الأبناء واستدل
بذلك على أن الأصلح لا يجب على الله لأن تفضيلهم لو وجب عليه لم يجوز

جعله منة عليهم لأن من أتى بما وجب عليه لا منة له به على أحد .
أما الآية الثانية فهي التحذير والوعيد ، ومعنى : واتقوا : خافوا . يوما : أى
فيه من الحساب والعقاب وهو يوم القيامة . لا تجزى : أى لا تقضى نفس عن
نفس فيه شيئا أى حقالزمها وتنكير كلمة « شئ » مع تنكير النفس للتعميم
« ولا تقبل منها شفاعته » أى من النفس الثانية لقوله تعالى : ولا يؤخذ منها
عدل ، أى فداء . ولا هم ينصرون : أى يمنعون من عذاب الله والضمير فى الجملتين
للنفوس العاصية ويصح رجوعه للنفس الأولى لأنها المحدث عنها فى قوله
تعالى : لا تجزى نفس عن نفس .

وقد تمسكت المعتزلة بهذه الآية على الشفاعة لأهل الكبائر ، وأجاب
أهل السنة عن ذلك بأجوبة منها أن الآية مخصوصة بالكفار للآيات
والأحاديث الواردة فى الشفاعة ويؤيد هذا أن الخطاب معهم ويكون المراد
حينئذ أنه ليس لها شفاعته فتقبل كما قال تعالى حاكيا عنهم : فما لنا من شافعين ،
ومنها أن الآية نزلت ردا لما كانت اليهود تزعم أن أباهم تشفع لهم ، ومنها
أنها لا تشفع إلا بإذن الله .

والآية الثالثة تذكير لهم بفضل الله عليهم حين نبى أجدادهم من فرعون
وطغيانه وجبروته وبطشه ، قال تعالى : « و ، أى واذكروا .. إذ نجيناكم : أى
آباءكم والخطاب به وبما بغده للموجودين فى زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما
أنعم على آبائهم تذكيرا لهم بنعمة الله ليؤمنوا .. من آل فرعون : أى أتباعه
وأهل دينه .

يذكر القرآن الكريم اليهود الذين كانوا فى عصر التنزيل بنعمة كانت
لآبائهم ، لأن الإنعام على أمة إنعام شامل لأفرادها سواء منهم من أصابه
ذلك ومن لم يصبه لما يكون له من الأثر فى مجموع الأفراد يرثه الخلف عن
السلف ، فصنوف البلاء التى ذكر بها اليهود فى القرآن كانت للشعب من جراء
جرائم وقعت من مجموعهم . وقد روى المؤرخون أن أول من دخل مصر
من بنى إسرائيل يوسف عليه السلام وانضم إليه إخوته بعد وتكاثر نسلهم

حتى بلغوا في مدى أربعائة سنة نحو ستائة ألف حين خرجوا من مصر
باضطهاد فرعون وقومه لهم ، إذ قد رأى تبسط اليهود في البلاد وذاحتهم
للمصريين ، فراح يستذلهم ويكلفهم شاق الأعمال في مختلف المهن والصناعات
وهم مع ذلك يزدادون نسلا ، ويحافظون على عاداتهم وتقاليدهم . لا يشركون
المصريين في شيء ولا يندمجون في غيارهم ، إلى ما لهم من أنانية وإباء وترفع
على من سواهم ، اعتقادا منهم بأنهم شعب الله وأفضل خلقه ، فهال المصريون
مارأوا وخافوا إذا هم كثروا أن يغلبوهم على بلادهم ويستأثروا بخيراتهما
وينزعروها من بين أيديهم ، وهم ذلك الشعب الشيط المجد العال المفسكر ،
فعملوا على انقراضهم بقتل ذكرانهم واستحياء بناتهم ، فأمر فرعون القوابل
أن يقتلن كل ذكر إسرائيلي حين ولادته .

والعبرة من هذا القصة أنه كما أنعم على اليهود ثم اجترحوا الآثام
فعاقبهم الله بصنوف البلاء ثم تاب عليهم وأنجاهم ، أنعم على الأمة الإسلامية
بضروب من النعم ، فقد كانوا أعداء فألف بين قلوبهم وأصبحوا بنعمته
إخوانا ، وكانوا مستضعفين في الأرض فمكن لهم وأورثهم أرض الشعوب
القوية وجعل لهم فيها السلطان والقوة وجعلهم أمة وسطا لا تفريط لديها
ولا إفراط ليكونوا شهداء على من أفرطوا أو قصروا . ثم لما كفروا بهذه
النعم أذاقهم الله ألوانا من العذاب على يد التار في بغداد ، وفي الحروب
الصليبية ، إذ جاس الغريون خلال الديار الإسلامية ، ولا يزالون ينتقصون
بلادهم من أطرافها ويمجدون من بين المسلمين الخونة والمفسدين : هذا ولنظ
« آل ، يضاف إلى أولى القدر والشرف كالأنبياء والملوك ، وإنما قيل آل
فرعون لتصوره بصورة الأشراف أو لشرفه في قومه .. « يسومونكم ،
يكلفونكم ويذيقونكم « سوء العذاب » ، أي أشده ثم وضع ذلك فقال
عز وجل : « يذبحون أبناءكم ، أي المولودين « ويستحيون نساءكم ، أي
يتركونهن أحياء ، هذا بيان يسومونكم ، وذلك أن فرعون على ما يروى
رأى في منامه كأن نارا أقبلت من بيت المقدس وأحاطت بمصر واحرقت

كل قبلى بها ولم تتعرض لبني اسرائيل فهاله ذلك وسأل الكهنة عن رؤياه فقالوا يولد في بني اسرائيل غلام يكون على يده هلاكك وزوال ملكك ، فأمر فرعون بقتل كل غلام يولد في بني اسرائيل ، وجمع القوابل فقال لمن : لا يولد على أيديكم غلام من بني اسرائيل إلا قتل ولا جارية إلا تركت ، ووكل بالقوابل فكن يفعلن ذلك حتى قيل : إنه قتل في طلب موسى اثني عشر الف صبي ، وقيل بل تسعين الفا ، قالوا واسرع الموت في مشيخة بني اسرائيل فدخل رؤوس القبط على فرعون ، وقالوا إن الموت قد وقع في بني اسرائيل فتذبح صغارهم ويموت كبارهم ويوشك أن يقع العمل علينا فأمر فرعون أن يذبحوا سنة ويتركوا سنة فولد هارون في السنة التي لا يذبحون فيها وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها . . . وفي ذلكم بلاء ، إن أشير به إلى صنيعهم فهو محنة أو إلى الانجاء فهو نعمة فإن البلاء يكون بمعنى الشدة وبمعنى النعمة ، ويجوز أن يشار بذلكم إلى الأمرين ، فأنه تعالى قد يختبر على النعمة بالشكر وعلى الشدة بالصبر ، قال تعالى : ونبلوكم - أي نختبركم - بالشر والخير فتنة . . . من ربكم ، أي بتسليطهم عليكم أو بعث موسى وتربيته لتخليصكم ، أو بهما . . . وقوله تعالى « عظيم ، صفة بلاء ، وفي الآية تنبيه على أنه ما يصيب العبد خيراً وشرّاً اختبار من الله تعالى ، فعليه أن يشكر عند نعمته ويصبر على مضاره ليكون من خير المختبرين .

والآية الرابعة : وإذ فرقنا « تذكير لهم بنعمة سابقة عظيمة لله عز وجل على آبائهم ، « وإذ فرقنا ، فلقنا « بكم ، أي بسبيكم « البحر ، حتى دخلتموه هارين من عدوكم ، وذلك أن فرعون لما دنا هلاكه أمر الله تعالى موسى عليه الصلاة والسلام أن يسرى ببني اسرائيل من مصر ليلا فأمر موسى قومه أن يسرجوا في بيوتهم السرج إلى الصبح ، وخرج موسى في ستمائة ألف وعشرين ألف مقاتل ، لا يدعون ابن العشرين لصغره ، ولا ابن الستين لكبره ، وكانوا يوم دخلوا مصر مع يعقوب عليه الصلاة والسلام اثنين وسبعين إنساناً ما بين رجل وامرأة فساروا وموسى على ساقتهم وهارون في مقدمتهم ثم علم بهم فرعون

فجنع قومه وأمرهم أن لا يخرجوا في طلب بني إسرائيل حتى يصبح الديك ،
قال ابن مسعود : فرأه ما صاح ديك في تلك الليلة ثم ، خرج فرعون في طلبهم
وعلى مقدمته هامان في الف الف وسبعمائة الف وكان فيهم سبعون الف من
دم الخيل سوى سائر الشيات ، قال محمد بن كعب : وكان في عسكر فرعون
مائة الف حصان ادم سوى سائر الشيات ، وكان فرعون يكون في الدهم ،
فسارت بنو إسرائيل حتى وصلوا إلى البحر ، والماء في غاية الزيادة ونظروا
فإذا هم بفرعون حين انثرت الشمس ، فبقوا متحيرين ، وقالوا يا موسى
كيف نصنع ، أين ما أعدتنا ، هذا فرعون خلفنا إن أدركنا قتلنا ، والبحر أمامنا
إن دخلناه غرقنا ، قال الله تعالى : فلما تراء الجمعان قال أصحاب موسى إنا
لمدركون ، قال موسى إن همي ربي سيهدين ، فأوحى الله تعالى إليه : أن
اضرب بعصاك البحر فضر به فانشق فكان كل فرق كالطود العظيم ، فظهر فيه
اثني عشر طريقا لكل سبط طريق وارتفع الماء بين كل طريقين كالجبل
وأرسل الريح والشمس على قعر البحر حتى صار يبسا فخاضت بنو إسرائيل
البحر كل سبط في كل طريق ومن جانبيهم الماء كالجبل الضخم ولا يرى بعضهم
بعضا فخافوا وقال كل سبط قد قتل اخواننا فأوحى الله تعالى إلى جبال الماء
أن تشبكي فصارت شبكا كالطاقات يرى بعضهم بعضا وسمع بعضهم كلام
بعض حتى عبروا البحر سالمين فذلك قوله تعالى « فأنجيناكم ، أي من آل
فرعون » واغرقنا آل فرعون ، وذلك أن فرعون لما وصل البحر فرآه
منفلقا قال : لقومه انظروا إلى البحر انشلق من هيتي حتى أدرك عيدي
الذين أدخلوا البحر فهاب قومه أن يدخلوه ، وقيل قالوا له إن كنت
ربا فأدخل البحر كما دخل موسى وكان فرعون على حصان ادم وخاض
البحر واقتحمت الخيول خلفه البحر حتى خاضوا كلهم البحر وأمر الله البحر
أن يأخذهم فالتطم عليهم وأغرقهم أجمعين وكان بين طرفي البحر أربعة فراسخ
وهو بحر قلزم .. وقوله تعالى : « وانتم تنظرون ، أي مصارعهم ، أو إطباق
البحر عليهم ، وانفلاق البحر عن طرق يابسة مذلة ، أو جثثهم التي قذفها

البحر إلى الساحل ، أو ينظر بعضكم بعضاً ، وهذه الواثمة من أعظم ما أنعم الله به على بنى إسرائيل ، ومن الآيات الملمجة إلى العلم بوجود الصانع الحكيم وتصديق موسى الكليم . ثم إنهم اتخذوا العجل ، وقالوا لن تؤمن بك حتى نرى الله جهرة لأنهم بمعزل من الفطنة والذكاء وسلامة النفس وحسن الانبعاث من أمة محمد صلى الله عليه وسلم مع أن ما تواتر من معجزاته من أمور نظرية مثل القرآن والتحاى به والفضائل المجتمعة فيه الشاهدة على نبوة محمد ﷺ دقيقة يدركها الأذكاء .

والآية الخامسة وهي قوله تعالى : « وإذ وعدنا موسى ، بغير الف بين الواو والعين كما قرأه أبو عمر ، وقرأ الباقون بالف بين الواو والعين لأنه تعالى وعد موسى الوحي ووعد موسى ربه المجيء للبيقات إلى الطور وقيل هذا من المفاعلة التي تكون من الواحد كعائنت الأص . . « أربعين ليلة ، أن يعطيه عند اقتضائها التوراة ليتعلموا بها وضرب له ميقاتاً ذا القعدة وعشر ذى الحجة وعبر عنها بالليالي لأنها غرر الشهور ، وقيل لأن الظللة أقدم من الضوء وخلق الله الليل قبل النهار قال الله تعالى « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار ، وقرن البيضاوي أن ذلك الوعد لما عادوا إلى مصر بعد هلاك فرعون تبع في ذلك الكشاف ويريد بمصر اقليماً منها وهو طور سينا وقوله تعالى : ثم اتخذتم العجل ، أي الذي صاغه لكم السامري إلهاً ومعبوداً . « من بعده ، أي بعد ذهابه إلى ميقاتنا ، وذلك أن بنى إسرائيل لما أمنوا من عدوهم ولم يكن لهم كتاب ولا شريعة ينتمون إليها فوعد الله تعالى موسى أن ينزل عليهم التوراة فقال موسى لقومه إني ذاهب لميقات ربي آتيكم بكتاب فيه بيان ما تأتون وما تذررون . واستخلف أخاه هارون فلما اتاه الوعد جاء جبريل ليذهب بموسى إلى ميقات ربه فلما رآه السامري - وكان رجلاً صائفاً من قبيلة يقال لها سامرة - رأى موضع قدم الفرس جبريل يخضر من ذلك وكان منافقاً يظهر الإسلام وكان من قوم يعبدون البقر - فالتقى في روعه أنه إذا التقي في شيء غيره ، وكانت بنو إسرائيل قد استعاروا حلياً كثيراً من قوم فرعون حين أرادوا الخروج من مصر لعمل

عرس لهم فأهلك الله فرعون وقومه فبقيت تلك الحلى فى ايدى بنى اسرائيل فأمرهم هارون أن يلبسوها فى حفرة حتى يرجع موسى ففعلوا فلما اجتمعت الحلى صاغها السامرى عجلا من ذهب فى ثلاثة أيام مرصعا بالجواهر كأحسن ما يكون ، ثم التى فيه التبخنة التى اخذها من تراب حائر فرس جبريل فصار يخور ويمشى ، فقال السامرى : هذا إلهكم وإله موسى فنسى أى فتركه هاهنا وخرج بطلبه ، وكانت بنو اسرائيل قد أخطفوا الوعد فعدوا اليوم مع الليلة يومين فلما مضى عشرون يوما ولم يرجع موسى وقعوا فى الفتنة ، وقيل كان موسى وعدم ثلاثين ليلة ثم زيدت العشر قال تعالى ووعدنا موسى ثلاثين ليلة واتمناها بعشر فكان فنتهم فى تلك العشرة فلما مضت الثلاثون ولم يرجع موسى ورأوا العجل وسمعوا قول السامرى عكف منهم ثمانية آلاف رجل على العجل يعبدونه ، وقيل كلهم عبده إلا هارون مع اثنى عشر الف رجل ، قال البغوى وهو الاصح ، وقال الحسن : كلهم عبده إلا هارون ولذلك قال تعالى « وأتم ظالمون » أى باتخاذهم لوضعكم العبادة فى غير محلها .

والآية السادسة ، وهى قوله تعالى « ثم عفونا » أى محونا عنكم ذنوبكم حين تبتم ، والعمو محو الذنب من عنى إذا درس « من بعد ذلك ، أى الاتخاذ لعلمكم تشكرون ، أى لكى تشكروا نعمتنا عليكم .

والآية السابعة وهى قوله تعالى « وإذ آتينا موسى الكتاب ، أى التوراة وقوله تعالى « والفرقان » عطف تفسير أى الفارق بين الحق والباطل والحلال والحرام . وقيل أراد بالفرقان معجزات موسى كافتراق البحر الفارق بين الحق والمبطل فى الدعوى وبين الكفر والايمان « لعلمكم تهتدون ، أى لكى تهتدوا بتدبير الكتاب والتفكر فى الآيات .

والآية الثامنة وهى قوله تعالى « وإذ قال موسى لقومه ، أى الذين عبدوا العجل « يا قوم انكم ظلمتم أنفسكم باتخاذكم العجل ، أى إلهها . قالوا بلى بأى شىء نصنع ، قال « فتوبوا ، أى ارجعوا عن عبادة العجل « إلى بارئكم ، أى خالقكم . فاقبلوا أنفسكم ، أى ليقبل منكم البرىء من عبادة العجل من عبده ، وقيل المراد

بالتقتل قطع الشهوة كما قيل من لم يعذب نفسه لم ينعمها ومن لم يقتلها لم يجيبها ، ورد هذا جماعة باجماع المفسرين على أن المراد هنا القتل الحقيقي « ذلكم » أى القتل « خير لكم عند بارئكم » من حيث انه طهارة عن الشرك ووصلة إلى الحياة الابدية والبهجة السرمدية ، فلما أمرهم موسى بالقتل قالوا نصبر لأمر الله واملت القوم عليهم الخناجر فكان الرجل يرى ابنه وأباه وإخاه وقريبه فلم يمكنه المضي لأمر الله فقالوا يا موسى كيف تعمل فأرسل الله عليهم ضباباً تشبه سحابة تغطي الارض كالمدخان وسحابة سوداء لا يبصر بعضهم بعضاً فكانوا يقتلون إلى المساء فلما كثر القتل دعا موسى وهارون عليهما الصلاة والسلام وبكيا وتضرعا وقالوا يارب هلكت بنو اسرائيل ، البقيا ، البقيا ؛ فكشف الله تعالى السحابة عنهم وأمرهم أن يكفوا عن القتل فكشفت عن الوف من القتلى ، روى عن علي رضي الله تعالى عنه انه قال : كان عدد القتلى سبعين ألفا فاشتد ذلك على موسى فأوحى الله تعالى اليه أما يرضيك ان أدخل القاتل والمقتول الجنة فكان من قتل منهم شهيداً ومن بقى مكفراً عن ذنوبه فذلك معنى قوله تعالى « ذاب عايكم » أى فعلتم ما أمرتم به فذاب عليكم أى فتجاوز عنكم وقيل توبتكم ، وقوله فتوبوا إلى بارئكم وترتيب الأمر بالقتل عليه إشعار بأنهم بلغوا غاية الجهالة والغباوة حتى تركوا عبادة خالقهم الحكيم إلى عبادة البتر التي هي مثلهم في الغباوة وأن من لم يعرف حق منعمه حقيق بأن يسترد منه ما أنعم به عليه ولذلك أمروا بالقتل ، فإنه هو التواب ، أى الذى يكثر قبول التوبة من المذنبين « الرحيم » أى البالغ فى الإنعام على خلقه .

والآية التاسعة ، وهى قوله تعالى « وإذ قلتم يا موسى لن تؤمن لك حتى نرى الله جهرة » تدل على جهلهم المطلق وتفصيل ذلك أن الله تعالى أمر موسى عليه الصلاة والسلام أن يأتيه فى ناس من بنى اسرائيل يعتذرون إليه من عبادة العجل فاختر موسى سبعين رجلاً من قومه من خيارهم وقال لهم صوموا وتطهروا واطهروا

ثيابكم ففعلوا ذلك نخرج موسى إلى طور سيناء ليقابله ، فقالوا لموسى :
اطلب لنا نسمع كلام ربنا فقال لهم : أفعل ، فلما دنا موسى من الجبل وقع عليه
عمود الغمام فغشى الجبل كله فدخل في الغمام وخروا سجدا وكان موسى إذا
كابه ربه وقع على وجهه نور ساطع لا يستطيع أحد من بني آدم أن ينظر إليه
فضرب دونهم الحجاب وسمعوه وهو يكلم موسى بأمره وينهاه وأسمعهم الله
تعالى : إني أنا الله لا إله إلا أنا أخرجتكم من أرض فرعون بيد شديدة فاعبدوني
ولا تعبدوا غيري ، فلما فرغ موسى وانكشف الغمام أقبل عليهم فقالوا : لن
نؤمن لك حتى نرى الله جهرة عيانا ، وذلك أن العرب تجعل العلم بالقلب
رؤية فقالوا جهرة ليعلم أن المراد منه العيان ، فأخذتكم الساعة ، أى الصيحة
فتم ، وقيل جاءت نار من السماء فأحرقتهم ، وذلك لفرط العناد والتعنت وطلب
المستحيل فإنهم ظنوا أنه تعالى يشبه الأجسام فطلبوا رؤية مثل رؤية الأجسام
في الجهات والأحيان وهى محال ، بل المراد أن ترى رؤية منزهة عن الكيفية
وذلك للمؤمنين فى الآخرة والأفراد من الأنبياء فى بعض الأحوال فى الدنيا ،
وقوله تعالى : « وأتم تنظرون ، أى ينظر بعضهم إلى بعض حين أخذكم الموت ،
وقيل تعلون ويكون النظر بمعنى العلم ، فلما هلكوا جعل موسى يبكى ويتضرع
ويقول : ماذا أغفل لى إسرائيل إذا أنيتهم وقد أهلكت خيارهم لو شئت
أهلكتهم من قبل وإياى أنهم لمسكننا بما فعل السفهاء ، فلم يزل يناشد ربه حتى
أحياهم الله تعالى رجلا بعد رجل بعد ما ما وا يوماً وإيلة ينظر بعضهم إلى
بعض كيف يحيون .

والآية العاشرة ، وهى قول الله تعالى « ثم بعثناكم ، أى أحييناكم والبعث
إثارة الشئ عن محله يقال بعثت البعير فانبعث وبعثت المائم فانبعث « من بعد
موتكم ، بسبب الساعة ، قل فتادة : أحياهم لاستوفوا بقية آجالهم وأرزاقهم ،
ولو ما نوا بأجالهم لم يعيشوا . وقيد البعث بعد الموت لأنه يكون عن إغماء أو
نوم كقوله تعالى « فضر بنا على آذانهم فى الكهف ، إلى أن قال « ثم بعثناهم ،
أى من النوم .. ولعلمكم تشكرون ، نعمة البعث أو ما كفرتموه من النعم المتتابعة

والآية الحادية عشرة ، وهي قوله تعالى « وظللنا عليكم الغمام ، أى فى التيه يقيكم حر الشمس والغمام ، من الغم وأصله التغطية والنستر سمي السحاب غماماً لأنه يغطى وجه الشمس ، وذلك أنه لم يكن لهم فى التيه كن يسترهم فشكروا إلى موسى صلى الله عليه وسلم فأرسل الله غماماً أبيض رقيقاً » وأنزلنا عليكم المن والسلوى ، فى التيه ، والأكثر على أن المن هو شئ كالصمغ كان يتمع على الأشجار طعمه كالشهد وكان يقع على أشجارهم كل ليلة مثل الثلج لكل إنسان منهم صاع فقالوا يا موسى قتلنا هذا المن بحلاوته فادع لنا ربك أن يطعمنا اللحم فأنزل الله عليهم السلوى جمع سلوة وهو الطير السمانى فكان الله تعالى ينزل عليهم المن والسلوى كل صباح من طلوع الفجر إلى طلوع الشمس فكان كل واحد منهم يأخذ ما يكفيه يوماً وإية وإذا كان يوم الجمعة يأخذ كل واحد منهم ما يكفيه ليومين لأنه لم يكن ينزل يوم السبت ، وقدم فى الآية المن على السلوى مع أنها غذاء والمن حلوى والعادة تقديم الغذاء على الحلوى ، وذلك لأن نزول المن من السماء أمر مخالف للعادة فقدم لاستعظامه بخلاف الطيور المأكولة ، وأيضاً هو متقدم فى النزول عليهم .. « كلوا ، على إرادة القول أى قلنا لهم « كلوا من طيبات ، أى حلال ما رزقناكم ولا تدخروا لعد فكفروا بالنعمة وادخروا فقتل الله ذلك عنهم وفسد ما ادخروه ، فتموله تعالى « وما ظلمونا ، أى بذلك فيه اختصار وأصله فظلموا بأن كفروا بهذه النعم « وما ظلمونا ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ، لأن وياه عليهم .

والآية الثانية عشرة وهو قوله تعالى : « وإذا قلنا ، لهم بعد خروجهم من التيه « ادخلوا هذه القرية ، أى بيت المقدس كما قاله مجاهد ، أو أريحا كما قاله ابن عباس ، وهى قرية الجبارين ، وكان فيها قوم من بقية عاد لهم العماقة ، قال ابن الاثير وهى قرية بالغور قريبة من بيت المقدس . وقيل البلقاء ، وقيل الرملة والأردن وفلسطين ، وقيل الشام وسميت قرية لأنها تجمع أهلها « فكلوا منها حيث شئتم رغداً ، أى واسعاً لا حرج فيه « وادخلوا الباب ، أى باب

من أبواب القرية وكان لها سبعة أبواب «سجدا» أي متطالعين منحنيين أو
ساجدين السجود الشرعي لله شكراً على إخراجكم من التيه «وقولوا حطة»
أي مسألنا حطة، أي أن نخط عما خطانا، قال قتادة امرؤ بالاستغفار،
وقال ابن عباس: بلائله إلا الله لأنها تخط الذنوب، وقيل معناه أمرنا حطة
أي شأننا أن نخط في هذه القرية وتقيم فيها حتى ندخل الباب سجداً مع
النواضع «نغفر لكم خطاياكم» بسجودكم «ودعائكم» وسنزيد المحسنين «بالطاعة»
ثواباً جعل الله تعالى أمثال قوله قولوا حطة توبة للمسيء وسبب زيادة الثواب
للمحسنين وقد خرج قوله تعالى «وسنزيد» عن صورة الجواب إلى الوعد
ليهما بأن المحسن بصدده ذلك وإن لم يفعله فكيف إذا فعله، وأنه يفعل لا محالة،
وسبب إخراج ما ذكر عن صورة الجواب إلى الوعد أن الزيادة إذا كانت
من وعد الله كانت أعظم مما إذا كانت مسببة عن قديهم.

والآية الثالثة عشرة، وهي قوله تعالى «فبدل الذين ظلموا» أي منهم،
«قولا غير الذي قيل لهم» أي بأن أصروا على ذنبهم وعلى ترك التوبة، وعلى
العناد واللباج «فأنزلنا على الذين ظلموا» أي منهم، «وكون هذا الحديث من الله
عز وجل يشعر بأن الله عز وجل من وراء كل ظالم محيط به، وأنه تعالى
لا يترك عقوبة الظالمين ولا يمهلمهم وإن أمهلمهم، وقوله تعالى «ورجراً» أي
عذاباً مقدراً، «من السماء»، وقيل أرسل عليهم طاعونا مهلكاً بما كانوا
يفسقون، أي بسبب فسقهم وخروجهم عن طاعة الله عز وجل.

هذه الآيات الثلاث عشرة تحتوي على قصة موسى مع قومه بني إسرائيل،
وهي قصة عجيبة فيها عظة وعبرة للمعتبرين، وتفصيل ذلك كله أن موسى
ابن عمران كان من نسل لاوى سبط يعقوب عليه السلام، وكان بنو إسرائيل
قد كثروا وأثروا بمصر في عهد الفراعنة العاتقة وكانوا تحت أيديهم وفيهم بقية
مؤمنة على ملة إسرائيل حتى جاء عهد الفراعين الذي حكم مصر لعهد
موسى، وكان أشد الفراعنة غلظة وأقسام قلباً على بني إسرائيل، كان يتخذهم

خدما وخولا وقد صنّفهم في خدمته فصنّف بيني الهياكل وصنّف يحرث الأرض وصنّف يزرعها ومن لم يكن منهم في صنعة له فعليه أن يؤدي الجزية فسامهم سوء العذاب - ورأى فرعون رؤيا ضاعفت من مقتله لليهود فقد رأى كأن ناراً أقبلت على مصر من بيت المقدس فدعا السحرة والكهنة وسألهم تأويل ما رأى فقالوا يخرج من بيت المقدس رجل يكزن على يديه هلاك أهل مصر فأمر فرعون ألا يولد لبني إسرائيل غلام إلا ذبحوه ولا تولد لهم جارية إلا تركت . فلما كثرت القتل في اطفال بني اسرائيل واوشكوا على الانقراض دخل تعظاء المصريين لى فرعون وقالوا : إن هؤلاء القوم قد وقع الموت فيهم قتل عددهم ويوشك أن يكون العمل في المزارع والمابد من نصيب المصريين فلو انك تبتقى من اليهود بقية لتقوم بالعمل فأمر أن يذبحوا الأطفال سنة ويتركوهم سنة فلما كانت السنة التي لا يذبحون فيها اليهود ولد هارون اخو موسى ولما جاءت السنة التي يذبحونهم فيها حملت أم موسى بموسى ولما آن وقت الوضع اشتد بها الحزن والخوف عليه فأوحى الله اليها ان ارضعيه فاذا خفت عليه فائقيه في اليم ولا تخافى ولا تحزنى إن ارا دود اليك وجاءلوه من المرسان ، فلما وضعت ارضعته ثم استدعت اليها نجارا فصنع لها تابوتا فوضعت فيه والقتة في اليم وقالت لأخته اتبعى اثره فبصرت به عن جنب وهم لا يشعرون بأنها أخته فأقبل الموج بالتابوت يحمله حتى التقى به بين الاشجار عند قصر فرعون فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً ، وكان اللأى التقطنه هن جوارى آسيا امرأة فرعون فحملن التابوت إلى سيدتهن فلما اخرجت موسى من التابوت وقعت عليه رحمتها وعطفها وأخبرت فرعون بشأنه فأراد أن يذبحه فجعلت تتوسل إليه وتسترحمه حتى تركه لها وقال انى لأخشى أن يكون هذا الطفل من اليهود وأن يكون على يديه هلاكى وبمشوا عن المراضع لغذاء الطفل ولكنه ابى أن يرضع من النساء قاطبة إذ حرم الله عليه المراضع فقالت لهم اخته دل ادلكم على أهل بيت يكتلونهم لكم وهم له ناصحون فقالوا لها انك قد عرفت هذا

الغلام فدلينا على أهله فقالت انى لا أعرفه ولما جاءت أمه قبل ثديها فكادت تفتضح وتعلن للملأ انه ولد لها لولا أن ربط الله على قلبها لتكون من المؤمنين وكذلك رده الله إلى أمه كي تقر عينها ولا تحزن - وحملته أسيا زوجة فرعون إلى زوجها وقالت هذه قرّة عين لي ولك فلما حمّله اخذ موسى بالحيته فصاح فرعون: على بالذباحين ليقتلوه فقالت أسيا لا تفلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً إنما هو صبى لا يعقل وإليكم البرهان فانى سأحمل له حلياً من الياقوت واضع إلى جانبها جمرأ موقداً فان أخذ الياقوت فهو يعقل فاذبحوه وإن تناول الجمر فهو صبى لا يعقل فلما عرض عليه الجمر والياقوت أمسك بالجمر وكبر موسى واشتد ساعده فدخل المدينة نصف النهار على حين غلّة من أهلها فوجد فيها رجلاين يقتتلان ، هذا من شيعة وهذا من عدوه فاستغاثه الذى من شيعة على الذى من عدوه فوكزه موسى فتضى عليه فقدم على فعلته وقال هذا من عمل الشيطان إذه عدو مضل مبين ، ثم دعاه ربه فقال رب إني ظلمت نفسى فاغفر لي فغفر له إنه هو الغفور الرحيم فقال رب بما انعمت عني فلن أكون ظهيرا للمجرمين فأصبح في المدينة خائفا يترقب خشية أن يسجن فإذا الذى استنصره بالأمس يستصرخه قال له موسى إلتك لغوى مبين ، ثم أقبل لنصرته فلما رآه مقبلا ظنه يريد البطش به ، فقال له : يا موسى أتريد أن تقتلني كما قتلت نفسا بالأمس إن تريد إلا أن تكون جبارا في الأرض وما تريد أن تكون من المصلحين ، وذهب المصري يذيع بين الناس أن موسى هو الذى قتل الرجل بالأمس فحمل الخبر إلى فرعون فأمر بالقبض عليه فأسرع إليه رجل من اليهود يحذره وقال له إن الملأ يأمرون بك ليقتلوك فاخرج ، فخرج موسى من المدينة خائفا يترقب وقال يارب نجني من القوم الظالمين ، وانطلق يخرق الصحراء ويسأل الله أن يهديه السبيل ولبث في رحلته ثمانى ليالى حتى بلغ مدين فرأى جمعا من الناس يستقرون أغنامهم ووجد من دورهم امرأين تزدودان غنمهما فسألها ما خطبكما فقالتا لأنستى غنمنا حتى يصدرك الرعاء وأبرنا شيخ كبير فرحمهما موسى وجاء إلى

البر فانتلع صخرة كانت عليها كاذ النفر من أهل مدين يجتمعون عليها حتى يرفعوها فسقى لها حتى رويت غنمها وكاتتا من قبل لا تسقيان غنمها إلا من فضول الحياض ثم تولى موسى إلى ظل شجرة فقال ربى إني لما انزلت إلى من خير فتمبر ، فلما رجعت الجاريتان إلى أبيهما سألهما فأخبرتا خبر موسى فأرسل إليه أحدهما فنته تمشى على استحياء وقالت إن أبى يدعرك ليجزبك أجر ما سقيت لنا فقام معها وكانت تمشى بين يديه فضر بنها الريح فلاحت عجيزتها فاستحيا واستغفر ربه وقل لها امشى خلفى ودلبنى على الطريق ، فلما اجتمع بأبيها الشيخ وقص عليه حكايته قال له : لا تخف نجوت من القوم الظالمين ، فقالت إحداهما : يا أبت استأجره إن خير من استأجرت القوى الأمين ، وكانت هى الجارية التى استدعته إلى أبيها فقال لها أبوها لئد عدت مبلغ قوته حين أطلع الصخرة من قمة البر فاذا رأيت من أمانته قالت إني كنت أمشى أمامه فلم يجب أن يخوتنى فى تنسى وأمرنى أن أمشى خلفه ، وقال الشيخ لموسى إني أريد إن أزوجك إحدى ابنتى هاتين على أن ترضى غنمى ثمانى سنوات أو عشرة والله على ما أقول وكيل ، فقضى موسى فى خدمة الشيخ عشر سنين ثم تزوج من ابنته صفوة فلما قضى الأجل حمل أهله وخرج إلى سيده وكان الوقت شتاء . فرأى أمامه نارا فقال لأهله امكثوا إني آنتت نارا لى آنيكم منها بخبر فإن لم أجد خيرا آنيكم منها بشراب قبس لعلكم تصدلون .

فلما آناها نردى من جانب الوادى الآمين من الشجرة فى البتعة المباركة أن بورك من فى النار ومن حولها ، فلما سمع موسى النداء فزع وقال : الحمد لله رب العالمين وقال له يا موسى : اخلع نعليك إنك بالوادى المقدس طوى ، يا موسى إني أنا الله رب العالمين ، وما تلك يمينك يا موسى قال هى حصاى أنوكا عليها وأهش بها على غنمى ولى فيها مآرب أخرى

فقال له ربه ألقها يا موسى فألقاها فإذا هى حية تسعى فلما رآها موسى تهتز كأنها جان ولى مدبرا ولم يعقب فناداه الله : يا موسى لا تخف إني لا يخاف لى المرسلون ، أنبل ولا تخف إنك من الآمين ، واضمم إليك جناحك من

الرهب فذلك برهان من ربك، فقال موسى : رب إني قتلت منهم نفسا فأخاف أن يقولون ، وأخي هارون هو أفصح مني لسانا فأرسله معي ردءا يصدقني إني أخاف أن يكذبون ، فقال الله سنشد عضدك بأخيك ونجعل لكنا سلطانا فلا يصلون اليك بآياتنا أنما ومن اتعكنا الغالبون فانياء فقولا إنا رسول رب العالمين ، فباد موسى إلى زوجته حيث تركها فسار بها حتى دخل ونزل بين قومه حتى بلغ دار أمه وهو لا يعرفها ، فلما جاء هارون أخوه قد يحدثه فسأله من أنت يقول أنا موسى فقام كل واحد إلى صاحبه فاعتنقه فلما أن تعارفا قال له موسى اسمع يا هارون أني أريد أن تنطلق معي إلى فرعون لأن الله قد ندبنا لكنا لدعوته فقال هارون سم اوطاعة ، فصاحت أمهما وقالت أنشدك الله ألا تذهبا إلى فرعون فيقتلكم أيما . فانطلقا إلى قصر فرعون ودخلاه وما زالا حتى حملا إلى مجلس فرعون فأعلمه موسى أنه قد أصبح نبي نبي إسرائيل وقد بعثه الله ليدعوه إلى الإيمان بالله رب العالمين ، وأن يطلق سراح بني إسرائيل . فدهش فرعون من ظهور موسى بهذا المظهر وجعل يذكره بأيامه الأولى فقال له : أم تربك فينا وليدا وليدت فينا من عمرك سنين وفعلت فعلتك التي فعلت وأنت من الكافرين . فقال له موسى لقد فعلتها إذا وأنا من الضالين ففرت منكم لما خنتكم فوهب لي ربي حكما وجعلني من المرسلين ، وتلك نعمة تمنها علي أن عبدت بني إسرائيل وريتني قبل وليدا . فقال له فرعون : من ربك يا موسى ؟ قال ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . فقال فرعون لمن حوله ألا تستمعون إلى هذا الرجل الذي يزعم لكم أن هناك إلهاسواي ، فقال موسى : إن ربكم هو الله الذي خلق آباءكم الأولين وخلقكم من آباءكم ، فقال له فرعون أن اتخذت الها غيري لأجعلك من المسجونين ، فقال له موسى : وماذا تقول إذا أنا جئتك بشيء مبین تعرف به صدقي ؟ فقال فرعون فأت به ان كنت من الصادقين فألق عصاه فإذا هي ثعبان مبین ، ففر الناس من المجلس وفرع فرعون واشتد به الخوف . وادخل موسى يده في جيب قميصه وأخرجها فإذا هي بيضاء كالثلج ثم ردها كهيتها .

وقال الملا من قوم فرعون دعه وأخاه وابعث في المدائن حاشرين يأزوك بكل سحر عليم لعل فيهم من يأتي بسحر مثل سحره .

فاستدعى فرعون السحرة فلما اجتمعوا قال لهم لقد جاءنا ساحر مارأينا مثله قط وانكم ان غلبتموه أكرمتكم وفضلتكم على أهل ملكتي ، فقال السحرة أعد لنا يوما نجتمع فيه ، وبعث فرعون إلى موسى ان اجعل بيني وبينك موعدا لا تخلفه نحن ولا أنت مكانا سوى ، قال موعدكم يوم الزينة وأن يحشر الناس ضحى . فجمع فرعون أهل ملكته وأشار إلى السحرة فقال : اتوا صمنا وقد افلح اليوم من استعلى . وخرج موسى ومعه أخوه هارون يتكئ على عصاه حتى أتى القوم وفرعون على عرشه بين أشراف ملكته . فقال موسى للسحرة : ويلكم لا تفترؤا على الله فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى ، فتراد السحرة بينهم وقال بعضهم لبعض ان هذان لساحران يريدان أن يخرجاكم من أرضكم بسحرهما ويذهبا بطر يقتكم المثلئ ، ثم أقبلوا على موسى وقالوا له يا موسى إما أن تلتئ وإما أن نكون أول من ألتئ ، قال بل ألقوا فإذا جبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم إنها تسعى ، فاختطفوا بصر موسى وفرعون وأبصار الناس من حولهم وإذا هي حيات قد ملأت أرجاء المجلس يركب بعضها بعضا ، فأوجس في نفسه خيفة موسى فأوحى الله إليه أن ألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتئ ، فألقى موسى عصاه فاستعرضت ما ألقوا من جبالهم وعصيهم فجعلت تبتلعها حية حية حتى أصبح لا يرى منها قليل ولا كثير وخر السحرة ساجدين وقالوا : آمنا برب هارون وموسى ، فقال لهم فرعون آمنتم له قبل ان آذن لكم إنه لكبيركم الذي علمكم السحر فلسوف تعلمون ، لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف ولأصلبنكم أجمعين . وأمر فرعون أن يفعل ذلك بالسحرة فحضعوا لحنكهم صابرين بعدما تبين لهم الهدى وملا الايمان قلوبهم وقالوا له : لن نؤثرك على ما جاءنا من البيئات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما تقضى هذه الحياة الدنيا انا آمنا بربنا ليغفر لنا خطايانا وما اكرهنا

عليه من السحر والله خير وابقى . وصلبوا على جذوع النخل وقطعت
أيديهم وأرجلهم .

وأصر فرعون وقومه على عنادهم وكفروهم من بعدما رأوا الآيات ، فأنزل
الله بهم عتابه وابتلاهم بتسع آيات هي الفزع الاكبر .

وكان أول بلاء نزل بالناس الطوفان ومكث فيهم ثمانية أيام فابتلات
الاسواق والدور وتداعت إلى الخراب وغمرت المياه مزارعهم فأبغضتها وأنت
عليها فلجأ الناس إلى فرعون فدعا فرعون موسى وسأله أن يدعو ربه أن
يرفع عنهم هذا البلاء فرفع ياذن الله ، ولكن الناس نكثوا بما عاهدوا موسى
فبعث الله عليهم الجراد فلبث فيهم ثمانية أيام أتى فيها على الزروع والأشجار
ثم صرفه الله بدعاء موسى فلما لم يؤمنوا بعث فيهم القمل فقرض ثيابهم
وأبدانهم وشعورهم حتى ضجوا ثم صرفه الله بدعاء موسى فلم يؤمنوا ، فابتلاهم
ربهم بالضفادع فكثت ثمانية أيام فكانت تدخل في طعامهم وشرابهم ثم
كشفها الله عنهم فلما لم يؤمنوا أحال الله ماء النيل دماً قانيا فأشرف الناس
على الهلاك .

وأمر الله موسى أن ينادى في بني اسرائيل بالرحيل عن مصر فارتحلوا
وكانت عدتهم ستمائة الف فلما سمع فرعون برحيلهم خرج بجنوده في أثرهم
حتى ادركوهم . فقال بنو اسرائيل يا موسى قد ادركنا فرعون بجنوده والبحر
امامنا والسيف وراءنا فقال موسى كلا إن معي ربي سيهدين : فأوحى الله اليه
أن اضرب بعصاك البحر فضربه فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم وأصبح
فيه اثنا عشر طريقاً للاسباط الاثني عشر فساروا في طرقهم وموسى يمشى
امامهم وهارون من ورائهم وجعل الله بينهم فتحة ليرى بعضهم بعضاً . وبلغ
فرعون البحر ورأى تلك المسالك والطرق التي أنشأها الله فيه فأراد أن يقتحم
الماء فالتأمت الطرق وأغرق الله الجنود جميعاً وكان فرعون ينظر إليهم وقد
سرى الايمان قليلاً إلى قلبه حتى إذا أدركه الغرق قال : آمنت انه لا إله إلا
الذي آمنت به بنو اسرائيل وأنا من المسلمين . ورأى بنو اسرائيل تلك

المعجزة البالغة فكانت عضة لسكل مكابر ، وقذف البحر بجسد فرعون ليكون آية للناس .

وبلاغ موسى وبنو اسرائيل سفوح الطور فمروا في طريقهم بقوم يعبدون الأوثان فقالوا : يا موسى اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال : إنكم قوم تجهلون إن هؤلاء متبر ما هم فيه وباطل ما كانوا يعملون . وذكرهم بنعمة الله التي لا تنسى إذ نجّاهم من فرعون وقال : أغير الله أبغيكم إذا وهو فضلكم على العالمين وأمرهم بالتوبة والاستغفار وانطلقوا ناحية الطور وتلوّ بهم تفيض بحب الأوثان . أما موسى فقد ذهب لميقات ربه فقد واعدته الله ثلاثين ليلة وأما بعشر فتم ميقات ربه أربعين ليلة . وذلك أن موسى قد وعد بنى اسرائيل وهو بمصر إذا خرجوا منها سالمين وهلك عدوهم أن يأتيهم بكتاب من عند الله فيه أوامر الله ونواهيه ، فلما أهلك الله فرعون وقومه وانقذ بنى اسرائيل من أيديهم لم يكن قد نزل عليهم كتاب ولا شريعة يفتنون إليها فقالوا يا موسى اتنا بالكتاب الذي وعدتنا به ، فسأل موسى ربه في ذلك فأمره الله أن يصوم ثلاثين ليلة ثم يطهر ويطهر ثيابه ويأتي طور سيناء لمناجاته ليعطيه الكتاب فصام ثلاثين يوماً فلما صعد الجبل انكر رائحة فمه من أثر الصيام فأراد أن يطهر فمه فاستاك بعود من الخرنوب ، فقالت له الملائكة كنا نشم من فمك رائحة المسك وأنت صائم فأفسدته بالسواك فأوحى الله تعالى إليه أن صم عشرة أيام آخر وقال : أما علمت يا موسى أن خلوف فم الصائم أطيب عندى من ريح المسك وحدثت الفتنة في بنى اسرائيل خلال الليالي العشر الأخيرة وهي التي زادها الله تعالى فلما تم الميقات أربعين ليلة تطهر موسى وطهر ثيابه لميقات ربه ، وحين أتى طور سيناء ناجاه ربه وقربه واصطفاه على الناس بالرسالة وبكلامه وكتبت له الألواح من كل شيء موعظة وتفصيلاً لكل شيء . وكان هارون هو خليفة أخيه موسى أثناء غيابه لميقات ربه وكان من عظماء بنى اسرائيل رجل اسمه السامري . فلما واعد موسى قومه ثلاثين ليلة

ليلة لميقات ربه زاده الله عشر ليال فصارت أربعين ليلة فلما لم يرجع موسى إلى قومه بعد الثلاثين ليلة حلت الفتنة بيني إسرائيل ودخل في صفوفهم السامري ، وكان من المناقنين ، وقال لهم إن موسى لن يرجع إلينا وقد تم الميقات ، وصنع لهم عجلا جسدا له خوار وقال لهم هذا هو ربكم فكف على عبادته أغلب اليهود فقال لهم هارون يا بني إسرائيل إنما فتنتم به وإن ربكم الرحمن فاتبعوني وأطيعوا أمرى ، قالوا لن نبرح عليه عاكفين حتى يرجع إلينا موسى . وخشى هارون إن هو اشتد على الذين فتنوا أن يقول له موسى أنك فرقت بين بني إسرائيل . ولما رجع موسى إلى قومه ألقاهم عاكفين على عبادة العجل فاشتد غضبه عليهم حتى سقطت الألواح التي كان يحملها وكسرت . وأخذ برأس أخيه هارون وقال له : يا هارون ما منعك إذ رأيتهم ضلوا ألا تتبعني أفصيت أمرى ؟ فقال له هارون : يا ابن أم لا تأخذ بلحيتي ولا برأسي ... إن القوم استضعفوني وكادوا يقتلونني فلا تشمت بي الأعداء ولا تجعلني مع القوم الظالمين . ولما أدرك بنو إسرائيل أنهم أخطأوا وضلوا بعبادتهم العجل ندموا على فعلتهم واستغفروا ، فقال لهم موسى يعاتبهم : « يا قوم إنكم ظلمتم أنفسكم ، باتخاذكم العجل ، فتوبوا إلى بارئكم ، ، فقالوا : كيف نتوب ؟ قال : « اقتلوا أنفسكم » .

هذا و فرق البحر معجزة جليلة لموسى عليه السلام ، وهي معجزة من أضخم المعجزات التي ظهرت على أيدي الرسل عليهم السلام .

وفي هذه القصة إشارة إلى الصاعقة وهي نار محرقة تنزل من السماء ، وسببها اتحاد كهربائية السحاب المختلفة النوع سالبها بموجبها ، أو اتحادها مع كهربائية الأرض السالبة .

وقصة القتل المذكورة هنا في هذه الآيات مذكورة أيضاً في التوراة التي يتدارسونها إلى اليوم ، ففيها - دعا موسى : من للرب قائل ، فأجابه بنو لاوى فأمرهم أن يأخذوا السيوف ويقتل بعضهم بعضا ففعلوا ، فقتل في ذلك اليوم

نحو ثلاثة آلاف رجل ، والعبرة من القصة لا تتوقف على عدد معين فلننمك
عنه ما دام القرآن لم يتعرض له .

وإلى هنا ينتهى الربع الثالث من سورة البقرة الذى قص فيه الله عز وجل
أكثر قصة بنى إسرائيل مع موسى عليه السلام ، وفصل عصيانهم وخلافهم
وما اقترفوا من الشرك ومن الذنوب والآثام .

ويبدأ الربع الرابع بقول الله تعالى : « وإذ استسقى موسى » .

٦٠ - وَإِذِ اسْتَسْقَىٰ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ فَقُلْنَا اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْحَجَرَ

فَانفَجَرَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرِبَهُمْ

كُلُوا وَاشْرَبُوا مِنْ رِزْقِ اللَّهِ وَلَا تَعْتُوا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ

٦١ - وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَنْ نَصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ

يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا

وَعَدْسِهَا وَبَصِلِهَا قَالَ أَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِالَّذِي هُوَ

خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَّا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ

الذَّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا

يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ ذَلِكَ

بِمَا عَصَوْا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ

٦٢ - إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالنَّصَارَىٰ وَالصُّبْيَانَ مَنْ

آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِنْدَ

وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

٦٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا

ءَاتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَاذْكُرُوا مَا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ

٦٤ - ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ

لَكُنْتُمْ مِنَ الْخَاسِرِينَ

٦٥ - وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ الَّذِينَ اعْتَدَوْا مِنكُمْ فِي السَّبْتِ فَقُلْنَا لَهُمْ

كُونُوا قِرَدَةً خَاسِئِينَ

٦٦ - فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ

ست آيات تضمنت كذلك قصة جديدة من قصص بني إسرائيل العجيبة ،

التي يشبه بعضها بعضاً في الكفر والطغيان .

والآية الأولى من هذه الآيات الست يذكر الله عز وجل فيها نعمة

أخرى آتاها بني إسرائيل فكفروا بها ، ذلك أنهم حين خرجوا من مصر إلى

التيه أصابهم ظمأ من لفتح الشمس فاستغاثوا بموسى فدعا ربه أن يسقيهم

فأجاب دعوته وقد كان من دأب بني إسرائيل أن يعودوا باللوم على موسى

إذا أصابهم الضيق ويمنون عليه بالخروج معه من مصر ويصارحونه بالندم على

ما فعلوا ، فقد روى أنهم قالوا: من لنا بحر الشمس ؟ فظلل عليهم الغمام ، وقالوا

من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا من لنا بالماء فأمر

موسى بضرب الحجر .

قال تعالى « وإذ استسقى موسى ، أي طلب السقى ، لقومه ، وذلك أنهم

عطشوا في التيه فسألوا موسى أن يستسقى لهم ففعل فأوحى الله عليه كما قال :

« فقلنا اضرب بعصاك الحجر ، لم يكن حجراً معيناً بل كان موسى يضرب

أي حجر كان فينفجر عيوناً لكل سبط عين ثم تسيل كل عين في جدول

إلى السبط الذي أمر أن يسقيهم وكانت بنو إسرائيل اثني عشر سبطاً
ولكن لما قاوا : كيف بنا لو أفضينا إلى ارض لا حجارة فيها ؟ حمل حجراً في
مخلاته وكان يضربه بعصاه إذ نزل فينفجر ويضربه بها إذا ارتحل فيبس
فقالوا إن فقد موسى عصاه متناً عطشاً فأوحى الله تعالى إليه لا تفرع الحجارة
وكلها تطيعك لعلمهم يعتبرون ، وقوله تعالى « فاتفجرت منه اثنتا عشرة عيناً ،
متعلق بمحذوف أى فضربه فاتفجرت أى سالت قال أبو عمرو بن العلاء
انبعثت غرقت واتفجرت سالت وقال عطاء كان يضرب موسى اثنتي عشرة
ضربة فيظهر على كل موضع ضربة مثل ثدى المرأة فيعرق ثم تنفجر الانهار
ثم تسيل .. « قد علم كل اناس ، أى سبط منهم « مشربهم ، أى عينهم التي
يشربون منها لا يدخل سبط على غيره في شرايه ، وقلنا لهم « كلوا وشربوا من
رزق الله ، أى كلوا من المن والسلوى واشربوا من الماء فهلما كله من رزق
الله الذي يأتيكم بلا مشقة .. « ولا تعشوا ، أى لا تعتدوا « في الارض مفسدين ،
أى حال افسادكم إنما قيده لأنه وإن غيب في الفساد قد يكون منه ما ليس
بفساد كمقاولة الظالم المعتدى بفعله ومنه ما يتضمن اصلاً راجحاً على الفساد
كقتل الخضر الغلام وخرقه السفينة ، ومن انكر أمثال هذه المعجزات فلغاية
جهله بالله تعالى وقلة تدبيره في عجائب صنعه فإنه لما امكن أن يكون من
الاحجار ما يخلق الشعر ويجذب الحديد كالمغناطيس لم يمتنع أن يخلق الله
حجراً يسخره لجذب الماء من تحت الأرض أو لجذب الهواء من الجوانب
الأربعة وتصيره ماء بقوة التدبير ونحو ذلك .

والآية الثانية وهي قوله تعالى « وإذا قلتم يا موسى لن نصبر على طعام
واحد ، تذكير لهم بنعمة أخرى لله عز وجل عليهم وذلك حين سئموا من أكل
المن والسلوى وإنما عبر عنهما بطعام واحد لعدم تبدلها كقول العرب طعام
مائة الأمير واحد يريدون أنه لا تتغير ألوانه ، أو لأن العرب تعبر عن الاثنين
بلفظ الواحد كما تعبر عن الواحد بلفظ الاثنين كقوله تعالى ، يخرج منهما

اللؤلؤ والمرجان ، وإنما يخرج من الملح دون العذب ، أو لأنهم كانوا يعجنون
المن بالسوى فيصير واحدا ، أو لأنهم كانوا يأكلون أحدهما بالآخر فكان
كقطعام واحد أو ضرب واحد لأنهما معا كقطعام أهل التلذذ وهم كانوا أهل
فلاحة وزراعات فاشتاقوا إلى أصلهم الرديء وعادتهم الخبيثة ولذا قالوا
« فادع لنا ربك ، أى فسل لأجلنا ربك » يخرج لنا ، أى يظهر لنا ويوجد
وقوله تعالى « مما تثبت الأرض من بقلها » « من » هنا للبيان ؛ والبقل ما تثبت
الأرض من الخضرو هو ما ليس له ساق مما يؤكل كالكرسف والنعناع والكرات
« وقتائها وفومها » وهو الخبز كما قاله ابن عباس ومنه فوموا لنا أى اخبزوا ،
أو الخنطة كما قاله عطاء أو التوم كما قاله السكلي « وعدسها وبصلها قال ، أى الله
أو موسى » أتستبدلون الذى هو أدنى ، أى أخس وأردأ وأصل الدنو القرب
فى المكان فاستعير للنخسة كما استعير البعد للشرف والرفعة ، فقيل بعيد المحل
« بالذى هو خير » أى اشرف ، وهو المن والسوى فإنه خير فى اللذة والنفع
وعدم الحاجة إلى السعى أى أتأخذون هذا بدل هذا ، والهمزة للانكار فأبوا
أن يرجعوا فدعا موسى ربه فقال تعالى « اهبطوا » أى انزلوا « مصرا » من
الأمصار والمصر البلد العظيم ، وقيل أراد به ديار مصر ، قال البيضاوى :
ويؤيده أنه غير منون فى مصحف ابن مسعود وهى قراءة شاذة وإنما صرفه
على هذا مع أن فيه العلية والتأنيث لسكون وسطه كما فى هند ودعد لمعادلة
أحد سببى منع الصرف بخفة الاسم ، لسكون وسطه أو على تأويل مصر بالمكان
« فإن لكم » فيه « ما سألتكم » من نبات الأرض .. « وضربت عليهم » أى أحبطت
بهم إحاطة القبة بمن ضربت عليهم ، أو ألصقت بهم من ضرب الطين على الحائط
« الذلة » أى النذل والهوان وقيل الجزية « والمسكنة » أى الفقر ، وسمى الفقير
مسكينا لأن الفقر أسكنه وأقعده عن الحركة وفعل بهم ذلك مجازاة لهم على
كفران النعمة ولذلك تجدد اليهود فى غالب الأمر أذلاء مساكين ، إما على
الحقيقة أو على التكلف مخافة أن تضاعف جزيتهم ، وقيل الذلة فقر القلب
فلاقوى فى أهل الملل أذل وأحرص على المال من اليهود « وباؤا » أى

رجعوا ، بغضب من الله ، وأصل البوء المسارة ، وقال أبو عبيدة احتملوا
وقوله تعالى ذلك ، إشارة إلى ما مر من ضرب الذلة والمسكنة والبوء بالغضب
بأنهم ، أى سبب أنهم ، كانوا يكفرون بآيات الله ، بصفة محمد صلى الله
عليه وسلم وآية الرجم فى التوراة ويكفرون بالإنجيل والقرآن وبالمعجزات
التي من جملتها ما عهد عليهم من فلق البحر واطلام الغمام وانزال المن والسلوى
وانفجار العيون من الحجر ، ويقتلون النبيين بغير الحق ، أى ظلما فإنهم قتلوا
زكريا ويحيى وغيرهما ، روى أن اليهود قتلوا سبعين نبيا فى أول النهار
وقامت سوقهم آخر النهار ، فإن قيل لم قال بغير الحق وقتل النبيين لا يكون
إلا بغير الحق ، فالجواب أنه ذكره وصفا للقتل ، والقتل يوصف تارة بالحق
وتارة بغير الحق وهو مثل قوله تعالى : قل رب احكم بالحق . . ذكر الحق
وصفا للحكم لأن حكمه ينقسم إلى الحق والجور أو أنه وصف كاشف
ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون ، أى جرم العصيان والتأدى والاعتداء
فيه إلى الكفر بالآيات ، وقتل النبيين ، فإن صفار الذنوب أسباب تؤدى
إلى ارتكاب كبارها كما أن صفار الطاعات أسباب تؤدى إلى تحرى
كبارها ، وكرر الإشارة للدلالة على أن ما لحقهم كما هو سبب الكفر والقتل
هو سبب ارتكابهم المعاصى واعتدائهم حدود الله ، وقيل للإشارة
إلى الكفر والقتل جوزت الإشارة بالمفرد إلى شيئين فصاعدا على تأويل
ما ذكر .

والآية الثالثة وهى قوله تعالى « إن الذين آمنوا ، أى بالأنبياء من قبل
والذين هادوا ، أى اليهود سموا به لقولهم إنا هدنا إليك أى ملنا إليك ، وقيل
لأنهم هادوا أى تابوا من عبادة العجل وكانهم سموا باسم أكبر أولاد يعقوب
عليه الصلاة والسلام ، وقال أبو عمرو بن العلاء لأنهم يهودون أى يتحركون
عند قراءة التوراة ويقولون إن السموات والأرض تحركت حين أتى الله
موسى التوراة « والنصارى ، جمع نصرانى كندامى ، والياء فى نصرانى للبالغة

سمعوا بذلك لأنهم نصرُوا المسيح، إذ قال الحواريون: نحن أنصار الله، «والصابئين»، هم طائفة من النصارى وقيل من اليهود، وقيل قوم بين النصارى والمجوس، وقيل أصل دينهم دين نوح عليه الصلاة والسلام، وقيل هم عبدة الملائكة والكواكب، من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحاً، أى من كان منهم فى دينه قبل أن ينسخ مصداقاً بقلبه وبالمبدأ والمعاد عاملاً بمقتضى شرعه، وقيل من آمن من هؤلاء الكفرة إيماناً خالصاً ودخل الإسلام دخولاً صادقاً، فلم أجرهم، أى ثواب أعمالهم «عند ربهم»، بأن يدخلهم الجنة «ولا خوف عليهم» فى الدنيا، ولا هم يحزنون، فى الآخرة أو حين يخاف الكفار من العقاب ويحزن المقصرون على تضييع العمر وتقويت الثواب

والآية الرابعة وهى قوله تعالى: «وإذ أخذنا ميثاقكم، أى عهدكم باتباع موسى والعمل بما فى التوراة»، «ورفعنا فوقكم الطور»، أى الجبل حين أعطيت الميثاق، روى أن موسى عليه الصلاة والسلام لما جاهد بالتوراة ورأوا ما فيها من التكاليف الشاقة كبرت عليهم لأنها كانت سريعة ثقيلة وأبوا قبولها فأمر الله تعالى جبريل بقطع الطور فظلله فوقهم وكان على قدر عساكرهم وكان فرسخاً فى فرسخ فرسخه فوق رؤسهم مقدار قامته رجل كالأظلة ونال لهم إن لم تقبلوا التوراة أرسلت هذا الجبل عليكم، وروى عطاء عن ابن عباس رفع من فوق رؤسهم الطور وبعث ناراً من قبل وجوههم وأتاهم البحر المالح من خلفهم وقيل: إن قبلتم وإلا رضختكم بهذا الجبل أو أغرقتكم فى هذا البحر أو أحرقتكم بهذه النار فلما رأوا أن لا مهرب لهم من ذلك قبلوا وسجدوا وجعلوا يلاحظون الجبل وهم ساجدون فصارت سنة فى اليهود لا يسجدون إلا على أنصاف وجوههم ويقولون بهذا السجود رفع العذاب عنا.. «خذوا»، هو على إرادة القول «ما آتيناكم»، من الكتاب «بقوة»، بجد وعزيمة «واذكروا ما فيه، بالعمل به»، أو تفكروا فيه فإنه تذكر بالقلب كما إن الدرس ذكر باللسان أو ادرسوه ولا تنسوه «لعلكم تتقون»، لكى تتقوا النار أو المعاصى.

والآية الخامسة ، وهي قوله تعالى « ثم توليتهم ، أى أعرضتكم عن الوفاء بالميثاق » من بعد ذلك ، أى بعد أخذه « فلولا فضل الله عليكم ورحمته ، أى بتوفيقكم للتوبة أو بالإمهال وتأخير العذاب عنكم أو بإرسال محمد صلى الله عليه وسلم يدعوكم إلى الحق ويهديكم إليه ، لكنتم من الخاسرين ، أى من المغبونين بالانهماك فى المعاصى أو بالعقوبة وذهاب الدنيا والآخرة .

والآية السادسة ، وهي قوله تعالى « ولقد علمتم ، أى عرفتم » الذين اعتدوا ، تجاوزوا الحد « منكم فى السبت ، بصيد السمك ، وذلك أنهم حين كانوا زمن داود عليه السلام بأرض يقال لها أيلة حرم الله تعالى عليهم صيد السمك يوم السبت فكان إذا دخل السبت لم يبق حوت فى البحر إلا حضر هناك وطفا على سطح الماء حتى لا يرى الماء من كثرة السمك فإذا مضى تفرقت ولزمت قعر البحر فذلك قوله تعالى « إذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبثون ، لا تأتيهم » وكذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون ، ثم إن الشيطان وسوس إليهم وقال إنما نهيتهم عن أخذها يوم السبت فعمد رجال فحفروا الحياض حول البحر وشرعوا منه إليها الأنهار فإذا كان عشية الجمعة فتحوا تلك الأنهار فأقبل الموج بالحيتان إلى الحياض فلا تقدر على الخروج لبعده عمقها وقلة مائها فإذا كان يوم الأحد أخذوها فذلك الحبس فى الحياض هو اعتداؤهم ففعلوا ذلك زمانا ولم تنزل عليهم عقوبة فتجرؤا على السبت وقال ما نرى السبت إلا قد أحل لنا فأكلوا وملحوا وباعوا فلما فعلوا ذلك صار أهل القرية وكانوا نحو من سبعين ألفاً ثلاثة أصناف : صنف أمسك ونهى وصنف أمسك ولم ينه وصنف انتهك الحرمة وكان الناهون اثني عشر ألفا فلما أبى المجرمون قبول نصحتهم قالوا والله لا نساكنكم فى قرية واحدة فقسموا القرية بجدار « فقلنا لهم ، لإصرارهم على المعصية » كونوا فردة خاسئين ، قال مجاهد : ما مسخت صورتهم ولكن قلوبهم فمثلوا بالفردة كما مثلوا بالحمار كما فى قوله تعالى « كمثل الحمار يحمل أسفارا ، رواه عنه ابن جرير

فالمعنى على سقوطهم عن درجة السكال الإنساني ، قال ابن كثير : المسخ
معنوى لا صورى

وذهب جمهور العلماء إلى أنهم مسخت صورهم فصارت صور القردة ،
وروى أن المسوخ لا يفسل ولا يأكل ولا يشرب ولا يعيش أكثر من
ثلاثة أيام ، ونظير الآية قوله تعالى : « وجعل منهم القردة والخنازير وعبد
الطاغوت ، ، والطاغوت : الشيطان . يقول الأستاذ الإمام محمد عبده : الآية
ليست نصا فى رأى الجمهور ولم يبق إلا النقل . ولو صح لما كان فى الآية عبرة
ولاموعظة للعصاة لأنهم يعلمون بالمشاهدة أن الله لا يمسح كل عاص فيخرجه
عن نوع الإنسان ، إذ ليس ذلك من سنته فى خلقه ، وإنما العبرة الكبرى فى
العلم بأن من سنن الله فى الذين خلوا من قبل - أن من يفسق عن أمره
ويتكذب الصراط الذى شرعه له ينزله عن مرتبة الإنسان ويلحقه بهجوات
الحيوان ، وسنة الله واحدة ، فهو يعامل القرون الحاضرة بمثل ما عامل به
القرون الخالية اه . وفى هذا تأييد لرأى مجاهد وتفضيل له على رأى الجمهور ،
قال ابن كثير : والصحيح أن المسخ معنوى كما قال مجاهد لا صورى كما
قال غيره .

والآية السابعة ، وهى قوله تعالى « فجعلناها نكالا ، ، معناها : جعلنا تلك
العقوبة نكالا أى عبرة تشكل الاعتبار بها أى تمنعه من ارتكاب مثل ما عملوا ،
ومنه النكول عن اليمين ، وهو الامتناع « لما بين يديها وما خلفها ، أى للأمم
التي فى زمانها والتي بعد زمانها ، أو لما بحضرتها من القرى وما تباعد عنها ،
أو لأهل تلك القرية وما حواليتها ، أو لأجل ما تقدم عليها من ذنوبهم
وما تأخر عنها .

« وموعظة للمتقين ، أى الذين اتقوا الله من قومهم ، أو لكل متق
سمعا ، وخصوا بالذكر لأنهم المنتفعون بها بخلاف غيرهم .
فى هذه الآيات السبع ذكر لبعض معجزات موسى ، ولصنيع قومه
اليهود وعنادهم ولجاجهم بالباطل .»

والمعجزة الأولى من هذه المعجزات هي تفجر الماء من الحجر ، وهي معجزة غريبة جليلة ، ليس في معجزات الأنبياء قبل محمد عليه السلام ما يشبهها ، وذكر الدكتور عبد العزيز إسماعيل باشا في كتابه « الإسلام والطب الحديث ، ما نصه : « إن الله تعالى كان قادراً على تفجير الماء وقلق البحر بلا ضرب عصا ، ولكنه جلت قدرته أراد أن يعلم عباده ربط المسببات بأسبابها ليسعوا في الحصول على تلك الأسباب بقدر الطاقة إلى أنه تعالى خلق الإنسان محدود الإدراك والحواس ، لا يفهم إلا ما كان في متناول يده ويقع تحت إدراكه وحسه ، فإن رأى شيئاً فوق طاقته اجتهد في رده إلى ما يعرف ، فإذا لم يستقم له ذلك وقف حائراً مدهوشاً ، ولا سيما إذا تكرر ذلك أمامه ، فكان من لطف الله بعباده أن تظهر المعجزات على يد الأنبياء على طريق التدرج حتى لا تصطده بها عقول معاصريها دفعة واحدة .

حكى القرآن في معجزات عيسى عليه السلام قول الله عز وجل « إني قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً ياذن الله وأبرىء الأكمه والأبرص وأحيى الموتى ياذن الله ، ، كان الله قديراً على أن يخلق الطير من الطين ومن غير الطين سواء كان في شكل الطير أم لم يكن ، وكذلك لم يكن هناك من داع للنفخ لأن طريق القدرة « كن فيكون » .

ولكن شاء الله أن تظهر قدرته بطريق التدرج ، لأن الطين إذا كان على شكل الطير يشبه بالطير الحقيقي ولا يكون بينهما فارق بالحياة ، وعملية النفخ تجعل الرأى ينتظر تغييراً في الجسم كما يحدث ذلك في الكرة ونحوها إذا نفخ فيها ، فإذا وجدت الروح في هذا الهيكل الطيني تكون حدة الصدمة قد خفت لأن النفس كانت ترقب ما حدث ، وجميع المقدمات لا دخل لها مطلقاً في وجود الحياة والروح ، وكذلك خلق عيسى من نطفة الأم فقط ، مع أن الحيوان في عالمنا لا يخلق إلا من نطفة الأب والأم ، ونظام الكائنات يجرى على سنن واحد إلا حيث يريد الله . وقد لطف الله بمريم فأراها ملكاً في صورة بشر ، وقال لها سأهب لك غلاماً زكياً ، فأجابته « أنى يكون لى غلام

ولم يمسنى بشر ، فرؤية الملك والأحوال التي أحاطت به أوجدت عندها بعض الشك في أنها ربما حملت بطريق غير عادي وبهذا تهباً احتمالها صدمة الحمل عندما حصل . وكان الله تعالى جعل النفخ يأخذ مكان نطفة الرجل ، وكان تمثل الملك بصورة البشر كتمثل الطين بصورة الطير ، والنفخ في مريم كالنفخ في الطين ، وكل ذلك تقريب لفهم المعجزة ، وإلا فعيسى خلق من نطفة مريم والجزء الآخر يأذن الله وقدرته ، كن فيكون ، . . وسن الله التي أوجدها في السكون كفل لها الاستمرار وعدم التبدل ، فقد قام عليها نظام العالم ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، وقد بدلت في المعجزات بالقدرة الإلهية التي تضع جميع السنن ، وكان المعجزة سنة جديدة ، وقد أراد موسى أن يجتث أصول الشرك التي تغلغلت جذورها في نفوس قومه ، ويربأ بهم عن الذي ألفتة نفوسهم بتقادم العهد واستعباد المصريين إياهم ، ويعودهم العزة والشمم والإباء بعبادة الله وحده . وكانوا لا يخطون خطوة إلا اجترحوا خطيئة ، وكلها عرض لهم شيء من مشاق السفر برهوا بموسى وتحسروا على فراق مصر وتمنوا الرجوع إليها ، واستبطنوا وعد الله فطلبوا منه أن يجعل لهم إلهاً غير الله ، وصنعوا عجلاً وعبدوه . وحينما أمرهم أن يدخلوا الأرض المقدسة التي وعدوا بها ، اعتذروا بالخوف من أهلها الجبارين . كما قصه الله علينا ، قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبداً ما داموا فيها ، فضرب الله عليهم التيه أربعين سنة حتى ينقرض ذلك الجيل الذي تأصلت فيه جذور الوثنية ويخرج جيل جديد يتربى على العقائد الحقّة وفضائل الأخلاق فتاهوا هذه المدة وقضى الله أمراً كان مقعولا . فالمعجزات كلها من صنع الله ، وهي سنة جديدة غير ما نشاهد كل يوم ، فحركة الشمس وطلوعها من المشرق مع عظمها لا تحدث دهشة لتعودنا إياها ، ولكن إن طلعت من المغرب دون المشرق كان ذلك معجزة وأحدث غرابة ودهشة مع أن الحركتين من صنع الله لا فارق بينهما ، ولكي لا تحدث الصدمة حين حصول المعجزة يهب الله الظروف لتحملها ويهب النبي لقبولها

ويهيء الحاضرين لمشاهدتها وقبولها ، فأمر الله موسى بإدخال يده في جيبه وإخراجها بيضاء تهيئة لمعجزاته الأخرى ، وليس للعقل أن يحكم أن أى المعجزات أعظم من الأخرى لأنه يتكلم عن مجهول هو من صنع الله لا يعرفه ، فلا يمكن الإنسان مهما ارتقى عقله أن يصل إلى صنعها بل هي فوق قدرته . أما المخترعات العلمية فهي مبنية على السنن العلمية ، مهما ظهرت مذهشة كالكهرباء والمسرة (التليفون) .. وغاية ما هناك أن العلماء سخروها لأغراضهم ، فالذى يتكلم فى أوربا ويسمع صوته فى مصر بوساطة (الراديو) إنما استطاع ذلك لأنه استخدم الهواء الذى يحمل أمواج الصوت إلى العالم كله ، وهكذا حال سائر المخترعات ، إنما هي كشف لنا موس إلهى يتكرر دائماً على يد كل إنسان ، لكن المعجزات تجرى على طراز آخر فهي خلق سنة جديدة فى الكون ، ولا تتكرر إلا بإذن الله ، ولا يعرف الإنسان لها قاعدة ولا يدرك طريقها لصنعها .

والمعجزة الثانية هي رفع الطور فوق رؤوسهم تهديدا لهم وإلزاما لهم بالعمل بما فى التوراة .

والطور : هو الجبل المعروف الذى ناجى فيه الله موسى عليه السلام ، ورفعته قد فسره فى سورة الأعراف فقال : « وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة وظنوا أنه واقع بهم ، التقق المز والزعزعة والجذب ، فالتقق فى الجبل كان بما يشبه الزلزال فيه . وقد حدثت هذه المعجزة الجليلة ورآها قوم موسى وآمنوا مرغمين . وبعد أن أخذ الله على بنى إسرائيل الميثاق التى ذكرها بقوله : « وإذ أخذنا ميثاق بنى إسرائيل لا تعبدون إلا الله وبالوالدين إحساناً ، فقبلوها ، وأراهم من الآيات ما فيه مقنع لهم ، رفع الجبل فوقهم كالظلة حتى ظنوا أنه واقع بهم ، وطلب إليهم التمسك بالكتاب والعمل بما فيه بالجد والنشاط ، كي يعدوا أنفسهم لتقوى الله ورضوانه ثم كان منهم أن أعرضوا عن ذلك وانصرفوا عن طاعته ، ولولا لطف الله بهم لاستحقوا العقاب فى الدنيا

ونخسروا سعادة الآخرة وهي خير ثوابا وخير أملا ، لكن وفقهم الله بعد ذلك فتابوا ورحمهم قبل توبتهم .

وما أكثر ما أظهر موسى لهم من معجزات ، وما أكثر ما دعاهم إلى الطاعة والإيمان ، ولكنهم لجوا في الطغيان ، وانقلبوا من حقيقة الإنسان إلى حقيقة أخرى هي بمثابة العجاوات الضارية التي لا تعرف ديناً ، ولا تهتدي بهدي ولا كتاب ولا رسول .

وفي هذه الآيات يقص الله عز وجل قصص بني إسرائيل مع موسى ، وكان من قصص اليهود معه أنهم قالوا لموسى عليه السلام إنك ذكرت لنا يوم أخرجتنا من مصر أن الله تعالى بعثك لتنقذنا من عذاب فرعون ونراك الآن تحملنا على ما هو أشق علينا وبيننا وبين الأرض المقدسة التي وعدتنا مغاور وقفار فكيف ندخلها ولا زاد معنا ولا ماء . فأوحى الله تعالى إليه : يا موسى قل لهم إني منزل عليهم المن والسلوى وقد أمرت الحجر أن يتفجر لهم بالماء العذب وأمرت الغمام أن يظلمهم ويسير معهم حيث ساروا . فلما سمع اليهود ذلك طابت نفوسهم وساروا نحو الأرض المقدسة ، والغمام يظلمهم في مسيرهم والسماء تمطرهم المن وهو حلو الطعم . والريح تحمل اليهم السلوى وهو طائر السماء ، ويقرع موسى الحجر فتفجر لهم اثنا عشرة عينا تجري كل عين إلى سبط من الأسباط فهم في خفض من العيش وسعة من الرزق ودعة ، لعلمهم يشكرون . ولكن بني إسرائيل بطروا بنعمة ربهم وستموا طعام المن والسلوى ، وقالوا يا موسى لن نصبر على طعام واحد فادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الأرض من بقلها وقتائها وفومها وعدسها وبصلها . فقال لهم موسى : أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير اهبطوا مصرا فإن لكم ما سألتم ، يريد بذلك أن ينزلوا الأمصار العامرة وذلك لأن اليهود يقولون أن نبيهم موسى عليه السلام قد حرم عليهم بنصوص التوراة الدخول إلى الديار المصرية من عهد أن خرجوا منها حين اتبعهم فرعون وأنهم لن يدخلوها بعد ذلك أبداً ، وأمر الله بني إسرائيل بالمسير إلى الأرض المقدسة

التي يسكنها الكنعانيون الجبارون يخاف بنو إسرائيل سطوة الجبارين
وقالوا يا موسى إن فيها قوما جبارين وإن لن ندخلها حتى يخرجوا منها . فلما
أمرهم الله بقتال الجبارين قالوا يا موسى إننا لن ندخلها أبدا ماداموا فيها
فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، فغضب موسى من قولهم هذا
ولجأ إلى ربه فقال رب إني لا أملك إلا نفسي وأخي فافرق بيننا وبين القوم
الفاسقين . فقال له الله تعالى : إنها محرمة عليهم أربعين سنة يتيهون في الأرض ،
ولما انقضت مدة التيه سار موسى ببني إسرائيل إلى أريحا وكان أخوه هارون
قد مات في فترة التيه . ومات موسى بعد دخول بني إسرائيل أرض فلسطين .

٦٧ - وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً

قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا هُزُوعًا قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ

٦٨ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ

لَا فَارِضٌ وَلَا بَكْرٌ عَوَانٌ بَيْنَ ذَلِكَ فَافْعَلُوا مَا تُؤْمَرُونَ

٦٩ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا لَوْثُهَا قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا

بَقَرَةٌ صَفْرَاءٌ فَاقِعٌ لَوْثُهَا تَسْرُّ النَّظِيرِينَ

٧٠ - قَالُوا ادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّنْ لَنَا مَا هِيَ إِنَّ الْبَقَرَ تَشَابَهُ عَلَيْنَا

وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ لَمُهْتَدُونَ

٧١ - قَالَ إِنَّهُ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَا ذَلُولٌ تُثِيرُ الْأَرْضَ وَلَا تَسْقِي

الْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَا شِيَةَ فِيهَا قَالُوا الْآنَ جِئْنَا بِالْحَقِّ

فَذَبْحُوهَا وَمَا كَادُوا يَفْعَلُونَ

٧٢ - وَإِذْ قَتَلْتُمْ نَفْسًا فَادْرَأْهَا ثُمَّ فِيهَا وَاللَّهُ مُخْرِجٌ مِمَّا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ

٧٣ - فَقُلْنَا أَضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا كَذَلِكَ يُخَيِّئُ اللَّهُ الْمَوْتَى وَيُرِيكُمْ
آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ

٧٤ - ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُمْ مِّنْ بَعْدِ ذَلِكَ فَهِيَ كَالْحِجَارَةِ أَوْ أَشَدُّ
قَسْوَةً وَإِن مِّنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَارُ وَإِن مِّنْهَا
لَمَا يَشْتَقُّ فَيُخْرِجُ مِنْهُ الْمَاءَ وَإِن مِّنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ
اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

قصة أخرى لبني إسرائيل مع رسولهم موسى عليه السلام ، تدل على
عصيانهم ولجاجهم وعنادهم وإبائهم ، وتدل على استحقاقهم ما استحقوه من
غضب الله وبقائه .

وهذه القصة هي قصة البقرة التي سميت بها السورة ، بقرة بني إسرائيل
وفي هذا القصص بيان نوع آخر من مساوىء اليهود وصنيعهم مع نبيهم
موسى عليه السلام لنعبر به ونعظ ، وفيه من وجوه العبرة أن التنطع في
الدين والإلحاف في السؤال مما يقضى التشديد في الأحكام ، ومن ثم نهينا عن
ذلك بقول الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَسْأَلُوا عَن أَشْيَاءٍ إِن تَبْدَلَكُمْ
تَسْأَلُكُمْ » ، وبما جاء في صحيح الحديث من قوله صلى الله عليه وسلم « وكره لكم قيل
وقال وإضاعة المال وكثرة السؤال » .

وفيه كذلك أنهم أمروا بذبح بقرة دون غيرها من الحيوان ، لأنها من
جنس ما عبده وهو العجل ليهون عندهم ما كانوا يرون من تعظيمه ، وليعلم
بإجابتهم ما كان في نفوسهم من حب عبادته .

وفي هذه الآيات أبلغ دلالة على استهزاء بني إسرائيل بأوامر الأنبياء .
وفيه كذلك بيان أن القليل قد أحيى بقتل حى وهذا أظهر لقدرته تعالى في
اختراع الأشياء من أضعافها .

وأول القصة معنى قوله تعالى «وإذ قتلتم نفساً ، الخ إذ هي المخالفة التي صدرت منهم ، ثم ذكر المنة في الخلاص منها في قوله : « فقلنا اضربوه ببعضها ، الخ ، وقدم على ذلك وسيلة الخلاص منها وهي ذبح البقرة .. وهذا الأسلوب أدعى لتشويق السامع وأبعث له على البحث عن معرفة السبب و ذبح البقرة والمفاجأة بحكاية ما كان من الجدل بين موسى وقومه ، فإن الحكمة في أمر الله أمة بأن تذبح بقرة قد تخفى فيحرص السامع على طلبها . والكتاب الكريم لا يراعى ترتيب المؤرخين في تسيق الكلام على حسب الوقائع ، وإنما ينسق الكلام على الطريق الذي يستثير اللب ويأخذ بمجامع القلب ويستوحى شغف السامع بما يدور حوله الحديث . فقد ذكر الله عز وجل هذه القصة في ثماني آيات . وفي الآية الأخيرة منها بيان للعبارة من القصة .

والآية الأولى من هذه الآيات الثمان ، هي قوله تعالى : « وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة ، هي تذكير لهم بهذه القصة وبصنيعهم مع رسولهم موسى عليه السلام .

واذكر « إذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم ، قرأ أبو عمرو بسكون الراء .. وأول هذه القصة هو كما سبق قوله تعالى : « وإذ قتلتم نفساً فادارأتم فيها ، وإنما قدمت عليه لاستقلاله بنوع آخر من مساوئهم وهو الاستهزاء بالأمر والاستقضاء في السؤال وترك المسارعة إلى الامثال ، وقصة البقرة هذه تتلخص في أنه كان فيهم رجل غني وله ابن عم فقير لا وارث له سواه فلما طال عليه موته قتله ليرثه وحمله إلى قرية أخرى فألقاه بيابها ثم أصبح يطلب ديته وجاء بناس إلى موسى يدعي عليهم القتل فسألهم فوجدوا فاشتبه أمر القتل على موسى ، قال الكلبي : وذلك قبل نزول القسامة في التوراة فسألوا موسى ليدعو الله ليبين لهم بدعائه فدعا فأمرهم الله تعالى بذبح بقرة ويضربون القتيل ببعضها فيحیی فيخبر بقاتله . فقال موسى « إن الله يأمركم أن تذبحوا بقرة قالوا أتخذنا هزوا ، أي أتستهزىء بنا ، نحن نسأل عن أمر القتيل

وتأمرنا بذبح بقرة ، وإنما قالوا ذلك استبعادا لما قاله واستخفا فإبه ، قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، لأن الهزء في مثل ذلك جهل وسفه ، نفى عن نفسه ما رمى به على طريقة البرهان وأخرج ذلك في صورة الاستعاذة استفظاغا نه ، فلما علم القوم أن ذبح البقرة عزم من الله استوصفوه ولو أنهم عمدوا الى أدنى بقرة فذبحوها لأجزأت عنهم ولكنهم شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وكان تحته حكمة ، وذلك أنه كان في بني إسرائيل رجل صالح له ابن طفل وله بقرة أتى بها إلى غيضة وقال : اللهم إني استودعك هذه لابني حتى يكبر ومات الرجل فصارت العجلة في الغيضة عوانا وكانت تهرب من كل من رآها فلما كبر الابن كان بارا بوالدته فكان يقسم الليل أثلاثا يصلي ثلثا وينام ثلثا ويجلس عند رأس أمه ثلثا فإذا أصبح انطلق فاحتطب على ظهره فيأتي به السوق فيبيعه بما شاء الله ثم يتصدق بثلثه ويأكل ثلثه ويعطى والديه ثلثه ، فقالت له أمه يوما إن أباك ورثك عجلة استودعها الله في غيضة كذا فأنطلق وادع الله إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق أن يردها عليك وعلامتها أنك إذا نظرت إليها يخيل إليك أن شعاع الشمس يخرج من جلودها وكانت تلك البقرة تسمى الذهبية لحسنها وصغرتها . فأتى الفتى الغيضة فرآها ترعى فصاح بها وقال : أعزم عليك يا إله إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب فأقبلت تسعى حتى قامت بين يديه فقبض على عنقها يقودها ، فتكلمت البقرة بإذن الله وقالت : أيها الفتى البار بوالدته اركبني فان ذلك أهون عليك ، فقال الفتى إن أمي لم تأمرني بذلك ولكن قالت خذ بعنقها فقالت البقرة يا إله بني إسرائيل لو ركبتني ما كنت تقدر على أبدا فأنطلق فإنك لو أمرت الجبل أن يتقطع من أصله وينطلق معك لفعل لبركة أمك فسار الفتى بها إلى أمه فقالت له إنك فقير ويشق الاحتطاب عليك بالنهار والقيام بالليل فأنطلق فبيع هذه البقرة فقال بكم أبيعها فقالت بثلاثة دنانير ولا تبع بغير مشورتى وكان ثمن البقرة ثلاثة دنانير فأنطلق بها إلى السوق فبعث الله ملكا ليرى خلقه قدرته وليختبر الفتى كيف بره بوالدته وكان الله به خيرا فقال الملك بكم تبيع هذه البقرة ؟ قال بثلاثة دنانير وأشترط

عليك رضى والدنى فقال الملك : لك ستة دنانير ولا تستأمر والدتك ، فقال الفتى لو أعطيتنى وزنها ذهباً لم آخذه إلا برضى أمى فردها إلى أمه فأخبرها بالثمن فقالت ارجع فبها بستة دنانير على رضى منى فانطلق بها إلى السوق وأنى الملك فقال : استأمرت أمك فقال الفتى إنها أمرتني أن لا أنقصها عن ستة دنانير على أن تستأمرها فقال الملك إنى أعطيك اثنى عشر ديناراً على أن لا تستأمرها فأبى الفتى ورجع إلى أمه وأخبرها بذلك فقالت إن الذى يأتىك ملك فى صورة آدمى ليختبرك . فإذا أتاك فقل له أتأمرنا أن نبيع هذه البقرة أم لا ، فنعل فقال الملك : اذهب إلى أمك وقل لها أمسكى هذه البقرة فإن موسى ابن عمران يشتريها منك لقتيل يقتل فى بنى اسرائيل فلا تبئعها إلا بملء جلدها ذهباً ودنانير فأمسكوها وقدر الله تعالى على بنى اسرائيل ذبح تلك البقرة بعينها فما زالوا يستوصفونه إياها حتى وصف لهم تلك البقرة مكافأة لهم على بره بوالدته فضلاً منه ورحمة .

والآية الثانية وهى قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هى ، أى ما سنها وكان من حقه أن يقولوا أى بقرة هى » قال موسى إنه ، أى ربي « يقول إنها بقرة لا فارض ، أى مسنة وسميت فارضاً لأنها فرضت سنها أى قطعها وبلغت آخرها « ولا بكر ، أى صغيرة « عوان ، أى نصف أى وسط » بين ذلك ، أى بين ما ذكر من الفارض والبكر .

وعنه عليه السلام : لو ذبحوا أى بقرة أرادوا لأجزأتهم ولكن شددوا على أنفسهم فشدد الله عليهم ، وتقرعهم بالتمادى وزجرهم عن المراجعة بقوله تعالى : « فافعلوا ما تؤمرون ، به من ذبحها .

والآية الثالثة هى قوله تعالى : « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا مالونها قال ، أى موسى « إنه ، أى ربي ، « يقول إنها بقرة صفراء فاقع لونها ، أى شديد الصفرة . ولذلك تؤكد به الصفرة فيقال أصفر فاقع كما يقال أسود حالك وعن الحسن سوداء شديدة السواد ، وبه فسر قوله تعالى « جمالات صفراء ، قال البيضاوى : ولعله عبر بالصفرة عن السواد لأنه من مقدماته ، قال البغوى :

والأول أصح لأنه لا يقال أسود فاقع إنما يقال أصفر فاقع وأسود حاله
وأخضر فاصع، وتسر الناظرين، إليها أي يعجبهم حسنها وصفاء لونها، والسرور
أصله لذة في القلب عند حصول نفع أو توفيقه.

والآية الرابعة هي قوله تعالى: « قالوا ادع لنا ربك يبين لنا ما هي، أي
أسأمة أم عاملة، أو التقدير: ما هي تلك العلامة الفارقة، وعلى هذا فليس تكرارا
للسؤال الأول، « إن البقر، أي جنسه المنعوت « تشابه، أي التباس واشتبه
أمره « علينا، لسكنته فلم نهتد إلى المقصودة، ولم يقل « تشابهت، لأن
المراد جنس البقر أو لتذكير لفظ البقر كقوله تعالى: « أعجاز نخل منقعر،
« وإنا إن شاء الله لمهتدون، إلى وصفها، وفي الحديث لو لم يستثنوا لما بينت
لهم آخر الأبد.

والآية الخامسة هي قوله تعالى: « قال، موسى « إنه، أي ربي « يقول
إنها بقرة لاذلول، أي غير مذللة بالعمل « تثير الأرض، تقلبها للزراعة والجملة
صفة ذلول داخلة في النبي « ولا تسقى الحرث، أي الأرض المهيئة للزراعة
ولا الثانية مزيدة لتأكيد الأولى والفعالان صفتا ذلول كأنه قال لا ذلول مثيرة
وساقية، « مسلية، من العيوب وآثار العمل « لاشية، أي لا يكون فيها سوى لون
جميع جلدها، قال مجاهد: لا يبيض فيها ولا سواد « قالوا الآن جئت، أي
نطقنا « بالحق، أي بالبيان الشافي الذي لا إشكال فيه فطلبوها فوجدوها عند
هذا الفتى البار بأمنه فاشتروها على ملء جلدها ذهباً كما قال الملك، وقوله تعالى:
« فذبحوها، فيه اختصار والتقدير فصلوا على البقرة المنعوتة فذبحوها « وما كادوا،
أي ما قاربوا « يفعلون، لتطويلهم وكثرة مراجعتهم أو لخوف الفضيحة في
ظهور القاتل أو لغلاء ثمنها « ولا ينافي قوله وما كادوا يفعلون قوله فذبحوها
لاختلاف وقتيهما « إذ المعنى ما قاربوا أن يفعلوا حتى انتهت سؤالاتهم
وانقطعت تعللاتهم ففعلوا كالمضطر الملجأ إلى الفعل.

والآية السادسة هي قوله تعالى: « وإذا قتلتم نفساً، والخطاب فيها للجميع
لوجود القتل فيهم « فادارأتم، أي تخاصمتم وتداقمتم « فيها، أي في شأنها إذ

المتخاصمان يدفع بعضهم بعضا أى تدافعتم بأن طرح كل قتلها عن نفسه الى صاحبه « والله مخرج ، أى مظهر » ما كنتم تكتمون ، فان القاتل كان يكتم القتل .

والآية السابعة « فقلنا اضربوه ، أى القتل ، عطف على « ادارأتم ، وما بينهما اعتراض ، والضمير للنفس ، وتذكير الضمير على تأويل الشخص أو القتل » ببعضها ، أى بعض البقرة ؛ واختلفوا فى ذلك البعض فقال ابن عباس رضى الله عنهما وأكثر المفسرين : ضربوه بالعظم الذى يلى الغضروف وهو ما لان من العظام ، وقال مجاهد وسعيد بن جبير : بعجب الذنب لأنه أول ما يخلق وآخر ما يبلى ويركب عليه الخلق » وقال الضحاك بلسانها قال الحسين بن الفضل لأنه آلة الكلام ، وقال عكرمة والكلبى بفخذها الأيمن ، وقيل بعضو منها لا بعينه ، ففعلوا ذلك فقام القتل حيا بإذن الله تعالى وقال قتلى فلان ثم سقط ومات مكانه فحرم قاتله من الميراث وقتل

قال تعالى : « كذلك ، الإحياء » يحيى الله الموتى ، والخطاب لمن حضر حياة القتل أو نزول الآية ، « ويزيكم آياته ، أى دلائل قدرته » لعلمكم تعقلون ، لى يكمل عقلكم وتعلموا أن من قدر على إحياء نفس قدر على إحياء الأنافس كلها فتؤمنون ، قال البيضاوى : ولعله تعالى إنما لم يحيه ابتداء وشرط فيه ما شرط لما فيه من التقريب وأداء الواجب ونفع اليتيم والشفقة على الأولاد ، وأن من حق الطالب ، أن يقدم قربته والمتقرب أن يتحرى الأحسن ويغالى بشمه .

والآية الثامنة هى موضع العبرة من القصة وهى تدل دلالة واضحة على أخلاق بنى إسرائيل وعنادهم ، قال تعالى : « ثم قست قلوبكم ، أيها اليهود أى صلبت من قبول الحق لأن القساوة عبارة عن الغلظ مع الصلابة كما فى الحجر ، وقساوة القلب مثل فى بعده عن الاعتبار ، وثم لاستبعاد القسوة عن الأحياء لا للتراخي فى الزمان على معنى أنه يعبد عن العاقل قسوة القلب بعد ظهور تلك الآية العظيمة » من بعد ذلك ، المذكور من إحياء القتل وما قبله من الآيات ، فإن ذلك مما يوجب ابن القلب « فهى كالحجارة ، فى قسوتها » أو أشد قسوة .

من الحجارة ، وقيل أو بمعنى الواو كقوله : « مائة الف أو يزيدون ، وإنما لم يشبهها بالحديد مع أنه أصلب من الحجارة لأن الحديد قابل للين فانه يلين بالنار وقد لان لناود عليه الصلاة والسلام ، والحجارة لا تلين قط ، ثم فضل الحجارة على القلب القاسى ، فقال : « وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار ، أى من بعض الحجارة كماء الينابيع المتفجر من الصخور وقيل أراد به الحجر الذى كان يضرب عليه موسى للأسباط ، وإن منها لما يشقق فيخرج منه ، أى من وسطه ، الماء ، عيون نادون الأنهار ، وإن منها لما يهبط ، أى ينزل من أعلى الجبل إلى أسفله ، من خشية الله ، أو المراد الجبال العالية التى تهبط فى بطن الأرض بتأثير البراكين وغيرها .. وقلوبكم لا تتأثر ولا تلين ولا تخشع بامعشر اليهود ، قيل الحجر جماد لا يفهم فكيف يخشى ، فالجواب أن الله يفهمه ويلهمه فيخشى بالهامه . قال البغوى : ومذهب أهل السنة أن الله تعالى علما فى الجمادات وسائر الحيوانات سوى العقلاء لا يقف عليها غيره ، فلها صلاة وتسبيح كما قال جل ذكره « وإن من شئ إلا يسبح بحمده ، وقال تعالى : « ألم تر أن الله يسجد له من فى السموات ومن فى الأرض والشمس والقمر ، الآية ، فيجب على المرء الإيمان به ويكل إليه إلى الله سبحانه وتعالى .

روى البخارى عن جابر أنه قال كان النبي ﷺ إذا خطب استند إلى جذع نخلة من سوارى المسجد فلما صنع له المنبر فاستوى عليه اضطربت تلك السارية وحنّت كحنين الناقة حتى سمعها أهل المسجد حتى نزل رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاعتقها فسكنت ، وقال مجاهد لا ينزل حجر من أعلى إلى أسفل إلا من خشية الله ويشهد لذلك قوله تعالى : « لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيت خاشعا متصدعا من خشية الله ، .. وما الله بغافل ، أى بساه ، عما تعملون ، وعيد وتهديد ، وقيل بتارك عقوبة ما تعملون فيجازيكم به .

فى هذه الآيات الثمان يقص الله عز وجل قصة لتعنت بنى إسرائيل مع رسولهم موسى عليه السلام ، ويبين قسوة قلوبهم ، وانصرافهم عن الحق ، وتماديتهم فى الضلال ، ويمثل قلوبهم فى قسوتها بالحجارة . أو هى أشد منها قسوة .

فقد وصف الله عز وجل في هذه الآيات الثمان حال بني إسرائيل - بعد أنه
رأوا من آياته التي آتاها موسى عليه السلام مارأوا ، كانهجار الماء ورفع الجبل
ومسخهم قردة وخنزير وإحياء القتيل إلى نحو ذلك - ووصفهم بقساوة
القلوب وضعف الوازع الديني فيها حتى أصبحت كالصم الصلاد ، بل أشد منها
قسوة ، فلا أثر فيها لعاطفة ولا شعور لها بعظة ، فقد فقدت التأثر والانفعال ،
وكان أصحابها هبطوا من درجة الحيوان إلى دركات الجماد كالحجارة ، بل نزلوا
إلى ما دونها ، فإن من الحجارة ما يتأثر فيشقه الماء العذب الزلال الذي يسيل
أنهارا وجداول وعيونا يستقي منها الإنسان والحيوان ويحيى الأرض وينفع
النبات ، ومنها ما ينحط من أعلى الجبل ، أو من أثنائه بحادث من حوادث
الكون الهائلة كالبراكين والزلازل والصواعق التي تدك الصخور وتدمر
الحصون . . أما هذه القلوب فلم تتأثر بالعظات والعبر ولم تستطع تلك النذر
أن تشقها وتتفد إلى أعماق الوجدان فيها ، وصارت لا تهزها الآيات الكونية
الرهيبه التي أظهرها الله على يد نبيه ، فقد كانوا مع كل ما يرونه لا يزدادون
إلا عنادا ، وعتوا في الأرض وفسادا .

وبهذه الآيات ينتهي الربع الرابع من سورة البقرة ، وفيه جوانب من
من تاريخ بني إسرائيل - اليهود - مع نبيهم موسى عليه السلام ، وتصوير
لجحودهم وتماديهم في الجدل والعناد ، وبعدهم عن قبول الحق والإذعان له ،
ويبدأ بعد هذه الآيات الربع الخامس من سورة البقرة .

وفي هذه الآيات تصوير لقبول الحجارة لسنن الله التي يجريها عليها ،
فيتفجر الماء من بعضها ، ويخرج من بعضها الآخر ، ويهبط بعضها كذلك إلى
أسفل من خشية الله . أما قلوب اليهود فلا تتأثر ولا تلين ، إنها في
ضلال ميين .

٧٥ - أَفَتَطْمَعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ

كَلِمَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِن بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَسْلَمُونَ

٧٦ - وَإِذَا لَقُوا الَّذِينَ ءَامَنُوا قَالُوا ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَا بِمَعْشُرِهِمْ إِلَى
بَعْضٍ قَالُوا أَتُحَدِّثُونَهُمْ بِمَا فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ لِيُحَاجُّوكُمْ بِهِ
عِنْدَ رَبِّكُمْ أَفَلَا تَعْقِلُونَ

٧٧ - أُولَآئِكَ يَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ

٧٨ - وَمِنْهُمْ أُمِّيُونَ لَا يَعْلَمُونَ الْكِتَابَ إِلَّا أَمَانِيٌّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا
يَظُنُّونَ

٧٩ - فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ يَكْتُمُونَ الْكِتَابَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَذَا
مِنْ عِنْدِ اللَّهِ لِيُشْتَرَوْا بِهِ تَمَتًّا قَلِيلًا فَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا كَتَبَتْ
أَيْدِيهِمْ وَوَيْلٌ لَهُمْ مِمَّا يَكْسِبُونَ

٨٠ - وَقَالُوا لَنْ نَمَسَّ النَّارَ إِلَّا أَيَّامًا مَعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ
اللَّهِ عَهْدًا فَلَنْ يُخْلِفَ اللَّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ مَا
لَا تَعْلَمُونَ

٨١ - بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُولَٰئِكَ
أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

٨٢ - وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ
هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ

ثمان آيات أخرى فيها تصوير لجحود بني إسرائيل وعنادهم ونفاقهم
وصدودهم عن الدين الحق ، دين الإسلام ، دين القيمة ، وفيها ذكر لتحريف
علمائهم لمكلام الله عن عمد وعلم بأثر ذلك ، مع أمية بعض اليهود وقبولهم لما

يلقيه كهانهم عليهم من باطل وزور، وتبين لاقتراثهم على الله، وتقرير لأن الجزاء عند الله إنما هو على قدر العمل، فمن كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فهو في النار، ومن آمن وعمل صالحا فهو في النعيم والرضوان.

لقد كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه شديدي الحرص على دخول اليهود في ساحة الدين الجديد طامعين في انضوائهم تحت لوائه، لأن دينهم أقرب الأديان إلى الإسلام في تعاليمه ومبادئه وأغراضه، فهم يشركونهم في الاعتماد بالتوحيد والتصديق بالبعث والنشور، وكتابتهم مصدق لما معهم؛ فقص الله في هذه الآيات على المؤمنين من أنبيائهم ما أزال به أطماعهم وأياسهم من إيمانهم، بذكر ما كان يحدث من أسلافهم مع نبيهم مرسى صلوات الله عليه بين آن وآخر من تمرد وعناد وجحود وإنكار، فأنيهم الآية تلو الآية ويحل بهم من العقاب ما هم له أهل، فيطلبون من موسى أن يدعو الله ليرفع عنهم العذاب ويستجيروا لدعوته، حتى إذا ما رفعه عنهم عادوا سيرتهم الأولى معاندين جاحدين، وقد بلغ من عنادهم أن قالوا له: لا نصدق بك ولا نطيع أوامرك حتى نسمع كلام الله ومناجاته إياك، فاختر موسى بأمر الله سبعين رجلا منهم لسماع الوحي ومصاحبته إلى حيث يناجي ربه، فسمعوا كلامه بطريق نحن لا نعرفها ولا نذكر كنهها، واستيقنوا مناجاته ربه وسمعوا أوامره ونواهيها، ثم كان منهم أن حرفوا كلام الله الذي حضروا وحيه وصرفوه عن وجهه بالتأويل والتحريف، وهذا مثبت عندهم في التوراة وهي كتابهم المقدس. فلا عجب إذا في إعراض الحاضرين عن هدى الله الذي جئت به يا محمد. فالمعارضة والاستكبار دأبهم ورثوهما من أسلافهم الذين كانوا يحرفون ويبدلون ويكابرون وهم يشاهدون الدلائل الحسية تترى بين يدي موسى عليه السلام، فأحربهم أن يحدوا دينا دلالة عقلية وآيته الكبرى معنوية وهي القرآن الكريم بما اشتمل عليه من تشريع فيه سهولة وتيسير للناس، وفيه فصاحة أعجزت فصحاء العرب عن محاكاته، فلجئوا إلى السيف والسنان بعد أن أعجزتهم الحجة والبرهان، ثم ذكر حالا أخرى لهم هي أن علماءهم وقعوا في

الخيرة والاضطراب حين مجيء الدين الجديد؛ أيتبعونه ولكن ربما خذله أتباعه، أم يحتفظون بالقديم ولكن ربما كسدت سوقه وقل أنصاره، وقالوا من الخير كل الخير أن نوافق كل حزب نخلو به ونعتذر إلى الحزب الآخر إذا عرف ما كان منا حتى يتبين اتجاه ربح السفينة. أما عامتهم فلا علم لهم بشيء من الكتاب، وما عندهم من الدين إلا ظنون أخذوها من أسلافهم دون أن يكون لديهم دليل على صحتها أو فسادها. ومثل هذا لا يسمى علما، وإنما العلم ما كان عن حجة وبرهان. ولا يقبل الله إلا العلم الصحيح في عقائد الأديان.

ثم ذكر سبحانه في هذه الآيات ضربا من ضروب غرورهم وصلاحهم وادعائهم أنهم شعب الله المختار، وأنهم أبناء الله وأحبائه، فهو لا يعذبهم دوما بل يعذبهم تعذيب الأب ابنه والحبيب حبيبه وقتاً قصيراً ثم يرضى عنهم. قال تعالى: «أفتطمعون، أي أفترجون أيها المؤمنون، وفي مقدمتكم محمد رسواكم الأمين؛ «أن يؤمنوا، أي اليهود، «لكم، أي لأجل دعوتكم أو يصدقوكم بما تخبرونهم به. «وقد كان فريق منهم، أي طائفة منهم، وهم أحبارهم وكهانهم، «يسمعون كلام الله، أي التوراة ثم يحرفونه، أي يغيرونه، من مثل: نعت محمد صلوات الله عليه، ومن مثل آية الرجم. وقيل هؤلاء من السبعين المختارين سمعوا كلام الله حين كلم موسى عليه الصلاة والسلام بالطور، ثم قالوا: سمعنا الله يقول في آخره إن استطعتم أن تفعلوا هذه الأشياء فافعلوا وإن شئتم فلا تفعلوا. «من بعد ما عقلوه، أي فهموه بحقوهم ولم يبق لهم فيه ريبة، «وهم يعلمون، أنهم مفترون. والهمزة في «أفتطمعون، للتعجب، أو هي للإنكار أي لا تطمعون في إيمانهم فلهم سابقة في الكفر.

ومعنى هذه الآية، وهي الآية الأولى من الآيات الثمان أن اليهود لا يمكن أن يطمع في إيمانهم بالإسلام، بل أنهم لم يؤمنوا بدينهم حق الإيمان، حتى أحبارهم وكهانهم، الذين كان فريق منهم يعرفون التوراة عن علم ولكنهم حرفوها وغيروا فيها عن عمد.

والآية الثانية وهي قوله تعالى : « واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، أى اذا لقي منافقو اليهود المؤمنين نافقوهم وأعلنوا أنهم مؤمنون مثلهم ، وأنهم يعتقدون أن المرءنين على الحق ، ورسولهم هو المبشر به فى التوراة . « واذا خلا ، أى رجع » بعضهم الى بعض قالوا ، أى رؤساؤهم الذين لم ينافقوا ككعب ابن الأشرف وكعب بن أسد ووهب بن يهود لمن نافق » اتحدثونهم ، أى المؤمنين » بما فتح الله عليكم ، أى بما بين لكم فى التوراة من نعت محمد صلى الله عليه وسلم » ليحاجوكم ، أى ليخاصموكم » به عند ربكم ، أى بما أنزل ربكم فى كتابه ويقيموا عليكم الحججة بترك اتباعه مع علمكم بصدقه ، جعلوا حاجتهم بكتاب الله حاجة عند الله كما يقال عند الله كذا ويراد به أنه فى كتابه وحكمه وقيل بين يدي رسول ربكم وقيل عند ربكم فى الآخرة . وقوله تعالى : « أفلا تعقلون ، إما من تمام كلام اللأئمين وهم خالص اليهود وتقديره أفلا تعقلون أنهم محاجوكم فيحججونكم وإما خطاب من الله للمؤمنين متصل بقوله أفنطمعون ، والمعنى أفلا تعقلون حالهم وأنه لا مطمع لكم فى إيمانهم .

والآية الثالثة تدل على شمول علم الله عز وجل لكل ما ظهر وما خفى . « أو لا يعلمون ، أى اللأئمون أو المنافقون أو كلاهما ، « أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ، من إسرارهم للكفر وإعلانهم للإيمان وإخفاء ما فتح الله عليهم واظهار غيره وغير ذلك فيرعوا عن ذلك ،

والآية الرابعة بيان لأمية طبقة الكهان اليهود وإضلالهم الناس » ومنهم » أى اليهود » أميون ، أى عوام جهلة » لا يعلمون الكتاب ، أى لا يعرفون التوراة ، أو الكتابة فيطالعون التوراة ، ويتحققون ما فيها . وقوله تعالى : « إلا أماني ، أى لكن أكاذيب تلقوها من رؤسائهم فاعتمدوها » وان هم ، أى ما هم » إلا ، قوم » يظنون ، ظنا لا علم لهم ، وقد يطلق الظن بإزاء العلم على كل رأى واعتقاد من غير دليل قاطع وان جزم به صاحبه كاعتقاد المقلد . وكالزائغ عن الحق بسبب شبهة قامت عنده .

والآية الخامسة بيان لجزائهم الشديد عند الله ، وعقابهم الأليم الذى سوف .

ينالونه ، فويل ، الويل الهلاك ، وقال ابن عباس رضى الله تعالى عنه هو
شدة العذاب . وقيل الويل واد في جهنم يعذب فيه العصاة والكافرون ،
« للذين يكتبون الكتاب ، أى المحرف من التأويلات الزائفة » بأيديهم ،
تأكيد كقوله كتيبه يميني « ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ،
من الدنيا وهم اليهود غيروا صفة النبي صلى الله عليه وسلم في التوراة وآية الرجم
وغيرها فكتبوها على خلاف ما أنزل ، وغيروا آية الرجم بالجلد » فويل
لهم مما كتبت أيديهم ، من المحرف « وويل لهم مما يكسبون » من أموال
حرام كالرشوة .

وقى الآية السادسة تمكم « وسخرية من اليهود وصديهم » وقالوا ، أى اليهود
لما وعدهم النبي صلى الله عليه وسلم النار « لن تمسنا ، أى نصيننا » النار إلا
أياما معدودة ، محصورة قليلة ثم كذبهم الله تعالى بقوله : « قل ، لهم يا محمد
« أتخذتم ، حذف منه همزة الوصل استغناء بهمزة الاستفهام » عند الله عمدا ،
أى ميثاقاً مؤكداً ، أم تقولون على الله ما لا تعلمون ، أى بل تقولون على
التقرير والتفريع .

والآية السابعة فيها بيان لاستحقاقهم العذاب كغيرهم من العصاة الجاحدين
فكل إنسان يدان بعمله ، يجازى على ما كسب من سيئات وكفر وعناد ، « بل »
إثبات لما نفوه من مساس النار لهم فإن بلى وبلى حرف استدراك ومعناها نفي
الخبر الماضى وإثبات الخبر المستقبل أى بل تمسكم وتخلدون فيها ، من كسب
سيئة ، أى قبيحة ، وأحاطت به خطيئته ، وقرأ نافع خطيئاته ، أى استولت
عليه وشملت جميع أحواله حتى صار كالمحتاط بها لا يخلو عنها شيء من جوانبه
وهذا يصح في شأن الكافر إذ غيره وإن لم يكن له سوى تصديق قلبه وإقرار
لسانه فإن الخطيئة لم تحط به ، ولذلك فسرها السلف بالكفر وقيل السيئة
الكبيرة والإحاطة أن يصر عليها لأن من أذنب ذنبا وارتكب ما هو أكبر
منه حتى تستولى عليه الذنوب وتأخذ بمجامع قلبه فيصير بطبعه مائلا إلى المعاصي
مستحسنا إياها معتقدا أن لا لذة سواها مبغضا لمن يمنعه عنها مكذبا لمن ينصحه بالبعد

عنها كما قال تعالى « ثم كان عاقبة الذين أساءوا السوءى أن كذبوا بآيات الله ، والفرق بين السيئة والخطيئة أن السيئة قد تقال فيما يقصد بالذات والخطيئة تغلب فيما يقصد بالعرض لأنها من الخطأ والسكسب استجلاب النفع وتعليقه بالسيئة على التهم كقوله تعالى فبشره بعذاب أليم « فأولئك أصحاب النار ، أى يلازمونها فى الآخرة كما أنهم ملازمون لأسبابها « هم فيها خالدون ، أى دائمون روعى فيه معنى من ، والآية كما ترى لا حجة فيها على خلود صاحب الكبيرة لأنها فى الكافر كما مر .

والآية الثامنة تقرير لمنزلة طائفة أخرى عند الله تعالى وهم أعداد أولئك من المؤمنين الصادقين فى الإيمان ، الذين استحقوا رضاء الله و ثوابه وجناته ، وفى ذلك بيان للفرق بين طبقة الكافرين والمؤمنين ، وللأشقياء والسعداء ، وحث للعامل لى يعمل عمل أهل السعادة .. « والذين آمنوا وعملوا الصالحات أولئك أصحاب الجنة هم فيها خالدون ، فلقد جرت عادته سبحانه على أن يتبع وعده بوعيده لترجى رحمته ويخشى عذابه ، وعطف العمل على الإيمان يدل على أن « يعمل ، لى داخلا فى مفهوم الإيمان .

والمعنى أولئك جديرون بدخول الجنة جزاء وفاقا على إخبارهم لربهم وإفابتهم إليه وإخلاصهم له فى السر والعلن . وفى هذا دليل على أن دخول الجنة منوط بالإيمان الصحيح والعمل الصالح كما روى أن النبى صلى الله عليه وسلم قال لسفيان بن عبد الله الثقفى وقد قال له : يا رسول الله ، قل لى فى الإسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك ، قال : قل آمنت بالله ثم استقم رواه مسلم .

٨٣ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسْكِينِ وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ

٨٤ - وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ

أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ ثُمَّ أَفْرَرْتُمْ وَأَنْتُمْ تُشْهِدُونَ

٨٥ - ثُمَّ أَنْتُمْ هَؤُلَاءِ تَقْتُلُونَ أَنْفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِنْكُمْ

مِنْ دِيَارِهِمْ تَطَاهَرُونَ عَلَيْهِمْ بِالْإِثْمِ وَالْمُدُونِ وَإِنْ يَأْتُوكُمْ

أَسْرَى فَتُؤَدُّوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ أَفَتُؤْمِنُونَ

بِإِعْتِصَامِ الصَّخْرَةِ وَالشَّجَرِ وَالْحِجَابِ وَمَا جَاءَ مِنْ يَمِينٍ

ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا حِزْبٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ

يُرَدُّونَ إِلَىٰ أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ

٨٦ - أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالْآخِرَةِ فَلَا يَخَفُ

عَنْهُمْ الْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

أربع آيات كريمة فيها بيان لصنيع بني إسرائيل في عصر موسى وفي عصر
نبينا محمد عليه السلام ، من إعراضهم عن العمل بما فرض عليهم من شرائع
وواجبات ، ومن سفكهم للدماء ، واعتدائهم على حقوق المسالمين الوادعين
« وإيمانهم ببعض التوراة وكفرهم ببعضها ، إلى غير ذلك من سوء صنيعهم ،
وقبيح أعمالهم ، البالغة في العناد والكفر والضلال ، مبلغا كبيرا ، ولم كان لهم
من سيئات وإساءات في عصر نبينا عليه السلام ، فهذا كعب بن الأشرف يسرف
في إيذاء المسلمين حتى يقول فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : من لكعب بن
الأشرف فإنه قد آذى الله ورسوله فقام محمد بن مسلمة فقال يا رسول الله أتحب
أن أقتله قال نعم قال فأذن لي أن أقول شيئا قال قل ، فأناه محمد بن مسلمة فقال إن
هذا الرجل قد سألنا صدقة وإنه قد عنانا وإني قد أتيتك أستسلفك قال وأيضا
والله لتملته قال إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شيء بصير شأنه

وقد أردنا أن تسلفنا وسقا أو وسقين فقال نعم ارهنوني قالوا أى شيء تريد قال ارهنوني نساءكم قالوا كيف زهنتك نساءنا وأنت أجمل العرب قال فارهنوني أبناءكم قال كيف زهنتك أبناءنا ، فيسب أحدهم فيقال رهن بوسق أو وسقين هذا عار علينا ولكننا زهنتك اللامة فواعده أن يأتيه فجاءه ليلا ومعه أبو نائلة وهو آخر كعب من الرضاة فدعاهم إلى الحصن فنزل إليهم فقالت له امرأته : أين تخرج هذه الساعة ؟ فقال : إنما هو محمد بن مسلمة وأخي أبو نائلة قالت : إني أسمع صوتا كأنه يقطر منه الدم ، قال : إنما هو أخى محمد بن مسلمة ورضيحي أبو نائلة ، إن الكريم لو دعى إلى طعنة بليل لأجاب ، قال : ويدخل محمد بن مسلمة معه رجلين وفي رواية أبو عيس بن جبر والحارث بن أوس وعباد بن بشر فقال : إذا ما جاءني فإني قاتل بشعره فأشبهه فإذا رأيتموني استمكنت من رأسه فدوونكم فاضربوه وقال مرة ثم أشمكم فنزل إليهم متوشحا وهو ينفخ منه ريح الطيب فقال : ما رأيت كالسيوم ريجا أى أطيب ، فقال : عندي أعطر نساء العرب وأكل العرب فقال : أتأذن لي أن أشم رأسك ؟ قال : نعم ، فشمه ثم أشم أصحابه ثم قال : أتأذن لي ؟ قال : نعم ، فلما استمكن منه قال : دوونكم ، فقتلوه ، ثم أتوا النبي صلى الله عليه وسلم فأخبروه .

وهذا أبو رافع اليهودى بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إليه رجالا من الأنصار فأمر عليهم عبد الله بن عتيك وكان أبو رافع يؤذى رسول الله ﷺ ويعين عليه وكان في حسن له بأرض الحجاز فلما دنوا منه وقد غربت الشمس وراح الناس بسرهم فقال عبد الله لأصحابه اجلسوا مكانكم فإني منطلق ومتلطف للبواب لعلى أن أدخل فأقبل حتى دنا من الباب ثم تقنع بثوبه كأنه يقضى حاجة وقد دخل الناس فهتف به البواب يا عبد الله ان كنت تريد أن تدخل فادخل فإني أريد أن أغلق الباب فدخلت فكلمت فلما دخل الناس أغلق الباب ثم علق الاغاليق على وتد قال فقمت إلى الاغاليق فأخذتها ففتحت الباب وكان أبو رافع يسمر عنده وكان في علابى له فلما ذهب عنه أهل سمره صعدت إليه فجعلت كلها فتحت بابا أغلقت على من داخل قلت ان القوم نذروا

بني لم يخلصوا إلى حتى أقتله فانتبهت إليه فاذا هو في بيت مظلم وسط عياله لا أدري أين هو من البيت فقلت أبارافع فقال من هذا فأهويت نحو الصوت فأضربه ضربة بالسيف وأنا دهش فما أغنيت شيئاً وصاح فخرجت من البيت فأمكنك غير بعيد ثم دخلت إليه فقلت ما هذا الصوت يا أبارافع فقال لأمك الويل إن رجلا في البيت ضربني قير بالسيف فأضربه ضربة أمخنته ولم أقتله ثم وضعت خلبة السيف في بطنه حتى أخذ في ظهره فعرفت أني قتلته فجعلت أفتح الأبواب بابا بابا حتى انتهيت إلى درجة له فوضعت رجلي وأنا أرى أني قد انتهيت إلى الأرض فوقعت في ليلة مقمرة فانكسرت ساقى فعصبتها بعمامة ثم انطلقت حتى جلست على الباب فقلت لا أخرج الليلة حتى أعلم أقتلته فلما صاح الديك قام الناعي على السور فقال أنعي أبارافع تاجر أهل الحجاز فانطلقت إلى أصحابي فقلت النجاء فقد قتل الله أبارافع فانتبهت إلى النبي ﷺ فحدثته فقال لي ابسط رجلك فبسطت رجلي فمسحها فكأنها لم اشتكها قط .

وفي الآية الأولى من هذه الآيات الأربع تذكير بأهم ما أمر الله جل جلاله به أسلافهم من عبادات ومعاملات ، ثم ما كان منهم من إهمالها وترك اتباعها ، وقد كرر ذلك أيضاً فيما يلي ، لأن المقام يحتاج إلى الإطناب والبسط ، ولأن القلوب مستحجرة لا ينمذ شعاع الحق في أكثافها ، وأذهانهم كليله فهي في حاجة إلى التكرار بين آن وآخر ، لعلها ترجع إلى رشدها . وقد خوطب النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنون بهذا ليؤديهم التأمل في أحوالهم إلى قطع الطمع في إيمانهم ، لأن قبائح أسلافهم تمنعهم من الهدى والرشاد قال حكيم : « إذا طاب أصل المرء طابت فروعه » .

والآية الأولى : « وإذا أخذنا ميثاق بني إسرائيل ، فيها تذكير لهؤلاء المعاصرين للرسول الأعظم بقصة أجدادهم وكفرهم وعنادهم ، والميثاق المأخوذ عليهم هو ما أخذ عليهم في التوراة من عهد والتزام لشريعة موسى ، والميثاق العهد الشديد المؤكد ، وقد أخذ هذا العهد عليهم على لسان موسى وأنبياء بني إسرائيل ؛ والعهد قسيمان : عهد خلقه وفطرة ، وعهد نبوة ورسالة ، والمراد

هنا عهد الرسالة الذي أخذه عليهم على لسان أنبيائهم، أى واذكر أيها الرسول حين أخذنا عليهم الميثاق، وليس المراد بالذكر زمن الميثاق، وإنما المراد الميثاق نفسه .

والآية الثانية « لا تعبدون إلا الله ، بيان للميثاق يقال أخذت عليك عهداً تفعل كذا ، وأن تفعل كذا ، ويرد مثل هذا الخبر في كلامهم متضمناً معنى النهى أو الأمر كما تقول : تذهب إلى فلان وتقول له كيت وكيت ، على معنى اذهب وقل له .. وفي هذا الأسلوب القرآنى مبالغة وتوكيد كأن المخاطب سيمثل النهى حتماً ويسارع إلى الترك فيخبر الناهى به ، أى لا تعبدوا إلا الله ، وقد نهوا عن عبادتهم غير الله مع أنهم كانوا يعبدون الله خوفاً من أن يشركوا به سواء من ملك أو بشر أو صنم بدعاء أو غيره من أنواع العبادات . ودين الله على السنة الرسل جميعاً فيه الحث على عبادة الله وعدم الشرك بعبادة أحد سواه « واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، فالتوحيد عماده الأمران معاً .

وقوله تعالى « لا تعبدون ، إخبار فى معنى النهى وهو أبلغ من النهى الصريح لما فيه من إيهام أن المنهى مسارع إلى الانتهاء فهو مخبر عنه ، وقوله تعالى : « وبالوالدين إحساناً ، أى برا بهما و إعطفا عليهما ونزولاً عند أمرهما فيما لا يخالف أمر الله تعالى ، وإحساناً منصوب على المصدر المؤكد لعامله أى « وتحسنون ، أو « وأحسنوا ، . وتقديم الوالدين لمزيد الاهتمام بهما ، وأن الإحسان يجب أن يكون لها أولاً قبل غيرهما ، لما لهما من فضل كبير على الابن . « وذى القربى ، أى القرابة « واليتامى والمساكين ، عطف على الوالدين ، واليتامى جمع يتيم وهو الطفل الذى لا أب له كنديم وندامى وهو قليل ، ومسكين مفعيل من السكون كأن الفقر مسكنه « وقولوا للناس حسناً ، من الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصدق فى شأن محمد صلى الله عليه وسلم والرفق بهم وقيل هو اللين فى القول والمعاشرة بحسن الخلق وقرأ حمزة والكسائى بفتح الحاء والسين والباقون بضم الحاء وسكون السين مصدرار ووصف به مبالغة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، قال الفيضاوى : يريد الله عز وجل بهما ما فرض عليهم فى ملتهم

ثم توليتم ، في هذا التفات عن الغيبة ، قال البيضاوي : ولعل الخطاب مع الموجودين منهم في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ومن قبلهم على التغليب أي عرضتم عن الميثاق ورفضتموه ، إلا قليلا منكم ، أي وهو من أقام اليهودية على وجهها قبل النسخ ومن أسلم منهم ، وأتم معرضون ، أي عادتكم الإعراض عن الموائيق كما عرض آباءكم .

والآية الثانية : « وإذ أخذنا ميثاقكم ، أي اذكروا ذلك واعتبروا به .. وقتلنا ، لا تسفكون دماءكم ، أي تريقونها بقتل بعضكم بعضا . « ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، أي لا تخرج بعضكم بعضاً من داره وإنما جعل غير الرجل نفسه لاتصاله به نسياً أو دينا ، وقيل لا تفعلوا ما يردكم ويصرفكم عن الحياة الأبدية فإنه القتل في الحقيقة ولا تقترفوا ما تمنعون به عن الجنة التي داركم . ثم أقررتهم ، بهذا العهد أنه حق وقبلتم ، وأتم تشهدون ، على أنفسكم ، هذا توكيد كقوله أقر فلان شاهداً على نفسه . وقيل أتم أيها المشهودون تشهدون على إقرار أسلافكم فيكون إسناد الإقرار إليهم مجازاً .

والآية الثالثة نعى عليهم بضياع أعمالهم ، ثم أتم ، يا هؤلاء تقتلون أنفسكم ، فيه استبعاد لما ارتكبه بعد الميثاق والإقرار والشهادة عليه ، أي ثم بعد ذلك يقتل بعضكم بعضاً ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون ، قرأ عاصم وحزمة والكسائي بتخفيف الظاء والباقون بتشديدها أي تتعاونون ، « عليهم بالآثم ، أي المعصية والعدوان ، أي الظلم ، « وإن يأتوكم أسارى ، قرأ حمزة بفتح الهمزة وسكون السين ولا الف بعد السين ، والباقون بضم الهمزة وفتح السين والف بعدها ، تفادوهم ، أي تنقذونهم من الأسر بالمال أو غيره ، وقوله تعالى : « وهو ، أي الشأن ، محرم عليكم إخراجهم ، متعلق بقوله تعالى : « وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم ، وما بينهما اعتراض ، ومعنى الآية أن الله أخذ على بني إسرائيل العهد في التوراة أن لا يقتل بعضهم بعضاً ولا يخرج بعضهم بعضاً من ديارهم وترك المظاهرة عليهم مع أعدائهم ، وأما عبد أو أمة وجدتموه من بني إسرائيل أسيراً فاشتروه بما قام من ثمنه وأعتقوه وكانت قريظة حالقوا

الأوس وحالفت النضير الخزرج فكان كل فريق يقاتل مع حلفائه ويخرب ديارهم ويخرجهم منها ، فإذا أسروا أحدا فدوه وكانوا إذا سئلوا : لم تقاتلوهم وتقذونهم ؟ قالوا أمرنا بالفداء ، فيقال : فلم تقاتلوهم فيقولون حياء أن يستدل حلفاؤنا فعيرهم الله تعالى بقوله : « افتؤمنون ببعض الكتاب ، وهو الفداء » وتكفرون ببعض ، وهو ترك القتل والإخراج والمظاهرة .

وفي التعبير عن المخالفة والمعصية بالكفر - كما يقول الإمام محمد عبده - دليل على أن من يقدم على الذنب لا يتألم ولا يندم بعد وقوعه ، بل يسترسل فيه بلا مبالاة بنهى الله عنه وتحريمه له ، فهو كافر به ، وهذا هو الوجه في الأحاديث الصحيحة نحو : « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن .. » فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب . هذا وعيد من الله لهم على نقضهم الميثاق - الذي جعلهم أمة واحدة ذات شريعة هي رباط وحدتهم - بخزي عاجل في الحياة وعذاب آجل في الآخرة ؛ وقد دلت المشاهدة على أن كل أمة تسق عن أمر ربها وتطرح أوامر دينها ورامها ظهريا يتفرق شملها وينزل بها عذاب الهون جزاء فساد أخلاقها وكثرة شرورها . أما من استقاموا على الطريقة وزكّت نفوسهم وصلحت أحوالهم فلهم عند ربهم نعم مقيم ، يرشد إلى ذلك قوله : « قد أفلح من زكاهم وقد خاب من دساها ، » وما الله بغافل عما تعملون ، فهو مجازيكم على ما اجترحتم من السيئات ، ولا يخفى ما في هذا من وعيد شديد وزجر عظيم .

وأما الآية الرابعة ففيها بيان لجرائم الأليم في الآخرة قال تعالى : « أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة ، أي أولئك الذين آثروا الحياة الدنيا واستبدلوها بالآخرة ، فقدموا حظوظهم في هذه الحياة على حظوظهم في الحياة الأخرى بما أهملوا من الشرائع وتركوا من أوامرها التي يعرفونها كما يعرفون أبناءهم كالاتصار للحليف المشرك ومظاهرتة على قومه الذين تجمعهم وإيائه رابطة الدين والنسب ، وإخراج أهله من دياره ابتغاء مرضاته . » فلا يخفف

عنهم العذاب ، يوم القيامة ، ولا هم ينصرون ، لأن أعمالهم قد سجلت عليهم
الشقاء ، وأحاطت بهم الخطايا من كل جانب ، فسدت عليهم باب الرحمة ،
وقطعت عنهم الفيض الإلهي ، فلا يجدون شافعا ينصرهم ، ولا وليا يدفع عنهم
ما حل بهم من النكال والوبال في جهنم وبئس القرار .

هذه الآيات الأربع فيها من سوء حال اليهود وكفرهم وعنادهم وطغيانهم
واقترابهم على الله ما فيها ، وبئس ما صنعوا وما كانوا يصنون .

٨٧ - وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ
وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ
أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمْ أَشْكَبْتُمْ ،
فَفَرِّقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِّقًا تَقْتُلُونَ

٨٨ - وَقَالُوا قُلُوبُنَا غُلْفٌ ، بَلْ لَعَنَهُمُ اللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَقَلِيلًا مَّا يُؤْمِنُونَ
٨٩ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا
مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا
كَفَرُوا بِهِ فَلَعْنَةُ اللَّهِ عَلَى الْكَافِرِينَ

٩٠ - بِئْسَمَا اشْتَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ أَنْ يَكْفُرُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِنَبِيِّهِ
أَنْ يُنَزَّلَ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ فَبَاءُوا
بِغَضَبٍ عَلَى غَضَبٍ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ مُهِينٌ

٩١ - وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا نُؤْمِنُ بِمَا أَنْزَلَ
عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ
قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنْبِيَاءَ اللَّهِ مِنْ قَبْلُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

٩٢- وَلَقَدْ جَاءَكُمْ مُوسَىٰ بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ اتَّخَذْتُمُ الْعِجْلَ مِن بَعْدِهِ
وَأَنْتُمْ ظَالِمُونَ

٩٣- وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا
مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ وَأَسْمِعُوا قَوْلًا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأَشْرَبُوا
فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُمْ بِهِ إِيمَانُكُمْ
إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ

سبع آيات كريمة فيها تصوير وأى تصوير لطبيعة نفوس اليهود الذين
مرفوا على الشقاق ، ودأبوا على الخلاف ، وآثروا الكفر . واختاروا
المعصية ، وآمنوا ببعض وكفروا ببعض ، وهى نفوس مريضة لا تؤمن
بفضيلة . ولا تهوى المثل الشريفة ، ولا تلوذ بالمنطق والعقل وحكم الفكر ،
وإنما تؤثر الشجب والهوى والخلاف .. وبئسما كانوا يفعلون .

أما الآية الأولى فتصور وحدة الدين تصوير رائعاً ، وأن اليهودى لمجرد
إيمانه باليهودية لا يصح أن يغفل ما نزل بعدها من الأديان ولا أن يظن أن
إيمانه باليهودية وحدها يعصمه من عذاب الله ، يقول الله تعالى : « ولقد آتينا
أى أعطينا » موسى الكتاب ، أى التوراة جملة واحدة « وقفينا من بعده بالرسل »
أى أتبعناهم رسولا فى أثر رسول كقوله تعالى : ثم أرسلنا رسلنا تترى يقال
قفاه إذا أتبعه إياه « وآتينا عيسى بن مريم البينات ، أى المعجزات الواضحات
كإحياء الموتى وإبراه الأكمة والأبرص والإخبار بالمغيبات ، أو الإنجيل وعيسى
بالعبرية يسوع ومريم بمعنى الخادم « وأيدناه ، أى قويناه » بروح القدس «
قرأ ابن كثير بإسكان الدال حيث جاء ، والباقون بضمها ، وهذا من إضافة
الموصوف إلى الصفة أى الروح المقدسة وهو جبريل وصف به لطهارته ،
وتأييده به أنه أمر أن يسير معه حيث سار حتى يصعد به السماء ، وقيل روح
عيسى عليه الصلاة والسلام ، ووصفها به لطهارته عن مس الشيطان أو لأنه لم

تضمنه الأصلاب والأرحام الطوامث من ذوات الحيض ، وقيل اسم الله الأعظم الذي كان يحيى به الموتى ، ولما سمعت اليهود ذكر عيسى عليه الصلاة والسلام قالوا يا محمد لا مثل عمل عيسى كما تزعم عملت ولا كاتقص علينا من فعل الأنبياء فعلت فأتنا بما أتى به عيسى إن كنت صادقا . فقال الله تعالى : « أفكلما جاءكم ، يأمعشر اليهود ، رسول بما لا تهوى ، أى تحب ، أنفسكم ، من الحق وقوله تعالى : « استكبرتم ، أى تكبرتم عن اتباعه وهو جواب كلها وهو محل الاستفهام والمراد به التوبيخ . « ففريقا ، أى طائفة « كذبتكم ، مثل موسى وعيسى عليهما الصلاة والسلام . « وفريقا تقتلون ، كزكريا ويحيى وذكر الفعل يلفظ المضارع على حكاية الحال الماضية ، استحضارا لها في النفوس .

والآية الثانية فيها ، قرار من اليهود على أنفسهم بالغباء وبالإصرار على العناد والكفر ، وقالوا ، للنبي استهزاء ، « قلوبنا غلف ، جمع أغلف ، مغشاة باغظية لا يتوصل إليها ما جئت به ولا تفقهه مستعار من الأغلف الذي لم يختن كقولهم ، قلوبنا فى أكنة مما تدعونا إليه ، والمعنى انها أوعية العلم لا تسمع علما إلا وعتة ولا تعى ما تقول ، أى فإنا تقول ليس بعلم ، أو نحن مستغنون بما فيها عن غيره ، ثم رد الله تعالى عليهم أن تكون قلوبهم كذلك بقوله تعالى : « بل ، اضراب ، لعنهم الله بكفرهم ، أى بسبب كفرهم . والمعنى أنها خلقت على الفطرة والتمكن من قبول الحق ولكن الله خذلهم بكفرهم فأبطل استعدادهم كما قال الله تعالى : فأصمهم وأعمى أبصارهم وهم كفرة ملعونون فمن أين لهم دعوى العلم والاستغناء عنه ؟ « فقليل ما يؤمنون ، ما مزيدة لتأكيد القلة أى إيمانهم إيمان قليل جداً وهو إيمانهم ببعض الكتاب وقيل أراد بالقلة العدم .

والآية الثالثة تصور كفرهم برسالة محمد كما كفروا برسالة عيسى ، يقول الله تعالى : « ولما جاءهم كتاب من عند الله ، هو القرآن « مصدق لما معهم ، من كتابهم وهو التوراة لا يخالفه « وكانوا ، أى اليهود « من قبل مجيئه « يستفتحون ، أى يستنصرون ، على الذين كفروا ، أى مشركى العرب إذا قابلوهم يقولون اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث فى آخر الزمان الذى نجد صفته ونعته فى

التوراة ويقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظلم زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فقتلكم معه قتل عاد وإرم ، « فلما جاءهم ، أي اليهود » ما عرفوا ، من الحق وهو بعثة النبي صلى الله عليه وسلم ، كفروا به ، حسداً أو خوفاً على الرياسة وجواب لما الأولى دل عليه جواب لما الثانية ، « فلعنة الله ، أي عذابه وطرده » على الكافرين ، أي عليهم ، وإنما أتى بالمظهر للدلالة على أنهم لعنوا لكفرهم .

والآية الرابعة فيها تهديد وفيها بيان لمصيرهم الذي ينتظرهم لحسدهم الذي تمكن من نفوسهم ، « بثسما اشتروا ، أي باعوا » به أنفسهم ، أي حظها من الثواب : « أن يكفروا ، أي كفروهم » بما أنزل الله ، من القرآن « بغيا ، أي حسداً وطلباً لما ليس لهم وهو علة يكفروا أو اشتروا ، وحسده على » أن ينزل الله من فضله ، أي الوحي « على من يشاء ، الرسالة » من عباده ، وهو محمد صلى الله عليه وسلم ، « فباءوا ، أي رجعوا » بغضب على غضب ، أي مع غضب ، واختلف في معنى ذلك : فقال ابن عباس ومجاهد الغضب الأول بتضييعهم التوراة وتبديلهم والثاني بالكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال السدي : الأول بكفرهم بعبادة العجل والثاني بمحمد صلى الله عليه وسلم ، وقال قتادة الأول بكفرهم بعيسى والإنجيل ، والثاني بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن « وللكافرين عذاب مهين ، أي ذو إهانة بخلاف عذاب العاصي فإنه طهرة للذنوب .

وفي الآية الخامسة تأكيد لكفرهم بالرسالات المنزلة بعد موسى ، ولصنيعهم مع الأنبياء والمرسلين « وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله » من القرآن وغيره فيعم سائر الكتب المنزلة « قالوا تؤمن بما أنزل علينا ، أي التوراة يكفينا ذلك » ويكفرون ، الواو للحال « بما وراه ، أي بما سواه من الكتب لقوله تعالى : « فن ابتغى وراء ذلك ، أي سواه ، وقال أبو عبيدة بما بعده من القرآن ، وقوله تعالى : « وهو ، أي ما وراه » الحق مصدقاً لما معهم ، أي

من التوراة حال ثانية مؤكدة تتضمن رد مقالهم فإنهم كفروا بما يوافق للتوراة فقد كفروا بها ثم اعترض الله تعالى بقتل الأنبياء مع ادعائهم الإيمان بالتوراة بقوله تعالى : « قل ، لهم يا محمد : « فلم تقتلون ، أى قتلتم ، أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين ، بالتوراة والتوراة لا تسوغه بل نهيتم فيها عن قتلهم ، والخطاب للموجودين في زمن نبينا صلى الله عليه وسلم بما فعل آباؤهم لرضاهم به وعزمهم عليه .

أما الآية السادسة ففيها بيان لسابق كفرهم بالتوراة وبموسى عليه السلام وعبادتهم العجل وكفرهم بالله : « ولقد جاءكم موسى بالبينات ، أى الآيات التسع في قوله تعالى : « ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات كالعصى واليد وقلق البحر ، ثم اتخذتم العجل ، أى إلها ، من بعده ، أى بعد ذهابه إلى الميقات . وقوله تعالى : « وأتم ظالمون ، أى باتخاذهم أى اتخذتم العجل ظالمين بعبادتها وبالاخلال بآيات الله أو وأتم عادتمكم الظلم .

وفي الآية السابعة بيان لعجيب عنادهم وأنهم لم يرجعوا عن كفرهم وعبادة العجل إلا بعد أن رأوا عذاب الله عيانا ، « وإذا أخذنا ميثاقكم ، على العمل بما في التوراة وقد « رفنا فوقكم الطور ، أى الجبل حين امتنعتم من قبولها ليستط عليكم وقلنا « خذوا ما أتيناكم بقوة ، أى بجد وأجتهاد ، واسمعوا ، ما تؤمرون به سماع قبول ، قالوا سمعنا ، قولك « وعصينا ، أمرك ، وقيل سمعنا بالأذان وعصينا بالقلوب ، قال أهل المعاني إنهم لم يقولوا هذا بألسنتهم ولكن لما سمعوا بالأذان وتلقوه بالعصيان نسب ذلك إلى القول اتساعا ، وأشربوا في قلوبهم العجل ، أى خالط حبه قلوبهم كما يتداخل الشراب أعماق البدن وفي قلوبهم بيان لمكان الإشراب كقوله تعالى : « إنما يأكلون في بطونهم نارا ، ، بكفرهم ، أى بسبب كفرهم وذلك أنهم جسمية أو حلولية ولم يروا جسما أعجب منه فتمكن من قلوبهم ما سول لهم السامرى « قل ، لهم يا محمد ، بش ما ، أى شيئا ، يأمركم به إيمانكم ، بالتوراة عبادة العجل وإسناد الأمر إلى إيمانهم

تهكم كما قال قوم شعيب أصلاتك تأمرك بإسناد الإيمان إليها وقوله تعالى :
« إن كنتم مؤمنين ، فيه تهكم وسخرية بهم .
وتكرار آية أخذ الميثاق ورفع الطور في سورة البقرة لغرابة هذه
المعجزة الخارقة التي ليس لها مثل في روعتها وفي قهرها لنفوس هؤلاء
المردة والشياطين .

٩٤ - قُلْ إِنْ كَانَتْ لَكُمْ الدَّارُ الْآخِرَةُ عِنْدَ اللَّهِ خَالِصَةً مِّنْ دُونِ النَّاسِ فَتَمَنَّوْا الْمَوْتَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ

٩٥ - وَلَنْ يَتَمَنَّوهُ أَبَدًا بِمَا قَدَّمْت أَيْدِيهِمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ

٩٦ - وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاتِهِ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا

يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحَّزِحٍ مِّنَ

الْعَذَابِ أَنْ يُعَمَّرَ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِمَا يَعْمَلُونَ

٩٧ - قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ

مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ

٩٨ - مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ

اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ

٩٩ - وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ

١٠٠ - أَوْكَلْنَا عَاهِدُوا عَاهِدًا نَّبَذَهُ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ

لَا يُؤْمِنُونَ

١٠١ - وَلَمَّا جَاءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ نَبَذَ فَرِيقٌ

مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ كِتَابَ اللَّهِ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ

كَانَهُمْ لَا يَتْلَمُونَ

١٠٣- وَأَتَّبَعُوا مَا تَتْلُوا الشَّيْطَانُ عَلَىٰ مُلْكِ سُلَيْمَانَ وَمَا كَفَرَ
سُلَيْمَانُ وَلَا كَانِ الشَّيْطَانُ كَافِرًا يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السَّحْرَ
وَمَا أَنْزَلَ عَلَى الْمَلَائِكَةِ بَيِّنَاتٍ هَرُوتَ وَمَرُوتَ وَمَا يُعَلِّمَانِ
مِنْ أَحَدٍ حَتَّى يَقُولَا إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ فَيَتَعَلَّمُونَ
مِنْهُمَا مَا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْمَرْءِ وَزَوْجِهِ وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ
بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَيَتَعَلَّمُونَ مَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنْفَعُهُمْ
وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلْقٍ
وَلَيْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ

١٠٣- وَلَوْ أَنَّهُمْ رَامَنُوا وَاتَّقَوْا لَمَثُوبَةٌ مِّنْ عِنْدِ اللَّهِ خَيْرٌ لَّوْ كَانُوا
يَعْلَمُونَ

١٠٤- يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقُولُوا رَاعِنَا وَقُولُوا انظُرْنَا وَاسْمَعُوا
وَاللَّكْفِيرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ

١٠٥- مَا يَوْذُو الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ
أَنْ يُنَزَّلَ عَلَيْكُمْ مِّنْ خَيْرٍ مِّنْ رَبِّكُمْ وَاللَّهُ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِ
مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ

اثنتا عشرة آية من آيات القرآن الكريم، فيها رد على اليهود بأبلغ
عبارة، وفيها بيان لحبهم الشديد للحياة وكرهيتهم للموت، وفيها تصوير لشديد
كفرهم بالله ورسوله وملائكته، وفيها ذكر لكثرة تقصيرهم للعباد، ونسيانهم
لما أخذ عليهم من موثيق أمام الله بأن يؤمنوا بدين محمد خاتم الرسالات
والأديان، وأنهم يفرون من أحكام السماء ويهربون منها ليؤمنوا بالسحر

والأوهام والأباطيل، وبس ما كانوا يصنعون، ثم فيها ابداء الحرص من الله على إيمانهم وأن إيمانهم خير لهم لو كانوا يعلمون، وفيها دعوة للمؤمنين بالاحتباس من مكائد اليهود ومن استهزأهم وضلّاهم وحسداهم على ما آتاهم الله من فضله والله ذو الفضل العظيم .

والآية الأولى وهي قوله تعالى : « قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، معناها ان صدق قولكم وصحت دعواكم أن الجنة لا يدخلها إلا من كان هوداً ، وفي أنكم شعب الله المختار ، وأن النار لن تمسكم إلا أياماً معدودات ، فتمنوا الموت الذي يوصلكم إلى ذلك النعيم الخالص الدائم الذي لا ينازعكم فيه أحد ، إذ لا يرغب الإنسان عن السعادة ويختار الشقاء .

وقد روى عن كثير من الصحابة رضوان الله عليهم تمنى الموت عند القتال معبرين بالسنتهم عما يجول في صدورهم من صدق الإيمان بما أعد الله للمؤمنين في الدار الآخرة ، فقد جاء في الأخبار أن عبد الله بن رواحة كان ينشد وهو يقاتل الروم :

يا حبذا الجنة واقترابها طيبة وبارد شرابها
وعمار بن ياسر في حرب صفين كان يقول :

غداً نلقى الأحبه محمداً وصحبه

وكان علي يحارب وهو يقول : لا أبالي على الموت سقطت أم علي سقط الموت... فإن لم تتموه أيها اليهود ، بل كنتم شديدي الحرص على هذه الحياة ، فما أتم بصادق الإيمان ، وهذه حجة تنطبق على الناس عامة ، فيجب على المسلمين أن يحملوها ميزاناً يزنون به دعواهم اليقين والإيمان والقيام بحقوق الله ، فإن ارتاحت نفوسهم لبذل أرواحهم في سبيل الله والذود عن الدين كانوا مؤمنين حقاً ، وإن ضنوا بها وكانوا شديدي الحرص على الحياة إذا جد الجد ودعا الداعي كانوا بعكس ما يدعون .

وقد روى عن ابن عباس رضي الله عنه ان النبي صلى الله عليه وسلم قال

لو تمنوا الموت لغص كل إنسان منهم بريقه فئات مكانه وما بقى على الأرض
يهودى إلا مات .

والآية الثانية فيها تأكيد لحال نفسهم المريضة وبيان لجزعهم من الموت
وخوفهم الشديد منه لما اقترفوا من سيئات سيعاقبون عليها فى الآخرة عقاباً
شديداً ، « ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم » من موجبات النار من الكفر
بمحمد صلى الله عليه وسلم وما جاء به وتحريف كتاب الله وسائر أنواع الكفر
والعصيان ، ولما كانت اليد العاملة مختصة بالإنسان لأنها آلة لقدرته ، وبها عامة
صنائه ومنها أكثر منافعه ، عبر بها عن النفس تارة كما هنا ، وعن القدرة أخرى
كما فى قوله تعالى : « يد الله فوق أيديهم » . وهذه الجملة إخبار بالقيب فإنهم لم
يتمنوا الموت أبداً فإنهم لو تمنوه لنقل ذلك . كما نقل سائر الحوادث ، ولكن
فأقلوه من أهل الكتاب وغيرهم من أولى المطاعن فى الإسلام أكثر ، وليس
منهم أحد نقل ذلك ، فإن قيل التمنى من أعمال القلوب وهو سر لا يطلع عليه ،
فمن أين يعلم أنهم لم يتمنوا ، فالجواب بأن التمنى ليس من أعمال القلوب إنما هو
قول الإنسان بلسانه ليت لى كذا فإذا قاله قالوا تمنى ، وليت كلمة التمنى ، ومحال
أن يقع التحدى بها فى الضمير والقلوب ، ولو كان التمنى بالقلوب وتمنوا لقالوا
قد تمنينا الموت فى قلوبنا ولم ينقل أنهم قالوا ذلك . فان قيل : لم يقولوه لأنهم
علموا أنهم لا يصدقون ، فالجواب بأنه كم حكى عنهم أشياء نالوا بها المسلمين
من الافتراء على الله وتحريف كتابه وغير ذلك مما علموا أنهم غير مصدقين
فيه ، وما لا محل له إلا الكذب الصرف ولم يسألوا فكيف يمتنعون من أن
يقولوا إن التمنى من أفعال القلوب وقد فعلناه مع احتمال أن يكونوا صادقين
فى قولهم وإخبارهم عن ضمائرهم ، وكان الرجل يخبر عن نفسه بالإيمان فيصدق
مع احتمال أن يكون كاذباً لأنه أمر خفى لا سبيل إلى الاطلاع عليه « والله عليم
بالظالمين » أى الكافرين فيجازيهم على كفرهم ، وفى هذا تهديد لهم وتنبه
على أنهم ظالمون بعنادهم وبيهتانهم وكفرهم .

والآية الثالثة فيها بيان لحرصهم الشديد على الحياة بما ينم عن عدم إيمان

وثقة بالآخرة وعدم عمل لها ، ولتجدنهم ، اللام لام القسم والنون لتأكيد القسم تقديره والله لتجدنهم يا محمد أي اليهود « أحرص الناس على حياة ، وهو من وجد بمعنى علم اتعدى إلى مفعولين ومنعولاه هم أحرص ، وتكبير حياة للدلالة على إرادة حياة مخصوصة هي فرد من أفرادها وهي الحياة المتطاولة . و ، أحرص ، من الذين أشركوا ، أي المنكرين للبعث لعلمهم بأن مصيرهم النار دون المشركين لإفكارهم له وإفراد المشركين بالذكر مع دخولهم في عموم الناس ، لأن حرصهم شديد ، وفيه توبيخ عظيم لأن الذين أشركوا لا يؤمنون بياقيه ، ولا يعرفون إلا الحياة الدنيا ، فحرصهم عليها لا يستبعد لأنها جنتهم ، فإذا زاد عليهم في الحرص من له كتاب وهو مصدق بالدين وبالجزاء ، كان خليقا بأعظم التوبيخ . وفي الآية تحذير شديد من التكالب على الدنيا والحرص عليها ، ومن كراهية النصيحة والجهاد في سبيل الله والمثل العليا التي يدعو إليها الإسلام والقرآن .

وهذا التكالب على الدنيا هو الذي جعل اليهود تعيش في الذل أبدا الآباد ، وجملهم تصدق عليهم الآية الكريمة تمام الصدق وهي : وضربت عليهم الذلة والمسكنة وباءوا بغضب من الله (١) ، وفي تصديق ذلك يقول صاحب كتاب « القرآن والعلم (٢) » : الذلة وغضب الله قد لازما لليهود وسيلازمانهم أينما حلوا على مدى الدهور وإن هذا الغضب من الله وما هم فيه من ذلة ومسكنة وما ينتابهم من نكبات مرجعه إلى كفرهم بالله وقتلهم الأنبياء وإغراقهم في المعاصي .

ففي عصر نشأة اليهودية ترى اضطهاد فرعون مصر لهم وقيام العداوة بينهم في فلسطين ثم أسر البابليين لهم والنكبات التي توالت عليهم من السوريين وما لاقوه على يد الرومان من عنت وقتل وتمثيل وتشريد . واليهود يبدأ تاريخهم في مصر بقدم يوسف وعائلته بما فيهم يعقوب (إسرائيل) إليها ثم

(١) من آية ٦١ سورة البقرة .

(٢) ص ٨٥ وما بعدها .

سكنهم في أرض جاسان (الشرقية الآن) حتى تكاثروا وبلغوا فيما يقال
مئات الألوف وارتضوا العيش بجانب المصريين وطابت لهم الإقامة وتأثرت
عقالتهم الدينية بعقائد المصريين الوثنية، وبينهم كذلك في رغد من العيش
إذ شاء سوء طالعهم أن يتبأ الكهان أن نهاية فرعون ستكون على يد قتي
يولد في إسرائيل وكان فرعون هذا على الأرجح هو « منبتاح بن رمسيس
الثاني »، فما كان منه إلا أن أمر بذبج أطفالهم الذكور وترك أطفالهم الإناث .
ففكر الإسرائيليون في الخلاص من هذا الاستعباد ولم يجدوا خيرا من أن
يتركوا مصر إلى الأرض الموعودة (فلسطين) وقد تم إخراجهم من مصر
على يد موسى عليه السلام وإلى هذا يشير القرآن الكريم بقوله : « وإذ أنجيناكم
من آل فرعون يسومونكم سوء العذاب يذبجون أبناءكم ويستحيون نساءكم
وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم » . . .

وبعد موسى دخل بنو إسرائيل فلسطين بعد أن ظلوا أربعين سنة في
صحراء سيناء ، وقد بلغوا قمة مجدهم في عهد « سليمان بن داود » الذي بنى معبدهم في
(أورشليم) والذي بلغت في عهده مملكة بني إسرائيل أقصى قوتها واتساعها ،
ولكن بعد موته انقسمت مملكة الإسرائيليين إلى قسمين : القسم الشمالي ويسمى
(مملكة إسرائيل) والقسم الجنوبي ويسمى (مملكة يهوذا) ، ولسوء الحظ
سادت العلاقات بين هاتين المملكتين الشقيقتين ووقعتا في مصادمات دموية
مستمرة وصار كل فريق يستعين بالأجانب على الآخر وبذلك أذاق الله بعضهم
بأس بعض .

وكان بجوار فلسطين امبراطورية قوية آخذة في النمو وهي امبراطورية
(آشور) التي تطلعت في عهد (سالماذار) إلى الاستيلاء على مملكة إسرائيل
فاستولى على عاصمة مملكة إسرائيل (السامرة) وقادهم أسرى إلى بلاده فلم
يبقى إلا مملكة يهوذا (المملكة الجنوبية) وهذه لقيت حتفها بدورها حينما
تولى (يواقيم) عرشها إذ حاربه بختنصر (ملك كلدان) وأخذه أسيرا إلى بابل .

ولكن يوافقهم عندما عاد إلى فلسطين ثانية ثار على يختنصر ، فما كان من يختنصر إلا أن رجع ودخل أورشليم وخربها وقاد أكثر أهلها أسرى سنة ٧٨٥ ق.م وفي الأسر ازاداد خنتهم إلى فلسطين وبكاها شعراؤهم .

وشاء الله أن يرجعهم إلى فلسطين ثانيا ليدوقوا من العذاب أشد مما ذاقوا أولا فحينما استولى كورش (اميراطور الفرس) على بابل سمح لهم بالعودة إلى بلادهم فعاد منهم سنة ٦٣٥ ق م ٤٢ ألف رجل وأسسوا مملكة يهوذا تحت الحماية الفارسية ومنذ ذلك الوقت أطلق عليهم اسم اليهود ولم يكونوا يعرفون به من قبل وقد أعاد لهم «دار» بناء بيت المقدس . وبعد فتح الاسكندر للشام وفلسطين وقعوا تحت حكم الأغرقي وفي سنة ٣٠٠ ق م حكمهم ملوك سوريا لأول مرة . وفي سنة ٢٢٠ ق م دخلت مملكة يهوذا لثاني مرة تحت حكم السوريين وقد اضطهدهم ملوك سوريا وأثقلوا كواهلهم بالضرائب فإن (سوليسيد) كان يعتبر مملكتهم غنيمة وحاول (سلكس الرابع) أن ينهب معبدهم كما حاول (اتينخيوس ايفان) أن يمحوا دياتهم إذ أمر بصب تمثال (جويتر) إله اليونانيين الأكبر في وسط معبدهم ومنعهم من الختان وأمرهم بتضحية الخنازير وقتل جمهوراً كبيراً منهم . ولكتهم بعد ذلك تغلبوا على السوريين وطردهم من بلادهم وأعادوا الشريعة الموسوية فازدهرت مملكتهم وأعادوا ذكر أيام داود .

وحوالي سنة ٦٣ ق م وقعت فلسطين تحت حكم الرومان ، وعند استيلاء بومبي على أورشليم ذبح الأحرار في المحراب وهلك ما يقرب من اثني عشر ألفاً من اليهود ، وسام الرومان اليهود سوء العذاب وقبضوا عليهم بيد من حديد وقمعوا جميع المحاولات التي بذلت لإعادة مجد بني إسرائيل . وقد بلغ اضطهاد الرومان لهم حداً أدى إلى الثورة سنة ٧٠ م فما كان من (تيتوس) إلا أن أمر باحراق معبدهم وذبح معظم أهل اورشليم وبيع من بقي منهم ولم يبق منهم غير الذين هربوا إلى الجبال .

وهذا ما تشير به الآية الكريمة « ومن أظلم من منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه » .

ولم يمض غير قليل حتى عمرت أورشليم بالسكان ثانية ولكن البقية الباقية من اليهود عادت فثارت فثارت فما كان من الإمبراطور (هارديان) إلا أن هدم المدينة من أساسها سنة ١٣٥ م وبنى على انقاضها مدينة جديدة حرم دخولها عليهم وجعل جزاء من يتجاسر على ولوجها القتل وسماها بأسم جديد هو (إيليا كابتولينا) . كما أمر بذبح مئات الآلاف من اليهود ويبيع الباقين وتشريدهم فلم تقم لهم بعد ذلك قائمة ومزقوا شر ممزق فهاجرت طائفة إلى شواطئ الفرات وطائفة إلى بلاد العرب وطائفة إلى الأفغان وطائفة أخرى إلى الهند والصين وأقامت طائفة في أوروبا حيث كانوا موضع الإهانة والسخرية والعذاب وخصوصاً في عهد الإمبراطور جستنيان ثم في عهد هرقل حيث تحملوا أشد أنواع الاضطهاد .

والآية الرابعة تؤكد حرص اليهود على الحياة ، وهي قوله تعالى : « يؤده أى يتمنى » أحدهم لو يعمر الف سنة ، ولو مصدرية بمعنى « أن » ، وهي والفعل بعدها في تأويل مصدر مفعول يود ، والآلف للتكثير لا لخصوص العدد ، وما هو ، أى أحدهم أو هذا التنى « بمزحزحه » أى مبعذه « من العذاب » أى النار وقوله تعالى : « ان يعمر » فاعل مزحزحه ، أى تعبيره « والله بصير بما يعملون » فيجازيهم .

وسأل « عبد الله بن صوريا » رسول الله صلى الله عليه وسلم عن ينزل عليه بالوحى فقال جبريل ، فقال ذلك عدونا ، واليهود يجعلون بينهم وبين جبريل عداوة ، مدعين أنه أمر أن يجعل الرسالة فيهم ، فجعلها في غيرهم ، وقالوا للمؤمنين لو أن ميكائيل ينزل عليكم لاتبعناكم ، فإنه ينزل بالرحمة والغيث ، فكشف الله شرهم ، وقال في هذه الآية الرابعة « قل » لهم « من كان عدوا لجبريل » . روى انه كان لعمر رضى الله تعالى عنه أرض بأعلى المدينة وكان يمر على مدارس اليهود وكان يجلس إليهم ويسمع كلامهم فقالوا يا عمر قد أحببناك وإنا نطمع فيك

فقال والله ما أحبكم لحبكم ولا أسالكم لأنى شك فى دينى وإنما أدخل عليكم لأزداد بصيرة فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وأرى آثاره فى كتابكم ثم سألم عن جبريل فقالوا ذلك عدو لنا يطلع عمداً على أسرارنا وإنه صاحب كل خسف وعذاب وميكائيل صاحب الخصب والسلامة فقال عمر وما منزلتهما عند الله قالوا جبريل عن يمينه وميكائيل عن يساره وبينهما عداوة فقال أن كان كما تقولون فليسا بعدوين لقرب منزلتهما عند الله . ولأنتم أكفر من الحمار والحيوان الأعجم ، لأن الكفر نتيجة الجهل والبلاهة والحمار مثل فيهما ومن كان عدوا لأحدهما فهو عدو لله تعالى ، ثم رجع فوجد جبريل قد سبقه بالوحي فقرأ رسول الله ﷺ هذه الآية وقال عليه الصلاة والسلام : لقد وافقك ربك يا عمر ، فقال عمر لقد رأيتنى فى دين الله بعد ذلك أصلب من الحجر ، وقال مقاتل : قالت اليهود إن جبريل عدونا لأنه أمر أن يجعل النبوة فىنا فجعلها فى غيرنا ، ومعنى جبريل عبد الله فجبر هو الله وإيل هو العبد .. « فإنه ، أى جبريل » نزله ، أى القرآن ونحو هذا الاضمار اعنى اضمار ما لا يسبق ذكره فيه نغامة لشأن صاحبه حيث يجعل لفرط شهرته كأنه يدل على نفسه ويكتفى عن اسمه الصريح بذكر شىء من صفاته ، « على قلبك ، يا محمد ، وقوله تعالى : بأذن الله ، أى بأمره » مصدقا ، أى موافقا « لما بين يديه ، أى لما قبله من الكتب ، « وهدى ، من الضلالة ، « وبشرى ، بالجنة للؤمنين .

ذكر قبل هذه الآيات معاذير لليهود اعتذروا بها عن الإيمان بمحمد ﷺ وبما جاء به من الآيات البينات ، كقولهم إنهم مؤمنون بكتاب من ربهم فلا حاجة لهم بهداية غيره ، فنقض دعواهم وألزمهم الحججة ، وقولهم إنهم ناجون حتماً فى الآخرة لأنهم شعب الله وأبناؤه فأبطل مزاعمهم ودحض حججهم . وهنا ذكر تعلقة أخرى هى أعجب من كل ما تقدم وقدها كما فند ما قبلها ، تلك هى قولهم : إن جبريل الذى ينزل على محمد بالوحي عدوهم ، فلا يؤمنون بما يجيء به منه ، وقد أثر عنهم عدة روايات تشرح هذه المقالة بما ذكرناه فى أسباب نزول هذه الآية الكريمة .

والمعنى من عادى جبريل فقد خلع ربقة الإنصاف ، أو كفر بما معه من الكتاب بمعاداة إياه لنزوله بالوحي على الرسول لأنه نزل بكتاب مصدقا للكتب المتقدمة . وجواب الشرط محذوف أى من كان عدوا لجبريل فليمت غيظا أى فهو عدولى وأنا عدوه .

والآية الخامسة فيها هذا المعنى ، قال الله تعالى : « من كان عدوا لله وملائكته ورسوله وجبريل وميكائيل فإن الله عدو للكافرين ، والمراد بمعاداة الله مخالفته عنادا أو معاداة المقرين من عباده ، وصدر الكلام بذكره تعالى تفخيما لشأنه كقوله تعالى : والله ورسوله احق ان يرضوه ، وإفراد الملوكين بالذكر مع دخولها فى الملائكة لفضلهما فإنهما من جنس آخر وقدم جبريل لشرفه وقدم الملائكة على الرسل كما قدم الله على الجميع لأن عداوة الرسل بسبب نزول الكتب ، ونزوله بتنزيل الملائكة وتنزيلهم لها بأمر من الله فذكر الله ومن بعده على هذا الترتيب .

أما الآية السادسة : فقد نزلت فى عبد الله بن سوريا لما قال للنبي صلى الله عليه وسلم ما جئنا بشيء نعرفه وما أنزل عليك آية زائدة فتبعك ، قال الله تعالى : « ولقد أنزلنا إليك ، يا محمد ، آيات بينات ، واضحات مفصلات بالحلال والحرام والحدود والأحكام » وما يكفر بها إلا الفاسقون ، أى المتمردون من الكفرة . والفسق إذا استعمل فى نوع من الماصى دل على أعظمه وكان متجاوزا عن حده ،

والآية السابعة تدل على نقضهم الدائم لليهود ، قال الله تعالى « أوكلنا عاهدوا عهدا ، الهمة للإنكار والواو للعطف على محذوف تقديره أكفروا بالآيات وكلنا عاهدوا الله عهدا على الإيمان بالنبي ، وقوله تعالى : « نبذ ، أى طرحه » فريق منهم ، أى اليهود بنقضه وهو محل الاستفهام الإنكارى ، وإنما قال « فريق » لأن بعضهم لم ينقض ، وقوله تعالى : « بل ، للانتقال » أكثرهم لا يؤمنون ، رد لما يتوهم أن الفريق هم الأفلون .

والآية الثامنة تدل على أن كفر اليهود برسالة محمد هو كفر منهم بكتابهم المنزل على نبيهم موسى عليه السلام ، قوله تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله ، هو محمد ﷺ ، مصدق لما معهم ، من التوراة » نذ فريقتين من الذين أتوا الكتاب كتاب الله ، أي التوراة لأن كفرهم بالرسول المصدق لها كفر بها فيما يصدق من وجوب الإيمان بالرسول المرئيين بالآيات ، وقيل كتاب الله هو القرآن نذره بعد ما لم يصدق بالقبول ، وقوله تعالى : « وزاء ظهورهم ، أي لم يعملوا بما في التوراة من الإيمان بالرسول وهو مثل لإعراضهم عنه بالكلية ، « كأنهم لا يعملون ، ما فيها من إنه نبي حق يعني أن عليهم بذلك ثابت ولكنهم كبروا وعاندوا .

بين الله سبحانه في هذه الآيات حالا من أحوالهم هي علة ما يصدر عنهم من جحود وعناد ومعاداة للنبي صلى الله عليه وسلم ، هي أن فريقا منهم نذوا كتاب الله الذي به يفخرون ، حين جاء الرسول بكتاب مصدق لما بين أيديهم ، فإن ما في كتابهم من البشارة بنبي يحيى من ولد إسماعيل لا ينطبق إلا على هذا النبي الكريم .

وليس المراد أنهم نذوا الكتاب جملة وتفصيلا ، بل نذوا منه ما يبشر بالنبي ﷺ وبين صفاته وما يأمرهم بالإيمان به واتباعه ، ولا شك أن ترك بعضه كترك كله إذ أنه يذهب باحترام الوحي ويفتح الباب لترك الباقي . وهذا الجحود ليس بضائر للنبي صلى الله عليه وسلم ولا لدعوته فقد قبلها واهتدى بها كثير من اليهود ومن غيرهم وحين نذوه اشتغلوا بصناعات وأعمال صادرة عن الأديان من صنع شياطين الإنس والجن ، فاشتغلوا بالسحر والشعوذة والطلسمات التي نسبوها إلى سليمان زعموا أن ملكه كان قائما عليها .

والآية التاسعة تدل على بعد اليهود عن الحقائق واشتغالهم بالسحر والأوهام ، بقوله تعالى : « واتبعوا ، عطف على نذ ، ما تتلو ، أي تلك الشياطين ، ، والعرب تضع المستقبل موضع الماضي والماضي موضع المستقبل ،

وقيل ما كانت تتلو أى تقراء « على » عهد « ملك سليمان » من السحر وكانت دفنته تحت كرسية لما نزع ملكه فلم يشعر بذلك سليمان ، فلما مات استخرجوه وقالوا للناس إنما ملككم سليمان بهذا فتعلموه . فأما علماء بنى إسرائيل وصلحاؤهم فقالوا معاذ الله أن يكون هذا من علم سليمان عليه الصلاة والسلام ، وأما سفهاؤهم فقالوا هذا علم سليمان وأقبلوا على تعلمه ورفضوا كتب آياتهم فلم تزل هذه حالهم حتى بعث الله محمدا صلى الله عليه وسلم وأنزل الله عليه براءة سليمان ، وقال السدى : وكانت الشياطين تسرق السمع فيسمعون كلام الملائكة فيما يكون فى الأرض من موت وغيره فيأتون الكهنة ويخلطون بما يسمعون ويخبرونهم بها فاكاتب الناس ذلك وفشا فى بنى إسرائيل أن الجن تعلم الغيب فبعث سليمان فى الناس وجمع تلك الكتب فجعلها فى صندوق ودفنها تحت كرسية وقال : لا أسمع أن أحدا يقول إن الشياطين تعلم الغيب إلا ضربت عنقه ، فلما مات سليمان وذهبت العلماء الذين كانوا يعرفون أمر سليمان ودفنه الكتب وخلف من بعدهم خلف ، أتى نفر من بنى إسرائيل فقال بعضهم : هل أدلكم على كنز لا تأكلونه أبدا قالوا نعم قال : فاحفروا تحت الكرسي فأراهم المكان فحفروا وأخرجوا تلك الكتب وفشا فى الناس أن سليمان كان ساحرا وأخذ بنو إسرائيل تلك الكتب فلذلك أكثر ما يوجد السحر فى اليهود ، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم برأ الله سليمان من ذلك ، وأنزل تكذيبا لمن زعم ذلك « واتبعوا ما تتلو الشياطين على ملك سليمان » ؟ وما كفر سليمان ، أى لم يعمل السحر وعبر عنه بالكفر ليدل على أنه كفر أى إن استحله ، هذا مذهب الشافعى وعند أحمد يكفر مطلقا « ولكن الشياطين » هم الذين « كفروا » باستعمال السحر وتدوينه « يعلمون الناس السحر » أى يقصدون به إضلالهم والسحر لغة صرف الشئ عن وجهه يقال ما سحرك عن كذا أى ما صرفك عنه ، واصطلاحا مزاولة النفوس الخبيثة لأقوال وأفعال يترتب عليها أمور خارقة للعادة ، واختلف هل هو تخيل أو حقيقة ؟ قال بالأول المعتزلة واستدلوا بقوله تعالى يخيل إليه من سحرهم أنها تسعى ، وقال بالثانى أهل السنة ويدل

لذلك الكتاب والسنة الصحيحة، والساحر قد يأتي بفعل أو قول يتغير به حال المسحور فيمرض أو يموت منه، ويفرق به بين الزوجين.. والسحر يحرم تعليمه وتعليمه، قال إمام الحرمين ولا يظهر السحر إلا على فاسق ولا تظهر الكرامة على فاسق، ويحرم أيضاً تعليمه أو تعلم الكهانة والتنجيم والضرب بالرمل وما شا كل ذلك، ويحرم إعطاء العوض وأخذه عنها بالنص الصريح في «حلوان الكاهن»، والباقي بمعناه، والكاهن من يخبر بوساطة النجم عن المغيبات الواقعة كتعيين السارق ومكان المسروق والضالة، وقوله تعالى: «وما أنزل على الملوك»، عطف على السحر، وقيل عطف على ما تلاو أي وانبعوا ما أنزل عليهما أي ألهاه وتعلماه من السحر، فالإنزال بمعنى الإلهام والتعليم.. قال البيضاوي وهما ملكان أنزلا لتعليم السحر ابتلاء من الله للناس وتمييزا بينه وبين المعجزة، وقوله تعالى «بيابل» بلد في العراق وقوله تعالى: «هاروت وماروت» بدل أو عطف بيان للملكين ومنع صرفهما للعلمية والهجمة. ومن جعل «ما» في ما أنزل فإنية أبدال هاروت وماروت من الشياطين بدل البعض وما بينهما اعتراض «وما يعلمان» أي الملكان «من أحد» أي أحداً ومن صلة «حتى» ينصحاها و«يقولا» له «إنما نحن فتنة» ابتلاء من الله للناس لنتحنهم بتعليمه، وأصل الفتنة الاختبار والامتحان من قولهم فتنت الذهب والفضة إذا أذبتهما بالنار لتميز الجيد من الرديء، وقوله تعالى: «فلا تكفروا» أي بتعلمه أي فلا تتعلمه معتقدا حله فتكفر على ما تقدم فإن ابى إلا التعليم علماه.

والآية لا ترشد إلى حقيقة ما يتعلمونه من السحر—أمؤثر بطبعه أو بسببه خفي أو بخارق من خوارق العادات، أم غير مؤثر؟ كما أنها لم تبين نوع ما يتعلمونه أتمام وكتابة هو أم تلاوة رقي وعزائم، أم أساليب سعاية، أم دسائس تنفير ونكايه، أم تأثير نفساني، أو وسواس شيطاني، فأى ذلك أثبتته العلم كان تفصيلاً لما أجمله القرآن، ولا تتحكم في حله على نوع منها.

ولو علم الله الخير في بيانه لبينه ، ولكنّه وكل ذلك إلى بحوث الناس وارتقائهم في العلم ، فهو الذي يجلي الغامض ويكشف الحقائق .

« فيتعلمون منها » الضمير لما دل عليه من أحد أي فيتعلم الناس من الملوكين « ما » أي سحرا « يفرقون به بين المرء وزوجه » بأن يغيض كلامها الآخر بسبب حيلة أو تمويه كائنفت في العقد ونحو ذلك مما يحدث الله عنده الفراق ابتلاء منه أي لا أن السحر له أثر في نفسه بدليل قوله تعالى : « وما هم ، أي السحرة » بضارين به ، أي السحر « من أحد ، أي أحدا ومن زائدة » إلا بأذن الله ، أي إرادته لأن الأسباب غير مؤثرة بالذات بل بإرادته تعالى « ويتعلمون ما يضرهم » في الآخرة « ولا ينفعهم » أي السحر « ولقد » اللام لام القسم « علموا » ، أي اليهود « لمن اشتراه » أي استبدل ما تلو الشياطين بكتاب الله ماله في الآخرة من خلاق « أي نصيب في الأجر » ولبئس ما ، أي شيئا « شروا » أي باعوا « به أنفسهم » أي الشارين أي حظها من الآخرة أن تعلموه أوجب لهم النار لو كانوا يعلمون ، حقيقة ما يصيرون إليه من العذاب ما تعلموه .

والآية العاشرة دعوة لهم إلى الإيمان ، قال تعالى : « ولو أنهم ، أي اليهود » آمنوا ، بالنبي والقرآن « واتقوا المشوبة » أي ثواب « من عند الله خير ، أي خير مما اشتروا به أنفسهم » لو كانوا يعلمون ، أن ثواب الله خير لما آثروه عليه فجعلهم لتترك التدبر أو العمل بالعلم .

والآية الحادية عشرة تحذير للتومنين من تقليد اليهود في القول كما حذرهم عن تقليدكم في العمل « يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا ، للنبي ﷺ » راعنا ، أمر من المراعاة ، وكانوا يقولون ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فلما سمع اليهود هذه اللفظة من المسلمين وكانت كلمة يتسابون بها عبرانية أو سريانية وهي « راعنا » قالوا فيما بينهم كنا نسب محمدا سرا فأعلنوا به الآن فكانوا يأتون ويقولون يا محمد راعنا وهم يعنون به تلك السببة ويضحكون فيما بينهم فسمعها سعد بن معاذ وكان يعرف لغتهم فقال لليهود يا أعداء الله عليكم لعنة الله والذي نفسي

بيده لأن سمعتها من أحد منكم يقولها لرسول الله ﷺ لأضربن عنقه فقالوا
أو لستم تقولونها فأنزل الله تعالى النهي عن ذلك لكيلا يجد اليهود بذلك سبيلا
إلى شتم رسول الله ﷺ وأمروا بما هو في معناها وهو قوله تعالى : «وقولوا
انظرونا ، أى أنظر إلينا ، وقيل اسمع منا وقيل لا تعجل علينا » و«اسمعوا ،
ما تؤمرون به سماع قبول لا كسماع اليهود حيث قالوا سسمعنا وعصينا
أو و«اسمعوا ما أمرتم به بجد حتى لا ترجعوا إلى ما نهيتم عنه من قولكم راعنا
«وللكافرين ، أى الذين تهاونوا برسول الله ﷺ وسبوه » عذاب اليم ،
أى مؤلم وهو النار .

أما الآية الثانية عشرة فقد نزلت في تكذيب جمع من اليهود يظنون مودة
المؤمنين ويزعمون أنهم يودون لهم الخير «ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ،
وقوله تعالى : «ولا المشركين ، أى من العرب عطف على أهل الكتاب ،
ومن لليبان لأن الذين كفروا جنس تحته نوعان أهل الكتاب والمشركين
وقوله تعالى : « أن ينزل عليكم من خير من ربكم ، أى إن الذين عرفتم
شأنهم مع أنبيائهم من أهل الكتاب حسدة لكم لا يودون أن ينزل عليكم
خير من ربكم ، والكتاب الكريم أعظم الخيرات فهو الهداية العظمى ، به
جمع الله شملكم ووجد شعوبكم وقبائلكم وطهر عقولكم من زيغ الوثنية
وأقامكم على سنن الفطرة ، وكذلك المشركون إذ يرون في نزول القرآن على طريق
التتابع الوقت بعد الوقت قوة للإسلام ورسوخا لقواعده وتثبيتا لأركانه وانتشارا
لهديه ، وهم يودون أن تدور عليكم الدوائر ، وينتهي أمركم ويزول دينكم
من صفحة الوجود . « والله يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم »
أى إن حسد الحاسد يدل على أنه ساخط على ربه معترض عليه لأنه أنعم على
المحسود بما أنعم ، والله لا يضيره سخط الساخطين ، ولا يحول مجارى نعمته .
حسد الحاسدين ، فهو يختص من يشاء برحمته متى شاء ، وهو ذو الفضل العظيم
على من احتار به للنبوة ، وهو صاحب الإحسان والمنة ، وكل عبادته غارق في بحار

نعمته ، فلا ينبغي لأحد أن يحسد أحداً على خير أصابه وفضل أوتيه من
عند ربه .

وبهذا ينتهي الربع السادس من سورة البقرة ، الذي تضمن مجيء موسى
بالآيات البينات ، ونزول التوراة عليه ، ثم عصيان نبي إسرائيل له ، وعنادهم
إياه ، وكفرهم برسالته ، وعبادتهم للعجل ضلالا وبهتاناً ، كما تضمن المعجزة
الكبيرة التي ظهرت على أيدي موسى ، وهي رفع الجبل فوقهم إلزاماً لهم
بالإيمان ، والوفاء بالعهد ، ولكنهم ضلوا وأضلوا ، وسمعوا ثم عصوا ،
وأشربت قلوبهم الكفر .

وفي هذا الربع أيضاً بيان لحرص اليهود على الحياة ، وتفورهم من الموت
ويستتبع ذلك الجبن والبخل والطمع وعبادة المال ، وسوء الحال والمآل ، وقد
تضمن كذلك عداوة اليهود لله وملائكته ورسله وجبريل وميكائيل ،
وكفرهم كذلك برسالة محمد ونبوته وكتابه الحكيم المنزل عليه من السماء
مع أنهم أعطوا العهد لنبيهم موسى بأن يؤمنوا بالتوراة والتوراة تضمنت
ظهور رسول اسمه أحمد يجب الإيمان به ؛ ويذكر الله عز وجل أن اليهود
لا يتبعون حكم الدين ولا حكم العقل إنما يتبعون الأوهام والسحر والباطل
ولو أنهم آمنوا بكتابهم وبالقرآن لنالوا الخير والثوبة من عند الله لو كان
يعقلون ، لو كان لديهم علم وبصيرة ، ويحتم الله عز وجل هذا الربع بذكر
حسد أهل الكتاب للمسلمين ولاتباع رسالة محمد عليه السلام ، ولو تدبروا
لعلموا أن الله يختص بفضله من يشاء والله ذو الفضل العظيم . . . وأعظم ما في
هذا الربع محاربة القرآن الكريم للسحر والسحرة والأوهام والأهواء التي ليست
من العلم ولا العقل في قليل ولا كثير . . . ومن العجيب أن ينسب كثيرون
من الناس لليهود العقل والذكاء ، وهذه خرافة ما بعدها من خرافة ، حتى
ايفشتين مدعى نظرية النسبية كان أفاقاً متحلاً ، ويقول بعض الباحثين إن
انجلترا اشتهرت بكثير من اليهود المختصين منذ أقدم العصور في المحاورات
الفقهية التي تساعد على جحد الرسائل السماوية والتهرب من المسئوليات

التي تتفق مع العدل والكرامة الوطنية في المجموعة البشرية . وذلك راجع إلى سبب واحد هو اعتقادهم أنهم شعب الله المختار - لهم ان يستولوا على خيرات هذا العالم - قديما بالتجارة وحديثا بالاستعمار والمؤسسات العالمية ، والقروض الدولية ، والمؤامرات التاريخية . ولذلك سيطروا على أقدار العالم زمتا طويلا . ولا تنسى ابدأ ان زعماء اليهود الدينيين هم كل شيء في توجيه سياستهم ، فهم بمثابة البوصلة لرجال المال والتجارة والاقتصاد الذين يسرون دفعة الاتجاهات في السياسة الدولية . وقد وجدنا محاضر حكاء صهيون اى برنامج السياسة الصهيونية الذي قد تم وضعه في مؤتمر الحاخاميين المنعقد في روسيا عام ١٨٩٧ ، وقد سبقه مؤتمر آخر عام ١٨٨١ بعد اغتيال القيصر الروسي اسكندر الثاني ، وقد ترجم كتاب « محاضر حكاء صهيون » إلى اللغة الانجليزية أولا عام ١٩٠٥ ، وتوجد منه نسخة في المتحف البريطاني ، وظل هذا سرا خائيا على العالم أجمع حتى عام ١٩٣٥ حيث انفضح أمره وترجم إلى لغات العالم بعد الفضية الدولية في محاكم برن عام ١٩٣٥ - ١٩٣٧ .

وقد نشرته وقامت بتوزيعه بعض المكتبات السويسرية ، فادعى اليهود أنه من وضع الألمان ولكنه من حسن الحظ قد سبق العرب الألمان بربيع قرن في ترجمة هذا الكتاب عام ١٩١٠ في بيروت .

وهناك اتجاه خطير في معظم البلاد يرمى إلى تمجيد الزعيم الصهيوني (اينشتين) الذي ادعى لنفسه أنه صاحب نظرية علمية « النسبة والتناسب » . بدعوى أن هذه النظرية كانت مفتاح العلوم الذرية والهيدروجينية ، والدعوى غير شرعية ومخالفة للحقيقة ، لأن (اينشتين) ، لم يستطع ان يقدم الابحاث العلمية دقيقة واحدة ، ولم يكن هو نفسه صاحب نظرية علمية ، ولكنه استغل وظيفته كاتبا في معهد الابحاث العلمية في مدينة زوريخ ، وبطبيعة الحال كان يطلع على تسجيلات العلماء لأبحاثهم . اما مكتشف الطاقة الذرية ، فهو استاذ ألماني اسمه بلانك ومكتشف القنبلة الذرية الدكتور هان الألماني ومكتشف نظرية النسبة والتناسب العالم الفرنسي (برجليس) . ولكن العلماء الألمان اتهموا

بأنهم نازيون ، كما اتهم العالم الفرنسي بأنه فاشيستي ، فاستغلت الصحافة الدولية هذه الظروف لإخفاء الحقيقة للقيام بالدعاية الانتخابية عام ١٩٣٦ لحساب (ليون بلوم) اليهودي الفرنسي رئيس الجبهة الشعبية . وقد استمرت هذه الحملة السياسية العلمية المغرضة حتى الحرب العالمية الثانية ، فانتقل (اينشتين) إلى أمريكا وحرص (روزفلت) على دراسة الطاقة الذرية لأنها تقتل أكبر عدد من الألمان والفرنسيين .

ومع ذلك فقد خطب (جوبلز) قبل نهاية الحرب العالمية الثانية يقول : إن ألمانيا أنتجت فعلا القنبلة الذرية ، ولكن يرجع عدم استعمالها لأزال الغارات الجوية التي شنتها أمريكا على المدن والقرى الألمانية أعطت مصانع الطائرات التي كانت معدة لإلقاء هذه القنابل على جيوش الحلفاء .

ولما دخلت الجيوش الأمريكية البلاد الألمانية وضعت يدها تورا على قبيلتين ذريتين قذفتها فيما بعد على هورشيا وناجازاكي ، وعند دخول الجيوش الروسية إلى البلاد الألمانية وجدت بطريق الصدفة قبيلتين ذريتين في جزيرة ولم تعرف عنهما شيئا حتى أرشدها بعض الألمان إلى هذا السر . ومنذ هذه اللحظة والمنافسة قائمة بين أمريكا وروسيا ، لأن اليهود في البلدين يسيطرون على الطاقة الذرية ، وذلك ليس عن طريق العلم بل عن طريق المال ، لأن البنوك الأمريكية هي التي تقوم بتمويل هذه الصناعة حتى أصبح أعضاء لجنة الطاقة الذرية أربعة من اليهود وواحد مسيحيا . على أن تاريخ هذه الأبحاث العلمية يرجع إلى عام ١٩٠٥ حيث كان العالم (لوفنز) يدرس نظريته الحسابية ويطبّقها مع نظرية (غاليليه) في الجاذبية ونظرية (بلانك) عن الضوء وتأثيره في التقاط الصور . ومن هذا كله نجد ان نظرية النسبة والتناسب ليست ملكا (لاينشتين) الصهيوني الإسرائيلي المتعصب .

١٠٦ - مَا تَدَسَّخُ مِنْ آيَةٍ أَوْ نَسِيهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلَهَا

أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ

١٠٧- أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا لَكُمْ

مَنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

١٠٨- أَمْ تُرِيدُونَ أَنْ تَسْأَلُوا رَسُولَكُمْ كَمَا سُئِلَ مُوسَىٰ مِنْ

قَبْلُ وَمَنْ يَتَّبِعِ الْكُفْرَ بِالْإِيمَانِ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ

١٠٩- وَدَّ كَثِيرٌ مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَوْ يَرُدُّونَكُمْ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِكُمْ

كُفْرًا حَسَدًا مِّنْ عِنْدِ أَنفُسِهِمْ مِّنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ الْحَقُّ

فَاعْفُوا وَاصْفَحُوا حَتَّىٰ يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ

١١٠- وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَمَا تُقَدِّمُوا لِأَنفُسِكُمْ

مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ

هذه الآيات الخمس رد على شبهة أثارها اليهود أو المشركون حول نسخ بعض آيات القرآن الكريم ، فقد طعن بعض الكفار في النسخ وقالوا إن محمداً يأمر أصحابه بأمر ثم ينهاهم عنه ويأمرهم بخلافه وما هذا إلا من تلقاء نفسه، يقول اليوم قولاً ويرجع عنه غداً كما أخبر الله تعالى « وإذا بدلنا آية مكان آية والله أعلم بما ينزل قالوا إنما أنت مفتى ، فزلت الآية الكريمة ، قال تعالى : « ما ننسخ من آية ، فبين وجه الحكمة في النسخ بهذه الآية ، والنسخ في اللغة شيان : أحدهما بمعنى التحويل والنقل ومنه نسخ الكتاب وهو أن يحول من كتاب إلى كتاب فعلى هذا الوجه كل القرآن منسوخ لأنه نسخ من اللوح المحفوظ ، والثاني بمعنى الرفع يقال نسخت الشمس الظل أى ذهبت به وأبطلته ، فعلى هذا يكون بعض القرآن ناسخاً وبعضه منسوخاً وهو المراد من الآية ، وهذا على وجوه : أحدها أن يثبت التلاوة وينسخ الحكم كآية الوصية للأقارب وآية عدة الوفاة بالحول ، والثاني أن ترفع التلاوة ويبقى الحكم كآية الرجم ، والثالث أن يرفع الحكم

والتلاوة كما روى أن قوما من الصحابة قاموا ليلة ليقرأوا سورة فلم يذكروا
منها إلا بسم الله الرحمن الرحيم ، فغدوا إلى النبي ﷺ فأخبروه فقال صلى الله عليه
وسلم تلك سورة رفعت بتلاوتها وأحكامها . وقيل كانت سورة الأحزاب مثل
سورة البقرة فرفع أكثرها تلاوة وحكما ، ثم من نسخ الحكم ما يرفع ويقام
غيره مقامه كما أن القبلة نسخت من بيت المقدس إلى الكعبة والوصية للأقارب
نسخت بالميراث وعدة الوفاة نسخت من الحول إلى أربعة أشهر وعشر ،
ومصاهرة الواحد للعشرة نسخت بمصاهرته للآتين ، قال البغوي : والنسخ إنما
يعترض على الأوامر والنواهي دون الأخبار . والنسخ اصطلاحاً رفع تعلق حكم
شرعي بدليل شرعي ، ويفارق التخصيص بأن التخصيص لا يرد إلا على متعدد .
وبأنه غير مشروط بالنص بخلاف النسخ فهما وبأنه يفيد عدم إرادة المخرج في
الأصل والنسخ يفيد إرادة المنسوخ في الأصل لكن غير مستمر . « أو نساها ،
أي توخرها فلا تنزل حكمها ونرفع تلاوتها أو توخرها في اللوح المحفوظ
ومعنى نساها ، نحتها من قلبك وقل ابن عباس رضي الله تعالى عنهما ، تركها
لا ننسخها . قال تعالى : « نسوا الله فنسيهم » أي تركوه فتركهم وقرئ :
نساها « نأت بخير منها ، أي بما هو أنفع لكم وأسهل عليكم وأكثر لأجركم
وإن كان كلام الله كله خيراً . أو مثلها ، في التكليف والثواب والمنفعة وتكون
الحكمة في تبديلها بمثلها الاختيار . « ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ، فيقدر
على النسخ والإنيان بمثل المنسوخ وبما هو خير . والآية دلت على جواز النسخ
وتأخير الإنزال إذ الأصل اختصاص أن وما يتضمنها بالأمور المحتملة .
وذلك لأن الأحكام شرعت والآيات نزلت لمصالح العباد وتكميل نفوسهم
فضلاً من الله ورحمة ، وذلك يخلف باختلاف الأبصار والأشخاص كأسباب
المعاش ، فإن النافع في عصر قد يضر في غيره ، واحتج بها من منع النسخ بلا بدل
أو يبدل أثقل ومن منع نسخ الكتاب بالسنة فإن النسخ هو المأتي به بدلاً والسنة
ليست كذلك ، قال البيضاوي : والكل ضعيف إذ قد يكون عدم الحكم والأهل
أصلح . والنسخ قد يعرف بغيره واستدل بهذه الآية المنتزلة على حدوث القرآن

فإن التغير والتفاوت من لوازم الحدوث ، وأجاب أهل السنة بأنها من عوارض الأمور المتعلقة بها المعنى القائم بالذات القديم لا من عوارض هذا المعنى : « ألم تعلم » خطاب منسكري النسخ فالهمزة للانكار ، وقيل خطاب للنبي صلى الله عليه وسلم والمراد أمته فالهمزة للتقرير .. « أن الله على كل شيء قدير » ، ألم تعلم أن الله له ملك السموات والأرض ، يفعل فيهما ما يشاء ويحكم ما يريد فهو يملك أموركم ويدبرها ويحريها على حسب ما يصلحكم وهو أعلم بما يتعبدكم به من ناسخ و منسوخ وهذا كالدليل على قوله « إن الله على كل شيء قدير » . وعلى جواز النسخ . « وما لكم من دون الله ، أى غيره » من ولى ، أى ولى يحفظكم ومن صلة أى زائدة ولا نصير ، يمنع عنكم عذابه ، وفرق بين الولى والنصير بأن الولى قد يضعف عن النصرة والنصير قد يكون اجنيا عن المنصور .. ونزل لما سأل أهل مكة النبي صلى الله عليه وسلم أن يوسعها لهم وأن يجعل الصفا ذهاباً « ام تريدون أن تسألوا رسولكم كما سئل موسى ، أى سأله قومه » من قبل ، أى من قولهم له « أرنا الله جهرة » ، وقيل قالوا له : « لن تؤمن لك حتى تأتى بالله والملائكة قبيلاً ، أو آيتنا بكتاب نقرؤه أو فجر لنا أنهاراً حتى تتبعك » . وقال عبد الله بن أمية لن تؤمن لك حتى تأتى بكتاب فيه : « من الله رب العالمين إلى ابن أمية ، اعلم أنى أرسلت محمداً إلى الناس » .. « ومن يتبدل الكفر بالإيمان ، أى يأخذه بدله بترك النظر فى الآيات البينات واقتراح غيرها » فقد ضل سواء السبيل . أى أخطأ الطريق الحق ، والسواء فى الأصل الوسط .

ونزل فى نفر من اليهود قالوا لحذيفة بن اليمان وعمار بن ياسر بعد وقعة أحد لو كنتم على الحق ما هزتم فارجعوا إلى ديننا فنحن أهدى سبيلاً منكم ، فقال عمار : كيف نقض العهد فيكم قالوا شديد قال فإنى قد عاهدت الله فلا أكفر بمحمد صلى الله عليه وسلم ما عشت ، فقالت اليهود أما هذا فقد صاباً ، وقال حذيفة . وأما أنا فقد رضيت بالله ربا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالإسلام ديناً وبالقرآن إماماً وبالكعبة قبلة وبالمؤمنين إخواناً ثم أتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبراه بذلك فقال أصبتما الخير وأفلحتما .

فزلت الآية الكريمة : « ود ، اى تمنى » كثير من أهل الكتاب ، من اليهود
« لو يردونكم ، اى يا معشر المؤمنين » من بعد إيمانكم كفارا ، مرتدين ،
« حسدا ، كائنا » من عند ، اى من تلقاء « أنفسهم ، اى لم يأمرهم الله بذلك وإنما
حملتهم عليه أنفسهم الخبيثة » من بعد ما تبين لهم ، اى فى التوراة « الحق ، فى
شأن النبي ﷺ » فاعفوا ، عنهم اى اتركوهم « واصفحوا ، اى أعرضوا
عنهم فلا تجازوهم وكان هذا قبل آية القتال ولهذا قال تعالى « حتى يأتى الله بأمره ،
فيهم من القتال وقد أذن فى قناهم وضرب الجزية عليهم .

وروى عن ابن عباس وابن مسعود ، أن هذا منسوخ بقوله تعالى :
قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر الآية ، وأبى النسخ جماعة من
المفسرين والفقهاء واحتجوا بأن الله تعالى لم يأمر بالعمو والصلح مطلقا ،
وإنما أمر به إلى غاية وما بعد الغاية يخالف ما قبلها وما هذا سبيله لا يكون
من باب النسخ بل يكون الأول قد انقضت مدته والآخر يحتاج إلى حكم آخر
« إن الله على كل شىء قدير ، فهو يقدر على الانتقام من الكفار .

والآية الكريمة « وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة ، عطف على « فاعفوا ،
كأنه تعالى أمرهم بالصبر والمخالفة والملجأ إليه بالعبادة والبر « وما تقدموا
لأنفسكم من خير ، اى طاعة كصلاة وصدقة « تجدوه ، اى ثوابه وعند الله ،
فيجازيكم به « إن الله بما تعملون بصير ، لا يضيع عنده عمل عامل .

١١١- وَقَالُوا لَنْ يَدْخُلَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ كَانَ هُودًا أَوْ نَصْرِي
تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ .

١١٢- بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ
وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ

١١٣- وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتْ النَّصْرَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصْرَى
لَيْسَتْ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ كَذَلِكَ قَالَ
الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ قَالَ اللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ
فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ .

ثلاث آيات كريمة اشتملت على جدال اليهود والنصارى حول الدين الحق
وتضمنت الرد عليهم بأبلغ بيان ، وأوضح عبارة ، وفيها ما فيها من رائع
الكلام ، وبليغ الأداء ، وقد ذكر الله عز وجل فيها حالين من أحوال اليهود :
أولاهما تضليل من عداهم وادعائهم أن الحق لا يعدوهم وأن النبوة مقصورة
عليهم ، وثانيهما تضليل اليهود للنصارى وتضليل النصارى لهم كذلك ، مع أن كتاب
اليهود أصل لكتاب النصارى ، وكتاب النصارى متمم لكتاب اليهود . والعبرة
من هذا القصص - أنهم قد صاروا إلى حال من اتباع الأهواء لا يعتد معها
بقول احد منهم لا في نفسه ولا في غيره ، فطعنهم في النبي صلى الله عليه وسلم
وإعراضهم عن الإيمان به لا يثبت دعواهم في انه مخالف للحق ، فاليهود قد
كفروا بعيسى وقد كانوا ينتظرونه ، والنصارى كفروا بموسى ورفضوا
التوراة وهي حججهم على دينهم ، فكيف بعدئذ يعتد برأيهم في محمد ﷺ
وهو من غير شعبهم وجاء بشريعة نسخت شرائعهم .

وسبب نزول الآيات أن يهود المدينة تماروا مع وفد نصارى نجران عند
النبي صلى الله عليه وسلم وكذب بعضهم بعضا ، فقال اليهود لبي نجران : ان
يدخل الجنة إلا اليهود ، وقالت بنو نجران لليهود لن يدخل الجنة إلا
النصارى . . وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، فعقيدة كل من
الفريقين في الآخر كذلك .

والآية الأولى من هذه الآيات الثلاث اشتملت على لون من هذا الجدل
بينهم ، وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى ، أى وقالت

اليهود : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً ، وقالت النصارى كذلك . وهذه آراء الفريقين إلى يومنا هذا .. تلك أمانيتهم ، أي هذه الأمانة السالفة التي تشمل أمانى كثيرة كنجاتهم من العذاب ووقوع أعدائهم فيه وحرمانهم من النعيم . والأمانى واحد الأمانة وهي ما يتمناه المرء ولا يدركه ، والعرب تسمى كل ما لا حجة عليه ولا برهان له تمنياً وضلالاً ، « قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ، أي قل لكل الفريقين هاتوا البرهان على ما تزعمون ، وهذا وإن كان ظاهره طلب الدليل على صدق المدعى ، فهو في عرف التخاطب تكذيب له لأنه لا برهان لهم عليه .

وفي هذا إيمان إلى أنه لا يقبل من أحد قول لا برهان عليه . والقرآن مليء بالاستدلال على القدرة والإرادة والوحدانية والآيات الكونية والأدلة العقلية كقوله : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدتا ، » بلى كلمة تذكر جواباً للإثبات نفي سابق ، ورداً لما زعموه فهي مبطللة لقولهم « لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى ، » أي بلى يدخلها من لم يكن هوداً ولا نصارى ، إذ رحمة الله لا تختص بشعب دون شعب ، بل كل من عمل لها وأخلص في عمله فهو من أهلها .

وقوله تعالى : « من أسلم وجهه لله ، أي اتقاد لأمره وخص الوجه لأنه أشرف الأعضاء الظاهرة فغيره أولى » وهو محسن ، أي في عمله ، وقيل مخلص . وقيل مؤمن « فله أجره ، » أي ثواب عمله ثابتاً « عند ربه ، لا يضيع ولا ينقص والجملة جواب من إن كانت شرطية ونحوها إن كانت موصولة والفاء فيها لتضمنها معنى الشرط ، فيكون الرد بقوله بلى وحده ويحسن الوقف عليه ، ويصح أن يكون من أسلم فاعل فعل مقدر أي بلى يدخلها من أسلم فلا يحسن الوقف عليه « ويصح أن يكون قوله : « فله أجره عند ربه ، » كلاماً معطوفاً على يدخلها من أسلم « ولاخوف عليهم ولاهم يحزنون ، في الآخرة ولما قدم النصارى أهل نجران على النبي صلى الله عليه وسلم أنهم أجبار

اليهود متناظروا حتى ارتفعت أصواتهم فقالت لهم اليهود ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بعبسى والإنجيل، وقالت النصارى لليهود ما أنتم على شيء من الدين وكفروا بموسى والتوراة، أنزل الله تعالى الآية الكريمة «وقالت اليهود ليست النصارى على شيء، أى يحتد به وكفروا بعبسى والإنجيل.» وقالت النصارى ليست اليهود على شيء، أى يعتد به وكفروا بموسى والتوراة، «وهم، أى الفريقان» يملون الكتاب، أى المنزل عليهم، وفى كتاب اليهود تصديق عيسى، وفى كتاب النصارى تصديق موسى أى قالوا ذلك وحالهم أنهم من أهل العلم والكتاب. «كذلك، أى كما قال هؤلاء» قال الذين لا يعلمون، كعبدة الأصنام والملحدون «مثل قولهم، بيان لمعنى ذلك أى قالوا كل ذلك أى قالوا: كل ذى دين عدا دينهم ليس على شيء ويؤمنهم الله تعالى على المكابرة والتشبه بالجهال» فإله يحكم بينهم، أى بين الفرق الثلاثة وهم اليهود والنصارى والذين لا يعلمون «يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون، من أمر الدين فيقسم لكل فريق منهم من العقاب الذى استحقه، وعن الحسن: حكم الله بينهم ان يكذبهم ويدخلهم النار.»

وهذا يشير إلى العداوة القائمة بين اليهود والنصارى. يقول صاحب كتاب «القرآن والعلم»: «إن هذه العداوة ترجع إلى ثراء اليهود، وإلى ان المسيحيين يحملون اليهود تبعه دم المسيح. وقد لاقى اليهود من المسيحية شر المعاملة، فقد اضطهدوا فى أسبانيا القديمة اضطهاداً شديداً ولما فتح المسلمون شمال أفريقيا كانت أسبانيا فى ذلك الوقت آتت من حكم القوط الغربيين وكان اليهود فيها مضطهدين من جانب الأشراف ورجال الدين حتى اعتبروا جميعاً عبيداً فما ان سمعوا بتسامح المسلمين وعدهم حتى هرب كثير منهم إلى أفريقيا وطلبوا إلى موسى بن نصير أن يخلصهم من ظلم لزريق فهب موسى بن نصير لنصرتهم وفتح الأندلس ولما فتح المسلمون الأندلس تمتع اليهود هناك بالحرية بعد الاستعباد؛ وفى أيام الحروب الصليبية سقط ألاف منهم صرعى بأيدى الجموع الهائجة؛ وعند انتشار الموت الأسود فى أوربا سنة ١٣٤٧ صب الناس جام

غضبهم على اليهود وقاموا بسلسلة من الهجمات ضدهم وفي مينز والمدن الألمانية الأخرى أخذ الشعب الهائج يلقى بهم في النار بالآلاف والالوف اعتقاداً منهم أن الوباء من عملهم وكان من جراء ذلك أن هاجر اليهود من غرب أوروبا إلى بولندا .

وكان إذا ارتكب أحدهم هفوة انتقم من سائر اليهود أشد انتقام، وكان المسيحيون يتسكرون للأسباب للانتقام منهم ومصادرة أموالهم، وناهيك بما كانوا يقولون به عليهم من تسميم بنايع المياه وقتل الأولاد الصغار وتخريق الخبز المقدس بالسكاكين .

كانوا يعتبرون طرد اليهود وقتلهم من أعمال البر والتقوى وكان اليهود يشترطون حمايتهم بالمال وكان الحكام كلما وقعوا في أزمات مالية لجأوا إلى اليهود فأمدوهم بالمساعدات الإجبارية نظير ما يلقون من حمايتهم وتأمينهم . وكانوا في بعض الممالك يعتبرون كالسلع تباع وتشترى ففي ألمانيا كانوا ملصقا للإمبراطور أو للأمراء وقد بيعوا أكثر من مرة .

وكانوا معتبرين خارج دائرة الحقوق العامة وكانت قرارات المجالس وأوامر الحكام تكرر دائماً عدم أهليتهم للتمتع بالحقوق المدنية، كما كانوا محرومين من مزاوله أى عمل حكومى أو الالتحاق بأية هيئة أو الالتقاء إلى أية جماعة أو الاندماج بالناس . أما إقامتهم فكانت في أقسام منعزلة من المدن ، أقسام قدرة ترتع فيها الأوبئة وكان يتحتم عليهم وضع علامات مهيبة على ملابسهم لتمييزهم عن غيرهم . ففي روما مثلاً كانوا يسكنون حياً قديراً من المدينة يقال له (الجيتو) وكانوا يقفلون أبوابه عليهم في الليل ويشدون الأبواب بسلاسل من الحديد ، وكان على اليهودى إذا أراد الانتقال إلى بعض جهات مملكة روما ليمكث بها عشرة أيام أن يأخذ تصريحاً بذلك من السلطة الكهنوتية؛ وكان محرماً عليهم أن يتخذوا هناك بيعة أو أديرة أو أن يتحدوا مع المسيحيين أو يصاحبوهم ، وقد نص في الأمر الذى صدر سنة ١٨٦٥ على معاقبة مخالفى ذلك بالحبس مع غرامة خمسة ريات .

وليت الأمر اقتصر على هذا فقد كانوا يمنعون من دخول بعض المدن كما حدد عددهم في المدن الأخرى ، ومنعوا من الزواج إلا بقيود تحدد من نسلهم وعددهم وكان محرما عليهم اتخاذ خدم من المسيحيين . ولما فتح نابليون ألمانيا بدأوا يتنصرون الحرية ولسكنهم فتدورا ما اكتسبوه عند ما تراجع الفرنسيون وفرضت عليهم القيود القديمة فالضريبة التي كانت تجبي من اليهودي كلما عبر حدود مدينة او مقاطعة، مهما صغرت حتى ولو دخل أو خرج عشرين مرة في اليوم لم تلغ في بروسيا إلا سنة ١٧٩٠ وفي الولايات الألمانية الأخرى إلا سنة ١٨٠٣ .

وفي سنة ١٢٩١ - ١٤٣١ عمت شبه جزيرة أيبيريا موجة من الذبح لليهود حيث وجد كثير منهم مأوى في اعتناق المسيحية . ولما استولى فردناند وإيزابلا على الاندلس وطردا المسلمين منها طاردا اليهود كما تطارد الوحوش الكاسرة . وفي ٣١ مارس سنة ١٤٩٢ صدر قرار بطردهم من أسبانيا وصقلية وسردينيا اللتين كانتا مملوكتين في ذلك الوقت لملك أراجون . فذهب بعضهم إلى هولندا والبعض الآخر إلى سواحل إيطاليا وقد قلدت البرتغال أسبانيا سنة ١٤٩٦ ثم طبق ذلك في نافار سنة ١٤٩٨ ولم يسمح لهم بالعودة إلى أسبانيا إلا بعد سنة ١٨٨١ . أما في إيطاليا فقد طردوا من نابلي سنة ١٥١٠ وتم إجلاؤهم التام عنها سنة ١٥٤٨ وطردوا من دوقية ميلان سنة ١٥٩٧ بعد الاحتلال الأسباني . وأما في فرنسا فقد تناولهم الطرد والتخريم عند ما استولت أسرة الكارولوفنجيين على العرش، وفي سنة ١٢٩٥ طردوا من جنوب فرنسا ولكن في سنة ١٥٥٥ سمح لهم بالاقامة في بوردو وباتون .

وتعتبر إنجلترا أول مملكة خلصت نفسها من اليهود كلية في عهد إدوارد الأول طردوا من المملكة سنة ١٢٩٠ م ولم يسمح لهم بدخولها إلا في عهد الجمهورية حوالي منتصف القرن السابع عشر . وأما في النمسا فقد طردوا من فينا وحولت يبعهم إلى كنائس ولم يعودوا إليها إلا في عهد فردناند الأول ولما صدر قرار سنة ١٧٤٤ بنفيهم توسطوا في إلغائه نظير دفعهم ثلاثة ملايين

فلورن سنويا لمدة عشر سنين كما فرض عليهم أيضاً دفع ضريبة قدرها أربعون ألف فلورن لتوريد ليمون لوليمة (عيد المظلات) ،

وأما يهود المجر فقد حل بهم ما حل بأخوانهم في النمسا من الطرد ثم العودة . وفي أثناء ثورة سنة ١٨٤٨ قاسى اليهود الأهوال في هنغاريا (المجر) . وقد منحوا الحرية المدنية والسياسية في النمسا والمجر سنة ١٨٦٧ ولكن ديانتهم لم يعترف بها إلا في سنتي ١٨٩٥ و ١٨٩٦ .

وأما في روسيا فقد طردوا منها مرارا وظلوا مضطهدين إلى نهاية القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين وكانوا ممنوعين من الانتقال ومحرورين من الحقوق العامة ولا يزال التاريخ يذكر المذابح العظيمة التي لحقت بهم في (نجى نوفوجراد) الواقعة على نهر الفلجا سنة ١٨٨٢ وفي ولاية بسارابيا وفي أماكن أخرى سنة ١٩٠٢ .

وأما في رومانيا فقد كانوا معتبرين غرباء على الرغم من نشأتهم فيها وظلوا كذلك إلى نهاية الحرب العالمية الأولى ولما وضعت الحرب أوزارها أعطوا حريتهم تقريبا وأخذت الحكومة تتدخل لوضع حد للثورات ضدّهم وتحسين أحوال مدنهم . وأما في بولندا فقد زادت حالتهم سوء أثناء الحرب عندما تابع الوطنيون البولنديون انتقاماتهم من اليهود وعاودوا مقاطعتهم لهم تلك المقاطعة التي بدأت في (وارسو) سنة ١٩١٢ وقد بلغ بؤس اليهود درجة استتارت عطف الحكومة الروسية فسمحت لهم بحرية السكن في المدن الروسية ماعدا بعض الأماكن مثل موسكو وبتروجراد .

وتبع الهدنة في بولندا سلسلة من الأعمال العنيفة ضد اليهود ففي السنة التي أعقبت الحرب قتل ٣٤٨ يهودى وجرح عدد يفوق هذا بكثير ، وكان اليهود يقاسون في جميع أنحاء المملكة مقاطعة البولنديين لهم ؛ أما أكثر الأماكن التي ذاقوا فيها الأمرين فهي جنوب روسيا فقد أخذ الفلاحون الأكرانيون يذبحون اليهود بفظاعة لا مثيل لها ، وفي سنة ١٩٢٢ أعادت الحكومة السوفيتية بعض النظام فوقفت المذابح ولكن حل محلها الجوع والوباء ففي سنة ١٩٢٣

كان هناك مائة ألف يهودى بلا مأوى فى أوكرانيا وبلغت نسبة موت اليهود
(فى أوديسا) ٢٠٠ فى الألف .

ولما انتشرت النازية فى ألمانيا أعلنت لهم العداوة الصريحة بل اعتبرتهم
أعدى أعدائها ونظرت اليهم كوابه يجب استئصاله فقد أعلن زعيمها أن الغرض
الأساسى من حركته هو تخلص أوروبا من اليهود بقوله : « إن العالم سائر نحو
ثورة عظيمة والسؤال الذى نحن بصدده هو هل ستؤدى هذه الثورة إلى تخلص
الحضارة الآرية من شوائبها أو أنها ستكون خطوة أخرى يزداد بها نفوذ
اليهودى الأبدى . »

ولم تقتصر النازية على اضطهاد اليهود فى داخل ألمانيا ومصادرة أملاكهم
وسومهم سوء العذاب بل تتبعتهم فى الأقاليم التى سيطرت عليها، تتبعتهم فى بولندا
وفرنسا وفى بلجيكا وهولندا وفى اليونان ويوجوسلافيا وفى النرويج وروسيا
وفى رومانيا وبلغاريا وصبت عليهم أعظم الكوارث التى شاهدها تاريخهم . فلم
يبق من الـ ٣ مليون يهودى فى بولندا سوى ٦٠٠ ألف ، ومن الـ ٩٠٠ ألف
يهودى فى ألمانيا سوى بضعة آلاف لا تكاد تتجاوز أصابع اليد الواحدة ،
ولم يبق من مائتى ألف يهودى فى بلجيكا وهولندا سوى عشرة آلاف ، ومن
١٥٠ ألف يهودى فى النمسا سوى ٧ آلاف فقط ، ولم يبق على قيد الحياة أحد
من الثمانين ألف يهودى فى يوجوسلافيا .

وكان فى اليونان قبل الحرب ٩٠ ألف يهودى لم يبق منهم الآن غير ثمانية
آلاف أما الباقون وهم اثنان وثمانون ألفا فقد قتلوا رميا بالرصاص أو ماتوا
بسبب الاضطهاد والتعذيب أو أرسلوا إلى معسكرات العمل الإلزامى فى بولونيا
ونخست أثينا نفسها ١٢ ٪ من اليهود الذين كانوا فيها ولكن هناك مدنا
يونانية أخرى بلغت خسارة اليهود فيها ٨٠ ٪ . أما كريت ورودى فلم يبق
فيهما يهودى واحد .

١١٤- وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ مَنَعَ مَسْجِدَ اللَّهِ أَنْ يُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ وَسَعَى
فِي خَرَابِهَا أُولَئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَنْ يَدْخُلُوهَا إِلَّا خَائِفِينَ لَهُمْ
فِي الدُّنْيَا خِزْيٌ وَلَهُمْ فِي الآخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ

١١٥- وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَوَجَّهُ اللَّهُ وَإِنَّ اللَّهَ
وَاسِعٌ عَلِيمٌ

١١٦- وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحٰنَهُ بَلْ لَهُ مَا فِي السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قٰسِتُونَ

١١٧- بَدِيعُ السَّمٰوٰتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ

١١٨- وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ
كَذَلِكَ قَالَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ مِثْلَ قَوْلِهِمْ تَشَبِهتْ قُلُوبُهُمْ
قَدْ يَدَّبَّاتِ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ

١١٩- إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَا تُسْئَلُ عَنْ أَصْحَابِ
الْجَعِيمِ

١٢٠- وَلَنْ تَرْضَىٰ عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ
قُلْ إِنْ هَدَىٰ اللَّهُ فَمَا لِي بِالَّذِينَ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ بِعَدَا الَّذِي
جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ

١٢١- الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلَاوَتِهِ أُولَئِكَ
يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخٰسِرُونَ

ثماني آيات من كتاب الله الحكيم تضمنت من طعن أهل الكتاب من اليهود والنصارى على الله ودينه الحق ما تضمنت .

ويشير الله عز وجل في الآية الأولى إلى ما وقع من نيتوس الروماني إذ دخل بيت المقدس بعد موت المسيح بنحو سبعين سنة وخربها حتى لم يبق منها حجراً على حجر ، وهدم هيكل سليمان عليه السلام حتى لم يترك إلا بعض جدران مبعثرة ، وأحرق بعض نسخ التوراة ، وكان المسيح قد أُنذر اليهود بذلك .. وكان هذا يايعاز وتحرّض من المسيحيين انتقاماً منهم إذ أخرجوهم من ديارهم ، وتحققاً لوعيد المسيح . فتسللوا لوإذاً على قلتهم حتى وصلوا إلى رومية فخرضوا نيتوس على غزوهم في بلادهم وكان له هوى ذلك ، فأجابهم إلى ما طلبوا وكان منه ما علمت . وقوله تعالى : « ومن أظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها اسمه وسعى في خرابها ، أي وأي امرئ أشد تعدياً وجرأة على الله ومخالفة لأمره ، من امرئ منع من العبادة في المساجد ، وسعى في خرابها يهدمها أو تعطيل شعائر الدين فيها ، لما في ذلك من انتهاك حرمة الأديان المؤدى إلى نسيان الخالق ، وفشو المنكرات بين الناس ونشر الفساد في الأرض ، وهدم الدين ، والعمل على الرجوع بالإنسانية إلى عصور الشرك والضلال . « أولئك ، أي المانعون ، ما كان لهم أن يدخلوها ، أي ما كان لهم أن يدخلوا مساجد الله ، إلا خائفين ، أي على التهيّب وارتعاد الفرائض من المؤمنين أن يبطشوا به فضلاً أن يستولوا عليها أو يخرّبوها أو يمنع النبي صلى الله عليه وسلم عنها ، وقيل : نادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ألا لا يحجّن بعد هذا العام مشرك ولا يطوفن بالبيت عريان ، وقيل إن هذا خبر بمعنى الأمر أي أخيفوهم بالجهاد فلا يدخلها أحد آمنًا ، واختلف في جواز دخول الكافر المسجد : فجوزه أبو حنيفة ومنعه مالك وفرق الشافعي بين المسجد الحرام وغيره فمنع من الأول وجوز في الثاني بشرط إذن المسلم . . « لهم في الدنيا خزي ، أي هوان بالقتل والسبي والجزية ، « لهم في الآخرة عذاب عظيم ، بكفرهم وظلمهم ، وهو النار .

ولما عبرت اليهود المؤمنين في نسخ القبلة وقالوا ليست لهم ملة معلومة فتارة يستقبلون هذا وتارة هذا نزلت الآية الثانية أو أنها نزلت في صلاة النافلة على الرحلة في السفر حيث ما توجهت به راحلته . قال تعالى : « والله المشرق والمغرب ، أي ناحيتي الأرض كلها لا يختص به مكان دون مكان ، فإن منعم أن تصلوا في المسجد الحرام والأقصى فقد جعلت لكم الأرض كلها مسجداً » فأينما تولوا ، وجوهكم « قتم ، أي هناك » وجه الله ، أي قبلته كما قال مجاهد ، وقال الكلبي قتم الله يعلم ويرى ، والوجه زائد كقوله تعالى : « كل شيء هالك إلا وجهه ، أي إلا هو . إن الله واسع ، أي غني يعطي من السعة بسع فضله كل شيء » « عليم ، بتدبير خلقه .

ولما قالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله وقال مشركو العرب الملائكة بنات الله ، نزلت الآية الثالثة الكريمة وهي : « وقالوا اتخذ الله ولداً » ، قال الله تعالى رداً عليهم « سبحانه » ، تنزيهاً له عن ذلك فإنه يقتضى التشبيه والحاجة وسرعة الفناء ، « بل له ما في السموات والأرض ، ملكاً وخلقاً ومن جملة ذلك العزيز والمسيح والملائكة ، والملكية تنافي تنافي الولدية وعبر بما تغليباً لما لا يعقل لكثرتة » كل له قاتنون ، أي منقادون كل بما يراد منه لا يمتنعون عن مشيئته وتكوينه وفي ذلك تغليب العاقل لشرفه ، والآية مشعرة بفساد ما قالوا من ثلاثة أوجه : الأول ، قوله « سبحانه » ، والثاني « بل له ما في السموات والأرض » ، والثالث « كل له قاتنون » .

والآية الرابعة منها تشير إلى تنزيه الله وقدرته الخارقة « بديع السموات والأرض » ، أي موجودهما لا على مثال سبق وعدا وجه رابع يشعر بفساد ما قالوه أيضاً ، فإنه سبحانه وتعالى مبدع الأشياء كلها وهو فاعل على الإطلاق منزه عن الصفات فلا يكون والداً وإذا قضى أمراً ، أي أراد إيجاد شيء ، وأصل القضاء إتمام الشيء قولاً كان كقوله تعالى : « وقضى ربك ، أو فعلا كقوله تعالى : « فقضاهن سبع سموات » ، وأطلق على تعليق الإرادة الإلهية بوجود الشيء من حيث إنه يوجبه .. « فإنما يقول له كن فيكون » ، هذا مجاز

عن الكلام وتمثيل وإنما المعنى ان ما قضاه من الأمور وأراد كونه فإنما يكون ويدخل تحت الوجود من غير امتناع ولا توقف كما أن المأمور المطيع الذي يؤمر فيمثل لا يتوقف ولا يمتنع ولا يكون منه الإباء، وفيه تقرير لمعنى الإبداع دائماً، وهذا وجه خامس يشعر بفساد ما قالوه أيضاً لأن اتخاذ الولد مما يكون بأطوار ومهلة وفعلة تعالى يستغنى عن ذلك.. ويكون: بالنصب جواباً بالأمر والباقون بالرفع على معنى فهو يكون، فإن قيل المعدوم لا يخاطب اجب بأنه لما قدر وجوده وهو كائن لا محالة كان كالموجود فصح خطابه.

والآية الخامسة تشير إلى صنيع آخر لليهود مع الرسول صلوات الله وسلامه عليه، وهي: «وقال الذين لا يعلمون، للنبي صلى الله عليه وسلم وهم اليهود كما قاله ابن عباس، أو النصارى كما قاله مجاهد أو مشركو العرب كما قال قتادة، ونفى عنهم العلم لأنهم لم يعملوا به «لولا، أي هلا، يكلمنا الله، كما يكلم الملائكة أو يوحى إلينا بأنك رسوله» أو تأنيذاً آية، أي علامة عما اقترحناه على صدقك..» كذلك، كما قال هؤلاء، قال الذين من قبلهم، من كفار الأمم الماضية لأنبيائهم، مثل قولهم، من التعتت وطلب الآيات، فقالوا أرنا الله جهرة وهل يستطيع ربك أن ينزل علينا مادة من السماء، تشابهت قلوبهم، أي قلوب هؤلاء ومن قبلهم في الكفر والعناد؛ وفي هذا تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم «قد بينا الآيات لقوم يوقنون، الحقائق ولا يعترفهم شبهة ولا عناد، وفيه إشارة إلى أنهم قالوا ذلك لا لحناء في الآيات أو لطلب مزيد يقين، وإنما قالوه عتوا وعناداً.

وفي الآية السادسة رد بليغ عليهم، يقول الله تعالى «إنا أرسلناك، أي يا محمد «بالحق، أي القرآن قاله ابن عباس، كما قال تعالى: «بل كذبوا بالحق لما جاءهم، أو الإسلام وشرائعه كما قال ابن كيسان قال تعالى: «وقل جاء الحق»، «بشيراً، أي مبشراً من أجاب إلى ذلك بالجنة «ونذيراً، أي منذراً من لم يجب إليه بالنار أي إنا أرسلناك لأن تبشر وتندر لالتجبر الناس على الإيمان وهذه تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم لأنه كان يغم ويضيق صدره لإصرارهم وتصميمهم على

الكفر ، ولا تستل أصحاب الجحيم ، أى النار وهم الكفار ما لهم لم يؤمنوا بعد أن بينت لهم وبلغت جهدك فى دعوتهم ، كقوله تعالى : « فأما عليك البلاغ وعلينا الحساب » ، وقرىء « تسال » بفتح التاء وسكون اللام على النهى ، والمختار أنها نزلت فى كفار أهل الكتاب ، والقراءة المشهورة بضم التاء واللام على النهى ، أى ولست بمسئول .

والآية السابعة تشير إلى حرب اليهود والنصارى للإسلام ، قال تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم ، أى دينهم » أى لن ترضى عنك اليهود إلا باليهودية ولا النصارى إلا بالنصرانية وفى هذا مبالغة فى إقناطه ﷺ عن إسلامهم وذلك أنهم كانوا يسألونه الهدنة ويطمعونه أنه إن أمهلهم اتبعوه فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فإنهم إذا لم يرضوا عنه حتى يتبع ملتهم فكيف يتبعون ملته ، قل ، تعلبها للجواب ، إن هدى الله ، الذى هو الإسلام ، هو الهدى ، أى هو الذى يصح أن يسمى هدى وهو الهدى كله ليس وراءه هدى وما يدعون إلى اتباعه ما هو بهدى إنما هو أهواء ، ألا ترى إلى قوله تعالى « ولئن ، اللام لام القسم » أتبعنا أهواءهم ، أى آراءهم الزائفة التى يدعوونك إليها والخطاب معه ﷺ والمراد أمته كقوله تعالى : « لئن أشركت ليحبطن عملك » .. بعد الذى جاءك من العلم ، أى من الدين المعلوم صحته بالبراهين الصحيحة ، مالك من الله ولى « يحفظك » ولا نصير ، يمنعك منه .

والآية الثامنة نزلت فى جماعة من أهل الكتاب قدموا من الحبشة وأسلموا « الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته » أى يعرفونه كما أنزل لا يحرفونه ولا يغيرون ما فيه من نعت محمد ﷺ « أولئك يؤمنون به ، أى بكتابتهم دون المحرفين « ومن يكفر به ، أى بالكتاب بأن يحرفوه « فأولئك هم الخاسرون ، لمصيرهم إلى النار المؤبدة عليهم .

وفى الآية إيماء إلى أن الذين يتلون الكتاب دون أن يتدبروا معانيه ، لاحظ لهم من الإيمان ، لأنهم لا يفقهون هداية الله فيه ، ولا تصل العظة إلى أقدتهم بتلاوته .

وفي هذا عبرة لنا كما قال تعالى : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب »
 فينبغي أن يكون ذلك حافظا لنا على تدبر القرآن وفهمه لا قراءته لمجرد التلاوة
 كما قال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ، وقال : « ليتدبروا
 آياته وليتذكر أولو الألباب » . ولكن وا أسفا إن كل هذه الآيات والبرلم
 تحل بين هذه الأمة وتقليدها من قبلها وخذوها حذوهم شبرا فشبرا وباعا فباعا ،
 والقرآن حجة عليها كما جاء في الحديث « والقرآن حجة لك أو عليك » . ومن
 يتله وهو ممرض عن تدبره والتأمل في الدبرة منه يكن كالمستعزى به . ومما مثله
 إلا مثل من يرسل كتابا إلى آخر لغرض خاص فيقرؤه المرسل إليه متنى وثلاث
 ورباع ويترنم به ولا يلتفت إلى معناه ولا يكلف نفسه إجابة ما طلب فيه ،
 أيرضى المرسل بمثل هذا ويكتفى به عن إجابة طلبه أم يعده استمراء به ؟
 فعلى المؤمن في كل زمان ومكان أن يتلو القرآن بالتدبر والفهم والعمل بما
 فيه . فإن كان أميا أو أعجميا فإنه ينبغي أن يطلب من أهل الذكر أن يفهموه
 معناه ويشرحوا له مغزاه .

١٢٢- يَبْنِي إِسْرَائِيلَ أَذْكَرًا تَتَذَكَّرُ الَّذِي أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّي
 فَضَّلْتُكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ

١٢٣- وَأَتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا
 عَدْلٌ وَلَا تَنْفَعُهَا شَفَاعَةٌ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ

هاتان الآيتان الكريمتان هما بما قصه الله عز وجل من قصص في أحوال
 اليهود وصنيعهم مع أنبيائهم ومع رسولنا الأعظم محمد صلى الله عليه وسلم .
 وهما خطاب لليهود الذين كانوا في عصر النبوة ونزول القرآن الكريم ،
 وتذكير لهم بما سلف من نعمة الله على آباؤهم بإتقائهم من أيدي عدوهم وإنزال
 المن والسلوى لهم ، والتمكين لهم في البلاد بعد أن كانوا أذلاء مقهورين ،
 وإرسال الرسل منهم ، وتفضيلهم على غيرهم ممن كانوا بين ظهرانيتهم وذلك
 حين كانوا مطيعين لرسولهم ، ومصدين لما جاءهم من عند ربهم .

ومن أعظم ما أنعم الله عز وجل به عليهم التوراة التي نزلت علي رسولهم موسى عليه السلام .

ومن الرائع العجيب أن الله عز وجل بدأ في أواخر الربع الثاني من هذه السورة بذكر صنيع اليهود وقصصهم العجيب الغريب ، وكان بدء ذكر أحوالهم بالآية الكريمة (١) : «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم . وأوفوا بعهدي أوف بعهديكم ، وإياي فارهبون ، ثم كرر ذلك بعد ست آيات فقال عز وجل (٢) : «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين ، واتقوا يوماً لا تجزي نفس عن نفس شيئاً ولا يقبل منها شفاعة ولا يؤخذ منها عدل ولا هم ينصرون ..»

وفي هذا المقام ذكر الله تعالى هاتين الآيتين الكريمتين أيضاً مع بعض التغاير في الآية الثانية . فقال : «يا بني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم ، هذا امتنان عليهم بصنيع الله عز وجل مع آباؤهم مما سبق ذكره ، أو أن النعمة التي أنعم الله بها عليهم هي حياتهم حتى أدركوا عصر الرسالة ونزول القرآن وما يكرن للؤمن به من أجر عظيم ومثوية كريمة عند الله والناس ، وأني فضلتكم على العالمين ، أي فضلت آباءكم علي عالمي زمانهم ، وأهل عصرهم ..»
«واتقوا يوماً ، أي خافوه واحذروه واعلموا من أجله وهو يوم القيامة ، يوم النشور والجزاء والحساب ، لا تجزي ، أي لا تغني ، نفس ، أي مؤمنة ، عن نفس ، أي كائنة ، شيئاً ، التنكير هنا للتعميل أي شيئاً قليلاً ، أي تغني غناء يسيراً فضلاً عن الكبير ، «ولا يقبل منها عدل ، أي فداء ، ولا تنفعها شفاعة ، أي استشفاع بأحد الصالحين الذين شملهم رضاه الله ورضوانه ، ولا هم ينصرون ، أي في معركة يوم القيامة ، وفي هذا من التأكيد ما فيه بتقديم النفي وإيلاؤه الضمير ، وتكرار الإسناد . وبناء الفعل للمجهول للقطع بأن أحداً ما

(١) ٤٠ سورة البقرة .

(٢) ٤٧ و ٤٨ البقرة .

كبيراً أو صغيراً لا يستطيع نصرهم وتغيير حظهم الذي قدره لهم في الآخرة .
أى لا يأتيهم ناصر ينصرهم ويمنع عنهم عذاب الله إذا أنزل بهم ..
وفي هذه القصص التي ذكرها الله عز وجل كرر ذكر عبادة بنى إسرائيل
للعجل (٥١ و ٥٤ و ٩٢ و ٩٣ سورة البقرة) ، وكرر ذكر رفع الطور فوق
بنى إسرائيل (آية ٦٣ و ٩٣ البقرة) ، ولكنه التكرار المفيد البليغ الذي يأتي
لسد حاجة النفس من البيان ، ولتفصيل الرد على ما يرد على الفعل من شبهات ،
وبهذا ينتهي الربع السابع من سورة البقرة وقد تضمن ذكر الشبهات
التي أثارها أهل الكتاب من اليهود والنصارى ومن شابههم من المشركين على
على الاسلام ، وتضمن كذلك الرد عليهم بأبلغ بيان وأوضح عبارة ، وقد ختم
هذا الربع بدعوة اليهود إلى شكر نعمة الله عليهم بالإيمان بمحمد عليه السلام
وبالقرآن كتاب البشرية الحكيم .

١٢٤- وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ

لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ

١٢٥- وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً لِّلنَّاسِ وَأَمْنَا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ

إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَنَّ طَهِّرَا

بَيْتِي لِلطَّائِفِينَ وَاللَّكِيْفِينَ وَأُثْرَكِحِ السُّجُودِ

١٢٦- وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ

مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ ءَامَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَنْ كَفَرَ

فَأُمْتُهُ قَلِيلًا ثُمَّ اضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ

١٢٧- وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ

مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

١٢٨- رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمِينَ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا
مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ أَتَوَابُ الرَّحِيمِ

١٢٩- رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا عَلَيْنَا آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ
الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ

١٣٠- وَمَنْ يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ
أَصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّا فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ

١٣١- إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمُ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ

١٣٢- وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى
لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ

١٣٣- أَمْ كُنْتُمْ شُرَكَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتَ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ
مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ
إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

١٣٤- تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا
تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

إحدى عشرة آية اشتمل عليها الربع الثامن من سورة البقرة ، واشتملت
على ذكر جهاد أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام في إقرار عقيدة التوحيد في
الأرض ، ورفع منارته في العالم ، وبناء البيت العتيق ليكون مصدر الإشعاع
الروحي في الدنيا على اختلاف العصور والأجيال ...

وقبل أن نشرح هذه الآيات الكريمة نبدأ بذكر شيء قليل من تاريخ إبراهيم عليه السلام ودعوتته إلى التوحيد في الأرض ، وقصة أحفاده إلى يوسف عليه السلام . يقول صاحب كتاب « قصص من القرآن » :

إن إبراهيم أبا الأنبياء : ولد بأرض بابل من بلاد العراق منذ آلاف السنين في قرية اسمها « قدام أرام » وكان أهل تلك البلاد ينعمون بالعيش الرغد في ظل ملك مطاع وهو الملك نمرود بن كنعان ولكنهم كانوا في ضلال ميين ، يعبدون الأوثان فيحنونها بأيديهم ثم يتخذونها أربابا من دون الله . وكان آزر والد إبراهيم ينحت لقومه الأوثان ويتولى خدمتها وحرستها ويدعو الناس لتقديسها وعبادتها ، أما نمرود ملك الديار فكان مطلق اليدين في أمته لشدة سطوته وسلطانه وجهل الناس وعميتهم ، فأمرهم بأن يتخذوه إلهًا يعبدونه من دون الله فخصعوا لجبروته .

ونشأ إبراهيم سليم الفطرة طاهر النفس ففطر بفطرته من تلك الأوثان التي زحمته في بيت أبيه وبيوت الأهل وعند الناس أجمعين . وساء عكوف الناس على عبادتها مع أنها من صنع أيديهم ولا تغني شيئاً ، وتعاهد مع نفسه على أن يحارب تلك العبادة وأن يرد الناس إلى الله الواحد الأحد . . فلما بلغ مبلغ الرجال اختاره الله رسولا نبيا ليعلم الناس جميعاً أنهم عباد الله وأنهم بعد موتهم مبعوثون ليوم عظيم وأنهم محاسبون في الآخرة على أعمالهم . ولما حمل إبراهيم عليه السلام عبء النبوة وجلال الرسالة رأى أول ما رأى أن يدعو أباه إلى توحيد الله لأنه أمس الناس به رحما وأقربهم مودة . . ولقد اشتد به الحزن منذ رأى أباه أكبر الداعين لعبادة الأوثان فإذا هو استجاب لدعوته كان فوزه عظيما فأعد للحديث معه قولا لنا ودعاء هينا ، فلما خلا به قال له ما هذه الأصنام التي أنتم لها عاكفون؟ فقال أبوه لقد وجدنا آباءنا لها عابدين . فقال : يا أبت : لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك عنك شيئا يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني اهدك صراطا سويا . يا أبت لا تعبد الشيطان إن الشيطان كان للرحمن عصيا . يا أبت إني أخاف

أن يمسك عذاب من الرحمن فتسكون للشيطان وليا .

فأبى أن يسمع إلى ولده وأصر على عناده وكفره وقال له : أرأيت أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لإرجعتك . وثأب إبراهيم على دعوته لآبيه ولم يخالطه اليأس من هدايته . وقال يا أبت سلام عليك ما استغفر لك ربى إنه كان بى حنيا . فقال أبوه لست بتابع ملتك فاهجرنى مليا ، فخرن إبراهيم ويش من هداية آبيه وقال له وهو مززع فراقه إنى براء عما تعبد .

وخرج على قومه يدعوهم لعبادة الله ويبدل لهم من النصيح والارشاد ما بذل لآبيه ، ولكنهم نأوا بجوانبهم وقالوا له : أجتنا بالحق أم أنت من اللاعين . قال بل ربكم رب السموات والأرض وأنا على ذلك من الشاهدين . وكما يش إبراهيم من هداية آبيه امتد إليه اليأس من هداية قومه فقد ظلوا عما كفن على عبادة الأوثان ، فطوعت له نفسه أن يحطم أصنامهم ، وهمس فيهم وهو منصرف عنهم : تالله لأكيدن أصنامكم . وجاء يوم العيد وخرج الناس من المدينة لم يتخلف منهم أحد إلا إبراهيم ، فلما خلا له الجو دلف إلى بيت العبادة حيث التمايل والأوثان على الأرائك قائمة فانهاك عليها ينكسها ويحطمها حتى جعلها جذازا إلا كبيراً لهم ، وعادوا من عيدهم ودخلوا بيت الآلهة فراعهم ما حل بها من هوان وتحطيم فقالوا : من فعل هذا بألهتنا ؟ . إنه لمن الظالمين ، فقال لهم بعض من سمع همسات إبراهيم : انا سمعنا فنى يذكرهم يقال له إبراهيم . قالوا فأتوا به على أعين الناس لعلمهم يشهدون . وحمل إبراهيم إلى بيت الآلهة حيث جمع له أشراف المدينة وقالوا له : أنت فعلت هذا بألهتنا يا إبراهيم . قال : بل فعله كبيرهم هذا فاسألوهم إن كانوا ينطقون .

فتاب الناس إلى رشدهم ولاحت لهم الحقيقة مسافرة . فإن الأوثان لاتنطق ولا تعقل وواجهوا إبراهيم باللائمة والتفريع وقال أتعبدون من دون الله مالا ينفعكم شيئاً ولا يضركم ، أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون ، وعلى الرغم من تلك الحججة البالغة فانهم اصرروا على كفرهم وعنادهم واتسمروا

فما بينهم على النار لآلهتهم وتنادوا بالشر والعدوان وصاحوا في صوت واحد :
أحرقوه وانصروا آلهتكم ان كنتم فاعلين .

فاجتمعوا حول حظيرة فسيحة وكندسوا بها أخطابا كثيرة ثم أوقدوا النار
فيها حتى اشتد لهيبها وحملوا إبراهيم فوق آلة وقذفوه في أتونها وظنوا أن
النار قد أتت عليه ولكن الله كان يرعاه ، وخرج من وقدة النار وحممها سليما
معافى وأصبحت الجحيم التي أجهجوها لإحراقه يردا وسلاما على إبراهيم ،
فقال الناس ذلك الاعجاز البالغ وقرع عقولهم حتى كادوا يؤمنون بإله إبراهيم
لولا ما سبق في غيب الله من الحادهم وكفرهم .

وذاعت روعة المعجزة البالغة حتى نفذت إلى نمرود الملك في قصره فأمر
بإبراهيم أن يحمل إليه فلما مثل بين يديه أنكر عليه خروجه على إجماع قومه
الذين يعبدونه دون الله . ومحاوخته الدعوة لعبادة إله آخر مع ان يديه ملكوت
كل شيء ، وسأله من هو ربه الذي يؤمن به ويدعو الناس لعبادته ، فقال له
إبراهيم : ربي الذي يحيي ويميت ، فقال الملك أنا أحيي وأميت فصدمه إبراهيم
بالحجة الحاسمة ، وقال : إن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب ،
فبنت الملك وأخف وألجمته الحجة ، وخرج إبراهيم من مجلس الملك خائفا يترقب
وأحاطت به عيون الرقباء وتربصوا به السوء . فعقد العزم على الهجرة من
وطنه والفرار من وجه ذلك الملك الطاغية ومن قومه المفتونين ، وتجهز
هو وزوجه سارة وفي غفلة من عيون نمرود فر من المدينة فاخترق الصحراء
إلى سوريا وحط رحاله في أرض كنعان وهي فلسطين وبث بين أهلها حقة
من الزمن يدعو لعبادة ربه وينفر الناس من تلك الأوثان التي عكفوا عليها .

ثم نزل الغلاء والقحط بالناس فرحل إبراهيم وزوجه إلى مصر حيث
الرخاء والرزق الموسع ، وكان حكام مصر من ملوك الرعاة وجعل إبراهيم
يطوف المدينة بزوجه ساره ، وكانت فاتنة الحسن فأعجب بها الناس ونقلوا
خبرها إلى الملك ، فدعا الملك إبراهيم إلى قصره وسأله عن سارة فقال : إنها
أخته وقد أدرك ما يرمى إليه الملك من الرغبة فيها ولو كان صدقه بأنها أهله

ليادر الملك بانفتك به لتخلص له زوجه فزعم أنها أخته فأمر بها الملك فحملت إلى القصر وأفاضوا عليها زينة الثياب والجواهر النفيس والقلائد وبسطوا لها الفرش الموطاة والأرائك من خالص الذهب فلم يفتنها ذلك النعيم المقيم ولا أنساها الوفاء لزوجها والبقاء على طهرها وعفتها وعصمها الله من الملك ، فلما أقبل عليها فتن بما لمس من ملاحتها وجالها وأراد أن يمد يده إلى ناحيتها فأحس برجفة في بدنه وسرى إليه وهم قاتل فكف يده عنها فلما استعاد سكينته وسلامته يديه هم بها مرة ثانية فتصلبت أنامله وتمشت الرجفة في بدنه إلى أقصى فواده فبين أنها قد عصمت منه بسياج من العفة والتقى لا يستطيع اجتيازه فكف عنها ، فلما جن عليه الليل رأى في المنام من هتف به ليخلى سبيلها ويكف عنها فلما أصبح سرحها إلى زوجها ووهبها جارية من سرايا القصر هي هاجر أم إسماعيل . ولبت إبراهيم بمصر فترة من الدهر فكانت له أنعام يرعاها ويعيش بنعمتها حتى بدا له أن يعود إلى أرض كنعان .

واستقر إبراهيم بفلسطين ومعه زوجه سارة وجاريتها هاجر فطال المدى بهم وبلغوا من الكبر مبلغه ولم ترزق سارة ذرية وكانت ترجو الولد رحمة بزوجها الذي تقدمت به السن وطال عليه الأمل في الولد فوهبته جاريتها هاجر على أن تنجب له الولد المنشود فاستجاب الله لهذا البيت الطاهر ورزق إبراهيم وهو في السادسة والثمانين - غلاماً نجيباً من جاريته هاجر فدعاه إسماعيل وقرت به عينه وشاركته في سروره وزوجه سارة ولبت سارة في نشوة السرور بالغلام الوليد فترة من أيامها ، ثم لحقتها نزعة الغيرة فبرمت بالغلام وأمه وأصبحت لا تطيق العيش بجانبها وفاتحت إبراهيم في ذلك وسألته أن يحملها إلى مكان قصي من نواحي الدنيا فلا تراهما ولا تسمعها ، وكان قدرا محتوما فأوحى الله إلى إبراهيم أن يحمل هاجر وإسماعيل إلى البرية البعيدة ، إلى جنوب كنعان حيث مقر بيت الله وكعبته الموعودة ، فركب دابته وحمل الطفل وأمه واخترق بها الفيافي المقفرة والوديان القاصية يحدوه إلهام الله تعالى ويقود زمامه الوحي الكريم ويثبت أقدامه سلامة العقيدة وصدق الظنون في تلك الرحلة

المضنية حتى وقف به الترحال عند مكان بيت الله الحرام .
وما كان أحد قبل إبراهيم قد جاس تلك البقاع الطاهرة فأنزل ولده وأمه
في الصحراء ، وليس بمكة يومئذ أحد وليس بها ماء فوضعها هنالك ووضع
عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء . ثم ولي إبراهيم منطلقا فبعثته أم إسماعيل ،
وقالت يا إبراهيم : أين تذهب وتركننا بهذا الوادي الذي ليس به أنيس ولا
شيء . . . قالت له ذلك مرارا وهو لا يلتفت إليها ، فقالت له : هل أمرك الله
بهذا ؟ قال : نعم ، قالت : إذا لا يضيئنا الله . ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى
إذا كان عند العقبة من الجبل حيث لا يروونه استقبل بوجه البيت الحرام ثم
رفع يديه يناجي ربه وقال : ربنا إني أسكنت من ذريتي بواد غير ذي زرع
عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوي إليهم
وارزقهم من الثمرات لعلهم يشكرون .

وجعلت هاجر ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما في
السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه وهو يتلوى ، فانطلقت كراهة
أن تنظر إليه فوجدت الصفا ، أقرب جبل من الأرض يليها ، فقامت عليه ثم
انستقلت الوادي تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، فهبطت من الصفا حتى إذا
بلغت الوادي رفعت طرف درعها ثم سعت سعي الإنسان المجهود حتى جاوزت
الوادي ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى أحدا فلم تر أحدا ، ففعلت
ذلك سبع مرات ، ومن ثم كانت حكمة الصفا والمروة في مناسك الحج .

فلما أشرفت على المروة سمعت صوتا فقالت : صه .. تريد نفسها ..
ثم تسمعت فسمعت أيضا فقالت : أسمعت فأعثنى ، فإذا هي بالملك عند موضع
زمزم فبحث بجناحه حتى ظهر الماء ، فجعلت تحوضه ثم أخذت تغرف منه في
سقاءها وهو يفور بعدما تغرف فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك
لا تخافوا الضيعة فإن ها هنا بيت الله بينه هذا الغلام وأبوه .

وكان البيت الحرام مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن
يمينه وشماله ، كان كذلك حتى مرت بهم قافلة من اليمن هي أهل بيت من

قبيلة جرهم مقبلين من أعلى مكة فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا يتردد على الماء ويحوم حوله ولا يتحول عنه فقالوا : إن هذا الطائر ليدور على ماء ، نعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء ، فأرسلوا رسولا أو رسولين فإذا هما بالماء فرجما فأخبراهم بالماء فأقبلوا وكانت أم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن نزل عندك فقالت : نعم ولكن لا حق لكم في الماء قالوا لها : نعم فاطمأنت بهم أم إسماعيل ووجدت فيهم الأنيس الذي يحميا فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم وكان فيهم أهل يان فشب إسماعيل وتعلم العربية منهم ، فأحبوه وأعجبوا به حين كبر .

واعتماد إبراهيم أن يزوره ليطمئن عليه ، وذات ليلة رأى في المنام أن الله يأمره بذبح ولده إسماعيل فامثل لأمر ربه وسارع إلى طاعته وسافر إليه وكان قد راهق ونما عوده فقال له يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى؟ فاطاع الغلام أمر ربه وأجاب أباه قائلا : يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين فأوثق يديه ومد يده ليذبحه فناداه ربه يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، ونزل من السماء ملك ويده ذبح عظيم فذبحه إبراهيم ، وأصبحت تلك الشعيرة سنة موروثه اتبعها المسلمون في عيد الأضحى فيذبحون ضحاياهم فداء لإسماعيل ، وشب إسماعيل حتى بلغ أشده وتعلم العربية من قبيلة جرهم ثم تزوج امرأة منهم وماتت أمه هاجر . وزاره إبراهيم ، وكان إسماعيل قد تزوج ، فلم يحده فسأل امرأته عنه فقالت خرج بيتي لنا الرزق ثم سألتها عن عيشتهم وهيئتهم فقالت نحن بشر عيش نحن في ضيق وشدة . قال : فإذا جاء زوجك فاقرنيه السلام وقولي له يغير عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل كأنه ابصر شيئا لم يعهده فقال : هل جاءكم من أحد؟ قالت : نعم جاءنا شيخ صفة كذا وكذا فسألني عنك فأخبرته وسألني كيف عيشنا فأخبرته أتنا في جهد وشدة ، قال : فهل أوصاك بشيء قالت نعم أمرني أن أقرئك السلام ويقول : غير عتبة بابك ، قال إسماعيل : ذلك أبي وقد أمرني أن أفارقك فالحقى بأهلك ، فطلقها وتزوج من امرأة أخرى ، وغاب

عنهم إبراهيم ما شاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجد إسماعيل فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت خرج ينبغي لنا الرزق قال كيف أتم وسألها عن عيشهم وهيتهم فقالت نحن بخير وسعة وأنت على الله فقال ما طعامك قالت اللحم قال ما شرابكم قالت الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء . قال فإذا جاء زوجك فأقرئته للسلام ومريه يثبت عتبة بابه . فلما جاء إسماعيل قال : هل أنا كم من أحد ؟ قالت : نعم أنا نا شيخ حسن الهيئة ، وأنت عليه ، فسألني عنك فأخبرته فسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا بخير قال : فأوصاك بشيء قالت : نعم هو يقرئك السلام ويأمرك أن تثبت عتبة بابك ، قال : ذاك أبي وأنت العتبة أمرني أن أمسكك .

ولبت إبراهيم بعيداً عنهم ما شاء الله ثم جاء وكان إسماعيل يرى زبلا له تحت دوحة قريباً من زمزم فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال يا إسماعيل إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك ، قال : وتعينني ، قل : وأعينك ، قال : فإن الله أمرني أن ابني ها هنا بيتا وأشار إلى أكمة مرتفعة عالية . فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء إسماعيل بالحجر الأسود فوضعه فقام عليه إبراهيم وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وطلق الاثنان يبتهلان إلى الله قائلين : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا منا سكنا وتب علينا إنك أنت للثواب الرحيم ، ربنا وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ، وعاش إسماعيل مائة وسبعا وثلاثين سنة .

وشاخ إبراهيم عليه السلام وزوجه سارة ولم يرزقا ذرية حتى كانت البشارة ياسحاق من الملائكة لإبراهيم وسارة حين قدموا على إبراهيم وقالوا له سلاما ، فقال سلام ، فما لبث أن جاء بعجل حنيد ، فلما رأى أيديهم لاتصل إليه فكرم وأوجس منهم خيفة قالوا لا تخف إنا أرسلنا إلى قوم لوط

وامرأته قائمة فضحكت فبشرناها بإسحاق ومن وراء إسحاق يعقوب ، قالت :
يا ويلتنا ألد وأما عجوز وهذا بعلي شيخا؟ إن هذا لشيء عجيب ، قالوا :
أنعجين من أمر الله رحمة وبركاته عليكم أهل البيت إنه حميد مجيد ، وكان عمر
إبراهيم حين ولد له إسحاق مائة سنة .

لما قبض الله تعالى إبراهيم سكن ولده إسماعيل الحرم بمكة وأقام واده
إسحاق بدمين وبلاد الشام ومعه بقية أولاد إبراهيم أبيه ثم بعث الله إسحاق
نبياً ورسولاً بالأرض المقدسة فأقام بها ثمانين عاماً حتى كف بصره ورزق على
الكبر غلامين توأمين هما عيص ويعقوب وكان عيص أحبهما إلى أبيه ويعقوب
أحبهما إلى أمه فلما كبر إسحاق وكف بصره ، قال لولده عيص : يا بني أريد
منك أن تطعمني لحم صيد واتقرب مني ادع لك بدعاء دعا به أبي ، فخرج عيص
يطلب الصيد وسمعت أمه كلام إسحاق فقالت ليعقوب : يا بني اذهب إلى الغنم
فاذبح منها شاة ثم اشوها وقدمها إلى أبيك وقل له أنا ولدك عيص ففعل يعقوب
ذلك وقال يا أبتاه كل . قال من أنت . قال أنا ولدك عيص ، فسه إسحاق
وقال المس مس عيص والريح ريح يعقوب ، فقالت أمه هو ابنك عيص فادع
له . قال : قدم طعامك فقدمه فأكل منه ثم قال له ادن مني فدنا منه فدعا له إن
يجعل الله في ذريته الأنبياء والملوك . وقام يعقوب وجاء عيص فقال لأبيه قد
جئتك بالصيد الذي أمرتني به فقال يا بني قد سبقك أخوك يعقوب ، فغضب
عيص وتوعد أخاه بالقتل فقال له أبوه يا بني قد بقيت لك دعوة فهل أدع لك
بها فدعا له فقال له تكون ذريتك عدداً كثيراً كالتراب ولا يملكهم أحد
غيرهم ، وخافت أم يعقوب عليه من غوائل أخيه عيص وقالت له يا بني الحق
بخالك وكن في كنفه ثم وصاه أبوه بالحذر من أخيه عيص وقال له يا بني ارحل
إلى العراق ، إلى قرية فدان أرام حيث يقسم خالك عسى أن يزوجك من
إحدى بناته فتنال الأمن والعز والشرف وإني لأرجو لك عيشاً خيراً من
عيش أخيك وذرية صالحة خيراً من نسله .

وقام يعقوب برحلته المصنية محترقاً صحراء سوريا إلى أرض العراق فكان

يسير الليل ويقيم بالنهار ، وتام في الطريق إلى جانب صخرة فرأى في المنام
معراجاً منصوباً من السماء إلى الأرض وإذا الملائكة يصعدون فيه وينزلون
وإذا بالوحي يهبط عليه من قبل الله تعالى بأن الله سيباركه وذريته وقد جعل
هذه الأرض لعقبه من بعده ، فلما أفاق من نومه فرح بما رأى ونذر الله لأن
يرجع إلى أهله سالماً لينين في هذا الموضع معبداً لله عز وجل وأن كل ما يرزقه
من شيء فله عشره ، وسمى ذلك الموضع الذي بات فيه بيت ايل أي بيت الله
وهو موضع بيت المقدس الذي بناه يعقوب بعد ذلك .

وأتم يعقوب رحلته فبلغ موطن آبائه وهي أرض إبراهيم التي تبينت فيها
نبوته ورسالته ، وبها أرض خاله والتي يعقوب بخاله فأحله من نفسه محلاً
كريمياً ، ولما قضى أيام ضيافته سأله يعقوب أن يزوجه ابنته راحيل فأنعم
واستجاب ، ولكن يعقوب كان معدماً لآماله فعرض عليه لابان أن يرعى
غنمه سبع سنوات ليكون من ذلك صداق ابنته فرضى بذلك يعقوب
وانصرف إلى خدمة خاله ورعاية غنمه حتى انقضى الأجل فزف لابان إليه
ابنته الكبرى « ليا » فقال يعقوب إنما أردت راحيل فأجابه بأنهم لا يزوجون
للصغرى من البنات قبل الكبرى فإن أردت الزواج براحيل فأرع لنا اغنامنا
سبعة أعوام أخرى فقبل يعقوب واندرج في عمله حتى انقضى الأجل فزوجه
من راحيل فجمع يعقوب بين الأختين وكان ذلك مباحاً في شرائعهم .

ورزق يعقوب عدداً من البنين من زوجته ليا - وابطاً الحظ براحيل
وطال عليها أمد العقم فلجأت إلى ربها تدعوه وتتوسل إليه أن يهبها غلاماً
فسمع الله دعائها واستجاب لندائها فولدت ليعقوب غلاماً جميلاً الوجه عظيم
القدر فسمته يوسف فاشتد به فرح يعقوب وآثره على بقية إخوته وأطال المقام
عند خاله ست سنوات فأكل بذلك عشرين عاماً بأرض بابل ثم بدا له أن
يعود إلى قومه فقد طالت هجرته فكاشف خاله بشأنه فقال له لقد بارك الله
لي في مالي بسببك فسلمني من النعم والشاء ماشئت وأعطاه من الغنم والمعز والبقر
والإبل فأرضاه وهم يعقوب بالرحيل فلحق به خاله في الطريق وعاتبه على

الرحيل قبل أن يودع ابنتيه وأولادهما ، ثم استأنف يعقوب رحلته الطويلة حتى قرب من وطنه فأرسل رسله إلى أخيه عيص يترفق له ويتواضع فعادت إليه الرسل بأن أخاه عيص قد خف لاستقباله في حشد كبير من عبيده وغلماؤه فخشى يعقوب غوائل أخيه عيص أن يبطش به وتضرع إلى الله وناشده عمده ووعدته وسأله أن يكف عنه شر أخيه .

وأعد لأخيه هدية من الغنم والبقر والإبل والجر فلما دنا من موطن قومه قبدى له من السماء ملك في سمة رجل فمشى إليه وسأله عن اسمه ، فقال اسمي يعقوب فقال له : لا ينبغي لك أن تدعى بعد اليوم إلا إسرائيل .

وأقبل أخوه عيص في جمعه وحاشيته فلما رآه يعقوب سجد له سبع مرات وكانت هذه تحيتهم في ذلك الزمان يراها الناس عملاً مشروعاً لهم ، وذلك كما سجدت الملائكة لآدم تحية له وكما سجد إخوة يوسف وأبواه له — فلما رآه عيص احتضنه وقبله وبكى ثم سجدت نساء يعقوب وأولاده لأخيه عيص وعرض يعقوب هديته على أخيه فقبلها ، فلما بلغ يعقوب ناحية ساحور ابنتى لنفسه وأهله بيتاً وأقام العرائش لدوابه وانعامه ، ثم مر على أورشليم فأشترى بها مزرعة وضرب فسطاطه وابنتى مذبحاً اسماء بيت إيل وهو بيت المقدس وقد جدده سليمان بعد ذلك .

وحملت راحيل بولدها الثاني ثم وضعته وسمته بفيامين ، ثم ماتت في أيام نفاسها . وصار ليعقوب من البنين اثنا عشر واداً ذكراً .

هذا ولم تناول التوراة حياة إبراهيم بين الكلدانيين ومجوداته لاقتناعهم بوجود إله واحد ومحاولته نشر دعوته وتحطيم أصنامهم وقذفهم به في النار ونجاته منها ولم تناول علاقته بوالده وما دار بينهما كما لم تتكلم عن إعادة بناء إسماعيل للبيت الحرام ، بينما تناول القرآن الكريم هذه الحقائق التاريخية بالإيضاح والتقرير .

وبهذه المناسبة نذكر أيضاً أن القرآن الكريم قد انفرد دون التوراة بذكر

الحقائق الآتية عن موسى عليه السلام وهي :

١ - الشرط الذي اشترطه على موسى لتزويجه إحدى ابنتيه : « على أن تأجرني ثمانى حجج فإن آمت عشرا فمن عندك » (١) وقضاء موسى أبعد الأجلين .

٢ - إيمان السحرة الذين تحدوا موسى وسجودهم لله وصلب فرعون لهم وتعذيبهم .

٣ - امرأة فرعون وإيمانها خفية ، وأمر فرعون لها أن يبني له صرحا ليطلع على إله موسى .

٤ - انتقال جثة فرعون بعد غرقه ، اليوم فتجيك بيدك لتكون لمن خلفك آية ، (٢) .

٥ - مؤمن آل فرعون الذي أخذ يعظ الشعب ليهديهم سبل الرشاد .

وقوله تعالى في الآية الأولى : « وإذا ابتلي إبراهيم ربه بكلمات فأتمن ، ؛ الابتلاء : الاختبار أى معرفة حال المختبر بتعريضه لأمر يشق عليه فله أو تركه ، والكلمات واحدها كلمة وتطلق على اللفظ المفرد وعلى الكلام المفيد ، والمراد هنا معناها من أمر ونهى ، وأتمن أى قام بهن خير قيام وأداهن أحسن للتأدية بلا تقريط ولا توان ، وإماما أى رسولا .

فبعد أن حاج الله سبحانه أهل الكتاب وبين كفرهم بالنبي الذى كانوا ينتظرونه لبشارة كتبهم به ، ذكر هنا الأساس الذى بنى عليه الإسلام والنسب الذى يمت به ويحترمه أهل الكتاب ومشركو العرب ، وهو ملة إبراهيم ونسبه ؛ فلا فضل إذا لليهود على العرب بأنهم يمتون بالنسب إلى إبراهيم ودين إبراهيم ، إذ النسب واحد والملة واحدة .

(١) سورة القصص .

(٢) سورة يونس .

فالقرآن حاج أهل الكتاب الذين جاء لإصلاح دينهم بما أدخلوه عليه من تحريف لبعضه ونسيان لبعضه الآخر ، وأثبت التوحيد والتنزيه لله تعالى ، وحاج أهل الشرك والوثنية التي جاء لمحوها ، تارة بالبراهين العقلية وتارة بالأدلة الكونية في كثير من السور ولا سيما السور المسكية .

ومعنى : « وإذا ابتلي إبراهيم ربه بكلمات ، فأتمن ، أي واذكر لقومك المشركين وغيرهم حين اختبر إبراهيم ربه ببعض الأوامر والنواهي عليه فأداها خير الأداء ، وأتى بها على وجه السكال كما قال : « وإبراهيم الذي وفى » .. والمراد من ذكر الوقت ذكر ما وقع فيه من الحوادث ، لأن الوقت محتو عليها ، فإذا استحضرت كانت حاضرة بتفاصيلها كأنها مشاهدة عيانا . والقرآن الكريم لم يعين الكلمات ، ومن ثم اختلفوا فيها فقبل هي مناسك الحج ، وقيل إنها الكواكب والشمس والقمر التي رآها واستدل بأفولها على وحدانية الله تعالى وقيل هي الأوامر والنواهي التي جاءت بها شريعته ، وقال عكرمة رواية عن ابن عباس : الكلمات ثلاثون من شرائع الإسلام : عشرة في برامة وهي « التائبون الح » ، وعشرة في الأحزاب وهي « ان المسلمين والمسلمات الح » ، وعشرة في سورة المؤمنين إلى قوله تعالى : « والذين هم على صلواتهم يحافظون » ، وفي سورة سأل سائل ، إلى قوله تعالى : « والذين بشهاداتهم قائمون » ،

والضمير في « ربه » لإبراهيم لتقدمه « فأتمن » ، أي أداهن تامات وقام بها حق القيام كقوله .. وإبراهيم الذي وفى ، « إني جاعلك للناس إماما » يقتدى بك في الخير ، والإمام اسم من يؤتم به وإمامة إبراهيم عامة مؤبدة إذ لم يبعث من بعده نبي إلا كان من ذريته ومأمورا باتباعه « قال ، إبراهيم عليه السلام » ومن ذريتي ، أي أولادى اجعل أئمة يقتدى بهم في الخير ، قال ، الله تعالى : « لا يزال ، أي لا يصيب » عهدى ، بالإمامة ، الظالمين ، منهم ففى ذلك إجابة على المطلوب وتنبه على أنه قد يكون من ذريته ظلة وأنهم لا ينالون الإمامة

لأنها إمامة من الله تعالى وعهد ، والظالم لا يصلح لها، وإنما ينالها البررة والآتقياء منهم ، وفيه دليل على عصمة الأنبياء من الكبار قبل النبوة وأن الفاسق لا يصلح للإمامة .

والآية الثانية هي قوله تعالى : « وإذ جعلنا البيت ، أى واذكر إذ جعلنا للكعبة ، مثابة ، أى مرجعاً للناس ، من الحجاج والعمار وغيرهم يشيرون إليه من كل جانب ، وأمنا ، أى مأمنا لهم من الظلم وإيذاء المشركين والإغارة الواقعة في غيره قال تعالى : « أولم يروا أنا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ، ، كان الجاني يأوى إليه فلا يتعرض له حتى يخرج وهذا على طريق الحكم لا على وجه الخبر فقط فلا ينافي ذلك الوقوع ، ووصف البيت بالآمن ، والمراد الحرم كله لأنه لا يذبح في الكعبة ولا في المسجد الحرام . » واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، هذا أمر استجاب ، وكان إبراهيم يقوم عليه عند بناء للبيت أو عند دعاء الناس إلى الحج ، روى أنه عليه الصلاة والسلام أخذ بيد عمر ، فقال : هذا مقام إبراهيم ، فقال عمر : أفلا تتخذة مصلى فقال : لم أؤمر بذلك ، فلم تغب الشمس حتى نزلت .

وعن ابن عباس أنه قال ، قال عمر بن الخطاب رضى الله تعالى عنه ، وافقت الله في ثلاث ووافقني ربي في ثلاث : قلت يا رسول الله لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى فأنزل الله هذه الآية ، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر لو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب ، قال وبلغتني معاتبه النبي صلى الله عليه وسلم فدخلت عليهن وقلت لمن إن اتيهتن أو لبيدن لرسوله خيراً منسكن فأنزل الله تعالى : « عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيراً منكن ، . . » وقيل المراد باتخذوا من مقام إبراهيم مصلى الأمر بركعتي الطواف ، لما روى جابر أنه عليه الصلاة والسلام لما فرغ من طوافه عمد إلى مقام إبراهيم فصلى خلفه ركعتين وقرأ « واتخذوا من مقام إبراهيم مصلى ، ، وللشافعي في وجوبها قولان أرجحهما عدم الوجوب ، وقيل مقام إبراهيم الحرم كله ، وقيل موافق الحج واتخاذها مصلى أن يدعى فيها

ويتقرب إلى الله تعالى : « وعهدنا ، أي أمرنا ، إبراهيم وإسماعيل ، ؟ » ان ، أي بأن ، طمرا بيتي ، من الأوثان والأنجاس وما لا يليق به وأخلصناه « للطائفين » حوله « والعاكفين ، المقيمين عنده أو المتسكفين فيه » والركع والسجود ، جمع راكع وساجد وهم المصلون .

والآية الثالثة هي قوله تعالى : « و » أي واذكر « إذ قال إبراهيم رب اجعل هذا ، أي مكة أو الحرم « بلدا آمنا ، أي ذا أمن كقوله تعالى في عيشة راضية ، أو آمنا أهله كقول القائل ليل نائم « وارزق أهله من الثمرات ، إنما دعي بذلك لأنه كان بواد غير ذي زرع . وقوله تعالى : « من آمن منهم بالله واليوم الآخر ، بدل من أهله ، قاس إبراهيم صلوات الله وسلامه عليه الرزق على الإمامة حيث قيده بالمؤمن كما قيدت به قال تعالى : « و » ارزق « من كفر ، لأن الرزق رحمة دنيوية تعم المؤمن والكافر بخلاف الإمامة والتقدم في الدين « فأتمعه ، في الدنيا بالرزق « قليلا ، أي مدة حياته ، والكفر وإن لم يكن بسبب التمتع لكنه بسبب تقليله بأن يجعله مقصورا بحظوظ الدنيا غير متوسل به إلى نيل الثواب ولذلك عطف عليه « ثم اضطره ، أي ألجته في الآخرة « إلى عذاب النار ، فلا يجد عنها محيصا « وبئس المصير ، أي المرجع والمخصوص بالذم محذوف وهو العذاب .

وفي الآية الرابعة يذكر الله عز وجل قصة بناء البيت الشريف بيد إبراهيم وإسماعيل « و » اذكر « إذ يرفع إبراهيم القواعد ، أي الأسس أو الجدر « من البيت .. هذا حكاية حال ماضية كأنه قال إذ كان يرفع ، وفي إبهام القواعد وتبينها بعد الإبهام ما ليس في إضافتها من الإيضاح بعد الإبهام من تفخيم شأن الميين . « وإسماعيل ، عطف على إبراهيم ، يقولان يا ربنا تقبل منا ، أي بناءنا « إنك أنت السميع ، للقول فتسمع دعاءنا « للعليم ، أي عليم بيناتنا .. روى أن الله تعالى أمر إبراهيم بعد ما ولد له إسماعيل وإسحاق ببناء بيت يذكر فيه اسمه تعالى فسأل الله عز وجل أن يبين له موضعه قال ابن عباس فبحث الله له سبحانه على قدر الكعبة فجعلت تسير وإبراهيم يمشي في ظلها إلى أن وافقت به مكة

ووقفت على موضع البيت فنودي منها إبراهيم أن ابن علي ظلها ولا تزد
ولا تنقص وقيل أرسل الله تعالى جبريل ليدله على موضع البيت فذلك قوله
تعالى : « واذ بوأنا لإبراهيم مكان البيت ، فبنى إبراهيم وإسماعيل البيت ، فكان
إبراهيم بينيه وإسماعيل بناوله الحجارة ، ولما كان له مدخل في الباء عطف عليه ،
وقيل كانا يبنيان في طرفين أو على التناوب ، وبنيا قواعده من جبل حراء
وهو جبل بمكة فلما انتهى إبراهيم إلى موضع الحجر قال لإسماعيل اتقني بحجر
حسن يكون للناس علما فاتاه بحجر فقال اتقني بحجر أحسن من هذا فضى
إسماعيل يطلبه فأخذه من أبي قيس فأخذ الحجر الأسود فوضعه مكانه ، وقيل
أول من بنى الكعبة آدم ثم اندرس البناء زمن الطوفان ، ثم أظهره الله تعالى
لإبراهيم حتى بناه ، وقيل بنته الملائكة قبل آدم وقد بنى إلى يومنا هذا سبع
مرات المرة الأولى بناء الملائكة أو آدم ثم إبراهيم ، ثم العماقة ، ثم جرهم ثم
قريش ، وقد حضر النبي صلى الله عليه وسلم هذا البناء ، وكان ينقل معهم
الحجارة ، ثم ابن الزبير في خلافته ثم الحجاج الثقفي وهو الموجود اليوم .

والآية الخامسة هي قوله تعالى : « ربنا واجعلنا مسلمين ، أي منقادين
مخلصين خاضعين لك ، والمراد طلب الزيادة في الإخلاص والإذعان ، « وءاجل
« من ذريتنا ، أي أولادنا « أمة ، أي جماعة « مسلمة ، خاضعة منقادة « لك ،
« ومن التبعية أي واجعل بعض ذريتنا وإنما خصا الندية بالدعاء لأنهم أحق بالشفقة
ولأن أولاد الأنبياء إذا صلحوا صلح بهم الأتباع ألا ترى أن المتقدمين من
العلماء والكبراء إذا كانوا على السداد كيف يتسيرون في سداد من وراءهم وخصا
بعضهم تقدم قوله تعالى : « لا ينال عهدى الظالمين ، فعلمنا أن في ذريتها ظلمة
وأن الحكمة الإلهية لا تقتضى اتفاق الناس كلهم على الإخلاص لله تعالى .
ويصح أن يكون من النبيين كقوله تعالى « وعد الله الذين آمنوا منكم ، وقيل
أراد بالأمم أمة محمد ﷺ .. « وأرنا مناسكنا ، أي شرائع ديننا وأعلام حجنا
والنسك في الأصل غاية العبادة وشاع في الحج لما فيه من الكلفة والبعد عن
المعتاد كالصيد والتمتع باللباس وغيره والناسك العابد ، فأجاب الله دعاهما

وبعث لها جبريل فأراها المناسك في يوم عرفة فلما بلغ عرفات قال عرفت يا إبراهيم قال نعم فسمى الموقف عرفة والموضع عرفات ، وتب علينا ، سأله للتوبة مع عصمتها هضما لأنفسهما وإرشادا لذريتهما أو لما سلف منهما سهوا قبل النبوة ، إنك أنت التواب لمن تاب الرحيم ، به .

والآية السادسة دعاء وبشارة برسالة محمد عليه السلام . . ، ربنا وابعث فيهم ، أي الأمة من أنفسهم ، روى إنه قيل له قد استجيب لك وهو في آخر الزمان ، فبعث الله فيهم محمدا ﷺ إذ لم يبعث من ذريتهما غير محمد صلى الله عليه وسلم ، فلم يأت نبي من ولد إسماعيل إلا النبي ﷺ والكل من ولد إسحاق فهو المحجوب به دعوتها كما قال عليه الصلاة والسلام : إني عبد الله مكتوب خاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته وسأخبركم بأول أمرى إني دعوة أبي إبراهيم وبشرى عيسى ورؤيا أمى التي رأيت حين وضعتني وقد خرج لها نور أضاءت له قصور الشام ، وأراد بدعوة إبراهيم هذا . قال ابن عباس رضي الله تعالى عنهما : كل الأنبياء من بنى إسرائيل الا عشرة : نوح وهود وصالح وشعيب ولوط وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب ومحمد صلى الله عليه وعليهم أجمعين . . ، يتلو ، أي يقرأ ، عليهم آياتك ، أي القرآن ويبلغهم ما يوحى إليه من دلائل التوحيد والنبوة . . ، ويعلمهم الكتاب ، أي القرآن ، والحكمة ، أي ما تكمل به نفوسهم من المعارف والأحكام ، وقال ابن قتيبة : هي العلم والعمل ولا يكون الرجل حكما حتى يجمعهما ، وقال أبو بكر بن دريد : كل كلمة وعظمتك أودعتك إلى مكرمة ونهتك عن قبيح فهي حكمة وقيل السنة . . ، ويزكيهم ، أي يطهرهم من الشرك ، وقيل يشهد لهم يوم القيامة بالعدالة والخير ، إنك أنت العزيز ، الذي لا يقهر ولا يغلب على ما يريد ، وقيل هو الذي لا يوجد مثله ، وقيل هو المنيع الذي لا تتأله الأيدي ولا يصل إليه شيء . . ، الحكيم ، أي في صنعه .

والآية السابعة تدل على أن شريعة إبراهيم هي شريعة الحق والدين والعقل ولا يتركها إلا سفيه ظالم لنفسه . . ومن يرغب ، أي لا يرغب أحد عن ملة إبراهيم .

فبتركها لظهورها ووضوحها ، إلا من سفه نفسه ، أى جهل أنها مخلوقة لله تعالى يجب عليه عبادته ، وذلك أن عبد الله بن سلام دعا ابنه أخيه سلبة ومهاجر إلى الإسلام فقال لهما قد علمتا أن الله عز وجل قال فى التوراة إني باعث من ولد إسماعيل نبيا اسمه أحمد فمن آمن به فقد اهتدى ومن لم يؤمن به فهو ملعون فأسلم سلبة وأبي مهاجر أن يسلم فأرسل الله تعالى هذه الآية ، وقد جاء : من عرف نفسه فقد عرف ربه ، وفى الأخبار : إن الله أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام اعرف نفسك واعرفنى فقال : يارب كيف أعرف نفسي وأعرفك؟ فأوحى الله تعالى إليه : اعرف نفسك بالضعف والعجز والفناء واعرفنى بالقوة والبقاء وهذا معنى قوله « من عرف نفسه فقد عرف ربه .. » ولقد اصطفيناه ، أى اخترناه « فى الدنيا ، بالرسالة » وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، الذين لهم الدرجات العلى ، وفى هذا حجة وبيان لخطأ من رغب عن ملته لأن من جمع الكرامة عند الله فى الدارين وكان مشهوداً له بالاستقامة والصلاح يوم القيامة كان حقيقاً بالاتباع لا يرغب عنه إلا سفيه أو متسفه أذل نفسه بالجهل واعرض عن النظر ،

والآية الثامنة هى قوله ، قوله تعالى : « إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لرب العالمين .. » إذ ظرف لاصطفيناه أى اخترناه فى ذلك الوقت أو منصوبة بإضمار اذكر كأنه قال اذكر ذلك الوقت ليعلم انه المصطفى الصالح المستحق للإمامة والتقدم وأنه قال ما قال بالمبادرة إلى الأذعان وإخلاص السرحين دعاه فكأنه قال له - كما قال عطاء - أسلم نفسك إلى الله عز وجل وفوض أمرك إليه ، قال أسلمت أى فوضت ، قال ابن عباس رضى الله تعالى عنهما وقد حقق ذلك حيث لم يستعن بأحد من الملائكة حين ألقى فى النار .

والآية التاسعة ، ترشد إلى أن عقيدة التوحيد التى دعا إليها إبراهيم التزمها بنوه ودعوا إليها « ووصى بها ، أى بالملة المتقدم ذكرها ، وقيل بكلمة الإخلاص وهى لا إله إلا الله » إبراهيم بنيه ، قال مقاتل وهم أربعة : إسماعيل وإسحاق ومدين

ومدان ، وقد ذكر غير مقاتل انهم ثمانية وقيل أربعة عشر . ووصى بها أيضاً
« يعقوب » بنيه وهم اثني عشر ، وسمى بذلك لأنه والعيص كانا توأمين فتقدم
عيص ، وقوله تعالى : « يا بني ، على إضمار القول عند البصريين أو متعلق بوصى
عند الكوفيين » إن الله اصطنى لكم الدين ، أي دين الإسلام الذي هو صفوة
الاديان لقوله تعالى : « فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون » ، نهى عن ترك الإسلام
وأمر بالثبات عليه إلى مصادقة الموت : وعن الفضيل بن عياض أنه قال إلا
وأنتم مسلمون أي محسنون بربكم الظن لما روى جابر رضي الله عنه أنه قال
سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل موته بثلاثة أيام يقول : لا يموتن
أحد إلا وهو يحسن الظن بربه .

والآية العائرة نزلت حين قال اليهود للنبي صلى الله عليه وسلم : ألسنت تعلم
أن يعقوب يوم مات وصى بنيه باليهودية ؟ أم كستم شهداء ، جمع شهيد بمعنى
الحاضر وأم منقطعة أي ما كستم حاضرين ، إذ حضر يعقوب الموت ، أي حين
ذلك ، إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي ، أي بعد موتي أي شيء تعبدونه أراد
بهم تقريرهم على التوحيد والإسلام وأخذ ميثاقهم على الثبات فليس الاستفهام على
حقيقته قيل إن الله تعالى لم يقبض نبياً حتى يغيره بين الموت والحياة فلما خبر
يعقوب قال أنظرنى حتى أسأل ولدى وأوصيهم ففعل الله ذلك فجمع ولده
وولد ولده وقال لهم قد حضر أجلى فأتعبدون من بعدي ؟ ، قالوا : نعبد إلهك
وإله آبائك ، وقوله تعالى : « إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ، عطف بيان لأبائك
وجعل إسماعيل وهو عمه من جملة آبائه تغليبا للأب إسحاق والجدة إبراهيم ،
أو لأن العم أب والحالة أم لانخراطهما في سلك واحد وهو الأخوة لا تفاوت
بينهما ، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام ، عم الرجل صنو أبيه ، أي لا تفاوت
بينهما كما لا تفاوت بين صنو النخلة ، وقال في العباس : « هذا بقية آباءى ، وقال
ردوا على أبي قحافة أخشى أن تفعل بي قريش ما فعلت ثقيف بعروة بن مسعود
وقوله تعالى : « إلهها واحدا » بدل من إله آبائك كقوله تعالى : بالناصية ناصية
كاذبة .. وقوله : « ونحن له مسلمون ، حال من فاعل نعبد أو من مفعوله أو منهما .

والخطاب لليهود المنكرين للإسلام ، والمعنى أن اليهود لم يكونوا حاضرين وقت موت يعقوب فكيف ينسون إليه ما لا يليق به ، أو الخطاب للمؤمنين بمعنى : ما شهدتم ذلك وإنما حصل لكم العلم به من طريق الوحي .

وقد أرشدت الآية الكريمة إلى أن دين الله واحد في كل أمة وعلى لسان كل نبي . وروحه التوحيد والاستسلام لله والإذعان لهدى الأنبياء ، وبهذا كان يوصى النبيون أممهم كما قال : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » . فالقرآن يحث الناس على الاتفاق في الدين للذي أساسه أمران : أولهما التوحيد والبراءة من الشرك بأنواعه ، وثانيهما الاستسلام لله والخضوع له في جميع الأعمال ، فمن لم يتصف بذلك فليس بالمسلم أى ليس على الدين القيم الذى كان عليه الأنبياء ؛ والناس يطلقون الإسلام اليوم لقباً على طوائف من الناس لهم مييزات دينية وعادات تميزهم من سائر الناس الذين يطلقون بألقاب دينية أخرى ، وقد يكون من بعض أهله من لم يكن مستسلباً مخلصاً لله في أعماله ، بل قد يكون مبتدعاً ما ليس منه ، أو فاسقاً عنه قد اتخذ إلهه هواه . والإسلام الذى دعا إليه القرآن هو الذى دعا إليه النبي صلى الله عليه وسلم .

والآية الحادية عشرة « تلك أمة قد خلت لهما ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون » معناها أن سنة الله في عباده ألا يجزى أحد إلا بكسبه وعمله ، ولا يسأل إلا عن كسبه وعمله كما جاء في قوله : « أم لم ينبأ بما في صحف موسى وإبراهيم الذى وفى ، ألا تزر وازرة وزر أخرى » ؛ وجاء في الحديث : « يا بنى هاشم لا يأتيني الناس بأعمالهم وتأتونى بأنسابكم » . وقال الغزالي : إذا كان الجائع يشبع إذا أكل والده دونه ، والظمان يروى بشرب والده وإن لم يشرب ، فالعاصى ينجو بصلاح والده .

١٣٥- وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ

حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ

١٣٦- قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ

وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى

وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ

وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ

١٣٧- فَإِنْ ءَامَنُوا بِمِثْلِ مَا ءَامَنْتُمْ بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا

هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ

١٣٨- صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ

١٣٩- قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَلُنَا

وَلَكُمْ أَعْمَلُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ

١٤٠- أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَى قُلْ أَنْتُمْ أَغْلَمُ أَمْ اللَّهُ

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَتَمَ شَهَادَةَ عِنْدَهُ مِنْ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَفِيلٍ

عَمَّا تَعْمَلُونَ

١٤١- تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُمْ مَا كَسَبْتُمْ وَلَا

تُسْتَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ

سبع آيات كريمة ينتهي بها الربع الثامن من سورة البقرة ، وينتهي بانتهاها

الجزء الأول من القرآن الكريم ، وهي كلها في الرد على أهل الكتاب الذين يتعصبون لشريعتهم ويحاجون في الإسلام ، وقد بين الله عز وجل د ن مالبس أو خفاء أنهم لا يكونون مهتدين حتى يؤمنوا بكتاب الله ودينه وشريعته ، وأن الإسلام هو فطرة الله التي فطر الناس ، وأن جدل اليهود والنصارى في الله مردود عليهم ، وأن زعمهم أن إبراهيم واسماعيل واسحاق والاسباط كانوا يهودا أو نصارى كذب على الحق وعلى الدين والتاريخ ، فهم رواد للإنسانية ودعاة لشريعة التوحيد ، وللإسلام من قبل أن يبعث رسول الإسلام .

والآية الأولى من هذه الآيات السبع هي الآية الخامسة والثلاثون بعد المائة من سورة البقرة ، وقد سبقتها آية أخرى في معناها ، وهي قوله تعالى : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى الخ ، .. ومعنى هذه الآية الأولى « وقالوا ، أى أهل الكتاب . كونوا هودا أو نصارى ، أى قالت اليهود كونوا هودا ، وقالت النصارى كونوا نصارى ، فأول التنصیل قال ابن عباس رضي الله تعالى عنه : نزلت في رؤس يهود المدينة وفي نصارى نجران وذلك أنهم خاصموا المسلمين في الدين كل فرقة تزعم أنهم أحق بدين الهدى ، فقالت اليهود : نبينا موسى أفضل الأنبياء وكتابنا التوراة أفضل الكتب وديننا أفضل الأديان وكفرت بمحمد صلى الله عليه وسلم والقرآن ، . وقالت النصارى مثل ذلك ، وقال كل من الفريقين للثومنين : كونوا على ديننا فلا دين إلا ذلك ، وقوله تعالى : « تهتدوا ، جواب الأمر وهو كونوا ، قال الله تعالى . « قل ، لم يا محمد « بل ، تتبع «ملة إبراهيم حنيفا ، أى مائلا عن كل دين باطل الى دين الحق ، وقوله تعالى : « وما كان من المشركين ، تعريض بأهل الكتاب وغيرهم لأن كل فريق منهم يدعى اتباع إبراهيم وهو على الشرك بالله .

والآية الثانية دعوة لليهود والنصارى إلى الإيمان بالإسلام ، وهي دعوة صريحة ليس فيها لبس أو خفاء ، قال الله تعالى : « قولوا آمنا بالله ، وهو خطاب

لأهل الكتاب والمشركون ، أو خطاب للمؤمنين ، قال الكشاف : ويجوز أن يكون خطاباً للكافرين ، أى قولوا لتكونوا على الحق وإلا فاتم على الباطل ، وكذلك قوله تعالى : « قل بل ملة إبراهيم ، يجوز أن يكون على تأويل اتبعوا ملة إبراهيم أو كونوا أهل ملته .. » وما أنزل إلينا ، أى من القرآن وإنما قدم ذكره لأنه أول الكتب بالنسبة إلينا أو لأنه سبب للإيمان بغيره « وما أنزل إلى إبراهيم ، من الصحف العشرة » واسماعيل واسحاق ويعقوب والأسباط ، جمع سبط وهو الحافد ، وكان الحسن والحسين رضى الله تعالى عنهما سبطى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، والمراد حفدة يعقوب أو أبناؤهم وذريتهم فإنهم حفدة إبراهيم واسحاق ، فإن قيل الصحف إنما انزلت على إبراهيم ، أجيب بأنهم لما كانوا متعبدين بتفصيلها داخلين تحت أحكامها كانت أيضاً منزلة عليهم كما أن القرآن منزل إلينا « وما أوتى موسى ، من التوراة وما أوتى عيسى ، من الإنجيل ، ولم يقل والأسباط وموسى وعيسى ، لأن أمرهما بالإضافة إلى موسى وعيسى مغاير لما سبق والنزاع وقع فيما قلنا أفردا بالذكر « وما أوتى ، أى اعطى » النبيون ، أى المذكورون « من ربهم ، من الكتب والآيات .. » لا تفرق بين أحد منهم ، كاليهود والنصارى فنؤمن ببعض ونكفر ببعض بل تؤمن بجميعهم « ونحن له ، أى الله « مسلمون ، أى مذعنون مخلصون ، روى عن أبي هريرة رضى الله تعالى عنه أنه قال كان أهل الكتاب يقرأون التوراة بالعبرانية ويفسرونها بالعربية لأهل الإسلام ، فقال رسول الله ﷺ : لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقولوا آمنا بالله وما أنزل إلينا - الآية .

والآية الثالثة دعوة لهم الى الإيمان بالإسلام بعد أن شرح القرآن الكريم حقيقة الإسلام فى الآية السابقة ، قال تعالى : « فإن آمنوا ، أى اليهود والنصارى « بمثل ما آمنتم به فقد اهتدوا ، من باب التعجيز والتبكيث ، كقوله تعالى : « فاتوا بسورة من مثله ، لأن دين الحق واحد لا مثل له ، وهو دين الإسلام ، قال تعالى : « ومن يتبع غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه ، ، أو المعنى آمنوا بما

آمنتم به ومثل زائدة كقوله تعالى ليس كمثل شيء، وكما في قوله تعالى: « وشهد شاهد من بني إسرائيل على مثله ، أي عليه ، وقيل الباء زائدة كما في قوله تعالى : « وهزي إليك بجذع النخلة » وقيل معناه فإن آمنوا بكتابكم كما آمنتم بكتابهم فقد اهتدوا . « وإن تولوا ، أي أعرضوا عن الإيمان به » وإنما هم في شقاق ، أي في خلاف ومنازعة معكم يقال شاق مشاقة إذا خالف ، كان كل واحد من المتخالفين يحرص على ما يشق على صاحبه « فسيكفيكم الله ، يا محمد ، في ذلك تسلية وتسكين للمؤمنين ووعدهم بالحفظ والنصر على من عاقهم ، وقد كفاه إياهم بقتل بني قريظة ونفي بني النضير وضرب الجزية على اليهود والنصارى ، وقوله تعالى : « وهو السميع العليم » إما من تمام الوعد بمعنى أنه يسمع أقوالكم ويعلم إخلاصكم وهو مجازيكم لا بحالة ، وأما وعيد للمعرضين بمعنى أنه يسمع ما يبدون ويعلم ما يخفون وهو معاقبهم عليه ، ولا مانع من حمل الكلام على الوعد والوعيد معا .

والآية الرابعة ترشد إلى أن الإسلام هو دين الإنسانية ودين الله الحق لأنه دين الفطرة الإنسانية السليمة ، « صبغة الله » أي دينه الذي فطر الناس عليه لظهور أثره على صاحبه كالصبغ للثوب أو للمشاكلة فإن النصارى كانوا إذا ولد لهم ولد وأتى عليه سبعة أيام غمسوه في ماء لهم أصفر يقال له المعمودية ويقولون هو تطهير لهم مكان الختان فإذا فعلوا به ذلك قالوا الآن صار نصرانياً حقاً فأمر المسلمون بأن يقولوا لهم قولوا آمنا بالله وصبغنا الله بالإيمان صبغة مثل صبغتنا وطهرنا تطهيراً أولاً مثل تطهرنا . أو يقول المسلمون صبغنا الله بالإيمان صبغة ولا نصبغ صبغتك « ومن ، أي لا أحد » أحسن من الله صبغة ، أي لا صبغة أحسن من صبغته أي لا دين أحسن من دينه ، وقوله تعالى : « ونحن له عابدون ، عطف على آمنا بالله وصبغة الله منصوب على المصدر المؤكد أو بتقدير فعل محذوف تقديره الزموا على الإغراء .

ولما قالت اليهود للمسلمين نحن أهل الكتاب الأول وقبلتنا أقدم ولم تكن الأنبياء من العرب لأنهم عبدة الأوثان ولو كان محمد نبياً لكان منا لأننا

أهل الكتاب .. نزلت الآية الخامسة وهي قوله تعالى : « قل أتجادوننا ، أى أتجادلوننا أو تخاصموننا في الله ، أى في شأنه أن الله أصطفى النبي صلى الله عليه وسلم من العرب دونكم وتقولون لو أنزل الله على أحد لأنزل علينا وترون أنكم أحق بالنبوة منا » وهو ربنا وربكم ، نشترك جميعاً في أتنا عباده وهو يصيب برحمته وكرامته من يشاء من عباده ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، نجازي وتجازون بها ، وآثار أعمالنا عائدة علينا وآثار أعمالكم عائدة عليكم ، ونحن له مخلصون ، في الدين والعمل دونكم فنحن أولى بالاصطفاء فلا تستبعدوا أن يؤهل أهل أخلاصه لكرامته بالنبوة ، والهمزة للانكار .

والآية السادسة نفي لما زعمته اليهود أو النصارى من أن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا على اليهودية أو النصرانية ، أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى قل ، لهم يا محمد ، أنتم اعلم أم الله ، اعلم ، وقد نفي الله الأمرين عن إبراهيم بقوله تعالى : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ولكن كان حنيفاً مسلماً ، واحتج الله تعالى على ذلك بقوله تعالى : « وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، والمذكورون معه أهله وفي دينه فهم أتباعه في الدين وفاقاً » ومن ، أى لا أحد ، أظلم ممن كتم ، أى أخفى عن الناس « شهادة عنده ، كاتمة ، من الله » أى شهادة الله لإبراهيم بالحنيفية والبراءة عن اليهودية والنصرانية وهم أهل الكتاب لأنهم كتموا هذه الشهادة وكتموا شهادة الله لنا بالنبوة في كتبهم وغيرها ، وما الله بغافل عما تعملون ، أى أن الله لا يترك أمركم سدى ، بل يعذبكم أشد العذاب ، وهو محبط بما تأتون وما تدرون . ولا يخفى ما في هذا من الوعيد والتهديد عقب التقرير والتوبيخ .

والآية الأخيرة « تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون ، معناها أن جماعة الأنبياء قد مضت بالموت ، ولها ما كسبت من الأعمال ولكم ما كسبتم منها ، ولا يسأل أحد عن عمل غيره ، بل يسأل عن عمل

نفسه ويجازى به ، فلا يضره ولا ينفعه سواه ، وهذه قاعدة أقرتها الأديان جميعاً وأيدها العقل كما قال تعالى : « أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن ليس للإنسان إلا ما سعى ، وهذا التكرار للمبالغة في التحذير والزجر عما استحکم في الطباع من الافتخار بالآباء والاتكال عليهم ، وقيل الخطاب في جميع ما سبق لهم ، وفي هذه الآية تحذير لنا من اقتداء المسلمين بهم ، وقيل المراد بالآمة في الأول الأنبياء ، وفي الثاني أسلاف اليهود والنصارى .

ومن هنا تعلم هذه الأصول الرفيعة التي اشتمل عليها هذا الربع الثامن من سورة البقرة ، وفي مقدمة هذه الأصول وحدة الدين وتكامله وسموه وانبناء العقيدة الإلهية على التوحيد الخالص ، وعلى الصفاء الكامل ، وعلى الإخلاص لله رب العالمين . وفي هذا الربع نص صريح واضح كامل مفصل بأن أهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يكونون مؤمنين حقاً ومهتدين صدقاً إلا إذا آمنوا أيضاً بشريعة الإسلام ، وأن من يريد النجاة منهم فليؤمن بمحمد وبالقرآن مع إيمانه بعيسى والإنجيل أو بموسى والتوراة .

ويشير ذلك كله إلى أن الإسلام هو شريعة الله والإنسانية الكاملة ، وأنه هو الدين الذي يجب أن تعتقه الشعوب لتسير في طريق التقدم والرقى والنهضة ، لأنه جدير بأن يؤيد كفاح الشعوب لتسير في طريق الرقى والتحرر والعمل من أجل تقدم الإنسان ، لأن الإيمان بالمسيحية أو باليهودية وحدهما لم يعد كافياً لفقدان كل منهما للأصول التي انبثت عليها شريعة الإسلام المثلى الكاملة :

ويستلزم ذلك وجوب الاعتقاد بأن دين الإسلام هو خاتم الديانات ومتممها ومكملها . وما دام الإسلام واجبا على كل إنسان كتابيا أو مشركا فليس معنى ذلك سيادة طبقة أو طائفة على غيرهم من الناس ، بل السيادة إنما هي لله ولرسوله وللدين الحق وحده ، وأتباع هذا الدين الحق يعيشون في وتام ووحدنة وإخاء ، بصرف النظر عن شعوبهم وأجناسهم وعقائدهم الأخرى ، فالسيادة حينئذ ليست لجماعة ولا لجنس إنما هي للإنسانية ولفكرة

السلام التي جاء بها القرآن ودين الإسلام ، والسيادة للمؤمنين بمثالية الإسلام وآدابه وأهدافه وأصوله .

وهكذا يقودنا التفكير في أسرار الله تعالى في هذا الربع من الكتاب الكريم والفرقان الحكيم ، إلى ما تضمنه من ذكر توحيد إبراهيم وحنيفيته البيضاء ، وما يقابل هذه الحنيفية وذلك التوحيد من شرك المشركين وعصيان الكفار وتحريرهم وكذبهم وخروجهم على الدين الحق ، وفي مقدمة هؤلاء الكفار اليهود ، الذين ضلوا وأضلوا عن سبيل الله ودين الحق وشريعة محمد عليه السلام . . . وإلى أن الإسلام قائم على التوحيد الذي قامت عليه شريعة إبراهيم ، فالمؤمنون بشريعة محمد قد استقاموا على طريقة إبراهيم ، والقائمون على حنيفية إبراهيم يجب أن يؤمنوا بالإسلام والقرآن ، ومن يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ، ولقد اصطفاه الله في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين . . .

ويؤكد الله عز وجل وحدة العقيدة بين الأديان كافة ، وأن الإيمان واجب بالله وبالقرآن وبشريعة إبراهيم والأنبياء من بعده ، فالجميع هدفهم واحد ورسالتهم واحدة والإيمان بهم ضروري لكل مؤمن موحد بالله . . . إن الإيمان بشرائع الرسل والأنبياء كافة حتم مفروض على كل إنسان ، فليس من الإيمان أن يفرق المؤمن بين أحد من الأنبياء والرسل ، ولا أن يؤمن ببعض هذه الشرائع ، وبدع الإيمان ببعضها الآخر .

وفي هذا الربع يذكر الله عز وجل أن الإيمان برسالة محمد واجب على الكفار والمشركين على السواء لأنها خاتمة الرسالات ، ولأن الإيمان لا يتم إلا بها ، ولأن الاعتقاد في شريعة موسى أو عيسى يجب أن يصحبه لمن يريد النجاة في الدنيا والآخرة الإيمان بالقرآن والإسلام وشريعة محمد عليه السلام ، ومن يريد النجاة والفوز والمهدي فليؤمن بما يؤمن به المسلمون ، فشريعة الإسلام هي دين الفطرة الإنسانية ، ودين البشرية الرشيدة المهذبة الرفيعة ، وهي بما تضمنته من أصول ومبادئ التوحيد الخالص متفقة مع حنيفية إبراهيم وطهر

رسالته عليه السلام ، ولقد كان إبراهيم رسول التوحيد . ونبى الصفاء الروحى والداعى إلى الله وإلى الحق وطريق مستقيم .

لقد كان إبراهيم عليه السلام رجلا ، وكان بطلا ، وكان صديقا نبيا ، وكان أمة وحده ، وكان مثلا أعلى فى قوة العقيدة ، وعظمة اليقين ، وجلال التضحية ، وطول الجهاد فى سبيل الله والتوحيد والدين الحق ، دين الهدى والنور ، - وشرعة السماء البارة بالأرض وبالإنسانية جميعها ، وليس هناك أروع من وصف الذكر الحكيم له : « إن إبراهيم كان أمة قانتا لله خنيقا ولم يك من المشركين ، شاكرا لأنعمه ، اجتباها وهداه إلى صراط مستقيم ، وآتيناه فى الدنيا حسنة ، وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، ، ويؤكد الذكر الحكيم مكاتبه عند الله فيقول : « ولقد اصطفيناه فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين ، إذ قال له ربه أسلم قال أسلمت لله رب العالمين ، ، ويصفه الله جل جلاله فى آية أخرى فيقول : « أنه من عبادنا المؤمنين ، ، وفى آية أخرى يقول الله عز وجل : « واتخذ الله إبراهيم خليلا ، .

وهذا أعظم ما يصل إليه بشر ويتطلع إليه إنسان ، ويسمو إليه بإيمانه وأعماله مؤمن كريم .. سلام على إبراهيم ، لقد وقف فى ظلمات الحياة وضلال البشرية ، وانحرف الناس عن كلمة التوحيد والحق ، يعبد للأرض صلتها بالسماء ، ويبحث فى النفوس معانى السموم بالنفس والترفع عن عبادة الأوثان والتحرر من قيود الشرك والأهواء ، ويوقظ روح الإنسانية الوسطى التى تاهت فى مجاهل الحياة ويبداء الأوهام ، فنطق بكلمة الحق والناس غافلون ونادى بدعوة الخير وهم لاهون ، ورفع منارة التوحيد عالية بعد أن جاهد جهاد الأبطال ،

كان إبراهيم من سلالة الأنبياء المطهرين ، من ذرية آدم ونوح ، وكان يرث هذا النور الأبدى الخالد . نور السماء الذى أشرق على الأرض أحيانا ثم انطفأ ، ونشأ تعلو وجهه سمات الشخصية الفذة ، بشرى بأنه سيكون البطل المرجى والنبي المرتقب .

وعاش في الحياة ملكاً كريماً بأخلاقه وآدابه وشممه وإبائه وطموحه ،
وجه للخير وعمله له ما استطاع .

ولكنه كاز في شقاء بعيد بقومه وبالناس جميعاً ، يتلفت فلا يرى الا ضللاً
وشركاً وآثاماً ، وأهواءً مجابة وأوثاناً معبودة ، وانحرافاً تاماً عن دعوة الحق
وتراث النبيين من قبل : آدم ونوح .

كان يجب أن يرى الإنسانية تسير بل تطير الى غاياتها المنشودة في الحياة
الفاضلة الكريمة ، وفي العقيدة الكاملة المثلى : عقيدة التوحيد والإيمان بالله .
ولكنه لم ير الا الإثم والوثنية والشر والشرك ، وكلمة الشيطان المستجابة
المحبوبة من دون كلمة الله ، فشتى بحياة الناس وبأهوائهم وضلالاتهم وجنح
هو الى التفكير الطويل في الدين والقررة العظيمة المسيرة للحياة ، وفي مصير
الإنسانية وحاضرهما الذليل ، ومستقبلها المرموق .

رأى والده (آزر) عاكفاً هو وقومه على عبادة الأصنام فلامه وضلله
، وإذ قال ابراهيم لآبيه آزر أتتخذ أصناماً آلهة ، انى أراك وقومك في ضلال
مين ، ، لانه كان يؤمن ايماناً ثابتاً أن لا اله الا الله ، وأنه لا يستحق العبادة
من دونه شيء .

ولا عجب فقد رباه الله على العقيدة الصحيحة . ونشأه على الإيمان الحق .
وغرس في نفسه كلمة التوحيد المطلق ، وفطره الفطرة الكاملة التي فطر الله
الناس عليها .

وكان ابراهيم يفكر تفكيراً طويلاً في الدين بعقله ، وكان دائماً يرشده
الى هذه الحقيقة الثابتة الخالدة . حقيقة الإيمان بالله وحده ، بل كان يرجع من
تفكيره أكثر إيماناً و يقيناً بالله .

ورأى الكواكب في السماء ، والقمر يملأ بنوره الفضى الجميل الكون
في الليل البهيم ، ورأى الشمس بازغة تمنح الحياة والنور وكل مقومات الحياة .
فقال لعقله : ولم لا تكون هذه المظاهر الكونية العظيمة هي آلهة الكون ،

وربة الحياة ؟ لكنه رأى الكواكب تغيب ، والقمر يأفل ، والشمس تحتجب عن العيون وقت الغروب ، ومن ثم أرشده عقله ، إلى أنها لا يصح أن تكون آلهة معبودة . فنطق إبراهيم بهذه الكلمة الرائعة : إني وجهت وجهي الذي فطر السموات والأرض خنيفا وما أنا من المشركين .

وآمن إبراهيم بنظرية إحياء الموتى إيمانا صادقا حقا ، ولكنه أراد أن يرى هذه الحقيقة بعيني رأسه ليطمئن قلبه ، فدعا ربه ، ربي أرني كيف تحيي الموتى ؟ قال : أو لم تؤمن ؟ قال بلى ولكن ليطمئن قلبي ، قال : نخذ أربعة من الطير فصرهن إليك ، ثم اجعل على كل جبل منهن جزءا ، ثم ادعهن يأتينك سعيا واعلم أن الله عزيز حكيم .

وبلغ إبراهيم مبلغ الرجولة الكاملة ، والإنسانية العظيمة المصطفاة ، فأرسله الله جل جلاله رسولا إلى قومه ليهديهم إلى الله وإلى الحق وإلى طريق مستقيم .

وقال لآبيه : يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئا ، يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطا سويا ، ولكن والده لج في ضلاله واستمر على غوايته ، وقال لابنه إبراهيم : لئن لم تنته لأرجمنك ، واهجرني مليا .

قال لهم : اعبدوا الله واتقوه ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، إنما تعبدون من دون الله آوثانا وتخلقون إفكا . وقال لهم إني براء مما تعبدون . وجادلهم في أصنامهم طويلا حتى إذا يئس منها ومنهم ، قال لهم في حرارة العقيدة وعظمة النفس المؤمنة بالله : « أفرأيتم ما كنتم تعبدون ، أنتم وآباؤكم الأقدمون ، فإنهم عدولى إلا رب العالمين الذى خلقنى فهو يهدين ، والذى هو يطعننى ويسقين ، وإذا مرضت فهو يشفين ، والذى يمتنى ثم يحيين ، والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين » .

وأرشدهم إلى إلههم الحق وأنه رب السموات والأرض الذى فطرهن .

حتى اذا يش من أن يستجيب قومه لكلمة الحق . ذهب الى بيت الالهة
الذي نصبت فيه هذه النماثيل والأوثان فخطمها وكسرها ، وجعلهم جنذاذاً
إلا كبيراً لهم لعلمهم اليه يرجعون . .

وأصبح القوم ، وشاهدوا مصرع الآلهة ، فأيقنوا أن ابراهيم هو الذي
خطمها وفعل بها هذه الفعلة النكراء ، ومن غير ابراهيم يجرؤ على هذه الآلهة
هذا الاجترار العظيم ؟ فاعتقلوه وحاكموه وقرروا أن يعدموه حرقاً
بالتار ، ولكن الله أوحى الى النار أن لا تحرق هذا الجسم الطهور ، وقلنا
يا نار كوني برداً وسلاماً على ابراهيم ، وأرادوا به كيداً فجعلناهم الاخسرين .
نجاه الله فخرج من أرض قومه مهاجراً الى الأرض التي باركنا
فيها للعالمين . .

أقام بالشام يدعو الناس الى الله ، ويهديهم الى الحق والإيمان والعقيدة
المثلى ، وطلق يبلغ الرسالة ويؤدى الأمانة في قوة وبقين وجهاد في سبيل الله ،
وببشر برسول يأتي من بعد اسمه أحمد . .

ووهبه الله اسحاق ، وذرية صالحة كريمة ، ومن قبل منحه اسماعيل ،
الذي سعى به استجابة لداعى الله الى الحجاز وأقام اسماعيل مع بعض القبائل
العربية حول مكة ، وتفجرت له عين كريمة من الماء هي عين زمزم ، وأخذ
قلب ابراهيم يرفرف بعطفه على ولده اسماعيل ؛ فابتهل الى الله أن يجعل
موضع اسماعيل كعبة للناس وربنا انى أسكنت من ذريتي بواد غير ذى زرع
عند بيتك المحرم ، ربنا ليقيموا الصلاة فاجعل أفئدة من الناس تهوى اليهم ،
وارزقهم من الثمرات ؛ لعلمهم يشكرون . .

وأخذ ابراهيم واسماعيل يحددان بناء البيت الحرام ، ويظهرانه للطائفين
والعاكفين والركع السجود .. واذ يرفع ابراهيم القواعد من البيت واسماعيل
ربنا تقبل منا انك أنت السميع العليم ، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا
أمة مسلمة لك ، وأرنا مناسكنا ، وتب علينا انك أنت التواب الرحيم ، ربنا

وابعث فيهم رسولا منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم
إنك أنت العزيز الحكيم . . كما أخذ يؤذن في الناس بالحج إلى هذا المكان
الطاهر الكريم ، « وأذن في الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين
من كل فج عميق ، .

وإسماعيل وهو الابن البار ، والشاب المحبوب ، ولذة كبد أبيه، صمم إبراهيم
أن يضحى به وهو صغير استجابة لكلمة الله التي سمعها .

قال له إبراهيم : « يا بني إني أرى في المنام أني أذبحك فانظر ماذا ترى ،
قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني إن شاء الله من الصابرين ، .

استجاب الابن والاب لداعى الله : « فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن
يا إبراهيم قد صدقت الرؤيا إنا كذلك نجزي المحسنين ، إن هذا هو البلاء
المبين ، وفديناه بذبح عظيم ، .

أى عقيدة بلغت من القوة والسمو واليقين هذا المبلغ العظيم ، الذى بلغته
العقيدة فى نفس إبراهيم ؟ .

وهكذا عاش إبراهيم ما عاش مؤمناً قوى الإيمان ، مجاهداً فى سبيل
إيمانه ، مشرداً عن وطنه ، داعياً الى التوحيد المطلق ، ودين الانسانية المهدبة ،
وكلمة السماء الهادية للأرض ومن فيها .

وبعد فلقد وسع قلب إبراهيم الكبير كل معانى الخير والرحمة ، والبر
والحنان والانسانية الكريمة . كما وسع كلمة الحق والصدق والعقيدة والايمان .
أشفق على أبيه أن تمسه النار ، فدعاه وحذره فأبى واستكبر فأخذ يدعو
الله له أن ينقذه من عذاب الجحيم ، قال له : سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفياء .
ولكنه حنان الأبناء ووقاؤهم للأباء « لأستغفرن لك وما أملك لك من الله
من شيء ، ، ثم أخذ يضرع إلى ربه : « واغفر لأبى إنه كان من الضالين ، « رب
اغفر لى ولوالدى وللمؤمنين يوم يقوم الحساب ، ، ولكن الله لا يرحم مشركا .
وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو
لله تبرأ منه إن إبراهيم لأواه حلیم ، .

ثم أسكن ابنه في الصحراء فأخذ يتهل الى الله أن يجعل مكان إقامته بلد آمننا وأن يرزقه وأهله من الثمرات .

وأشفق على قومه فنصحهم نصيح المشفق الأمين ... ثم أراد أن يطمئن على مستقبل الانسانية . وعلى أن كلمة الحق والدين ستبقى ، وأن شعلة الايمان لن تنطفئ فدعا الله أن يجعل من ذريته أمة مسلمة ، وأن يبعث فيها رسولا منها يطهرها ويزكيها ويصلها بالله . وبشر بمحمد خاتم الأنبياء فتحققت بشارته .
وبعد فدين ابراهيم دين الخيفية البيضاء وشريعته هي الشريعة المطهرة التي دعا اليها الأنبياء بعده ، ولقد عاش ابراهيم عظيما ، ومات كريما وترك ذرية طيبة تعبد الله في الأرض ، وكان من نسله الكثير من الأنبياء والمرسلين حتى لقب « بأبي الأنبياء » ، ولقد تلقى ابراهيم عن ربه كلمات الدين والتوحيد فآمنهن ، وبلغها للناس تامات ووفى بعهده ربه ونشر كلمة الايمان في الآفاق وذهب راضيا مرضيا ، « وتركنا عليه في الآخريين : سلام على ابراهيم ، كذلك نعزي المحسنين » .

ثم ورت محمد صلوات الله عليه عنه هذا الميراث الإلهي العظيم ، وجاء بعده بأجيال ليحقق للانسانية السعادة والأمن والسلام .

نظرة عامة في الجزء الأول

(١)

الجزء الأول من القرآن الكريم هو أول سورة البقرة، وهي من السور المدنية الطوال التي اشتملت على محاجة اليهود، وعلى كثير من تشريعات الإسلام، وليس هذا الجزء أول القرآن نزولا، بل هو أوله ترتيبا، وسورة البقرة هي السورة الثانية من القرآن الكريم في الترتيب لا في النزول، وآياتها ست وثمانون ومائتا آية، وقال على رضى الله عنه: إنها أول سورة نزلت بالمدينة وهي ذروة القرآن الكريم، بل سنامه كما يقول الحديث الشريف، وعن النبي صلى الله عليه وسلم: أعطيت سورة البقرة من الذكر الأول، وأعطيت طه والطواسين من ألواح موسى، وأعطيت فاتحة الكتاب وخواتيم سورة البقرة من تحت العرش - والآية الشريفة الحادية والثمانون بعد المائتين من هذه السورة نزلت بمنى في حجة الوداع.

(٢)

وتبتدىء هذه السورة بتعظيم القرآن الكريم وتمجيده، لأنه معجزة محمد الخالدة ودليله على صدق نبوته، وأحقية رسالته، وقد سبق أن أفضنا في ذكر التحدى بالقرآن الكريم. ومن ينظر الى ما اشتمل عليه القرآن من الآراء العلمية في الحياة والسماء والأرض وكل شيء يعتقد أنه معجزة صادقة ودليل إلهى حق لا ريب فيه على صدق رسالته ونبوته صلى الله عليه وسلم، وحسبكم الآية الكريمة: «كلمنا نضجت جلودهم بدلناهم جلودا غيرها ليذوقوا العذاب»، فهي دليل لا ريب فيه على نفى ما يدعيه بعض الجاحدين من أن محمدا عبقرى وأن القرآن كلامه، اذ كيف يصل عقل بشرى منذ نحو أربعة عشر قرنا من الزمان الى أن الجلد والمنطقة المحيطة به هي مركز الإحساس والأعصاب، وما وراء ذلك لا يشعر بشيء ولا يحس بشيء، فعند ما تحترق

منظفة الإحساس من شدة عذاب النار ، يعيدها الله من جديد ، ليدوقوا العذاب ويحسوا به ويشعروا بشدته ، ويعرفوا أن ما صنعوه في الدنيا لم يكن نسياً منسياً عند الله . وكلمة ليدوقوا ترشد إلى هذا الإعجاز العليّ البليغ ، ومعناها ليحسوا بالعذاب إحساساً شديداً بليغاً قوياً لا وهن فيه ولا ضعف .

ثم يلي هذا الابتداء الرائع ذكر المتقين وصفاتهم لأنهم هم الذين ينتفعون بالقرآن الكريم ، وتظهر عليهم آثاره ؛ وقد خصهم من بين صفاتهم ، بالإيمان بالغيب وإقامة الصلاة واتفاق المال على سبيل الصدقة والإحسان والزكاة . وإقامة الصلاة تطهير روي دائم للمسلم ؛ والسخاء وإيتاء الزكاة دليل على يقظة المسلم وشعوره بواجبه نحو مجتمعه ، أما الإيمان بالغيب وما تلاه مما ذكره القرآن الكريم من الإيمان برسالة محمد ، ورسالة الأنبياء والرسل قبله ، ومن الإيقان بالآخرة ، فهو الجانب الغيبي في الإسلام ، وبدونه لا يكون الإنسان مسلماً ، فيجب على الإنسان المسلم أن يؤمن بالملائكة والجنة والنار والبعث والنشور والحساب والعقاب . وأن يؤمن قبل ذلك كله بوجود الله ، مصدر الحياة ومفيضها على الناس . وبدون الإيمان بالله ورسالة محمد والرسل من قبله لا يكون الإنسان ذا شعور حي بالحياة ، ولا يكون مسلماً مصداقاً برسالة خاتم الأنبياء . لذلك حاجتنا ونحاجج دائماً المذهب المادي الذي يقيم كل شيء على أسس مادية واهية . ويفسر الحياة والوجود تفسيراً مادياً صرفاً ، ينتهي به إلى جحود وجود الله ، وأنه مخدر للشعوب ، إلى آخر ما يقوله الجاحدون والكافرون ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً .

ومن ثم فقد وصل الله عز وجل ذكر المؤمنين بذكر الكافرين ، مبيناً أنه قد نخم الله على قلوبهم وعلى سمعهم ، وعلى أبصارهم غشاوة ، وأن لهم عذاباً عظيماً ينتظرهم يوم الدين .

وبفيض القرآن الكريم في ذكر صفات المنافقين ، الذين يعيشون بين هؤلاء

وهؤلاء ، لا يؤمنون ويتظاهرون بالإيمان ، ويعيشون على الإفساد ويدعون أنهم هم المصلحون : إنهم هم الذين اشتروا الضلالة بالعهدى ، ولن تربح تجارتهم عند الله والناس ، وما كانوا مهتدين ؛ ثم مثل الحق جل جلاله هؤلاء المنافقين من اليهود ومن على شاكلتهم برجل يسير في ظلام دامس لا يرى شيئاً ، فاستوقد ناراً ليبصر الطريق ، فلما اشتعلت وأضاءت ما حوله فأبصر الطريق ، وظهرت له معالم التحقيق ، أظننا الله تلك النار وأذهب نورها ولم يبق إلا جمرها وحرها ، كذلك شأن هؤلاء المنافقين كانوا في ظلمات الكفر ينتظرون ظهور النبي ويطلبونه ، فلما بعثه الله كفروا بالهدى الذى جاء به ، فأذهب الله عنهم نوره ، وتركهم في ظلمات الكفر والنفاق والشك لا يبصرون ولا يهتدين : ومثلهم أيضاً فى تحيرهم واضطرابهم بأصحاب مطر غزير ، فيه ظلمات ورعد وبرق ، فإذا زجر الرعد وعظم صوته جعلوا أصابعهم فى آذانهم من الهول والخوف وإذا لمع البرق كاد أن يخطف أبصارهم ، فإذا أضاء أبصروا الطريق ومشوا فيه ، وإذا أظلم عليهم ظلوا فى حيرة وخوف وعذاب ما بعده من عذاب .

(٣)

إذا ما انتهى القرآن الكريم من ذكر المؤمنين والكافرين والمنافقين ، عاد إلى دعوة الناس جميعاً إلى الإيمان وإلى عبادة الله وحده ، وعلل هذه الدعوة تعالياً عقلياً قوياً لا يمتري فيه عاقل . فالله الذى أمرنا بعبادته وطاعته والإيمان به هو خالق الإنسان وخالق الحياة على الأرض ، حيث جعل الأرض فراشاً والسماء بناءً ، وأنزل المطر من السحاب فأخرج به الزرع والنبات والفواكه والأشجار وكل ما هو رزق ومتاع للإنسان .

ومعنى كون الأرض فراشاً أنها مهدت أمام الإنسان للحياة والمشى والسعى فيها هذا التمهيد العجيب الغريب ، وقد أودع الله عز وجل بحكمته وقدرته الحياة على الأرض وخلق الإنسان كامل النمو والتكوين ليكون خليفته فى أرضه .

ومعنى كون السماء بناءً أنها كون عجيب بما يشتمل عليه من نجوم وكواكب

وشهب وسواها ، ومن بين الكواكب التي تسير في السماء ، في هذا الفضاء الذي ليست له حدود : عطارد ، وكوكب الزهرة ، والمريخ ، والقمر ، والشمس ، وسواها ، ويبدو كل نجم أو كوكب وكأنه مصباح موضوع في فضاء طويل لا نهاية له .

وبعد ما خلق الله الأرض والسماء خلق الحياة على ظهر الأرض ، فأنزل المطر من السحاب ، وأخرج به النبات من باطن الأرض ، وجعل من ذلك مادة لوجود الحياة واستمرارها وبقائها على سطح الأرض . فكيف لا يعبد هذا الإله الخالق العظيم ؟ .

إن خلق السموات والأرض من آيات الله الكونية الدالة على وجوده وقدرته ورحمته وعلمه الواسع ، وفيه آيات بينات يهر الناظرين بعض ظواهرها ، فكيف حال من اطلع على ما فيها من عجائب كشف العلم عن بعضها ، ودل ما عرف على ما لم يعرف ، وهو لا نهاية له .

والأجرام السماوية طوائف يبعد بعضها عن بعض بعدا شاسعا ، ولكل طاقة منها نظام عام ، وأقرب تلك الطوائف إلينا ما يسمى النظام الشمسي ، نسبة إلى الشمس التي يفيض نورها فيكون سبباً للحياة في الأرض ، ويتبع الشمس كواكب مختلفة في أبعادها ومقاديرها ، كل كوكب منها قد استقر في موضعه ومداره ، وحفظت النسبة بينه وبين غيره من الكواكب . كل ذلك بسنن إلهية أوجدها القادر الحكيم ، ولولا هذه السنن لتفتتت هذه الكواكب السابحة في الفضاء ، وصدت بعضها بعضا ، وهلك العالم جميعا .

والمراد بالسموات والأرض هو الموجودات ، وقد تطلق السموات على ما دون العرش من العالم العلوي وخاصة إذا وصفت بالسبع كما هنا في سورة البقرة . ويذكر الله عز وجل في بعض الآيات ، كما في سورة الحديد ، أنه خلق السموات والأرض في ستة أيام ؛ وقال في آية أخرى : « قل أتتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا ، ذلك رب العالمين ، وجعل

(١٩ - تفسير القرآن لتفاحي)

فيها رواسى من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء
للمسائلين ، ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو
كرها قالتا أتينا طائعين . فقضاهن سبع سموات في يومين . وأوحى في كل
سما أمرها ، وزينا سما الدنيا بمصاييح ، وحفظا ، ذلك تقدير العزيز العليم ، .
ففي هذه الآية الأخيرة تفصيل لما أجمل في آية الحديد ، حيث جعل للسموات
يومين ، وجعل لخلق الأرض يومين . ثم أوجد الرواسى فوقها وبارك فيها .
وقدر فيها أقواتها في يومين ؛ فيكون مجموع ما أخذته الأرض وما فيها أربعة
أيام ، وجملة ما أخذته السماء يومين : « فقضاهن سبع سموات في يومين ،
وأوحى في كل سما أمرها » . وهذه الأيام الستة ليست من جنس أيامنا . فان
هذه الأيام وجدت بعد خلق الأرض ، ولا بد أن تكون من أيام الله التي
يعلمها هو ، وقد قال في يوم القيامة : « في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة » ،
وقال في آية أخرى : « وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » . وقد
تكون السنة ستة نورية ، فالأيام مقادير لأطوار مرت على الخليفة يعلمها الله
سبحانه وتعالى ، ويجب أن تقف عن تحديدها ، فإنها لم تحدد بأخبار صحيحة ،
والله سبحانه يقول : « ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق
أنفسهم » . . .

وقد روى عن أبي هريرة ما يدل على أن الأيام من أيامنا . وتكلم فيه
البخارى وغيره من الحفاظ ، وجعلوه من رواية أبي هريرة عن كعب الأحبار ،
ولم يجعلوه مرفوعا . والذي قاله البخارى هو الذى يجب التعويل عليه .
وفي الإسرائيليات شيء كثير ، وفيها بيان لما صنع في أيام الأسبوع ، ولو كانت
هناك آية فائدة في بيان جنس الأيام وفي بيان ما صنع في الأيام لأنخبرنا الله
سبحانه بذلك ، فهو الجواد . والعبرة إنما هي في الخلق وفي جعله أطوارا .
وقد أرشد الله سبحانه في آية فصلت إلى أنه استوى إلى السماء وهي دخان ،
وقال في سورة الأنبياء : « أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا
رتقا ففتقناهما ، وجعلنا من الماء كل شيء حي ، أفلا يؤمنون ؟ » ، وهذا يدل

على أن السموات والأرض كانتا مادة واحدة متصلة وفصل بعضها عن بعض ،
وهي مادة تشبه الدخان ، ومن هذه المادة خلق السموات ، بدليل ثم استوى
إلى السماء وهي دخان فقال لها ، ويدل على أن مادة الدخان بعد الفصل
تحول جزء منها إلى ماء ، وبعد ذلك تكونت اليابسة والرواسي ، وبعد ذلك
ظهرت الحياة والأقوات . فالأطوار التي مرت على الأرض : الدخان ، ثم
الماء ، ثم اليابسة ثم الأحياء والأقوات .

ونحن نؤمن بأن الله خلق السموات والأرض في ستة أطوار يعلمها
هو ، ونؤمن بأن السموات والأرض كانتا رتقا ففتقهما ، ونؤمن بأن خلق
السموات في يومين ، وخلق الأرض وما فيها في أربعة ، ونؤمن بأنه كل شيء
حى فمن الماء خلقه ، وأن كل شيء خلقه بقدر ، وما أنزل شيئا إلا بقدر معلوم .
وإذا كشف العلماء عن تفاصيل في مادة الخلق وأطواره لاتنافية ما قرره القرآن
فلنا أن قبلها . وما قيل حتى الآن لا يخرج عن دائرة الظنون والفروض ،
فلا يجوز لنا أن نرد به شيئا من القرآن .

ومعنى استوائه إلى السماء قصده لها ، وفي آيات كثيرة ، ثم استوى
على العرش ، كما في سورة الحديد ، وقد سئل مالك كيف استوى على
العرش ؟ فوجد وجدا شديدا وأخذته الرخصاء ، ولما سرى عنه قال :
الكيف غير معقول ، والاستواء منه غير مجهول ، والإيمان به واجب ،
والسؤال عنه بدعة ، وأخاف أن تكون ضالا ، وأمر به فأخرج .
وروى عنه أنه قال له : استوى كما وصف نفسه ، وأنت رجل سوء
صاحب بدعة ... واستواؤه على العرش مما تؤمن به إيمانا جازيا لأنه ورد
في القرآن الكريم « وإن كان عرشه تعالى مما لا يعلمه ولا يحيط به البشر ،
وليس العرش حاملا لله تعالى كما يتوهمه بعض العامة من الناس ، وإلا لكان
الله تعالى محمولا أو في جهة أو حيز ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، ليس كمثل
شيء وهو السميع البصير . والقرآن يدل على أن العرش لم يزل مستعليا منذ
وجد بدليل قوله تعالى : « وكان عرشه على الماء » ، وأقرب ما يقال في الاستواء

أنه التصرف في الموجودات والتمكّن من تدبير أمرها مع عدم المنازع والمغالاب، وقد عبر عن ذلك المعنى بما يفهمه الناس من استواء الملك على عرشه وتمكّنه من التدبير والتصرف رالمك والسلطان في شئون رعيته، والقرآن قد نزل وفق أساليب العرب ومناحي بلاغتها، وفيه أسلوب المجاز وأسلوب الكناية، والعقل أو القرائن هي التي تصرف الألفاظ عن ظاهرها إلى ما يليق بجلال الله تعالى وعزته، وإن كان السلف يقولون: الاستواء معلوم ومعناه مجهول، فاستواء الله عندهم حقيقة وإن كنا لا نعلم كيفيته، ولكن ذلك مما يوقع الناس في التجسيم ولو ازم التجسيم. وعلى هذا التأويل يكون معنى استواء الله إلى السماء أنه قصد إليها بالتدبير والتصرف، وأنه متمكن من التدبير فيها، وأنه جل جلاله أراد أن يعمل هذا العمل العظيم الذي لا يقدر عليه أحد فقصد إلى السماء بالسلطان والقوة، وسواها سبع سموات، وهو عليم بكل شيء، وبالاشياء كلها، ومن تمام علمه أنه فعل ذلك لما يعلمه من أن خلقه محتاجون في حياتهم إلى ذلك التقسيم والتنظيم العجيب.

وإنما قال: «فسواهن»، ولم يقل «فسواها»، لما يشعر به ذلك من أن السماء ليست شيئاً واحداً، ولا جرماً ضيقاً، بل هي ملايين من الكواكب والنجوم والسدم، وهي آفاق واسعة رحبية لا نهاية لها عند مرأى البصر، وقال تعالى في سورة فصلت: «ففضاهن سبع سموات»، بعد أن قال «ثم استوى إلى السماء»، ثم قال عقب ذلك «ذلك تقدير العزيز العليم»، وهذه الفقرة الكريمة من آية فصلت تفسر قوله تعالى في سورة البقرة «وهو بكل شيء عليم». وتقديم الأرض في الذكر على السماء في سورة البقرة حيث قال تعالى: «هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً ثم استوى إلى السماء»: الأمرين:

الأول: أن خلق الأرض تم في أربعة أيام وخلقها، وتهيئة الحياة البشرية فيها أعجب وأغرب، والثاني: أن الأرض هي موضع النفع والفائدة للعباد فبدأ بما هو الأهم، وهو ذكر الأرض، ثم أعقب ذلك بذكر السماء.

إن النظرية التي تنادى بالتطور وتقييم الحياة على أساس المصادفة لهي نظرية

واهمة لا تقوم أمام البحث العلمي التزيه ، وهي نظرية تتنافى مع الإيمان بالله وقدرته ، ومع ما يقصه علينا القرآن الكريم والكتب السماوية من أن الحياة قامت على الأرض بإرادة الله وقدرته ، إننا إذا فكرنا في الفضاء الذي لا يفتأ يمتد أمامنا ، وفي الزمن الذي يكاد أن لا يكون له بداية أو نهاية . وفي الطاقة المقيدة والمحبوسة في الذرة ، وفي الكون الذي لا حد له بعوالمه التي لا تحصى ، ونجومه التي لا تعد ، وفي الاهتزازات التي نسميها الضوء والحرارة والكهرباء والمغناطيسية ، وفي النشاط المستمر للنجوم ، وفي الجاذبية وسيطرة القوانين الطبيعية على العالم ، إذا فكرنا في ذلك كله أدركنا أننا لا بد أن تؤمن بوجود الله وقدرته وحكمته ، وأنه المدبر الأعلى لكل هذه المعجزات التي تحيط بنا ، والتي هي من حولنا . وفي المزمور ١٢٩ - ١١ : ١٦ من مزامير داود يقول الإنسان : « سأثنى عليك لأنى خلقت بشكل رائع عجيب ، إن أعمالك مدهشة وإن روحى لتعرف ذلك حق المعرفة ، إن جوهرى لم يخف عليك حين خلقت فى الخفاء ، صنعت بشكل عجيب ، من أدنى أجزاء الأرض ، وقد رأيت عيناك جوهرى حين كنت لا أزال ناقصا ، وفى كتابك كتبت لى أعضائى ، التى اطرد تشكيلها حين لم يكن هناك واحد منها ، وفى الكتاب المقدس ما نصه : « فى البدء خلق الله السموات والأرض ، وكانت الأرض خربة وخالية ، على وجه القمر ظلمة . وروح الله يرف على وجه المياه ، وقال الله ليسكن نور فكان نور ، وقال الله ليسكن جلد فى وسط المياه ، وقال الله لتبت الأرض عشباً وبقلاً يبزر بزرًا ، وعمل الله النورين العظيمين والنجوم ، وقال الله لتنفذ المياه زحافات ، ذات نفس حية ، وليطر طير فوق الأرض على جلد السماء ، وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها ، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها . وكان كذلك ، وقال الله إنى قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرًا على وجه كل الأرض ، وكل شجر فيه ثمر يبزر بزرًا لكم يكون طعاما ، »

إن الإيمان بالله ضرورى لفهم الحياة ولتقدمها أيضا ، فتقدم الإنسان من الوجهة الخلقية وشعوره بالواجب إنما أثر من آثار الإيمان بالله

والاعتقاد بالخلود ، وإن غريزة التدين تكشف عن روح الانسان ، وترفعه خطوة خطوة ، حتى يشعر بالاتصال بالله ، ودعاء الانسان الغريزي لله بأن يكون في عونته هو أمر طبيعي ، وما الصلاة إلا مدعاة للسمو بالانسان ليكون قريبا من خالقه .

وجميع الأخلاق الكريمة لا تنبعث عن الإلحاد ، وبدون الإيمان كانت المدنية تسير إلى الإفلاس ، وكانت الحياة تسعى إلى الانقراض ، وكان النظام ينقلب إلى فوضى ، وكان الشر يسود العالم ، والظلام يخيم على الحياة والأحياء .
وفي إنجيل مرقس ما نصه : « إن أول كل الوصايا هي : اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد .

(٤)

وبعد ذلك العرض الرائع البليغ العظيم يتحدى الله عز وجل الناس عامة بالقرآن الكريم ، ويعلن عجزهم عن الوصول إلى مثل سمو القرآن وبلاغته وإعجازه : ويجعل ذلك كله قاعدة لوجوب الإيمان برسالة محمد ، لينجو المسلم بهذا الإيمان من عذاب النار ، ولينال المؤمن العامل ثمرة إيمانه وعمله جنات تجري من تحتها الأنهار في الآخرة بكل ما تشتمل عليه هذه الجنات من نعيم وراحة وسعادة .

(٥)

ويعود القرآن الكريم إلى جدال الذين يحاجون محمداً ويطعنون على القرآن ، لأنه اشتمل على ذكر صفات مخلوقات الله ، من البعوض والذباب والنمل والعنكبوت ، فيقول الله تعالى : إن الله لا يستجى أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها ، فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم ، وأما الذين كفروا فيقولون ماذا أراد الله بهذا مثلا؟ ويرد الله عز وجل على هؤلاء الشاكرين المتسائلين .

فيقول : يضل به (١) كثيراً ويهدى به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين ،
وفصل الله عز وجل صفات هؤلاء الفاسقين من نقضهم لعهدهم الأبدى مع الله
هذا العهد الذي أخذهم عليهم بالإيمان برسالة الرسل وبالأنبياء ، ومن قطعهم لما
أمر الله به أن يوصل من صلة الأرحام وغيره ، ومن إفسادهم في الأرض بالمعاصي
والتعويق عن الإيمان ، ومثل هؤلاء هم الخاسرون الكاملون في الخسران .

ويتعجب الله عز وجل إثر ذلك من كفر الكافرين بالله ، مع ظهور الأدلة
على وجود الله وعلى وجوب الإيمان به ، ومن أظهر هذه الأدلة خلق الحياة
على الأرض وخلق الإنسان من عدم ، ثم إمامة الإنسان وسلب الله عز وجل
للحياة منه ، ثم بعث الإنسان يوم القيامة ، ثم سكناه دار القرار إما إلى الجنة
وإما إلى النار ، فهذه الآثار دالة على باهر قدرة الله ، وتمام حكمته ، وجعل البعث
من الأدلة الموجهة للإيمان بالله وبالدين مع أنه لم يحدث بعد ، لأنه حق لا ريب
فيه ، ولأنه حدوثه لا بد منه .

ولما ذكر الله عز وجل نعمة الأحياء ودالاتها على قدرة الله ووجوده ،
أتبع ذلك بذكر الكون الذي يعيش فيه الإنسان ، وما خلقه الله للإنسان على
الأرض من نعم ، وباستوائه على السموات فسواهن سبع سموات ، فهو
عز وجل الذي خلق للناس ولاجلهم كل ما استقر في الأرض جميعاً ، ينتفعون
به في الظاهر قوتاً لأجسامهم ، وغذاء لأرواحهم ، ودواء لأبدانهم ، ومتعة
لأفئدتهم ، وينتفعون به في الباطن بالتفكير والاعتبار وزيادة في إيمانهم وقوة
ليقينهم ، ثم قصد إلى السماء قصد إرادة مخلقين سبع سموات مستوية تامة ،
ليس فيها تفاوت ولا خلل تظل الناس بجرمها ، وتضيء عليهم بشمسها وقرها
وكواكبها ، وقد أحاط عليه بالأشياء كلها ، فلذلك خلقها على هذا النمط الغريب ،
والإتقان العجيب .

ويقص الله قصة خلق آدم ، وحديث الملائكة حين أراد الله خلقه ، ورد

(١) أي ضرب الأمثال بهذه الأشياء الخبيثة .

الله جل جلاله عليهم ، وتعليمه الإلهي لآدم ، وسكناه الجنة ومعصيته لله وهبوطه إلى الأرض وحياته عليها ، وتناحر ذريته وخصوماتهم فوق ظهرها ، ويصور الله عز وجل توبة آدم إلى ربه . وأوحى الله عز وجل إلى آدم وذريته أن يسكنوا الأرض ، وأن يؤمنوا برسالات الله إليهم ويعملوا بها ، فالمؤمنون لاخوف عليهم ولا هم يحزنون ، وأما الذين يكفرون ويكذبون بآيات الله فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .

(٦)

ويفيض القرآن الكريم إثر ذلك في حجاج بني إسرائيل ، وذكر الكثير مما صنعه الله مع أجدادهم ، وما أحدثوه من كفر وشرك وضلال فيدعوهم إلى الإيمان برسالة محمد ونبذ أخلاقهم الوضيعة وكفرهم وجحودهم الذي ورثوه عن آبائهم وأجدادهم ويصور لهم مدى ما فطرت عليه نفوسهم من ضلال ونفاق وبهتان وخداع وكيف يستيحيون لأنفسهم أن يأمروا الناس بالبر ناسين أنفسهم وهم يتلون التوراة ويعرفون ما فيها من شرائع وأوامر ونواه ، والعجب العجيب في اليهود أنهم كانوا إذا استرشدتهم أحد من العرب دلوه على الإسلام ، وقالوا له : دين محمد حق ، وهم يقفون موقف الكافر بهذا الدين الحق ، المحارب له ، الصادق عنه .

ويأمر الله عز وجل بالصبر والصلاة ، والصبر المراد به الصوم أو ملاقاته الأحداث والشدائد بوجه باسم وثمر ضحك ، دون يأس أو قنوط من فرج الله ، وهذا الأمر أيضاً لليهود ، أمرهم بأصول الإسلام ، ثم أمرهم بالفروع ، ثم عاد كرمهم بالنعم وخوفهم بالوعيد على عدم شكرها ، ومن أهم هذه النعم إنجاء الله لهم من فرعون وقومه ، كيف فرق لهم ولنبيهم موسى البحر فعبروه ، وأغرق فرعون وآله فيه . وأبعد بني إسرائيل من الهلاك المحقق والاستئصال الشديد الذي كان فرعون - وهو يتبعهم بنجيشه - قد دبّره لهم .

ومن نعم الله عز وجل على اليهود أيضاً وعده لموسى بإنزال كتاب سماوى

عليه ، وأمره إباء بالتطهر والصوم أربعين ليلة بأيامها متواصلة وهي على ما يروى ذو القعدة وعشر من ذى الحجة ، ولما صامها موسى وذهب لمناجاة ربه كفر اليهود بالله ، وعبدوا التمثال الذى صنعه السامرى لهم على صورة العجل ، ثم عفا الله عنهم بعد توبتهم ، وأنزل الله على موسى التوراة فيها هدى ونور وضياء للثومنين .

ومن النعم التى من الله بها عليهم أيضا تظليله لهم بالغمام يقيهم من الحر فى أيام التيه ، وما أنزل عليهم من المن ، وهو عسل كان ينزل على الشجر من الفجر إلى طلوع الشمس ، ومن السلوى وهو طير السمانى الذى كانت تدفعه الريح إليهم فيذبحون ويأكلون لحما طريا ، وذلك لما أمرهم الله بجهاد الجبارين فعصوا وقالوا لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون ، فعاقبهم الله بالتية أربعين سنة يتيهون فى الأرض ، قيل تاهوا فى مقدار خمسة فراسخ أو ستة فى صحراء سينا ، فكانوا يمشون النهار ، فيبيتون حيث أصبحوا ، ويمشون الليل فيصبحون حيث أمسوا ، فقالوا لموسى : من لنا بالطعام ؟ فأنزل الله عليهم المن والسلوى ، وقالوا : كيف لنا ببحر الشمس ؟ فظلل الله عليهم الغمام وقالوا : بم نستصبح بالليل ؟ فضرب الله لهم عمود نور فى وسط مكانهم ، وقالوا : من لنا بالماء ؟ فأمر موسى عليه السلام بضرب الحجر فانتجرت منه اثنتا عشرة عينا :

وحكمة كون التية أربعين سنة أن هذا الزمن هو مدة جيل كامل ، فقد عذبهم الله بالتية فى الأرض هذه المدة حتى يفنى جيلهم هذا الذى عصى الله وتمرد على رسوله موسى عليه السلام .

ويذكر الله عز وجل ما آل إليه أمرهم بعد التية ، حين قال الله تعالى لهم : « ادخلوا هذه القرية ، وهى بيت المقدس أو أريحاء بعد أن يجاهدوا أهلها ، فكلوا من خيراتها أكلا رغدا ، لأنها مخصصة . وانووا على الإقامة والحطة فيها والنزول بها أو ادخلوا باب القرية راكعين متواضعين لله شكرا له على نعمته ، أو قولوا فى دخولكم : شأنا حطة وتواضع لله ، فإن فعلتم ذلك تغفر

لكم خطاياكم ، فبدل الذين ظلموا منهم قولاً غير الذى أمروا به ، فأنزل الله عليهم عذابه من السماء ، قيل هو الطاعون ، الذى مات به منهم سبعون ألفاً فى يوم واحد على ما يروى .

ويذكر الله عز وجل إثر ذلك استسقاء موسى لقومه من الله عز وجل ، وكيف أمره الله عز وجل بأن يضرب بعصاه الحجر ، فانفجرت منه اثنتا عشرة عينا .

ويذكر الله جل جلاله تعنتهم مع موسى ، وكيف قالوا له لن نصبر على طعام واحد هو العسل واللحم ، وكيف طالبوه بالعدس والبصل والثوم والبقل ، وقد رد عليهم موسى بأن يهبطوا إلى مصر من الأمصار يجدون فيه ما يشتهون إذ لا يوجد ذلك إلا فى القرى والأمصار ، أو أن يعودوا إلى مصر التى كانوا فيها أذلاء مستعبدين ليعودوا إلى ما كانوا عليه من الذلة والاستعباد ، لأن المحظوظ والشهوات منوطة بالذل والهوان .

يذكر الله عز وجل طبيعة اليهود وتفسيتهم الخبيثة المضروب عليها الذلة والمسكنة إلى يوم القيامة ، وذلك بسبب عصيانهم وكفرهم وطغيانهم وتمردهم وقتلهم للأنبياء بغير الحق ، واعتدائهم واستمرارهم فى العصيان .

وهنا يذكر الله عز وجل أن ضرب الذلة على اليهود سوف يظل دائماً أبداً إلا من خرج منهم عن نطاق يهوديته فأمن بالله ورسوله فإن لم الأجر عند الله والأمان من الخوف والحزن ، ومثلهم فى ذلك الوعد الإلهى الذين يؤمنون برسالة محمد من النصارى والصائين ، والنصارى أتباع عيسى ، سموا بذلك انصرم له ، أو سكناهم ، الناصرة ، .. والصائين هم عبدة الكواكب من السريانيين والبابليين والآشوريين .

ويذكر القرآن الكريم إثر ذلك عصيان اليهود وتمردهم وإبائهم العمل بالتوراة ، ورفع الله عز وجل الجبل فوقهم تهديداً ووعيداً ، فلما تابوا وقبلوا العمل بالتوراة مكرهين ، عقا الله عنهم ، وإن كانوا لم يقلعوا بعد عن العصيان

والتمرد . . . ويذكر قصة الذين أحلوا الصيد يوم السبت واعتدوا فيه في زمن داود عليه السلام ، وقد كان محرماً عليهم في هذا اليوم ، فعاقبهم الله على اعتدائهم هذا بالذلة والخسران .

ويفيض القرآن في ذكر لجأ اليهود مع نبيهم موسى ، وقصة البقرة وصنيعهم مع موسى في أمرها ، وما آل إليه أمرهم من قساوة قلوبهم وكفرهم وعنادهم واقترائهم على الله .

وهنا يلتفت القرآن الكريم التفاتاً بليغاً إلى الرسول والمؤمنين ، فينصحهم بأن لا يطمعوا في إيمان اليهود بالإسلام والقرآن ، وأن يأسوا من ذلك بأساً تاماً ، ويذكر صنيع علمائهم في تحريف التوراة وجهل العامة من اليهود جهلاً شاملاً ، وما أعدده الله من عذاب لهؤلاء الضالين المضلين المحرفين لكتاب الله وأحكامه .

ويستمر القرآن الكريم في سرد قصة عناد بني إسرائيل وتمردهم على شريعة التوراة ، وإعراضهم عن الطاعات والمعروف ، وما آل إليه أمرهم من سفك الدماء ومن الاعتداء على حقوق الآخرين ، وتكذيبهم الأنبياء وقتلهم لبعضهم كزكريا ويحيى عليهما السلام ، ثم كانت الداهية الدهيئة منهم ، وهي كفرهم بالقرآن الكريم ، وقد كانوا قبل يستفتحون به على الذين كفروا ويستنصرون على أعدائهم بالنبي الذي جاء به . فيقولون : اللهم انصرنا عليهم بالنبي المبعوث في آخر الزمان الذي نجد نفعه في التوراة ، وكانوا يقولون لأعدائهم من المشركين : قد أظل زمان نبي يخرج بتصديق ما قلنا فنقاتلكم معه قتل عاد وإرم ، فلما ظهر وعرفوه كفروا به .

ويستمر القرآن الكريم في تفنيد مزاعم اليهود وأكاذيبهم ، وفي الرد عليهم في طعنهم على جبريل من مثل ابن صوريا وغيره ، حيث قالوا للرسول صلوات الله عليه : من الذي يأتيك بالوحي ؟ فقال : جبريل . فقالوا : ذلك عدونا من الملائكة لأنه ينزل بالشدة والعذاب ، ولو كان ميكائيل لا تبعناك

لأنه ينزل بالخصب والسلم ، فقال الله تعالى : « قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين الخ ، وينهى الله عز وجل إلى ذكر ايثار اليهود للسحر وعلمهم به وتفضيلهم له ، وتعلمهم إياه من بقايا السحرة الذين أخذوه ونبغوا فيه وتوارثوه عن أجداد لهم من عهد سليمان . ثم أخذهم للسحر كذاك من البابليين . وكان السحر منتشرا في العالم القديم عن طريق الكلدانيين والآشوريين والبابليين ، فأخذ اليهود منهم أيام أسرهم بابل حين تسلط بختنصر عليهم وخرّب بيت المقدس وأسّر عظماء اليهود وعلماءهم وساقهم إلى العراق . ومن اليهود سرت عدوى السحر إلى العالم كله .

وفي سفر الخروج في الكتاب المقدس ذكر لقصة بني إسرائيل كاملة : ففي الاصحاح الأول من سفر الخروج يذكر سبب اضطهاد فرعون لبني إسرائيل بأنه خاف منهم على عرشه ، وقال اشعبه ، « هوذا بنو إسرائيل شعب أكثر وأعظم منا ، هلم نحتال لهم لئلا ينمو فيكون إذا حدثت حرب أنهم ينضمون إلى أعدائنا ويحاربونا ويصعدون من الأرض ، فجعلوا عليهم رؤساء تسخير لكي يذلّوهم ، فبنوا لفرعون مدينتي «مخازن فيثوم» و«عسيس» . ولكن بحسبها أذلّوهم هكذا نموا وامتدوا فخشوا من بني إسرائيل ، فاستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف ، ومرروا حياتهم بعبودية قاسية في الطين واللبن ، وفي كل عمل في الحقل ، .

وأمر فرعون بقتل أطفالهم الذكور واستبقاء البنات وقت الولادة . ومع ذلك فقد نما الشعب وكثر جداً .

وفي الاصحاح الثاني قصة مولد موسى ، ويذكر في هذا الاصحاح قتل موسى لمصرى وفراره من مصر وسقياه الرعاء لبنات النبي شعيب .

وفي الاصحاح الثالث يذكر مناجاة الله لموسى على الجبل ، ورسالته التي حملها نبيه ورسوله موسى ، قال الرب « إني قد رأيت مذلة شعبي الذي في مصر

وسمعت صراخهم من أجل مسخريهم . . فالآن هلم فأرسلك إلى فرعون ،
وتخرج شعبي بني إسرائيل من مصر . .

وفي الاصحاح الرابع من سفر الخروج يذكر عصا موسى . ويده البيضاء
إذا أدخلها في جيبه . وشكوى موسى من ثقل في لسانه ، وإمداد الله له بهارون
وسفر موسى بيته إلى مصر .

وفي الاصحاح الخامس يذكر حديث موسى وهارون أمام فرعون ،
وتأنيبه في زيادة السخرة على بني إسرائيل ، وصراخ بني إسرائيل لفرعون ،
وعدم التفاته لشكواهم ، وتضرع موسى وهارون إلى الله .

وفي الاصحاح السابع والثامن والتاسع والعاشر يذكر معجزات موسى
وتأييد الله له وإنزاله الجراد والضفادع والبعوض والذباب والدم في مصر ،
ونزول الوباء بمواشي المصريين ، وكذلك نزول البرد والصواعق والبرق والظلام
بجميع أرض مصر إلا حيث يقيم بنو إسرائيل ، وثار الغبار ، وخربت مصر
وصوح زرعها .

وفي الإصحاح الثاني عشر يذكر إذن فرعون لموسى وهارون بأن يخرجوا
ومعهم بنو إسرائيل ليعبدوا الرب في البرية ثلاثة أيام ويذبحوا له ، وكان
عددهم نحو ستمائة ألف ماش من الرجال عدا الأولاد وصعد معهم لفيث كثير ،
وكانوا قد استعاروا حلي المصريين وأخذوها معهم .

وفي الاصحاح الرابع عشر يذكر غضب فرعون لهرب بني إسرائيل
وتبعه لهم وغرقه هو وجيشه في البحر ونجاة بني إسرائيل .

وفي الاصحاح السادس عشر يذكر الكتاب المقدس سيرهم في برية سيناء
وتدميرهم وقولهم لموسى وهارون : ليتنا متنا بيد الرب في أرض مصر إذ كنا
جالسين عند قدور اللحم نأكل خبزا ، وإنزال الله لهم السلوى والمن .

وفي الاصحاح السابع عشر يذكر الكتاب المقدس صراخ بني إسرائيل
وتدميرهم وطلبهم للنساء ، وضرب موسى الصخرة بعصاه وخروج الماء من

الصخرة ليشرب الشعب .

وفي الاصحاح ١٩-٢٣ يذكر مناجاة الله لموسى على الجبل ووصايا الله إليه .

وفي الاصحاح ٣٢ يذكر الكتاب المقدس أن بنى إسرائيل استبطوا موسى فى النزول من الجبل ، فاجتمعوا على هرون وقالوا له : اصنع لنا آلهة تسير أمامنا ، وأنه صنع لهم تمثالا على صورة عجل من الخلى التى استعاروها من المصريين ، وغضب موسى لعبادتهم العجل وتنديده بهرون وبالشعب ، وفى آخر الاصحاح ما نصه : « فضرب الرب الشعب لأنهم صنعوا العجل الذى صنعه هارون (١) » .

إلى آخر ما فى الكتاب المقدس من قصص إسرائيل وعصيانها وتمردها .

(٧)

ويفيض القرآن الكريم فى ذكر حسد الكفار من أهل الكتاب والمشركين للسليين ، وتمنيهم أن يعود المسلمون كفارا ، حسدا من عند أنفسهم ، وقصرهم الجنة عليهم ، كما قصر النصارى الجنة على أنفسهم كذلك ، واختصام اليهود والنصارى فى الدين الحق : أهو دين هؤلاء أم دين هؤلاء ، وصنيع اليهود من صدمهم عن المسجد الأقصى وسعيهم فى خرابه .

ثم يرد القرآن الكريم على من ادعى من اليهود والنصارى والمشركين بأن لله ولدا ، والإنجيل أيضا يرد على ذلك ، فى إنجيل متى الاصحاح الخامس : « لا تظنوا أنى جئت لأنقض التاموس أو الأنبياء » .

ويعود القرآن الكريم إلى الكشف عن طوية اليهود والنصارى ، وأنهم لا يرضون عن الرسول ورسالته حتى يتبع ملتهم ، ولو حدث ذلك من الرسول لئاله عقاب الله وعذابه الشديد ، ولما كان له من الله وغضبه ولى ولا نصير يدافع عنه .

وهنا ينكشف الأمر وضوحا فى صدق الرسول ، وفى أن القرآن نزل

(١) هذه رواية الكتاب المقدس ، وهى واهية .

من عند الله ، فلو كان محمد هو صاحب هذا الكلام لما قال على نفسه هذا الكلام ، ولما ذكر هذا التهديد والوعيد ، ولكنه كتاب الله الحكيم ، وبيانه العظيم البليغ .

(٨)

ويذكر الله عز وجل قصة إبراهيم وبناء البيت ، وأن شريعة التوحيد والإسلام هي الحنيفية البيضاء التي أتى بها إبراهيم ، والتي وصى بها إبراهيم بنيه الأربعة : إسماعيل وإسحاق ، ومدين ، ومدان .. وكذلك صنع حفيده يعقوب إذ أوصى بشريعة التوحيد بفيه ، وكانوا اثني عشر .

والإسلام هو أصدق شبه بدين إبراهيم من اليهودية والنصرانية ، وهو دين الإنسانية جمعاء ، وغاتم الرسالات على الإطلاق .

ويفيض القرآن الكريم هنا في جدال اليهود والنصارى الذين لا يرون الدين إلا دينهم .. ويدعوهم إلى الإيمان بجملة شرائع الأنبياء ، ويصبح المسلمون في وجوههم بأعلى صوت وبيان قائلين : آمنا بالله وما أنزل إلينا وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وما أوتي موسى وعيسى ، وما أوتي النبيون من ربهم لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون .

إلى آخر هذا الحديث الرائع الذي ورد في آخر الجزء الأول من القرآن الكريم ، والذي أفضنا في شرحه فيما سبق .

ويختم الله عز وجل هذا الجزء بقوله تعالى متهاكبا باليهود والنصارى : « أم تقولون إن إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط كانوا هودا أو نصارى ، قل أأنتم أعلم أم الله ؟ ومن أظلم ممن كتم شهادة عنده من الله ؟ وما الله بغافل عما تعملون ، تلك أمة خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ، ولا تسألون عما كانوا يعملون . »

ويؤكد الله عز وجل - في سورة آل عمران في ربيع ، فلما أحسن عيسى

منهم الكفر ، هذا المعنى فيقول (١) : « ما كان إبراهيم يهودياً ولا نصرانياً ،
ولكن كان حنيفاً مسلماً ، وما كان من المشركين ، إن أولى الناس بإبراهيم للذين اتبعوه
وهذا النبي والذين آمنوا ، والله ولي المؤمنين » ، فليس دين اليهود هو دين الحنيفية ،
وليس دين النصارى كذلك ، ليس دين من هذين هو دين النبيين جميعاً كما يزعمون
ولا هو دين أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام كما كانوا يدعون ؛ إن إبراهيم
بريء من هذا الادعاء ، لأنه نبي الوحداية وهو هادم الأوثان ومخطمها ، ولم
يكن إبراهيم وكذلك ذريته يهودياً ولا نصرانياً ، إذ أن المؤدى أنه لو كانت
اليهودية أو النصرانية على ما هما عليه تنتمي إحداهما إلى إبراهيم عليه السلام لكان
متصفاً بهما ، وهو قد نزهه ربه عن أن يتصف بما عليه اليهود من خلال ،
وما في اليهودية والنصرانية التي عندهم من ضلال ، فتنى وصف اليهودية والنصرانية
عنه عليه السلام تضمن براءته منهم ، وفيه التعريض بما فيهما من ضلال لا يليق
أن يلصق بنبي من أنبياء الله ، والتنويه بشأن إبراهيم من أن يكون في مثل حياة
اليهود والنصارى الذين عاصروا النبي ﷺ .

إن إبراهيم كان دينه التوحيد الخالص ، والحنيفية البيضاء ، وقد أسلم
وجهه لله ، ولم يكن من المشركين ، والمشركون ألوان وأصناف ، فمنهم من يعبد
الأوثان ، ومنهم من يجعل لله ابناً يعبد ، ومنهم من يجعل الله ثالث ثلاثة ،
ومنهم من يتخذون أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله ، ومنهم من يتخذون
وساطة بين العبد والرب ، وهكذا ، فما كان إبراهيم من أي صنف من هذه
الأصناف . وفي ذكر هذه الصيغة في نفي الشرك عن إبراهيم تعريض بين
بجاهم وما هم عليه من الشرك ، بل إن أشد الناس ولاية إبراهيم وأجدرهم
بالإتصال به ، للذين اتبعوه ، وهذا النبي والذين آمنوا بهذا النبي . والذين
اتبعوه موصول عام يشمل الذين اتبعوا هدايته في حياته ، وأجابوا دعوته ،
ولم يخالفوه ، والذين اتبعوه من بعد وفاته ، وإنهم لكثيرون ، وكان يمكن

(١) الآيات : ٦٧ و ٦٨ آل عمران .

أن يكون من هؤلاء اليهود والنصارى ، لو اتبعوا هديه فطلبوا الحق وأخلصوا
الله في طلبه ، وتجنبوا الشرك بكل ضروبه وبكل أشكاله ، وفي هذا توييخ لهم
على أنهم لم يتبعوه ، وادعوا الاتيأ إليه . وقد ذكر النبي ﷺ بالنصر عليه
بالذات على أنه أولى الناس بإبراهيم عليه السلام ، ولم يذكره في ضمن الذين
اتبعوه ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تلقى الهداية من السماء كما تلقاها إبراهيم ،
ولأن محمداً ﷺ خاتم النبيين ، ولأنه آخر دعامة في بناء صرح الرسالة الإلهية
إلى أهل الأرض .

وفي ذكر النبي صلى الله عليه وسلم تمهيد لبيان أولوية الذين آمنوا به
ﷺ بسيدنا إبراهيم من اليهود والنصارى ؛ لأنهم حنفاء طلبوا الحق وتحرروه
وآمنوا به واهتدوا ، وأخلصوا دينهم لله تعالى ، وصار الله ورسوله أحب
إليهم من أنفسهم .. والذين آمنوا في الآية هم من آمنوا بمحمد صلى الله عليه وسلم
ولقد قال النبي ﷺ : « لكل نبي ولاية من النبيين ، وإن ولي منهم أبي وخليل
ربي إبراهيم ، » .

والله سبحانه وتعالى جل جلاله ، وعظمت قدرته ، وتعالى حكمته ،
وتسامت عظمته ، هو ولي المؤمنين وناصرهم وهم أهل محبته ورضوانه ، وذلك
لأنهم لا يطلبون إلا رضاه ، ولا يبتغون إلا محبته ورضوانه ، فهم يا خلاصهم
قد نالوا ولاء الله ومحبته ، والله سبحانه وتعالى لا يوالى إلا من يؤمن بالحق ويدع
له ، ولا يطلب سواه .

فاتصال النبي والذين اتبعوه والذين اتبعوا إبراهيم ؛ بخليل الله ، لأنهم
اتصلوا بالله تعالى ، والمؤمنون بعضهم لبعض ولي ونصير ، لأنهم جميعاً أولياء
الله . فالمؤمنون برسالة إبراهيم والمؤمنون برسالة محمد كلهم أولياء ، لأنهم جميعاً
أولياء لله تعالى ، وفي ذلك يبين سبحانه لليهود وغيرهم الطريق الحق الذي
يجعلهم أولى بإبراهيم كالنبي ومن اتبعه .

وولاية الله هي الغاية الكبرى التي يجب أن يطلبها كل مؤمن ، وطريقها
(٢٠ - تفسير القرآن لتفاجي)

الإحسان في كل شيء ، وأساس الإحسان الإخلاص ، ولذا يقول النبي صلى الله عليه وسلم : الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه ، فإن لم تكن تراه فإنه يراك .

هذا هو المغزى الكبير لنبي اليهودية والنصرانية عن إبراهيم والأنبياء من ذريته ، وإن أولى الناس بالالتقاء إلى إبراهيم هم : نبينا محمد صلوات الله عليه والذين اتبعوه بإحسان إلى يوم الدين .

خاتمة هذا الجزء

(١)

وبعد فهذه خاتمة الجزء الأول من هذا التفسير الكبير الذي ألفته خدمة للقرآن الكريم ، وهو تفسير جديد لكتاب الله الحكيم ، يتمشى مع روح العصر الحديث في فهم القرآن الكريم ، وفي تطبيقه على حياة المجتمع البشرى المعاصر . وسوف يصدر بإذن الله ومشيتة تباعاً في ثلاثين جزء ، يتناول كل جزء منه تفسير جزء من كتاب الله الخالد .

ولم أبدأ بطبع هذا الجزء إلا بعد الانتهاء من كتابة جميع أصول هذا التفسير الكبير ، فإذا حدث تأخير في إكماله فإن يكون ذلك إلا أثراً للعوقات المادية لا غير . . . وإني لعلى يقين من أن الله عز وجل سوف يوفق المسعى ويعين على طبعه ونشره والنفع به ، بمقدار إخلاصه بكتابته لوجهه الكريم .

(٢)

وقد خدم العلماء المسلمون كتاب الله في جميع العصور خدمات صادقة لأنه أساس الدين ، ومصدر الشريعة ، ودستور الإسلام ، وقاموس الحضارة للبشرية كافة ،

ففي القرن الأول الهجري نجد جمعاً كبيراً من الصحابة في القرن الأول

المجربى يعمل فى سبيل خدمة كتاب الله عملا صادقا مبرورا .
فأبو بكر وعمر وعثمان وعلى وزيد بن ثابت المتوفى عام ٤٥ هـ ، كان لهم
فضل جليل فى جمع القرآن وتدوينه وترتيبه فى المصحف الشريف ، وزيد
ابن ثابت كان له فضل جمع المصحف فى عهد أبى بكر وعثمان ، وكان من
كتاب الوحي .

بينما نجد من الصحابة الكثرين من كانوا يفسرون كتاب الله ويشرحونه
للناس ، وفى مقدمتهم : على بن طالب كرم الله وجهه ، وعبد الله بن مسعود
المتوفى عام ٣٢ هـ بالمدينة المنورة ، ثم عبد الله بن عباس ، وأبو موسى
الأشعري عام ٤٤ هـ ، وأبى بن كعب المتوفى عام ٢٠ هـ ، وكان سيد القراء ،
وأحد الأربعة الذين جمعوا القرآن فى عهد الرسول . وتفسيره برواية أبى
جعفر الرازى عن الربيع بن أنس ، وعبد الله بن الزبير . . وكان ابن عباس
رضى الله عنه شيخ المفسرين ، وحبر الأمة ، ولقب ترجمان القرآن ، وله التفسير
المنسوب إليه المسمى « تنوير المقباس فى تفسير ابن عباس » ، وقد نسبت روايته
إلى الفيروز أبادى مؤلف القاموس المحيط . وتوفى ابن عباس بالطائف
عام ٦٨ هـ . وأصح الطرق فى الرواية عن ابن عباس كما يقول صاحب كشف
الظنون هى :

١ - طريق قيس بن مسلم الكوفى المتوفى عام ١٢٠ هـ عن عطاء
ابن السائب .

٢ - على بن أبى طلحة الهاشمى المتوفى عام ١٤٣ هـ ويعتمد عليها
البخارى فى صحيحه .

٣ - طريق أبى النصر محمد بن السائب السكلى المتوفى عام ١٤٦ هـ ، وهى
ضعيفة ، وخاصة إذا روى عن محمد بن مروان السدى المتوفى عام ١٨٦ هـ . . ومحمد
ابن السائب السكلى هو والد أبى المنذر هشام السكلى المتوفى عام ٢٠٤ هـ ،
وصاحب الروايات العديدة فى الأدب ، وصاحب كتاب الأصنام وغيره
من الكتب .

ومن أصحاب ابن عباس في التفسير في القرن الأول من علماء مكة : سعيد
ابن جبير المتوفى عام ٩٤ هـ .

ومن أصحاب ابن مسعود في التفسير في القرن الأول من علماء الكوفة :
الأسود بن يزيد المتوفى عام ٧٥ هـ ، وإبراهيم النخعي المتوفى عام ٩٥ هـ ،
وعلقمة بن قيس المتوفى عام ١٠٢ هـ ، والشعبي المتوفى عام ١٠٥ هـ

وفي القرن الثاني الهجري توالى جهود التابعين في خدمة كتاب الله
وتفسيره ، واشتهر من المفسرين كثير من الأئمة الأعلام ، في مقدمتهم من
علماء المدينة من أصحاب زيد بن أسلم العدوي المدني المتوفى عام ١٢٦ هـ صاحب
التفسير المشهور المنسوب إليه : أبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى
عام ١١٠ هـ ، والحسن البصري المتوفى عام ١١١ هـ ، والضحاك بن مزاحم
المتوفى عام ١٠٥ هـ ، وعطية بن سعيد العوفي المتوفى عام ١١١ هـ ، وقتادة بن
دعامة السدوسي المتوفى عام ١١٧ هـ ، ومحمد بن كعب القرظي المتوفى عام ١١٧ هـ ،
وإسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبيري المتوفى عام ١٢٧ هـ ، وعطاء بن أبي مسلم
الخراساني المتوفى عام ١٣٥ هـ ، والربيع بن أنس المتوفى عام ١٣٩ هـ ،
والإمام مالك بن أنس ، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم العدوي المتوفى عام
١٨٢ هـ . . أما مكة فقد كان من علماءها المشهورين في التفسير في هذا القرن
وهم من أصحاب ابن عباس : مجاهد بن جبير المتوفى عام ١٠٣ هـ ، ويعتمد
البخاري والشافعي على تفسيره ، ويروى عنه ، أنه قال : عرضت القرآن على ابن
عباس ثلاثين مرة ، وعكرمة مولى ابن عباس المتوفى بمكة عام ١٠٥ هـ ،
وطاوس بن كيسان اليماني المتوفى ١٠٦ هـ ، وعطاء بن أبي رباح المكي المتوفى
عام ١١٤ هـ .

واشتهر في أواخر القرن الثاني الهجري طائفة من تابعي التابعين جمعت
في التفسير بين آراء الصحابة والتابعين . ومن أعلام هذه الطائفة : شعبة بن
الحجاج المتوفى عام ١٦٠ هـ ، ويزيد بن هرون السلمي ، وسفيان بن عيينة

المتوفى عام ١٩٨ هـ ، ووكيع بن الجراح الكوفي المتوفى عام ١٩٧ هـ ، وعبدالله
ابن حميد الجهني .

(٣)

وفي القرن الثالث كان من أعلام المفسرين : آدم بن أبي إياس المتوفى
عام ٢٢١ هـ . وروح بن عبادة المتوفى عام ٢٠٥ هـ ، وعبد الرازق المتوفى عام
٢١١ هـ ، وأبو بكر بن أبي شيبة الإمام الحافظ الكوفي المتوفى عام ٢٣٥ هـ ،
وإسحاق بن راهويه الإمام الحافظ النيسابوري المتوفى عام ٢٣٨ هـ .. والإمام
البخاري المتوفى عام ٢٥٦ هـ ، وفي صحيحه كتاب يسمى « كتاب تفسير القرآن ،
ويحتوي على جملة أحاديث في تفسير بعض آيات القرآن الكريم ، ومن مثل
روايات البخاري في صحيحه في التفسير هذه الروايات المأثورة : عن أبي سعيد
ابن المعلّى قال : كنت أصلي في المسجد فدعاني رسول الله ﷺ فلم أجبه فقلت
يا رسول الله : انى كنت أصلي فقال ألم يقل الله « استجبوا لله وللرسول اذا دعاكم ،
ثم قالى : لأعلمنك سورة هي أعظم السور في القرآن قبل أن تخرج من المسجد
ثم أخذ بيدي فلما أراد أن يخرج قلت له : ألم تقل لأعلمنك سورة هي أعظم
سورة في القرآن ؟ قال : الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني والقرآن العظيم
الذي أوتيته .

وعن عبدالله رضى الله عنه قال سألت النبي ﷺ أى الذنب أعظم عند الله ؟
قال : أن تجعل لله ندا وهو خلقك ، قلت : إن ذلك لعظيم ، قلت ثم أى ؟ قال وأن
تقتل ولدك تخاف أن يطعم معك قلت : ثم أى ، قال : أن تزاني حليلة جارك .
وعن سعيد بن زيد رضى الله عنه ، قال قال : رسول الله ﷺ : الكفاة
من المن وماؤها شفاء للعين .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه عن النبي ﷺ أنه قال : قيل لبنى إسرائيل
ادخلوا الباب سجداً وقولوا حطة فدخلوا يزحفون على أستاههم فبدلوا وقالوا
حطة حبة فى شعرة .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما قال : قال عمر رضى الله عنه : أقرؤنا أبى
وأقضانا على ، وانا لندع من قول أبى وذاك أن أيا يقول : لا أدع شيئاً سمعته

من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد قال الله عز وجل : « ما ننسخ من آية أو ننسأها ، .

وعن ابن عباس رضى الله عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : قال الله عز وجل : « كذبتى ابن آدم ولم يكن له ذلك وشتى ولم يكن له ذلك ، فأما تكذيبه إياى فزعم أنى لا أقدر أن أعيدته كما كان ، وأما شتمه إياى فقول له لى ولد فسبحانى أن أتخذ صاحبة أو ولدا .

وعن أنس رضى الله عنه ، قال : قال عمر رضى الله عنه : وافقت الله عز وجل فى ثلاث ، قلت يا رسول الله لو أتخذت من مقام إبراهيم مصلى ، وقلت يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغنى معاتبة النبي صلى الله عليه وسلم بعض نساءه فدخلت عليهن فقلت : ان اتيهن أو ايدين الله رسوله صلى الله عليه وسلم خيراً منكن حتى أتيت إحدى نساءه (١) . . قالت يا عمر : أما فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت ، فأنزل الله عز وجل عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجاً خيراً منكن مسلمات - الآية .

وفى البخارى كذلك كتاب بعنوان : فضائل القرآن ، وبما جاء فيه هذه الروايات المأثورة : عن أبي هريرة رضى الله عنه . قال : قال النبي صلى الله عليه وسلم : ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحياً أو حاه الله إلى فارجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أن الله تعالى تابع على رسوله ﷺ الوحي قبل وفاته حتى توفاه أكثر ما كان الوحي ، ثم توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد .

وعن عمر بن الخطاب رضى الله عنه قال : سمعت هشام بن حكيم يقرأ

(١) أم سلمة ، وعن النووى : زينب بنت جحش ، ويؤيد الأول ما جاء فى سبب نزول سورة التحريم بلفظ : « فقالت أم سلمة عجباً لله يا بن الخطاب دخلت لى كل شىء حتى تبتنى أن تدخل بين رسول الله (ص) وأزواجه .

سورة الفرقان في حياة رسول الله ﷺ فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأ على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله ﷺ ، فكذبت أساوره في الصلاة فتصبرت حتى سلم فليبتته بردائه فقالت : من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأ قال : أقرأنيها رسول الله ﷺ ، فقلت : كذبت فان رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أقرأنيها على غير ما قرأت ، فانطلقت به أقوده إلى رسول الله ﷺ ، فقلت إني سمعت هذا يقرأ بسورة الفرقان على حروف لم يقرئها ، فقال رسول الله ﷺ أرسله ، اقرأ يا هشام فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأ ، فقال رسول الله ﷺ : كذلك أنزلت ثم قال اقرأ يا عمر فقرات القراءة التي أقرأني فقال رسول الله ﷺ كذلك أنزلت ، ان هذا القرآن أنزل على سبعة أحرف فاقرأوا ما نيسر منه .

وعن فاطمة رضي الله عنها قالت أسر إلى النبي صلى الله عليه وسلم أن جبريل كان يعارضني بالقرآن كل سنة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضراً أجلي .
وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال : والله لقد أخذت من في رسول الله ﷺ بعضاً وسبعين سورة . . . وعنه رضي الله عنه أنه كان يمحص فقرأ سورة يوسف فقال رجل ما هكذا أنزلت قال : قرأت على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال أحسنت .

وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رجلاً سمع رجلاً يقرأ قل هو الله أحد ، يرددها فلما أصبح جاء إلى رسول الله ﷺ فذكر ذلك له وكان الرجل يتقالمها (١) ، فقال رسول الله ﷺ والذي نفسي بيده إنها لتعدل ثلث القرآن ؛ وعنه رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ لأصحابه : أيعجز أحدكم أن يقرأ ثلث القرآن في ليلة فشق ذلك عليهم وقالوا أينا يطبق ذلك يا رسول الله؟ فقال الله الواحد الصمد ثلث القرآن .

وعن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان إذا أوى إلى فراشه كل ليلة

(١) أي يعتقد أنها قليلة في العمل .

جمع كفيه ثم نفث فيهما فقراً فيهما قل هو الله أحد وقل أعوذ برب الفلق
وقل أعوذ برب الناس ثم يمسح بهما ما استطاع من جسده يبدأ بهما على رأسه
ووجهه وما أقبل من جسده يفعل ذلك ثلاث مرات .

وعن أسيد بن حضير رضي الله عنه قال: بينما هو يقرأ من الليل سورة البقرة
وفرسه مربوطة عنده إذ جالت الفرس فسكت فسكنت فقراً فجالت الفرس
فسكت وسكنت الفرس ثم قرأ فجالت الفرس فانصرف وكان ابنه يحيى قريباً
منها فأشفق أن تصيبه فلما اجتزه رفع رأسه إلى السماء حتى ما يراها فلما أصبح
حدث النبي ﷺ فقال له: اقرأ يا ابن حضير اقرأ يا ابن حضير، قال: فأشفقت
يا رسول الله أن تطأ يحيى وكان منها قريباً فرفعت رأسي فانصرفت إليه فرفعت
رأسي إلى السماء فإذا مثل الظلة فيها أمثال المصابيح فخرجت حتى لأراها، قال:
وتدرى ماذا؟ قلت لا، قال تلك الملائكة دنت لصوتك ولو قرأت لأصبحت
ينظر الناس إليها لا تتوارى منهم .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: لا حسد إلا في اثنتين
رجل علمه الله القرآن فهو يتلوه آناء الليل وآناء النهار فسمعه جار له فقال:
ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل، ورجل آتاه الله مالا فهو
يهلكه في الحق فقال رجل: ليتني أوتيت مثل ما أوتي فلان فعملت مثل ما يعمل .
وعن عثمان رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: خيركم من تعلم
القرآن وعلمه .. وعنه رضي الله عنه في رواية قال: قال النبي ﷺ: ان أفضلكم
من تعلم القرآن وعلمه .

وعن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: إنما مثل صاحب
القرآن كمثل صاحب الإبل المعقلة^(١) ان عاهد عليها أمسكها وأن أطلقها ذهبت .
وعن عبد الله رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: بثما لأحدهم أن يقول
نسيت آية كيت وكيت بل نسي واستذكروا القرآن فإنه أشد تفصيلاً^(٢) من

(١) أي المشدودة بالعقال .

(٢) أي تفصيلاً .

من صدور الرجال من النعم^(١)؛ وعن أبي موسى رضى الله عنه عن النبي ﷺ قال: تعاهدوا القرآن فوالذى نفسى بيده هو أشد تفصييا من الإبل فى عقلها^(٢).
وعن أنس بن مالك رضى الله عنه أنه سئل كيف كانت قراءة النبي ﷺ فقال: كانت مدا ثم قرأ بسم الله الرحمن الرحيم بمد بيسم الله ومد بالرحمن ومد بالرحيم.
وعن أبي موسى رضى الله عنه أن النبي ﷺ قال له يا أبا موسى لقد أوتيت مزماراً من مزامير آل داود؛ وعن عبد الله بن عمرو رضى الله عنهما قال: أنكحى أبى امرأة ذات حسب فكان يتعاهد كنته^(٣) فيسألها عن بعلمها فتقول: نعم الرجل من رجل لم يطأ لنا فراشا ولم يفتش لنا كنفاً منذ أنيناه فلما طال عليه ذكر ذلك للنبي ﷺ فقال: القنى به فلقيته بعد، فقال: كيف تصوم فقلت كل يوم. قال فكيف تختم قلت كل ليلة قال صم كل شهر ثلاثة وقرأ القرآن فى كل شهر، قلت اطيق أكثر من ذلك قال صم ثلاثة أيام فى الجمعة قلت أطيق أكثر من هذا، قال: أفطر يومين وصم يوماً، قلت اطيق أكثر من ذلك قال صم أفضل الصوم صوم داود صيام يوم وافتار يوم وقرأ فى كل سبع ليال مرة.. فليتنى قبلت رخصة رسول الله ﷺ وذاك أنى كبرت وضعفت فكان يقرأ على بعض أهله السبع من القرآن بالنهار والذى يقرؤه يعرضه من النهار ليكون أخف عليه بالليل وإذا أراد أن يتقوى أفطر أياماً وأحصى وصام مثلهم كراهية أن يترك شيئاً فارق النبي صلى الله عليه وسلم عليه.

وفى البخارى عن أبى هريرة رضى الله عنه قال: قال النبي ﷺ، هاجر إبراهيم عليه السلام بسارة فدخل بها قرية فيها ملك من الملوك أو جبار من الجبابرة، فقيل: دخل إبراهيم بامرأة هى من أحسن النساء فأرسل إليه أن يا إبراهيم من هذه التى معك، قال: أختى ثم رجع إليها، فقال: لا تكذبى حديثى فانى أخبرتهم أنك أختى والله إن على وجه الأرض مؤمن غيرى وغيرك،

(١) أى الإبل .

(٢) جمع عقال .

(٣) أى زوجة ابنه .

فأرسل بها إليه فقام إليها فقامت توحياً وتصلي ، فقالت ؛ اللهم ان كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على الكافر ، فغط حتى ركض برجله . قال أبو هريرة ، قالت ؛ اللهم ان يمت يقال هي قتلتها ، فأرسل ، ثم قام إليها ، فقامت توحياً وتصلي وتقول ؛ اللهم ان كنت آمنت بك وبرسولك وأحصنت فرجى إلا على زوجى فلا تسلط على هذا الكافر ، فغط حتى ركض برجله ، قال أبو هريرة ، فقالت ؛ اللهم ان يمت فيقال هي قتلتها ، فأرسل في الثانية أو في الثالثة ، فقال ؛ والله ما أرسلتم إلى إلا شيطاناً ، أرجعوها إلى إبراهيم عليه السلام ، وأعطوها أجر فرجعت إلى إبراهيم عليه السلام فقالت ؛ أشعرت أن الله كبت الكافر وأخدم وليدة .

وفي البخارى أيضاً ؛ عن ابن عباس رضى الله عنهما ، قال ؛ أول ما اتخذ النساء المنطق من قبل أم إسماعيل اتخذت منطقاً لتعفى أثرها على سارة ثم جاء بها إبراهيم وبابنها إسماعيل وهى ترضعه حتى وضعهما عند البيت عند دوحه فوق زمزم فى اعلى المسجد وايس بمكة يومئذ احد وليس بها ماء فوضعهما هنالك ووضع عندهما جرابا فيه تمر وسقاء فيه ماء ثم قفى إبراهيم منطلقاً فتبعته أم إسماعيل ، فقالت ؛ يا إبراهيم أين تذهب وتتركنا بهذا الوادى الذى ليس فيه إنس ولا شىء ؟ فقالت له ذلك مراراً وجعل لا يلتفت إليها فقالت له ؛ آله أمرك بهذا؟ قال نعم ، قالت إذا لا يضيعنا ، ثم رجعت فانطلق إبراهيم حتى إذا كان عند الثنية حيث لا يرونه استقبل بوجهه البيت ثم دعا بهؤلاء الكلمات ورفع يديه فقال ؛ « رب إني أسكنت من ذريتى بواد غير ذى زرع عند بيتك المحرم ، حتى بلغ يشكرون » ، وجعلت أم إسماعيل ترضع إسماعيل وتشرب من ذلك الماء حتى إذا نفذ ما فى السقاء عطشت وعطش ابنها وجعلت تنظر إليه يتلوى ، أو قال يتلبط^(١) ، فانطلقت كراهية أن تنظر إليه فوجدت الصفا أقرب جبل فى الأرض يليها فقامت عليه ثم استقبلت الوادى تنظر هل ترى أحدا فلم تر أحد فهبطت من الصفا حتى إذا بلغت الوادى رفعت طرف درعها ثم سعت سعى الإنسان المجهود حتى جاوزت الوادى ثم أتت المروة فقامت عليها ونظرت هل ترى

(١) أى يتمرغ .

أحدا فلم تر أحدا ففعلت ذلك سبع مرات ، قال ابن عباس قال النبي ﷺ : فلذلك سعى بينهما ، فلما اشرفت على المروة سمعت صوتا ، فقالت : صد ، تريد نفسها ثم سمعت فسمعت أيضاً ، فقالت قد أسمعت إن كان عندك غوات فإذا هي بالملك عند موضع زمزم فبحث بعقبه أو قال بجناحه حتى ظهر الماء فجعلت تجوضه وتقول بيدها هكذا ، وجعلت تعرف من الماء في سقائها وهو يفور بعد ما تعرف . قال النبي ﷺ : يرحم الله أم إسماعيل لو تركت زمزم أو لو لم تعرف من الماء لسكنت زمزم عينا معينا ، قال فشربت وأرضعت ولدها فقال لها الملك : لا تخافوا الضيعة فإن هنا بيت الله بيني هذا الغلام وأبوه ، وإن الله لا يضيع أهله ، وكان البيت مرتفعا من الأرض كالراية تأتيه السيول فتأخذ عن يمينه وشماله ، فكانت كذلك حتى مرت بهم رفقة من جرم أو أهل بيت من جرم مقبلين من طريق كداء فنزلوا في أسفل مكة فرأوا طائرا عائفا ، فقالوا إن هذا الطائر ليدور على ماء لعهدنا بهذا الوادي وما فيه ماء فأرسلوا جريا^(١) أو جريين فإذا هم بالماء فرجعوا فأخبروهم بالماء فأقبلوا ، قال وأم إسماعيل عند الماء فقالوا أتأذنين لنا أن نزل عندك ، فقالت نعم ولكن لاحق لكم في الماء ، قالوا نعم ، قال النبي ﷺ : فالتى ذلك أم إسماعيل وهي تحب الأيس فنزلوا وأرسلوا إلى أهلهم فنزلوا معهم ، حتى إذا كان بها أهل آيات منهم وشب الغلام وتعلم العربية منهم وأنفسهم وأعجبهم حين شب فلما أدرك الحلم زوجته امرأة منهم وماتت أم إسماعيل ، فجاء إبراهيم بعدما تزوج إسماعيل يطالع تركته ، فلم يجد إسماعيل فسأل امرأته عنه ، فقالت : خرج يبتغي لنا ، ثم سألتها عن عيشهم وهيتهم ، فقالت : نحن بشر ، نحن في ضيق وشدة ، فشكت إليه ، قال : فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام وقولي له : يغير عتبة بابه ، فلما جاء إسماعيل كأنه آيس شيئا ، فقال هل جاءكم من أحد ، قالت نعم ، جاءنا شيخ كذا وكذا ، فسألنا عنك فأخبرته ، وسألني كيف عيشنا فأخبرته أنا في جهد وشدة : قال : فهل أوصاك بشيء ، قالت نعم ، أمرني أن أقرأ عليك السلام ويقول : غير عتبة بابك ، قال ذلك أبي ، وقد أمرني أن أفارقك ، الحق بأهلك فطلقها

(١) بوزن على ، أى رسولا .

وتزوج منهم أخرى ، فلبث عنهم إبراهيم ماشاء الله ثم أتاهم بعد فلم يجده فدخل على امرأته فسألها عنه فقالت : خرج يبتغي لنا ، قال كيف أتم ؟ وسألها عن عيشتهم وهيتهم ، فقالت : نحن بخير وسعة وأثنت على الله ، فقال ما طعامكم ؟ قالت : اللحم ، قال فما شرا بكم ، قالت الماء ، قال : اللهم بارك لهم في اللحم والماء ، قال النبي ﷺ : ولم يكن لهم يومئذ حب ولو كان لهم دعا لهم فيه . قال فهما لا يخلو عليهما احد بغير مكة إلا لم يوافقاه ، قال فإذا جاء زوجك فاقرئي عليه السلام ومريه يثبت عتبة بابه ، فلما جاء اسماعيل قال : هل أتاكم أحد ، قالت نعم ، أتانا شيخ حسن الهيئة وأثنت عليه فسألني عنك فأخبرته . فسألني كيف عيشتنا فأخبرته أنا بخير ، قال فأوصاك بشيء ، قالت نعم ، هو يقر أعليك السلام ويأمرك ان تثبت عتبة بابك ، قال ذلك أبي وأنت العتبة أمرني أن امسكك ، ثم لبث عنهم ماشاء الله ، ثم جاء بعد ذلك وإسماعيل يبرى نبلا له تحت دوحه قريبا من زمزم ، فلما رآه قام إليه فصنعا كما يصنع الوالد بالولد والولد بالوالد ، ثم قال يا إسماعيل : إن الله أمرني بأمر قال : فاصنع ما أمرك ربك ؟ قال وتعينني ؟ قال واعينك ، قال : فإن الله أمرني أن أبني ههنا بيتا وأشار إلى اكمة مرتفعة على على ماحولها ، قال فعند ذلك رفعوا القواعد من البيت فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني حتى إذا ارتفع البناء جاء بهذا الحجر فوضعه له فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله الحجارة وهما يقولان : ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم .

(٤)

ومن المفسرين في القرن الثالث أيضاً : علي بن أبي طلحة ، وابن ماجه الحافظ أبو عبد الله محمد القزويني المتوفى عام ٢٧٣ هـ ، وإبراهيم بن المنذر المتوفى عام ٢٣٦ هـ ، وأبو محمد سهل بن عبد الله التستري المتوفى عام ٢٨٣ هـ . وفي القرن الرابع : اشتهر من المفسرين أئمة أعلام ، منهم إمام المفسرين أبو جعفر محمد بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠ هـ صاحب التفسير الكبير المعروف باسمه ، وقال النووي النيسابوري الشافعي في تهذيبه : « كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله .

ومن مفسرى القرن الرابع أيضا ابن أبى حاتم عبد الرحمن بن محمد الرازى المتوفى عام ٣٢٧ هـ ، والشيخ ابن حبان البستى المتوفى عام ٣٥٤ هـ ، وأبو إسحاق الزجاج إبراهيم بن السرى النحوى المتوفى عام ٣١٠ هـ صاحب التفسير المشهور « معانى القرآن » ، وأبو على الفارسى المتوفى عام ٣٣٧ هـ ، وأبو بكر محمد بن الحسن المعروف بالنقاش الموصلى المتوفى عام ٣٥١ هـ ، وأبو جعفر النحاس المتوفى عام ٣٣٨ هـ ، وسواهم .

ومن علماء القرن الخامس فى التفسير : ابن مردويه أبو بكر أحمد بن موسى الأصفهانى المتوفى عام ٤١٠ هـ ، والإسكافى ، وأبو العباس أحمد بن عمار المهدي المتوفى عام ٤٣٠ هـ صاحب التفسير المعروف باسم « التفصيل الجامع لعلوم التنزيل » ، ومكى ابن أبى طالب القيسى النحوى المغربى المتوفى عام ٤٣٧ هـ ، وأبو مسلم الأصفهانى المتوفى عام ٤٥٩ هـ ، والقاضى أبو بكر الباقلانى المتوفى عام ٤٠٣ هـ ، وأبو الحسن الواحدى النيسابورى المتوفى عام ٤٦٨ هـ صاحب التفسير المعروف باسم « البسيط » ، وأبو القاسم الحسين بن محمد المشهور بالراغب الأصفهانى المتوفى فى رأس المائة الخامسة .

وفى القرن السادس الهجرى طارت شهرة الإمام أبو القاسم جارا لله الزمخشرى المتوفى عام ٥٣٨ هـ صاحب تفسير « الكشاف عن حقائق التنزيل » والحسين بن مسعود البغوى المتوفى عام ٥١٦ هـ ، صاحب التفسير المعروف باسمه ، ونظام الدين الحسن بن محمد القمى صاحب تفسير غرائب القرآن .

ومن أئمة المفسرين فى القرن السابع الهجرى الإمام نجر الدين الرازى المتوفى عام ٦١٠ هـ صاحب التفسير المسمى بمفاتيح الغيب وهو تفسير جليل ليس له نظير فى دقته واستيعابه ، والإمام البيضاوى المتوفى عام ٦٩٢ هـ صاحب التفسير المشهور ، وأبو البركات عبد الله بن أحمد النسفى المتوفى عام ٧٠١ هـ ، صاحب التفسير المعروف .

ومن علماء القرن الثامن الهجرى : الحافظ عماد الدين أبو الفداء إسماعيل ابن كثير القرشى الدمشقى المتوفى عام ٧٧٤ هـ صاحب التفسير المعروف باسمه

وأثير الدين أبو حبان محمد بن يوسف الأندلسي المتوفى عام ٧٤٥ هـ ، صاحب تفسير « البحر المحيط » ، وعلاء الدين بن محمد البغدادي المتوفى عام ٧٤١ هـ ، صاحب تفسير الخازن .

ومن علماء القرن التاسع الهجري : الجلال المحلي ، وبرهان الدين إبراهيم بن عمر البقاعي المتوفى عام ٨٨٥ هـ ، صاحب تفسير « نظم الدرر في تناسب الآي والسور » .

(٥)

ومن علماء القرن العاشر الهجري جلال الدين السيوطي المتوفى عام ٩١١ هـ ، والخطيب الشرييني صاحب التفسير الكبير المعروف باسمه ، والمسماة « السراج المنير » ، وقد جاء في مطلع تفسيره ما نصه : « ان الله جميل ذكره أرسل رسوله بالهدى ودين الحق رحمة للعالمين بشيراً للؤمنين ونذيراً للمخالفين ، أكل به تبيان النبوة وختم به ديوان الرسالة وأنزل عليه بفضله كتاباً ساطعاً صدقاً لما بين يديه من الكتب السماوية ، أعجز الخليفة عن معارضته وعن الإتيان بسورة من مثله في مقابله ، ثم سهل على الخلق مع اعجازه تلاوته ، ويسر على الألسن قراءته . وقد ألف أئمة السلف كتباً في معرفة أحكامه ونزوله ، فترددت في عمل شيء من ذلك مدة من الزمان خوفاً من الدخول في هذا الشأن لقوله ﷺ : من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ ، وقول سعيد بن جبير عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم من قال في القرآن برأيه وفي رواية بغير علم فليتبوأ مقعده من النار ، وقول أبي بكر رضي الله تعالى عنه لما سئل عن قوله ، وفاكهة ، فقال : أي سماء تظلي وأي أرض تقلني إذا قلت في كتاب الله ، الا أعلم ؟ إلى أن يسر الله تعالى لي زيارة سيد المرسلين في أول عام ٩٦١ هـ ، وقررت في وظيفة مشيخة تفسير في البهارستان ، فكتبت مقتصراً فيه على أرجح الأقوال ، واعراب ما يحتاج إليه عند السؤال ، وترك التطويل بذكر أقوال غير مرضية واعراب محلها كتب العربية وحيث ذكرت فيه شيئاً من القرآن فهو من السبع المشهورات . وقد اذكر بعض أقوال واعراب لقوة مداركها ، ولو رودها ، ولكن بصيغة قيل لي علم ان المرضي أولها ، وسميته « السراج المنير في الإعانة على معرفة بعض معاني كلام ربنا الحكيم الخبير » .

وللشهاب الخفاجي المتوفى ١٠٦٩ هـ حاشية كبيرة على تفسير البيضاوى .
وللشيخ رشيد رضا المتوفى عام ١٩٣٥ م تفسير المنار ، وهو مقتبس من آراء
الإمام محمد عبده ولم يتم هذا التفسير القيم المعداد من أشهر كتب التفسير
في العصر الحديث .

(٦)

وقد طبع - من التفاسير القديمة المخطوطة - في عصرنا الحاضر تفسير
الإمام القرطبي وهو تفسير كبير طارت شهرته في كل مكان ، وطبعته دار
الكتب المصرية طبعة متقنة ، ويعنى هذا التفسير بشرح الأحكام الشرعية
وطرق استنباطها من آيات كتاب الله وإقامة الأدلة عليها والرد على المخالفين ،
وتفصيل مذاهب الأئمة فيها .

وقد نشر الشيخ الحافظ التيجاني الجزء الأول من تفسير العلامة الأمير
عبد الله بن محمد بن عثمان بن فودى القرشى السوداني واسم تفسيره « ضياء
التأويل في معاني التنزيل » . وظهرت عدة أجزاء من تفسير الشيخ ابن عجيبة
المغربي المتوفى عام ١٢٢٤ هـ ، وقد قام بنشرها سبط الشيخ ، واسم تفسيره
« البحر المديد في تفسير القرآن المجيد » ، وابن عجيبة هو الشيخ أبو العباس
أحمد ابن عجيبة الحسنى
ومن التفاسير الحديثة تفسير محمد فريد وجدى ، ويسمى المصحف المفسر ،
وهو تفسير عصرى لطيف .

وقد ظهرت تفسيرات حديثة أخرى كتفسير حجازى ، وتفسير الشيخ
مخلاف ، وتفسير الشيخ عبد الجليل عيسى ، وأوضح التفاسير للأستاذ محمد
عبد اللطيف ، وتفسير الشيخ أحمد المراغى ، وسواها .

كما ظهرت كتب عديدة في شرح غريب القرآن ، ونشر حديثا كتاب
« البرهان في علوم القرآن » لبدر الدين الزركشى المصرى (٧٤٥ - ٧٩٤ هـ)
وتفسيرى هذا ما هو إلا قطرة من بحار علوم علمائنا الأعلام الخالدين .

(٧)

أما رسم المصحف الشريف وكتابه فقد ثارت معركة عليية عام ١٩٤٨

حول هذا الموضوع بمناسبة صدور كتاب «الفرقان» للأستاذ محمد عبداللطيف الذي ذهب فيه إلى كتابة المصحف طبقاً للهجاء الحديث ، وآراء أخرى حول القرآن وتدريبه وتلاوته وقراءته ، وترجمته ، وقد صدر الكتاب ورأت اللجنة المؤلفة من الأزهر الشريف أن رسم القرآن يجب أن يبقى كما هو حتى لا يختلف الناس في كتاب الله .

ورسم القرآن المعروف بالرسم العثماني ، في كتابة المصحف به ثلاثة آراء :
١ - رأى الإمام أحمد ، قال : نحرّم مخالفة خط عثمان في واو أو ألف أو ياء أو غير ذلك . وقال أبو عمرو الداني : لا مخالف لما حكى عن مالك من وجوب الكتابة على الكتابة الأولى من علماء الأمة .

٢ - رأى القاضي الباقلاني وابن خلدون وسواهما - أن رسم المصحف اصطلاحى لا توفيق ، وعليه فتجوز مخالفته . ذهب إلى هذا رأى ابن خلدون في مقدمته (١) ، ومن تحمس له القاضي أبو بكر الباقلاني في الانتصار ، إذ قال : وأما الكتابة فلم يفرض الله على الأمة فيها شيئاً ، إذ لم يأخذ على كتاب القراءان وخطاطى المصاحف ، رسماً بعينه دون غيره أوجبه عليهم وترك ما عداه ، إذ وجوب ذلك لا يدرك إلا بالسمع والتوقيف ، وليس في نصوص الكتاب ولا مفهومه أن رسم القراءان وضبطه لا يجوز إلا على وجه مخصوص وحد محدود لا يجوز تجاوزه ، ولا في نص السنة ما يوجب ذلك ويدل عليه ، ولا في إجماع الأمة ما يوجب ذلك ، ولا دلت عليه القياسات الشرعية ، بل السنة دلت على جواز رسمه بأى وجه سهل ، لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يأمر برسمه ولم يبين لهم وجهاً معيناً ، ولا نهى عن كتابته بغيره .

٣ - رأى الزركشى وصاحب التبيان وما يفهم من كلام العز بن عبدالسلام ، أنه يجوز بل يجب كتابة المصحف الآن لعامة الناس على الاصطلاحات المعروفة الشائعة عندهم ، ولا تجوز كتابته لهم بالرسم العثماني الأول ، لئلا يوقع

(١) صفحة ٤١٩ المقدمة .

في تغيير من الجهال ، ولكن يجب في الوقت نفسه المحافظة على الرسم العثماني
كأثر من الآثار النفيسة الموروثة عن سلفنا الصالح ، فلا يهمل مراعاته لجهل
الجاهلين ، بل يبقى في أيدي العارفين الذين لا تخلو منهم الأرض .
قال صاحب التبيان . . وأما كتابته (المصحف) على ما أحدث الناس من
الهجاء فقد جرى عليه أهل الشرق بناء على كونها أبعد من اللبس ، وتعاماه
أهل المغرب بناء على قول الإمام مالك ، وقد سئل : هل يكتب المصحف على
ما أحدث الناس من الهجاء ؟ فقال : لا إلا على الكتابة الأولى . وقال الإمام
العلامة الشيخ الزركشي في البرهان : قلت وهذا كان في الصدر الأول والعلم حي
غض ، وأما الآن فقد يخشى الالتباس ، ولهذا قال الشيخ عز الدين بن
عبد السلام : لا تجوز كتابة المصحف الآن على الرسم الأول باصطلاح الأئمة ،
لئلا يوقع في تغيير من الجهال ، ولكن لا ينبغي إجراء هذا على إطلاقه ، لئلا
يؤدي إلى دروس العلم .. وشيء قد أحكمه القدماء لا يترك مراعاة لجهل الجاهلين ،
ولن تخلو الأرض من قائم لله بحجته .

(٨)

وأخيراً فإني أحمد الله الكريم على توفيقه وفضله ، وتيسيره وعونه لي في
إصدار الجزء الأول من تفسيري للقرآن الكريم ، الذي أقدمه للقراء والعلماء
راجياً العفو عما يكون قد صدر مني من زلة أو هفوة ، وما توفيقي إلا بالله ؟

المؤلف

للمؤلف

- قصص الأدب في مصر - ٥ أجزاء
• • • الأندلس - ٥
• • • المعاصر - ٤
• الأزهر في ألف عام - ٢
• صور من الأدب الحديث - ٢
رائد الشعر الحديث - جزوان
أعلام الأدب في عصر بني أمية -
ابن المعتز وتراثه في الأدب والنقد والبيان - طبعة ثانية
الحياة الأدبية في العصر الجاهلي - طبعة ثانية
دراسات في الأدب والنقد
مع الشعراء المعاصرين
الذكر الحكيم
الشعر والتجديد
مواكب الحرية في مصر الإسلامية
في ظلال الإسلام - بالاشتراك

الفهرست

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
الآية الرابعة: مالك يوم الدين	٦٨	مقدمة	٤
الخامسة: العبادة والاستعانة	٦٨	تقديم	٧
أصلان عظيمان من أصول الإسلام	٦٩	تصدير	٩
الآية السادسة: الهدية والضوابط	٧٠	كتاب البشرية	١٣
معنى المغضوب عليهم والضالين	٧٠	نزول القرآن	١٤
اجمال للأصول العامة في السورة	٧١	سور القرآن	١٦
سورة البقرة	٧٣	جمع القرآن	١٧
تمهيد	٧٤	حروف القرآن	٢٠
شرح السورة	٧٥	آثار القرآن	٢٢
معنى الاستعاذة بالله	٧٥	فوائح سور القرآن	٢٤
معنى الشيطان	٧٦	مناهج المعرفة في القرآن	٢٦
سر الاستعاذة	٧٦	إعجاز القرآن	٣٠
فاتحة السورة (الم) والآراء في معناها	٧٦	آراء في الإعجاز	٣٦
القرآن وصفات المتقين	٨١	بلاغة القرآن	٤٢
القرآن لا ريب فيه	٨١	التحدى بالقرآن	٤٥
القرآن هداية عامة	٨٢	العرب ورايهم في الإعجاز	٥٠
الإيمان بالغيب	٨٣	سورة الفاتحة	٥٩
أداء الصلاة	٨٤	تمهيد	٦٠
الإحسان وأداء الزكاة	٨٤	شرح السورة	٦٢
الإيمان برسالات الأنبياء	٨٤	إجمال معاني السورة	٦٢
الإيقان بالآخرة	٨٥	الآية الأولى: البسملة	٦٣
صفات الكافرين	٨٥	لثانية: الحمد	٦٦
		الثالثة: الرحمن الرحيم	٦٧

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
هبوط آدم إلى الأرض	١٣٥	معنى الكفر	٨٦
توبة آدم	١٣٦	معنى «ختم الله على قلوبهم»	٨٧
دعوة اليهود إلى الإيمان بالإسلام	١٤٦	صفات المنافقين	٨٨
تذكير اليهود بنعم الله عليهم	١٤٩	الدعوة إلى الإيمان بالله وعبادته	١٠٤
إنقاذ الله لهم من عبودية فرعون	١٥٢	البشر ملزمون برسالة الإسلام	١٠٦
وعد الله لموسى بإنزال التوراة	١٥٦	الإيمان ليس ذلاً للمؤمنين	١٠٦
عبادة اليهود لتماثيل السامري	١٥٦	الله خالق الحياة والاحياء	١٠٧
نزول الوحي على موسى بالتوراة	١٥٧	التحدى بالقرآن الكريم	١٠٨
إنتقام الله من اليهود بعبادتهم العجل	١٥٨	بشارة الله للمؤمنين	١١١
لجاج بني إسرائيل	١٥٨	المثل في القرآن ودلالاتها	١١٤
و ١٨١ الغمام والمن والسلوى	١٦٠	عهد الله على عباده	١١٧
عصيان اليهود لأمر الله لهم بدخول بيت المقدس	١٦٠	الكفر عاروسبة على الإنسانية	١١٩
نقصيل قصة موسى مع فرعون	١٦١	مظاهر قدرة الله في السماء والأرض	١٢١
ومع بني إسرائيل	١٧١	خلق آدم	١٢٢
و ١٧٨ تفجر الصخر بالماء لموسى	١٧١	معنى الحوار القرآني هنا	١٢٤
بطر بني إسرائيل على نعم الله	١٧٢	١٢٥ و ١٣٠ حقيقة الملائكة	١٢٥
ضرب الذلة على بني إسرائيل	١٧٣	استخلاف الله لآدم في الأرض	١٢٦
نجاة من يؤمن بالإسلام من أهل الكتاب	١٧٤	تعليم آدم الأسماء كلها	١٢٧
و ١٨٠ عصيان اليهود ورفع الطور فوقهم	١٧٥	سجود الملائكة لآدم	١٢٩
اعتداؤهم في السبت	١٧٦	معصية إبليس	١٣١
		معنى السجود	١٣٢
		سكنى آدم الجنة	١٣٣
		و ١٤٠ معنى الشجرة التي أكل منها	١٣٤

الموضوع	صفحة	الموضوع	صفحة
شعب اليهود يخلق لنفسه العبقريّة	٢٢٢	معنى «كونوا قردة»	١٧٦
النسخ في القرآن الكريم	٢٢٦	قصة بقرة بنى إسرائيل وما فيها من عظات	١٨٢
جدل اليهود والنصارى حول الدين الحق	٢٣٠	جحود بنى إسرائيل وعنادهم	١٩١
الناجون هم المسلمون	٢٣١	اليأس من إيمانهم بالإسلام	١٩٢
العداوة بين اليهود والنصارى	٢٣٢	نفاق اليهود	١٩٤
الرد على مطاعن أهل الكتاب على الله والإسلام	٢٣٨	أمية رجال الدين اليهود وإضلالهم وتحريفهم للتوراة	١٩٤
تذكير اليهود مرة أخرى بنعم الله	٢٤٣	السخرية بمزاعم اليهود واقترانهم على الله	١٩٥
قصة إبراهيم وإسماعيل	٢٤٤	الناجون هم المؤمنون	١٩٦
أبناء إبراهيم بتوارثون الملك والنبوة	٢٥٣	٢٠٢ و ٢٠٢ كفر اليهود بشريعة التوراة	١٩٦
معنى ابتلاء الله لإبراهيم	٢٥٧	٢٠٣ و ٢٠٨ كفر اليهود برسالات السماء	٢٠٣
بناء البيت الشريف	٢٥٩	اليهود أعداء الله والحق والسلام وأحرص الناس على الحياة	٢٠٨
بشارة إبراهيم برسالة محمد	٢٦١	اليهود يعيشون في ذل دائم طول عصور التاريخ	٢١٢
أبناء إبراهيم بتوارثون رسالة التوحيد	٢٦٢	تمللات اليهود الباطلة ومعاذيرهم	٢١٥
الجنة ليست نهباً لكل مدع من أهل الكتاب	٢٦٦	كفرهم بالإسلام كفر بالتوراة	٢١٨
دعوة أهل الكتاب إلى الإيمان بالإسلام	٢٦٦	تلهيهم بالسحر والأساطير	٢١٩
الإسلام دين الفطرة الإنسانية	٢٦٨	تحذير وتبصير	٢٢١

صفحة	الموضوع	صفحة	الموضوع
٢٦٩	نفي لمزاعم أهل الكتاب	٢٨٦	طعن الجاحدين في القرآن
٢٧٠	أصول رفيعة	٢٨٧	أدلة وجود الله ظاهرة في السماء والأرض والإنسان
٢٧٢	إبراهيم نبي التوحيد	٢٨٧	آدم وقصته
٢٧٨	نظرة عامة في الجزء الأول	٢٨٨	حجاج القرآن لبني إسرائيل
٢٧٨	معجزة القرآن	٢٩٢	الكتاب المقدس يذكر كفر اليهود وعصيانهم
٢٧٩	المتقون والكافرون والمنافقون	٢٩٤	حد أهل الكتاب للمسلمين
٢٨٠	دعوة البشر جميعاً إلى الإيمان بالله والإسلام	٢٩٥	دلالة قصة إبراهيم وإسماعيل
٢٨١	آثار الله في السماء والأرض	٢٩٨	خاتمة هذا الجزء في جهود العلماء في تفسير كتاب الله
٢٨٥	الإيمان بالله ضروري لحياة الإنسانية		خلال العصور
٢٨٦	التحدى بالقرآن الكريم		

دار العهد الجديد للطباعة
كامل مصباح - تليفون : ٥٠٨٥٢